A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

إلى استاذنا الكريم بسعادة
الدكتور متى عقراوي، مشفوعة
بالاحترام والإكبار من المخلص
جميل سعيد
١٩٤٨/٨/١٧

892.7109
S132wA

الوصف في شعر العراق
وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين

تأليف
الدكتور
جميل سعيد
الاستاذ المساعد في دار المعلمين العالية ببغداد

مطبعة الهلال * بغداد

حقوق الطبع محفوظة لوزارة المعارف الجليلة

الطبعة الاولى

١٩٤٨

L155-16223

الى العلاّمة المرحوم طه الراوى

.... وكتبتَ الىّ يا سيدى أنْ مِلْ عن « ابن رشيق » وعن « النقد فى المغرب » الى بحث تخصُّ به العراق . وكتبتُ ، وطمعتُ ان تقرأ ، فاذا بك فى مقبرة معروف الكرخى ، واذا بى لا أملك غير أن أترحّم عليك . أيتها المقبرة الكريمة ، التى ما فتئتْ تثير رياح الذكرى فى جوانب هذه النفس فتبعث فيها الأحزان والحسرات ، على سكانك الرحمة ، ولهم الغفران والرضوان . وهل يملك الأحياء غير الدعاء للأموات !

جميل سعيد

حول موضوع الرسالة

هذه أول رسالة يقدمها طالب عراقي الى جامعة من الجامعات ، وتتفضل وزارة المعارف الجليلة ، فتطبعها على نفقتها في العراق . ولا يجمل بنا ونحن في هذا العصر الذي أخذت فيه الأمم تتفنن بادخال العلم الى أذهان افرادها ، فتغشّيه بالمغريات كما يغشى الدواء المر بالحلوى ، ان نخرج كتبنا بهذا الشكل الذي يباعد بينها وبين القارىء ، أو يجعلها ضريبة عليه . واني أرجو ألا يطول عهدنا في هذا بعد ان تأسست في وزارة المعارف مديرية التأليف والترجمة والنشر ، وبعد أن تأسس المجمع العلمي .

وهذه أول رسالة في العربية تبحث في أدب إقليم من الأقاليم العربية ، وتدّعي انه وحدة لها ميزاتها وخصائصها التي تمتاز بها عن الآداب في البيئات الاخرى ، ولا سيما بيئة الصحراء الجاهلية التي ظل الشعر العربي - في مختلف الأقطار العربية - ينظر اليها ويتعلق بها . وفكرة دراسة الادب على هذا النحو أخذ بها الغربيون من بعيد ، وكان استاذي الكريم الشيخ أمين الخولي أكثر الاساتذة الذين رأيتهم تحمساً لهذه

الفكرة ، وقد كان وما يزال يناضل في سبيلها ، وحسبك في الحد الذي وصلت اليه أن يكون في كلية الآداب بالقاهرة درس يسمى « درس الأدب المصري القديم » وآخر يسمى « الادب المصري الحديث » . على أن استاذي الجليل أحمد أمين بك ـ وهو الاستاذ الذي أشرف علي في اعداد هذه الرسالة ـ لم يغفل هذا الاتجاه في بحوثه القيمة ، وقد كانت اشارته الى أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية في اللغة والأدب ، في الفصل الذي كتبه في كتابه فجر الاسلام عن « الحياة العقلية للعرب في الجاهلية » على قصرها مناراً أضاء لي الطريق في بحثي هذا .

والفكرة هذه ـ ككل فكرة جديدة ـ سيتجه اليها الناس بنقدهم ، وقد يتجهون إليها بسخطهم وإعراضهم أيضاً . يتجه اليها الناس بنقدهم لانهم ألفوا دراسة الادب العربي ـ في شتى بقاع المعمورة ـ على أنه وحدة متراصة متماسكة ، يبحثونه من أقدم عصوره متخذين من الأحداث السياسية حواجز وحدوداً يقيمونها فيه ، فيقسمونه الى أدب جاهلي ، ثم أدب صدر الاسلام ثم أدب أموي ، وأدب عباسي وهكذا ... وقد درجوا على هذا ، واهملوا الاعتبارات الاقليمية ـ ولاسيما ما يخص البيئة الطبيعية منها . ولهم عذرهم في هذا لان الأدب الاسلامي ، ولا سيما هذا القديم منه ، ظل متصلا برجال السياسة ، وظل اكثره يدور على مديحهم او هجائهم ، وحسبك ان تفتح ما شئت من دواوين الشعراء الاسلاميين ،

فترى ان عناوين القصائد لا تكاد تخرج فيها عن المديح والهجاء ، اما بقية اغراض الشعر فهي ـ في الغالب ـ تابعة لهذين الغرضين .

اقول إن هذه الفكرة ستلقى معارضةً ونقداً ، وقد قدّرت هذا وأعددت نفسي له منذ ان طرحت هذه الرسالة للمناقشة . وقد هالني الا يثير اساتذتي الكرام جدلاً في هذا ، وان يجاوزوه مسرعين الى غيره ، على ان استاذاً كبيراً ـ كان في مقدمة المستمعين ، وكنت ارقب عليه ـ وانا الخص هذه الرسالة للحاضرين ـ امارات الالتفات ، ذلك هو الاستاذ الكبير ساطع بك الحصري ، الذي شرفني بمعرفته ، وتفضل فدعاني لزيارته بعد انتهاء المناقشة ... وزرته وكان حديث طويل دام اكثر من ساعتين أعلن فيه الاستاذ انه لا يوافق على هذه الدراسة الاقليمية التي دعوت اليها . وقد طلبت منه ، وانا اودّعه منصرفاً ، ان يأذن لي بنشر آرائه هـــذه ببعض المجلات او الجرائد ، فقال : « اريد ـ اذا ما فتحتُ الباب ـ ان افتحه بقوة » واني آمل ان يطلع سعادته قريباً على العالم العربي بآرائه القيمة في هذا الامر .

وبعض الناس قد ينفرون من هذه الفكرة ويتعصبون عليها ، لأنهم يرون ان البلاد العربية في هذه الآونة المباركة تحاول ان تلم شعثها ، وان تظهر للعالم انها وحدة يشد بعضها ازر بعض ، وقد يتوهمون ان الدعوة الى مثل هذا الأمر لا تلائم ما تسير اليه البلدان العربية الكريمة ـ فأنا

الى هؤلاء اقول إن هذه الوحدة لا تكون قوية ، إلا اذا عمل كل عضو فيها على تقوية نفسه في شتى نواحي الثقافة ، وإن اهتمام كل قطر بأدبه سيعود على الادب العربي عامة بالنفع الجزيل . أرأيتَ هذه الكتب العربية القديمة المبعثرة في مكتبات الدنيا : في لندن ، وباريس ، ومدريد وموسكو ، وغيرها من عواصم الارض ؟ إن أمر جمعها اوتصويرها امرٌ ليس بالسهل ، ولكنه يسهل لو اتجه كل اقليم الى جمع ما يخصه منها .

وامر آخر جدير بالاهتمام ، هو ان الأدب في كل بلد حلقات متصلة يتعلق لاحقه بسابقه ، ودراسة الادب دراسة اقليمية ستلقي لنا ضوءً على الآداب العربية في هذه الاقاليم ، وترينا الصلة بما سبقها . وقد يخيَّل اليك وانت تقرأ هذه الكلمة أننا نشتط فيما نقول ، ولكن هل جاءك ان الشعر العربي أصل اوزانه آشورية ؟ وانك تجد فيها البسيط ، والرجز ، والهزج ، والطويل ، وما اليها من الاوزان « الخليلية » التي تراها في الشعر العربي ؟

وهل جاءك ان اللغة الاشورية هذه ، كانت هي لغة السياسة في الشرق كله في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وانها كانت تؤلف رسائلها السياسية بشكل مسجوع ؟ وإذاً ألا يمكن ان يكون لانتشار السجع في القرن الرابع الهجري صلة في هذا ؟ إن الذي أرجوه من وزارة المعارف عندنا أن توجّه همها الى كل ما كتب عن العراق ، منذ أقدم عصوره الى الآن ، وأن

تبدأ أول ما تبدأ بما كتب عن السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين باللغات الأجنبية ؛ بالانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو غيرها ، فتعنى بجمعه وترجمته الى اللغة العربية ليكون سهل التناول على الباحث العربي . ولا أدري كيف سكتت عن هذا الأمر بعد أن تفضّل صاحب السمو الوصي وولي العهد المعظّم الأمير عبدالاله فأمر بتأليف لجنة تكتب تأريخ العراق ، وبعد أن تفضل فشرّفها برعايته . إن هذا الامر ليس بالأمر الهيّن السهل ، ولكننا نرى من اهتمام هذا البلد الكريم ما يطمعنا فيه . وإني أرجو ألا يكون بعيداً ذلك اليوم الذي تؤسس فيه الجامعة العراقية ، فترى فيها كرسياً للادب العراقي القديم وآخر للادب العراقي الحديث ، على نحو ما هو موجود في جامعة فؤاد الاول بالقاهرة ، كما نرجو مثل هذا لبقية الاقطار العربية الشقيقة .

واختم كلمتي هذه بأن أبعث التحية من العراق ، الى اساتذتي الأفاضل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول بالقاهرة ، وأخص منهم استاذي الجليل أحمد أمين بك الذي له في النفس ما لا توفّيه التحية ، ولا يوفيه الشكر والسلام .

جميل سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا بحث اقدمه في فن من فنون الشعر العربي هو فن الوصف ، وفي بيئة خاصة هي بيئة العراق .

ودراسة الشعر العربي ، بحسب فنونه ، دراسة جديدة على عهدنا هذا ، أخذ بها بعض اساتذتنا الكرام بيد بعض طلاب الدراسة العالية . ودراسة الشعر العربي دراسة إقليمية جديدة على عهدنا هذا أيضاً ، ذلك لأن الأدب العربي ظل مؤرخوه ينظرون اليه على انه وحدة ، ويدرسونه دراسة يجعلونه فيها تابعاً للحياة السياسية مرة ، وللفترات الزمنية اخرى . أما دراسته دراسة إقليمية فطارئة علينا ، ولا نعرف بحثاً كتب في العربية في أدب إقليم من الأقاليم ، وبحث على انه وحدة لها ميزاتها وخصائصها التي تمتاز بها على غيرها من البيئات والأقاليم الاخرى .

وكأن استاذي الجليل أحمد أمين بك أراد ان يجمع هاتين الفكرتين في موضوع واحد ، فاختار لي فن « الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين » فهو في هذا العنوان قد جمع هاتين الفكرتين

وأراد بحثهما في أخصب عصـــور الامة العربية : في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ومع اني عراقي ، والمرء أعرف ببيئته : لأن الـــكثير من العادات الاجتماعية ، التي تعمل في نفوس أهل الاقليم الواحد اليوم قد انحدرت اليهم من أقدم العصور ، وظلت هي هي مع اختلاف يسير في طلائها أوشكلها ، أما بيئة الأقليم الطبيعية فهي ثابتة ، وإن تغيرت فبعض الشيء . أقول مع انني عراقي ، ومع ان استاذي الجليل ـ الذي قتل هذه الفترة في العراق بحثاً وأخرج فيها كتبه للناس ، وعرف عنها ما لم يعرفه عنها أهلها ـ ظل رائدي في بحثي وظللت أركن الى كتبه القيمة وآرائه السديدة ، مع كل هذا فقد لقيت في بحثي هذا عناءً تفنيني معرفة اساتذتي الكرام به عن وصفه . ذلك لأن هذه الموضوعات التي كتبت فيها كلها ـ أوجلها على الأقل ـ جديد . لقد بحثت أثر بيئة العراق الطبيعية في شعر العراق وشعرائه ، ولا أعرف بحثاً في العربية كتب عن بيئة من البيئات الاسـلامية يبحثها ويبحث أثرها في أهلها وفي أدبهم . أما بقية بحوث الكتاب ـ إذا استثنينا منها شعر الطبيعة ـ فكلها جديد ، وكل بحث منها يستحق ان يفرد له كتاب . واني آمل ان تلفت رسالتي هذه بعض الباحثين الى بحث هذه الموضوعات ، فهي أجدر ان يقوم بها جماعة من ان يقوم بها فرد واحد .

وقد جعلت وجهة بحثي بيان ما تمتاز به بيئة العراق النهرية على غيرها ، ولم اعن كثيراً بهذا الشعر التقليدي الذي يضيع أثر البيئة وأثر الشخصية معاً .

أما مراجعي في البحث فكانت دواوين الشعراء وبعض المنتخبات الشعرية ، وبعض الكتب التي أشرت اليها في حواشي الصفحات . على أن أهم من هذا كله هو ما استفدته من توجيهات اساتذتي في سنيّ الدراسة نحو فكرة البيئة او الاقليمية وأثرها في الأدب .

وليس لي ـ وأنا اقدم هذا البحث ورقة امتحان ـ ان أطريه ، ولا أن اطرى فضل اساتذتي ـ وهم الذين يمتحنوني ويقدرون جهدي به ـ في توجيهي . على ان هذا لا يمنعني أيضاً أن أقول إنني أعتز بهذا البحث الجديد الشاق الذي قمت به ، واني يملأ نفسي سروراً ان أراه يقرؤه وينقده هؤلاء الاساتذة الكرام ، الذين ان يكن لي شيء افخر به في مستقبل أيامي فهو أنني تتلمذت لهم وأخذت عنهم .

الوصف

كيف نظر اليه العرب

وكيف نظر اليه الغربيون

ان العواطف والانفعالات متداخلة متشابكة بعضها ببعض ، وقد عزّ على علماء النفس ان يظفروا بقاعدة يستطيعون ان يفصلوا بها بين مظاهر الوجدان فصلاً دقيقاً واضحاً . هذا التداخل والتشابك في العواطف والانفعالات ، سبب تداخلا وتشابكاً في فنون الشعر التي نتجت عنها . وقد حار النقاد حيرة العلماء النفسيين حين حاولوا تقسيم الشعر الى فنونه ، والى فصل هذه الفنون بعضها عن بعض فصلاً دقيقاً واضحاً . وقد اتجه نقاد العرب ـ قدماؤهم ومحدثوهم ـ في هذا الأمر وجهتين: عمد بعضهم الى الانفعالات والعواطف وحاول الفصل بينهـــا ، ثم جعل الشعر فنوناً وأقساماً تلحق بهذه العواطف باعتبارها ناجمة عنها ، وذهب آخرون مذهبـــاً آخر ، فنظروا الى ما بين أيديهم من الشعر وحاولوا تقسيمه الى موضوعات تختلف باختلاف ما يثيره في أنفس الســـامعين من عواطف وانفعالات .

وكان ابن قتيبة من الذين اتجهوا الوجهة الاولى. قال في كتابه الشعر والشعراء [١] « وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف ، منها الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع ومنها الغضب ». وتابعه ابن رشيق ـ وهو أشهر نقاد العرب الذين اتجهوا هذه الوجهة ـ فقال في كتابه العمدة « قواعد الشعر أربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب » وقد حاول عبثاً ان يرد الى هذه العواطف والنزعات فنون الشعر كلها ، فأغفل باب الرثاء مثلاً ـ وهو من أشهر أبواب الشعر العربي ، وأغفل باب الوصف ولم يدر أين يضعهما في تقسيمه هذا .

وكان قدامة بن جعفر من الذين اتجهوا الوجهة الثانية ، فقسم الشعر الى : المديح ، والهجاء ، والنسيب ، والمراثي ، والوصف ، والتشبيه [٢] . على ان قدامة وان قسم الشعر هذا التقسيم فانه لم يدّع انه أتى على أبواب الشعر وأغراضه بحصرها بهذه الفنون ، بل اعترف ان أقسام المعاني التي يدل عليها الشعر أكثر من ان يحيط بها حصر أو عد ، وان هذه الأقسام التي قال بها إنما هي أكثر الأقسام التي يدور ويحوم حولها الشعر .

وذهب هذا المذهب في التقسيم علي بن عيسى الرماني فقال : « أكثر ما تجري عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف [٣] » .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨ (٢) نقد الشعر ص ١٧

(٣) العمدة لابن رشيق طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ ١/٧٨

وكما اضطربوا في حصر العواطف والفنون الشعرية اضطربوا في تحديد كل عاطفة وتحديد كل فن . فهم وان لاحظوا ان الحماسة مثلا تنبعث عن الغضب أو الطموح ، وان الرثاء ينبعث عن الحزن أو الوفاء ، وان النسيب ينبعث عن المحبة أو الغزل ، وان الوصف ينبعث عن الاعجاب ، وان المدح ينبعث عن الاجلال والاكبار والاحترام ؛ فقد لاحظوا أيضاً ان الحزن مثلا ـ وهو العاطفة التي خصوا بها الرثاء ـ يدخل مع الغضب ويمازجه ، وكذلك شأنه مع الحب . وكذلك أمر الاعجاب والاجلال والمحبة فانها يداخل بعضها بعضاً حتى يصعب القول في التمييز بينها .

وكما يصعب تحديد كل عاطفة من هذه العواطف ، يصعب تحديد كل فن من فنون الشعر . وكثيراً ما حار النقاد في القصيدة الواحدة فوضعها بعضهم في باب المديح ووضعها بعضهم في باب الحماسة ، بل كثيراً ما حاروا في القصيدة بين المدح والنسيب على بعد ما بين هذين الفنين . بل حاروا في وضع القصيدة بين الهجاء والغزل (١) .

وربما كان فن الوصف أكثر الفنون الشعرية استعصاءً على النقاد . لقد حاروا (٢) في تعريفه واختلفوا وأشركوه في كل فن من فنون

---

(١) انظر هجاء العرجي لمحمد بن هشام في الأغاني طبعة دار الكتب ١/٣٨٦ ، ٤٠٤ .

(٢) انظر كتاب نقد الشعر لقدامة وكتاب الاسلوب لاستاذنا الشايب .

الشعر ؛ أشركوه في المديح والهجاء والرثاء والغزل والعتاب والى ماهنالك من الفنون الشعرية .

واذا قلنا إن نقاد العرب قديماً وحديثاً اضطربوا في تقسيم الشعر الى فنونه ، واضطربوا في تقسيم العواطف ومظاهر الوجدان ، فلسنا نزعم ان هذه العواطف وهذه الفنون الشعرية مما لا يمكن تقسيمها ، أو انها واحدة ، ولكن الذي نريده هو ان الدقة العلمية والضبط العلمي يخوناننا في هذا الأمر ، ومع ذلك فاننا سنحاول تحديد هذا الفن بما في الوسع والطاقة .

يقول ابن رشيق : « أصل الوصف الكشف والاظهار ، ويقال قد وصف الثوب الجسم أي نمّ عليه ولم يستره ، ومنه قول ابن الرومي :

اذا وصفت مافوق مجرى وشاحها غلائلها ردت شهادتها الازر

هذا هو الوصف لغوياً ، أما معناه الاصطلاحي أو الفني فقد عرّفه قدامة بقوله : « الوصف انما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ... » ونحن نلحظ ان تعريفه هذا غامض غاية الغموض ، ولولا انه سبق ان قال إن أغراض الشعر هي المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف ... » لقلنا إن الوصف في تعريفه هذا ـ يشمل كل شيء . ولكنه بعد ان تكلم عن هذه الأغراض ، نستطيع ان نضيق دائرة تعريفه وان نقول : ان الوصف غير المديح وغير الهجاء وغير النسيب وغير

المراثي. وقد لاحظ هو شمول تعريفه هذا فحاول ان يحدد موضوع الوصف بما أورده من شواهد وأمثلة. فأورد مثلا في وصف السيل عند انقلاع السحاب، وأورد مثلا لوصف حالة القوم في الحرب عند الجلاد، وأورد أمثلة في وصف آثار الابل وطردها، وفي وصف الغناء الحسن وأثره في السامعين. وفي وصف الفرس، ووصف سنابك الخيل ووقعها في الأرض (١).

ونحن نرى انه في أمثلته هذه حاول ان يبتعد عن المديح والهجاء والنسيب والمراثي ما وسعته المباعدة، وحاول ان يجعل الوصف يشمل هذه الموضوعات التي جاء لها بالأمثلة أو ما هو قريب منها. وعلى ضوء ما أورده قدامة من تقسيم الشعر الى أغراضه، وعلى ضوء ما أورده من الأمثلة في الوصف نستطيع ان نتعرف الوصف وان نميزه بالنسبة لغيره من الفنون الشعرية.

ويلوح لنا ان قدامة ـ على انه عاش في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع ـ كان ينظر في تحديد موضوعات الشعر الى الشعر الجاهلي أو الى الشعر القديم. ونراه اتخذ أمثلته كلها من البيئة الجاهلية أو مما هو قريب منها. ولو نظر الى ما حوله من الشعر لما تردد في ادخال وصف القصور والبرك ووصف السفن ووصف الطعام واللباس والموائد ووصف الكتابة وأدواتها، وامثال هذه الموضوعات التي حدثت في عصر قدامة

(١) نقد الشعر ص ٤١ ـ ٤٢

ولم تكن قد دارت في الشعر الجـــاهلي القديم . ونحن اذا أضفنا هذه الموضوعات الوصفية الى ما أورده قدامة من الأمثلة استطعنا ان نحدد الوصف في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وان نحدده بموضوعاته ومظاهره لا بتعريفه .

وقد سلك بعض الادباء والشعراء الطريق الذي سلكه قدامة بأن جمعوا الشعر ورتبوه بحسب فنونه ؛ فقد جمع ابو تمام مجموعة من الشعر سماها « الحماسة » وسمى باباً منها « باب الصفات » . وما يحويه هذا الباب من الموضوعات لا يبعد عما أورده قدامة من أمثلة في باب الوصف . وسلك حمزة الاصفهاني في ترتيب ديوان ابي تمام هـذا المسلك فرتبه في سبعة أبواب وجعـــل باب الوصف أحدها وكذلك فعل في ترتيب ديوان ابي نؤاس .

وظلت هذه النظرة هي السائدة في الترتيب لكثير من المنتخبات الشعرية حتى أن البارودي رتب كتابه « مختارات البارودي » على سبعة أبواب جاعلا باب الصفات أحدها . وظل الناس ينهجون هذا النهج في تقسيم الشعر الى اليوم ؛ حتى أن استاذنا الشايب لم يجد بداً حين أراد أن يذكر الفنون الشعرية ليتحدث عن خواصها الاسلوبية من أن يقسمها الى الحماسة ، والنسب ، والرثاء ، والمديح ، والهجاء ، والوصف (١) .

---

(١) تنظر الطبعة الثانية من كتاب الاسلوب طبعة مكتبة النهضة المصرية من ص : ٦١ ـ ٧٢

أما الغربيون فالتعبير عندهم لا يعدو أسلوبين اثنين هما : وصف وقصص . وعندهم أن الوصف لا يتضمن الموضوعات الحسيّة التي تلائم التصوير وتشمل الطبيعة والانسان ، وما يتصل بالحياة الانسانية من آثار ومتاع ، ولكنه يتضمن الموضوعات الروحية والمعنوية أيضاً ويتخذ من الأخلاق والعادات والعواطف والآمال والآلام ، كما يتخذ من كل ما يختلج في الفكر ويضطرب في النفس ويخطر في الضمير موضوعاً له . أما تحديد موضوعاته فيقول الاستاذ Genung (١) عنه: « نقول بصراحة إنها لا تحد » وكل الذي يستطيعه في أمر تحديدها هو أن يقول : إنها تشمل الموضوعات التي يُتحدث فيها عن الجمال كما يشمل الموضوعات العملية أو النظرية التي يرغب فيها الى معرفة الحقائق صرفة ، غير ممزوجة في الخيال . ومع انهم حاولوا تقسيم التعبير الى وصف وقصص ، فان هذا التقسيم — على قلة تشعبه — لم يستقم لهم ولم يمكنهم من تحديد اصوله وضبطها ضبطاً دقيقاً حتى اضطروا أن يقولوا : « إن الوصف وثيق الصلة بالقصص ... وإن بعض الموضوعات يتحد فيها الوصف والقصص وتمتزج عناصرهما امتزاجاً يصعب معه القول : أيّ الفنين قد تسلط على صاحبه وساد ، وأيهما أصبح أصلا وأيهما أصبح تبعاً او فرعاً . فوصف العاصفة ووصف المعركة الحربية ، ووصف شروق الشمس او غروبها

---

(١) ينظر باب الوصف في كتاب : The Working Principles of Rhetoric – Genung

يضطر الواصف الى تتبع المنظر في وصفه وهو يتغير ويتبدل ، واخيراً يختلط الأمر في مثل هـذه الموضوعات حتى لا يُدري أتوضع في باب القصص لأن عنصر القصة هو الغالب عليها ، أم توضع في باب الوصف ، لأن عنصر الوصف هو الغالب عليها ؟

وإذا رأينا هـــذا علمنا أن النقاد الغربيين قد اضطربوا اضطراب نقاد العرب . ومع انهم حاولوا بسط موضوع الوصف وتوسيعه فانهم لم يستطيعوا أن يضبطوه بحد واضح دقيق .

ونحن لا نطلب من الموضوعات الأدبية أن تخضع للدقة والتحديد والضبط ، فان هذا أكثر ما يكون في العلم ، وقلّ ما يكون في الأدب .

صلة الوصف
بالفنون الشعرية الاخرى

ويندر أن نجد فناً قولياً سواء أكان ذلك في الشعر أم النثر ولا نرى الوصف يتخلله ويساهم فيه . فنراه يدخل في المقالة والمقامة والرواية والقصة والمناظرة والجـــدل ، ونراه يدور في كتب التاريخ والجغرافيا ، بل وفي كتب العلوم الاخرى . على اننا لا يعزب عنا أن الوصف ـ في الغالب ـ إنما يستخدم ويدور في هذه الكتب لا من أجل الوصف نفسه ، ولكن من أجل توضيح او تفسير حقيقة اخرى يكون الوصف عنصراً هاماً في تقريبها الى الذهن . وليس من شأننا أن نبحث في علاقة الوصف بكل فن من هذه الفنون ما دام الوصف في الشعر هو غرضنا من موضوعنا هذا الذي نريد بحثه .

إن الوصف أكثر صلة بالفنون الشعرية منه بالفنون النثرية حتى يندر أن نجد فناً من فنون الشعر خالياً من الوصف .

ففي المديح كثيراً ما ينعت الشعراء جسم الممدوح ويطرون حسن خلقته ويتخذون ذلك وسيلة للمدح ، وكثيراً ما يصفون بيته ولباسه

وسلاحه وخيله ، ويصفون المعارك التي خاضها ويتخذون هـــذا كله سلّماً او واسطة للمدح أيضاً . وهذا ما نراه كثيراً في شعر البادية . ونجد شعراء الحاضرة ـ شعراء العراق مثلاً ـ كثيراً ما يصفون حدائق الممدوح وقصوره وخيله وسفنه ، ويصفون مجالس شرابه وكؤوسه ويتخذون من هذا كله سلّماً الى المديح . بل قد نرى الوصف كثيراً ما يحتل مقدمة القصيدة ويكوّن الجزء الكبير منها ، ثم تختم القصيدة بأبيات قليلة في المدح ، مع أن المدح هو السبب الذي انشئت القصيدة من أجله . ونحن نرى الجاهليين ومن لفّ لفّهم من الشعراء الاسلاميين كثيراً ما يصفون الناقة التي ركبوها الى الممدوح ، ثم يشغلهم الوصف عن مديحهم فيروحون يصفون خلقتها وسيرها في الطريق ويشبهونها بحمار الوحش ، وقـــد يشبهونها بحمار الوحش تطارده كلاب الصيد . ويروحون يستقصون أوصاف كلاب الصيد هذه ، وأوصاف الحمر الوحشية ليقولوا إن الناقة التي ركبوها هي مثل هذه الحمر جرياً وسرعة . وقد تتداعى في نفوسهم المعاني فيصفون الطريق ومنعرجاته ، وما به من مياه ويصفون الزمن الذي قطعوه فيه ، وأغلب ما يكون ذلك عندهم وقت الهاجرة ، ليكون ذلك أدعى الى التعب والجهد ، او يكون ذلك في الليل ، وقد يضطرهم الليل الى وصف بعض الحيوان المفترس الذي يدّعون انهم شاهدوه في طريقهم ، وقد يصفون مقاومتهم لهذا الحيوان

ـ هـــذا كله وكثير غيره نجده عند شعراء البادية ومن لف لفهم من الشعراء الاسلاميين .

وفي شعر العراق نرى الشعراء يركبون الى الممدوح سفينة بدلاً من الناقة ، ويروح هؤلاء الشعراء يقارنون هـذه السفينة بالناقة ، ويصفون سيرها واضطرابها في الماء ، وقد يدّعون ان الريح كانت عاصفة حين ركبوا الماء الى الممدوح ، ويروحون يصفون البحر والموج واضطراب السفينة فيه . ونجد هـذا كثيراً في شعر ابن الرومي والسرى الرفاء ومهيار الديلمي وغيرهم .

والهجاء لا يسلم من الوصف وإن كان الوصف فيه أقل من المديح على اننا كثيراً ما نجد الهجاء وصفاً كله ، كالذي نراه في شعر الشعراء يتعرضون لحلقة المهجو يعبثون بها . وربما كان الشاعر ابن الرومي أكثر الشعراء الذين عرفناهم استخداماً للوصف في الهجاء ، فكثيراً ما يعمد الى عضو من أعضاء المهجو فيصفه ويعبث بصاحبه من هذه الناحية ، كالذي فعله في انف عمرو[1] النصراني وصاحب اللحية وغير ذلك. وكثر الوصف في الهجاء في العصر العباسي الثاني حتى تسلط عليه . ونرى هجـــاء القيان والمغنين والمغنيات والسقاة والساقيات لا يكون إلا بوصف أجسامهن[2] او ما يتصل بها .

---

(١) ديوان ابن الرومي ، اختيار وتصنيف كامل كيلاني طبعة مطبعة التوفيق الأدبية ص ٢٤٠ ، ٢٨٦ ـ ٢٨٧

(٢) ينظر من نفس المصدر ص ١١ ، ٧١ ، ١٠٥ ، ٣٥١ ، ٤٢٧

والنسيب لا يخلو من الوصف ، وواضح أن كثيراً من النسيب العربي يدور حول وصف جسم المعشوق وتشبيه أعضائه بما يقربها الى ذهن السامع ، وكثيراً ما وصف الشعراء معاهد الأحبة واطلالهم ووصفوا فعل الرياح الهابة بها ، ووصفوا البروق اللامعة والحمائم الهاتفة ، ووصفوا الوديان والجبال التي حلتها الأحبة ، ووصفوا الرحيل ـ واتخذوا من هذا كله سبيلاً الى الغزل .

والرثاء لا يخلو من الوصف أيضاً ، وقد قال قدامة « ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه هالك مثل كان وتولى ، وقضى نحبه ، وما أشبه (١) » وربما كان هذا الرثاء الذي يقوله الشعراء والذي قال عنه قدامة هكذا ، يقولونه لا لجزع في أنفسهم على الميت وإنما يقولونه كما يقولون المديح ، يلتمسون فيه الأجر من أهل الفقيد وذويه . على أن الرثاء الحزين الذي يقوله الشعراء حين ينكبون بأصدقائهم أو ذويهم لا يسلم من الوصف أيضاً ، فكثيراً ما يصفون حالهم ساعة سماع النعي وكثيراً ما يصفون أيام صفائهم مع الميت يوم كان حياً ، وكثيراً ما يصفون حال أهله أو من يلوذ به .

أما الحماسة والفخر ، فكلها وصف للحرب والسلاح والمعارك ، والكر والفر ، وفيها وصف الانتصار ووصف الهزيمة .

---

(١) نقد الشعر ص ٣٣

وأخيرا نقول إننا لا نعرف فناً من فنون الشعر يخلو من الوصف وهذا ما دعا ابن رشيق أن يقول : (١) « الشعر إلا أقلّه راجع الى باب الوصف » ونظر في هذه الأبواب فأعجزته الاحاطة بها واكتفى بأن قال : « ولا سبيل الى حصره واستقصائه » .

واستاذنا الشايب مع أنه عدّ الوصف فناً من الفنون الشعرية كما عدّ الحماسة والنسيب والرثاء والمديح والهجاء ، عاد فقال (٢) « وفوق ذلك لا يخلو فن من الوصف فهو في الحرب حماسة وفي الجمال نسيب ، وفي الفضائل مديح ، وفي الحزن رثاء وهكذا نجـــد الشعر إلا أقله راجعاً الى باب الوصف » .

واذا كان هذا أمر الوصف في نظر النقاد العرب وقد ضيقوا دائرته ، فما بالك به عند الغربيين ، وقد نظروه بأوسع وأعم مما نظره النقاد العرب ؟.

يقول الاستاذ Genung (٣) « إن الوصف يتخلل كل الفنون والأساليب الأدبية » ويقول : « إننا نقول بصراحة إن الحالات التي يستخدم فيها الوصف ويكون هو السائد لا تحد ... »

---

(١) العمدة الطبعة الاولى طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ ٢/٢٢٧

(٢) كتاب الاسلوب طبعة مطبعة النهضة المصرية ص ٨٣

(٣) The Working principles of Rhetoric. By Genung

باب الوصف .

الوصف والرسم

والوصف شبيه بالرسم وليس بينهما من فرق إلا أن الشاعر الوصاف يستخدم الألفاظ اللغوية فيجعلها تقوم مقام ريشة الرسام. فهو بفنه الوصفي، يرينا أن بعض الألفاظ تقوم بالتصوير، على حين تقوم الاخرى بتلوين المنظر وتوزيع الضوء والظل عليه، وهكذا يستعيض بالألفاظ عن الريشة والأصباغ.

وأمر آخر يختلف فيه الوصف عن الرسم، ذلك أن الناظر الى المنظر المرسوم يراه دفعة واحدة، فيفعل هذا المنظر في نفسه فعل المنظر الحقيقي، بل قد يفعل المنظر المرسوم أكثر من فعل المنظر الذي نُقل عنه؛ ذلك اذا كان الرسام قد وهب حاسة فنية تباعد بينه وبين التقليد وتجعله يسبغ على المنظر المرسوم شيئاً من روحه وفنه هو، وهكذا ينظر الناظر الى المنظر المصوَّر، فيرى فيه المنظر الحقيقي الذي نقل عنه مضافاً اليه شعور الرسام الذي رسمه. وقد يتأثر الناظر بشعور الرسام أكثر من تأثره بالمنظر الحقيقي. وهذا هو الذي يجعلنا كثيراً ما نعجب بالصورة أكثر من إعجابنا بالأصل؛ إننا نرى صورة الشحاذ، مثلاً فتستفزنا ونقف محملقين فيها، وكم من شحاذ نراه في الطريق فلا نلتفت اليه ولا نأبه له.

والوصاف لا يستطيع أن يعرض المنظر دفعة واحدة على العين كما يعرضه الرسام ، ولكنه يتناوله بالألفاظ شيئاً شيئاً وجزءً جزءً ، وأكثر ما يتفاوت به الشعراء هو عرض أجزاء المنظر الموصوف وأيها يُبدأ به أولاً وأيها آخراً ، وأيها يُتحدث عنه ، وأيها يُكبت في النفس ويُترك . والشعراء في هذا يتفاوتون ، فبعضهم يصف بأن يحدق في المنظر ثم يعمد الى نقطة يراها نواة المنظر ، او قلبه ، فيتحدث عنها ويترك خيال القارئ أو السامع يحوم حول هذه النقطة ، ويروح يتابع وصف أجزاء المنظر بأن يحوك التفصيلات الاخرى حول قلبه ، ويظل هكذا حتى ينتهي من وصفه ، ويبدو للقارئ أن الصورة قد استوعبت كما لو عرضت عليه كلها دفعةً واحدة ، وكما لو رأى الصورة مرسومة بريشة الرسام لا بألفاظ الشاعر الوصاف .

وقد يعمد الشعراء الوصافون الى غير هذا الطريق فلا يعنون بجزئيات الموصوف ، ولا يشيرون الى تفصيل الأجزاء الصغيرة منه . وقد فعل هذا امرؤ القيس حين وصف حصانه في معلقته ، فقد اكتفى عن وصفه الجسماني بكلمة واحدة هي كلمة « هيكل » وترك هذه الكلمة توحي الى القارئ أو السامع هيئة الفرس ، بل ترك خيال القارئ أو السامع يحوم حول هذه الكلمة ، ويتصورها كما تُخيلها اليه حياته ومعاشرته للخيل . ولست في معرض القول الآن في أي الطريقين خير

من صاحبه ولا في أي الشاعرين خير من صاحبه .

واذا قلنا إن المنظر يعرضه الرسام قد يفعل في نفس المشاهد ما لا تفعله صورة المنظر التي نقل عنها ، فاننا نستطيع أن نقول مثل ذلك عن الشاعر ؛ إنه يصف المنظر مضافاً اليه شعوره وإحساسه فيه . ومن هذا الضرب قصيدة ابن الرومي في وصف البصرة حين خربها الزنج ، وقصيدة البحتري في بركة المتوكل ، وقصيدة الشريف الرضي في حرب الحسين ومصرعه . والقصائد الوصفية التي توحي لنا هذا الايحاء في الشعر العربي أكثر من أن نستطيع إحصاءها .

ويختلف الوصف عن الرسم بأن الألفاظ تفعل في النفس ما لا تفعله الألوان والخطوط . ذلك أن الشاعر يستطيع ـ بما للألفاظ من وحي ـ أن ينقل السامع أو القارىء ويرجعه بخياله الى مئات السنين . وقد تثير كلمة واحدة في ذهن السامع ما لا تسعه المجلدات الكثيرة . فكلمة « المها » مثلاً يسمعها السامع فتثير في نفسه ما لا يحصى من الصور حولها ، وكذلك الأمر في كلمة « طلل » وكلمة ـ « هوى » وغيرها . وهذه ميزة يملكها الشاعر الوصاف ولا يملكها الرسام .

أثر البيئات والثقافات فى الوصف

وللبيئة والثقافة أثرها في الوصف ، والشاعر الوصاف إنما يستعير القطعة الوصفية من بيئته ومحيطه ، وتشبيهاته واستعاراته إنما يستمدها من محيطه وبيئته أيضاً ، ونظرته الى الموضوع الموصوف ـ ولا سيما في هذا الوصف الذي يخلط به الشاعر نفسه ، ويُفيض عليه من عقليته وثقافته حياة ـ تكون وثيقة الصلة بحياة الشاعر وعاداته وتفكيره .

ونحن حين نعرض للوصف الجاهلي نراه صورة صادقة لحياة الصحراء وبيئتها ، وكذلك الأمر حين نعرض لوصف الشعراء الحضر ـ ولا سيما هؤلاء الذين جنحوا الى التجديد وبعدوا عن التقليد ـ فانا نراهم إنما يشتقون أوصافهم من محيط المدينة وبيئتها وحياتها ؛ نرى في الشعر الجاهلي وصف الطبيعة بسمائها ونجومها ورياحها ورعدها وبرقها وأمطارها وسيولها ، ونرى وصف نبات الصحراء وزهرها ؛ ففيها الخزامى والبهار والحنوة والعرار وما الى ذلك ، ونرى وصف حيوان الصحراء ؛ وقد أكثر العرب من وصف خيولهم وجمالهم وملأوا شعرهم بوصف الظباء وحمر الوحش ، وكثر حديثهم عن مفترس الحيوان كما كثر وصفهم للصيد وحيواناته . وقد كثرت الحروب والغارات في بيئتهم فكثر عندهم وصف ، السلاح وما اليه

ووصف الخيل ووصف المعارك والحروب .

وننظر إلى شعر المدينة مثلا ، ـ وهي بلدة الزرع والنخل ـ فنرى الشعراء يجيدون وصف النخل . يقول أبو هلال العسكري : « ومن أجود ما قيل في الطلع من الشعر القديم ، قول كعب بن الاشرف » ويرى أبو هلال أيضاً : أن الربيع بن أبي الحقيق ؛ قد أجاد في وصف ليف النخل (١) .

وكانت المدينة تحيا حياة قبلية ، تكثر فيها الحروب ومن هنا برع شعراؤها ، ولاسيما قيس بن الخطيم ، في وصف المعارك والسلاح . وكثر الخمر والغناء وما يتبعهما من حياة الترف فيها ؛ فاجاد حسان في صفة الخمر ، وقد أورد قدامة : وصف القس في غناء سلاّمة على أنه من خير ما يوصف به الغناء .

وبيئة العراق بيئة نهرية ؛ ومن هنا كثر فيها وصف الانهار وفيضانها ومدها وجزرها ، وكثر فيها وصف السفن الذي نراها ينعدم ـ أو يكاد ـ في الشعر الجاهلي البدوي . وكثر وصف الصيد . وامتازت بيئة العراق عن بيئة المدينة ، وبيئة البادية ، بالصيد النهري : صيد الطيور المائية وصيد السمك . وقد تبع هذا وصف الشباك والمصائد وما اليها .

وكثر النخيل والكروم في العراق ، واشتهر شعراء العراق ـ كما

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري طبعة القدسي سنة ١٣٥٢ ، ٢ / ٣١

اشتهر شعراء المدينة ـ بوصف النخيل . قال أبو هلال العسكري بعد أن ذكر أرجوزة عبدالصمد بن المعذل في وصف النخل : « ولا اعرف في النخل من شعر المحدثين أجودَ من هذه الأرجوزة (١) »

ولكثرة الأهوار والمستنقعات في العراق كثُر البق والبعوض ، وقد دارت أوصاف هذه الحشرات وما شابهها في أشعار العراقيين : كابن المعتز وأبي اسحاق الصابي وغيرهما .

وكثرت الخمور في العراق ، وعاش العراقيون عيشةَ لهو وترف ، ومن هنا كثرت أوصاف الخمر ، وأوانيها ، ومجالسها ، وسقاتها ، في شعرهم .

وكثرت في العراق القصور ، تحيط بها الحدائق وتنشأ فيها البرك ، وحسبك بالبحتري وصافا لها .

وارتفعت ثقافة العراقيين ، وكثر بينهم من يكتب ومن يقرأ ؛ فاتخذ الشعراء من الكتابة والأقلام والمحابر ، والدفاتر والكتب مادةً للوصف .

وإذا كان شعراء البادية وشعراء المدينة ، قد شهروا بوصف الحرب البرية ، فقد شهر شعراء العراق وامتازوا عليهم بوصف الحروب البحرية أو النهرية .

وهكذا نرى البيئة الطبيعية ، والبيئة الأجتماعية ، هي التي تملي على

---

(١) نفس المصدر ٢/٤١

الشعراء موضوعاتهم . ونرى الشاعر في الغالب لا يجيد الا وصف ما يضطرب في بيئته .

وكما تؤثر البيئة الطبيعية ، والبيئة الأجتماعية ، في موضوعات الوصف وتملها على الشعراء املاءً ، تؤثر على الشاعر في كيفية تناوله الموضوعات ؛ ومن هنا نرى الشعراء يتناولون الموضوع الواحد ولكن البونَ بعيدٌ بين وصف الشاعر والشاعر ، حتى لنستطيع أن نقول : إنّه لا يمكن أن يتفق شاعران ، في النظرة إلى موضوع واحد أو في وصفه ، ولاسيما في هذا الوصف الذي يخلط به الشاعر نفسه فيلبسه ثوب الحزن حين يكون حزيناً ؛ ويلبسه ثوب الفرح حين يكون فرحاً . ولنرى أثر الثقافة في الوصف نذكر أبيات ذي الرمة في وصف الحرباء (١) :

وقد جعل الحرباءُ يصفرُ لونُه ويخضرّ من حرّ الهجير غباغبُهُ
ويسبحُ بالكفين سبحاً كأنّهُ اخو فجرةٍ أوفي به الجذع صالبُه

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢ ، ٢ / ١٤٧ والذي في الديوان طبعة كمبريج سنة ١٩١٩ ص : ٤٧ هو :

وقد جعل الحرباء يبيض لونه ويخضر من لفح الهجير غباغبه
ويشبح بالكفين شبحاً كأنه أخو فجرة عالى به الجذع صالبه

الحرباء : دابة أصغر من الضب تستقبل الشمس برأسها وتتلون .
والهجير : نصف النهار في القيظ خاصة
غباغبه : جلدة حلقه ، والواحدة غبغب ، وغبب أيضاً .
يشبح : يمد كفيه كأنه مصلوب لأنه يعلى على عود

أو في قوله (١) :

يصلي بها الحِرباء للشمس مائلاً على الجذْل إلا أنّه لا يكبّرُ
إذا حول الظّل العشيّ رأيتهُ حنيفاً وفي قرن الضّحى يتنصّر

وهكذا نرى أنّ ثقافة ذي الرمة الاسلامية ، قد لازمته وصبغت وصفه ، مع إننا كنا نظن أنّ مثل وصف الحرباء أبعد من أن تستطيع أن تؤثر فيه ثقافة الشاعر الدينية .

ويبدو أثر البيئة والثقافة واضحاً في شعر الشريف الرضي وابن خفاجة الاندلسي ؛ كلاهما نظر إلى الجبل فوصفه ، وقد لاح أثر البيئة العراقية ذات السفن والملاحين والأنهار ، وذات الأهوار والقصب ؛ وظهر أثر البيئة البدوية التي ملأ الشريف الرضي نفسه من أشعارها وثقافتها في أبياته (٢) :

وذي نضد لا يقطع الطرفُ عرضه اذا قيلَ نجديٌ المُباح تغوّرا
تخالُ به ركنى ابانٍ وشابَـــة أطلاً ورجراجاً من الرمل أعفرا

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢ ، ٢ـ١٤٧ ، ورواية الديوان طبعة كمبريج ص ٢٢٩ :

يظل بها الحرباء للشمس مائلا على الجذل إلا أنه لا يكبر
إذا حول الظل العشي رأيته حنيفاً وفي قرن الضحى يتنصر

(٢) النضد : الجنادل بعضها فوق بعض . أبان وشابة : جبلان . العود : الجمل المسن .
اج : اضطرم وتلهب .

اذا مدَّ بالأعناقِ قعقعَ رعدُهُ كعَوْدِ الملا إن عضَّهُ العبءُ جرْجرا
كما اصطرعَتْ رايات قيسٍ وخندفٍ عجالى يجرّون العديد المجمهرا
اذا أُجَّ بالايماضِ قلتَ ابن كفةٍ يضرّم بالغاب الاباءَ المسعَّرا
تشوَّلَ تشوالَ البروقِ ببرقةٍ ورجّع قَرقارَ الفَنيقِ بقرْقرا (١)
كان به النوتيّ من سيفِ جدَّةٍ على عجلٍ يُزْجي السفين الموقّرا

ونظر ابن خفاجة الى الجبل فتحدث عنه حديث الفيلسوف . وقد أعاره نفسيته وروحـــه فأنطقه بالمواعظ والعبر ، وجعله يتحدّث حديث المفكر ، يقول :

وقورٍ على ظهرِ الفلاة كأنه طوالَ الليالي ناظرٌ في العواقبِ
أصختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلَ السُّري بالعجائبِ
وقال إلي كم كنتُ ملجأَ قاتلٍ وموطنَ أوّاهٍ تبتّل تائبِ
وكم مرَّ بي من مُدلجٍ ومؤوّبٍ وقال بظلّي من مطيٍّ وراكبِ
فما كان إلا أنْ طوتهم يدُ الردى وطارتْ بهم ريحُ النوى والجنائبِ

ونجد مثل هذا في أغلب الموضوعات الوصفية ، التي نزع فيها الشعراء عن التقليد ، وحاولوا أن يصفوا ما يهيجه المنظر في دخيلة نفوسهم .

---

(١) القرقار : هدير البعير . الفنيق : فحل الأبل المكرم ، الذي لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب . القرقر : القاع الأملس
النوتي : الملاح في البحر خاصة . السيف : الساحل ، او ساحل البحر خاصة .

وكما تختلف البيئة عن البيئة ، ويختلف الشاعر عن الشاعر في وصف الموضوعات من الناحية الثقافية ، تختلف الامة عن الامة ؛ فوصف العرب للطبيعة مثلاً غير وصف الغربيين لها . اتجه العرب ـ في الغالب ـ الى أشكالها وصورها ، وحاولوا أن يستغيضوا بالألفاظ عن الرسم بالقلم ، ونجد هـذا واضحاً في شعر ابن المعتز ، وفي شعر أكثر شعراء العراق في القرن الرابع الهجري ، ومزجوها بالخمر ، كما فعل ذلك الأخطل وابو نؤاس وغيرهما . على أننا لا نعدم الوصف الذاتي عندهم ، وهو الوصف الذي يمزج الشاعر به شخصيته ، كالذي مر بنا من شعر ذى الرمة وابن خفاجة . غير أن النوع الأول هو الشائع الكثير عندهم .

وننظر الى الموضوعات الوصفية عند الغربيين ، فنراهم يفلسفونها ولا يتحدثون بهذه البساطة التي يتحدث بها العرب . وغير خاف أن هذه النظرة قد ملأت الشعر الغربي ، وسيطرت عليه ، وسادته بعد عصر النهضة ، وبعد انتشار الفلسفة والعلوم .

الوصف بين الشعر والنثر

ويختلف الوصف الشعرى عن الوصف النثري ؛ وهذا الاختلاف يجيء نتيجة لما بين الشعر والنثر من فروق . فالفكرة هي الأصل في النثر وان تشبثَ بالعاطفة والفن ، والعاطفة هي الأصل في الشعر وإن

نزع إلى الافادة ومخاطبة العقل . وإذاً فأهم ما يُتطلب من النثر أن يكون واضحاً دقيقاً ، في نقله أفكار الكاتب إلى سامعيه أو قارئيه ، أما الشعر فلا تُشترَطُ الدقة والوضوح فيه ، ولكن الذي نتطلّبه منه هو التأثير وإثارة العواطف ، ومن هنا كان الفرق بين الوصف النثري والوصف الشعري كبيراً ؛ إن أهم ما يعمد اليه الكاتب في الوصف النثري ، هو أن ينقل إلى سامعيه ، أو قارئيه ، ما يصف ـ من غير أن يحشر خياله في الوصف ـ ؛ ينقل المنظر الموصوف اليهم كما هو على الحقيقة ، لا كما هو في نفسه الواصفة ، وكل الذي يحاوله ، هو أن يجعل القارىء يتخيل المنظر الموصوف وكأنه يراه بعينه .

أما في الوصف الشعري ، فلا يُنقل المنظر الموصوف كما هو على الحقيقة ولكنه يُنقل كما هو في نفس الشاعر . ومن هنا نراه يحشر الخيال فيما يصف حشراً .

وعندنا أنّ ما جاء في عمدة ابن رشيق : « أن خير الوصف ما قلب السمع بصراً » له قيمته في الوصف النثري ، أما في الوصف الشعري فليس شيئاً .

والشعر أطوع في الوصف الأدبي من النثر ؛ وذلك لاحتواء الوصف الأدبي على الخيال ، ولأن الشعر أطوعُ في التعبيرات التي يُقصد بها اثارة الخيال ، من النثر . ونحن نرى العرب من أقدم عصورهم

غنّوا وتغزلوا وعبّروا عن عواطفهم شعراً ، والغزل النثري لم ينشأ عندهم إلا في عصور متأخرة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى : انّ الشعر بجوره وموسيقاه يكون أمعن في اثارة الخيال ، وفي حكاية الموضوعات الوصفية وأنغامها من النثر . ومن الواضح أنّ الكلمات التي تدل على الأصوات ـ في الغالب ـ تحكي الأصوات التي وضعت لها ، ولا تنفرد لغةٌ من اللغات بهذا الأمر ، بل هو عام فيها جميعاً . فالخفيف يحكي صوت الشجر ، والرفرفة تحكي صوت الطائر يحرك جناحه ، والزقزقة تحكي صوت العصفور ، والنعاب يحكي صوت الغراب وهكذا ... ومن هنا كان الواصف لمثل هذه الأصوات ؛ لايحتاج اكثر من أن يذكر اللفظة الدالة على هذا الصوت فتتداعى نغمته في اذن السامع أو القارىء . على أنّ الشعر يذهب في هذا الأمر إلى أبعد من هذا ، ذلك أن الشاعر يحاول أن يحاكي في نغمه الشعري ، ما يصفه ويتحدث عنه . فالشعر له دوي البحر في الأذن ؛ حين يصف الشاعر البحر ، وله خرير الماء في الأذن ؛ حين يصف الشاعر خرير الماء . وهكذا الأمر في الحديث عن تغريد البلابل وهديل الحمام . على أن هذه الملكة لا يرزقها من الشعراء ، إلا طائفة قد وهبت لها الحاسة الفنية ، وهامت بالطبيعة ، وسحرت بانغامها وألحانها . ونرى هذا الامر عند بعض شعراء الغرب ـ وفي بعض قصائدهم فقط ـ وهو في الشعر العربي أقلّ من ذلك . وعلة

ذلك عندي أن العرب في أغلب ما وصفوا من أصوات الرياح ، وحفيف الشجر وغناء الورق ، لم يصفوا تلك الاصوات لما أحدثته في أنفسهم من الذشوة ، ولكنهم تحدثوا عنها لانها ذكرتهم بالحبيب . وكذلك هم حين يذكرون البروق والسيول . وقد تعجّب الاستاذ متز[1] من الشاعر السلامي حين وصف السِكر المبني بشيراز ، من غير أن يشير إلى أصوات المياه وخريرها به .

(١) الحضارة الأسلامية في القرن الرابع الهجري الترجمة العربية ١ / ٤٤٠

المامة بالوصف

من الجاهلية الى القرن الثالث الهجري

الوصف الجاهلي : يدور شعر الوصف كله حول مظاهر البيئة الطبيعية ، وبعض مظاهر البيئة الاجتماعية . والحديث عن البيئة الطبيعية وما يضطرب فيها من حيوان أو نبات ، وما يلفها أو يتصل بها من سماءٍ ورياح كله تابع لفن الوصف . أما البيئة الاجتماعية ، فالأقل من موضوعاتها هو الذي يشملُه شعر الوصف ، ذلك لأن نقاد العرب ، ومؤرخي الآداب منهم ، اعتبروا أهم ما يتعلق بالانسان ، رجلاً كان أو امرأة ، خارجاً عن شعر الوصف ولم يعتبروه منه ، فسموا ما يتعلق بالمرأة نسيباً أو غزلاً ، وما يتعلق بالرجل مديحاً أو هجاءً أو رثاءً أو فخراً .

ونحن إذ نُبعد هـــذه الموضوعات ، نقول : ما الذي تبقّى من موضوعات البيئة الاجتماعية متعلقاً بالوصف ؟

إن الحب والحرب والخمر ، أهم ما دارت عليه حياة الجاهليين الاجتماعية والادبية . أما الحب فقد أنتج لنا ـ علاوةً على فن النسيب أو الغزل ـ وصف الاطلال والدمن ، ووصف الرحيل . وأما الحرب

فقد أنتجت لنا وصف المعارك وما يتبعها من سلاح ، ووصف الخيل على أنها عدة من عدد الحرب ، وأما الخمر فقد أنتجت لنا وصف الخمر وما يتعلق بها من آنية وابريق ، وما يتبعها من مجالس سمر وغناء .

وإذاً فنحن نستطيع أن نقول : إن فن الوصف في البيئة الجاهلية يشمل وصف الطبيعة مضافاً اليه ما عددناه الآن من هذه الموضوعات التي تتعلق بالبيئة الاجتماعية .

وليس لي ارب في أن افيض في كل موضوع من هذه الموضوعات وكل الذي اريده هو أن ألم بها إلمامة قصيرة تكون كالفاتحة أو المقدمة لما سأتحدث به عن فن الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، هذا من جهة ، ولنرى كيف يختلف الوصف باختلاف العقلية والثقافة ، وكيف يتأثر ويتلون بالبيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها من جهة اخرى .

وصف الطبيعة :

ونعني بالطبيعة هنا الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة . أما الطبيعة الحية فيمثلها ما يطير في جو العربي من طير ، وما يضطرب في أرضه من حيوان وحشي أو اليف ، وأما الطبيعة الصامتة فتشمل الطلل والدمنة ، وما في الارض من شجر وعشب ، وما فيها من صحاري وجبال ووديان وشعاب .

وسألم بأهم ما لفت العربي من هذه الموضوعات ، إذ ليس كل ما

يعيش في بيئة الانسان قادراً على أن يهيج عاطفته وينطقه بالشعر .

وصف الابل :

لعل الابل والخيل ، هي أكثر الحيوانات الصحراوية التي عشقها العربي وأحبها . وكانت الفته للابل أكثر من الفته للخيل ؛ ذلك لان الجمل أكثرُ ملائمة لمحيط صحراء العرب من الخيل ؛ فالصحراء رملية أو متربة وخفافه عريضة لا تغور في الرمل ولا في التراب ، وهي شحيحة في عشبها الاخضر ، بل وفي هشيمها أيضاً ، وهو صبور على الجوع ينقطع عن الرعي أياماً . وهي شحيحة المياه ولا سيما في موسم الصيف ، وهو يصبر على العطش أياماً .

هذا الحيوان هو صديق العربي ؛ يحمل عليه أثقاله ويركبه حين يظعن ويرتحل ، وينام في ظله حين تهب عليه السموم وتلفحه الهاجرة ثم هو فوق هذا كله يتخذ من لبنه طعاماً ومن وبره كساءً .

أما الخيل فهي دون الابل ملائمة لحياة الصحراء ، وهي دونها صبراً على الجوع والعطش ، ولكنها أسرع منها جرياً . وهي أمضى أسلحة العربي حين يغير أو يغار عليه ، وما أكثر ما يحدث للعربي هذا ! ثم هي فوق ذلك عدة الصيد والطرد ، ومن أجل هذا أحبها العرب ، وكثيراً ما أجاعوا أنفسهم وأطعموها . وسقوها اللبن حين يضنون على أنفسهم بالماء . ولمكانتها من نفوسهم البسوها الحلى والقلائد كما تلبسها النساء (١) .

---

(١) تنظر بائية طفيل بن عوف الغنوى في أول ديوانه .

هذان الحيوانان أهم ما دار في شعر العرب الوصفي ، وكثيراً ما جاء وصف الحيوانات الاخرى واسطة لوصفهما ، ومع أن الشعر الجاهلي ، ضاع أكثره ، ووصل أقله فاننا يندر أن نجد شاعراً جاهلياً لا تروى له ابيات في وصف الابل والخيل .

والشعراء الاوائل الذين لم يشغلوا أنفسهم بالمديح بعد ، كانوا يصفون الابل يركبونها إلى أحبتهم يقول امرؤ القيس :

فانك لم تقطع لُبانة عاشقٍ ... بمثل غدوٍّ أو رواح مؤوّب (١)

بادماء حُرجوج كأنّ قُتُودها ... على أبلقِ الكشحين ليس بمُغرب

يُغرّد بالأسحار في كل غُدوة ... تغرُّد مياح الندامى المُطرّب

وحين صار الشعر يُتخذ وسيلة للكسب صاروا يصفون الناقة ركبوها الى الممدوح . وقطعت بهم الفيافي والاهوال ؛ ليستدروا بذلك

(١) اللبانة : الحاجة . الرواح : ضد الصباح ، وهو اسم للوقت من زوال الشمس الى الليل أو هو ضد الغدو .

الأدماء : الناقة البيضاء . الحرجوج : الطويلة .

القتد : خشب الرحل وجمعه أقتاد وقتود

الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف . المغرب : الأبيض الوجه والأشفار . الغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس .

والبيت الأخير يروى هكذا :

يغرد بالأسحار في كل سدفة ... تغرد مرياح الندامى المطرب

يغرد : يطرب بصوته . والسدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس . الندامى : الجمع المتنادمون على الشراب .

عطفه وكرمه . وانحدر هذا التقليد الجاهلي ولازم الشعر العربي طيلة عصوره .

وأكثر الذي يدور عليه وصفهم للابل ، لا يعدو أمرين : يتجه الشاعر نحو الناقة يصف سيرها ومشيها وهو لا يفصل في هذا ، وإنما يشبهها بالحمار الوحشي . ثم يذهله وصف هذا الحيوان عن نفسه فيروح يصفه مع أتنه وكيف أوردها عين الماء ، وكيف كمن له الصياد وكيف رماه ، وكيف أفلت منه . وهذا الضرب من الوصف كثير في الشعر الجاهلي ؛ من أمثلة ذلك قول الشماخ بن (١) ضرار في رائيّته :

فقلت لصُحبتي هل يبلغنيّ ... الى ليلى التهجُر والبكور

بناجية كأن الرحل منها ... وقد قلقتْ من الضمر الضفور

على أصلاب جأبٍ أخدريٍ ... من اللأي تضمنهنّ إيرُ

ثم يروح يصف هـــذا الجأب الأخدريّ بما أسلفنا ، وله مثل هذا في جيميّته :

---

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني شرح الشنقيطي، طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ .

التهجر : سير الهاجرة ، والهاجرة ، نصف النهار عند اشتداد الحر

الناجية : الناقة السريعة . الرحل : مركب للبعير خاص بالرجال

الضمر : لحاق البطن . الضفور : جمع ضفر وهو ما يشد به البعير

أصلاب : جمع صلب وهو من الظهر ما فيه فقار . الجأب : حمار الوحش الغليظ . أخدرى : أسود . إير : جبل لعشيرة غطفان

وداويّةٍ قفرٍ تمشي نعاجُها كمشي النصارى في خفافِ البرندج[1]

وقد يتجهون الى وصفها بهذا الوصف الايحائي كالذي نجده في رائية امرىء القيس :

سمالك شوقٌ بعدَ ما كان أقصرا وحلّت سُليمى بطن قوٍ فعرعرا

فهو في قصيدته هذه ، يصفها بأنها واسعة القوائم ، بعيدة ما بين المنكبين ، تطأ الحصى بمناسمها فتحذفه متطايراً يمنة عن يمينها وعن شمالها . بهذه الأوصاف تنعكس صورة الناقة المسرعة في خيال السامع ، تعكسها هذه الصور التي أوحاها امرؤ القيس الى ذهن السامع والتي لا تصدر إلا عن راكب مسرع .

وقد يتجهون الى وصف جسم الناقة ، يحدّقون به ويستقصون أوصافه ؛ كالذي نجده في شعر طرفة ؛ فقد وصف ذنبها ، وفخذيها ، وأضلاعها ، ومرفقيها ، وظهرها ، وعنقها ، ورأسها ، وخدها ، ومشفرها وعينها ، واذنيها ، وانفها . حتى اذا فرغ من الحديث عن أعضائها هذه ، ووصف كلّ عضوٍ بأن قرنه الى ما يثير خيال السامع ، ويجعله جميلاً في عينه قال :

على[2] مثلها أمضي اذا قال صاحبي ألا ليتني أفديكَ منها وأفتدي

---

(١) الداوية : الفلاة الواسعة . نعاجها : بقر وحشها
اليرندج : الجلد الأسود

(٢) أي على مثل هذه الناقة في اسفاري امضي ، حين يبلغ الأمر غايته=

وجاشت اليه النفس خوفاً وخاله مصاباً ولو أمسى على غير مرصد (١)

وكثيراً ما نجدهم يصفون الناقة ، بأن يشبهوها بالسفينة ، ونجد هذا في شعر طرفة وزهير ولبيد ، وهم حين يصفون الناقة بأن يتحدثوا عن سيرها يكون وصفهم في الغالب ذاتياً ؛ فالشاعر يعير الناقة نفساً إنسانية فيجعلها تحس بما يحس هو ، فهي خائفة مرة وهي مشتاقة الى ديار الأحبة اخرى . أما حين يعمدون الى وصف وجهها وأعضائها فكل الذي يبحث عنه الشاعر هو أن يشبه صورة حسية باخرى حسية مثلها ، وقل أن نراهم ، — بل لا نراهم يعمدون الى الصور المعنوية — وهذا راجع الى عقليتهم البسيطة ، وثقافتهم التي لم تعن بفلسفة ولا علم ، ولم تتعود التعمق في التفكير .

وصف الخيل :

وإذا نحن جاوزنا الابل إلى الخيل ، نراهم يعنون بالحصان الذكر أكثر من عنايتهم بالانثى ، على حين كانوا يعنون بالناقة في وصفهم أكثر من عنايتهم بالجمل . ويخيل الي أن الفرس لقلتها وعزتها عندهم لا يركبونها إذا كانت حاملا أو وراءها

= حتى أن صاحبي يقول : ألا ليتني أفديك من مشقة هذه الشقة فأخلصك ، واخلص نفسي منها . والضمير في منها يعود الى الشقة ،

(١) جاشت نفسه : أي ارتفعت كأن قلبه قد زال عن مستقره لشدة خوفه من الهلاك

والمرصد : الطريق

مهر ، على حين نراهم كثيراً ما وصفوا الناقة ركبوها ووراءها حوارها .

وهم حين يصفون الخيل تفتنهم ألوانها . وقد أغفلوا الحديث عن ألوان الابل . والابل ، وإن كانت متعددة الألوان ، إلا أنها ليست كالخيل في جمال ألوانها وجاذبيتهـــا . وقد وصف امرؤ القيس حصان صيده بانه :

كُمَيتٍ نزلٌ اللبدُ عن حال متنه كما زلّت الصفواء بالمتنزّل (١)

ونظر طفيل الغنوى ؛ وهو الشاعر الفارس ؛ الى خيل غني عشيرته وكانت قد أغارت على طيء ، ودخلت عليها جبلي أجأ وسلمى ـ حيث يسكن الطائيون ـ وسبت منهم سبايا كثيرة ، (٢) قال :

تباري مراخيها الزجاج كأنها ضراءٌ أحست نبأةً من مكلّب

كأن يبيس الماء فوق مُتونها اشاريرُ ملحٍ في مباءة مُجرب

---

(١) الكميت من الخيل : بين الأسود والأحمر . اللبد : ما يتلبد من شعر او صوف . المتن : الظهر . الصفواء : الصخرة الملساء التي لا ينبت فيها شيء . المتنزل : المطر .

(٢) ديوان طفيل بن عوف الغنوي طبعة اوربا ، ص : ٧

مراخيها : واحد مرخاء : وهي السريعة العدو . الضراء : الكلاب المعوّدة على الصيد . النبأة : الصوت . المكلب : صاحب الكلب .

يبيس الماء : يعني العرق . متونها : ظهورها . اشاريز : جمع إشرارة ، وهي نطع أو خصفة يطرح عليها الأقط . المباءة : مراتع الابل . وكل منزل مباءة المجرب : الذي جربت إبله .

ورادًا وحُوًّا مشرفًا حجباتها بنات حصانٍ قد تعولم منجب (١)

وكمتًا مدماةً كأن متونها جرى فوقها واستشعرت لون مذهب (٢)

وهو في البيت الأول، قد وصف الخيل مغيرة عليها فرسانها، ولم يذهله منظر الحرب عن الاحساس بالجمال، فاعناقها لطولها كأنها تريد أن تسبق الزج الذي مده الفارس أمامه وهيأه ليطعن به. وهي حين تغدو كأنها كلاب الصيد أغراها صاحبها به. ثم تبهره الوانها فيلتفت الى هذا البياض كأنه الملح، ويجلو هذا اللون بتشبيهه بالنطع يطرح عليه الاقط ولا يرضي بهذا حتى يجعله في مباءة مجرب، والمباءة: مراتع الابل، والمجرب: الذي جربت ابله، وهو بهذا يجلو لون الحصان الذي تقرب حمرته من السواد وقد علاه العرق وابيض فوقه.

ونراه في البيت الرابع، يبهره اللون ويحيره فيقول: «وكمتًا» ثم يعقب عليها «بمدماة» والمدمّاة: هي ذات الكمتة في حمرة ثم يخيل اليه أن التعبير لم يُفصح جيدًا عن اللون فيقول: كأنها أشربت لونًا مذهبًا.

---

(١) الحوة: حمرة تضرب الى السواد، والحوة أيضًا سمرة الشفة، يقال رجل «احوى» وامرأة «حواء» حجباتها: الحجبة: رأس الورك الذي يلي الخاصرة، يكون عظمها مشرفًا اذا كان الفرس عتيقًا. بنات حصان ... كان العرب في جاهليتهم يعنون بأنساب الخيل عنايتهم بأنساب الرجال. قد تعولم: قد عرف انه منجب كريم

(٢) الكمتة: الحمرة في سواد

المدماة: التي تضرب كمتتها الى الحمرة. استشعرت: استشربت

وطفيل الغنوىّ فارس مشهور . وفي كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة : « إنه كان من أوصف العرب للخيل » وأن عبدالملك بن مروان قال : « من أراد ركوب الخيل فليروِ شعر طفيل » وبائيته هذه التي اخترتُ منها هذه الأبيات تقع في نحو سبعين بيتاً ، يصف فيها خيلهم وعدوَها . وعدو الخيل جميل الى نفس الفرسان يهيجها حتى تطرب ، يقول وهو يتحدث عن غلامه ، الذي هيأ له فرسه ليركبها ساعة الحرب :

له طربٌ في إثرهنّ وربّه الى ما يرى من غارة الخيل أطربُ

وواضح انه يقصد بلفظة « ربه » نفسه . ويعجبني وصفه لها ، ولما تثيره من جو حولها وهي راكضة عليها فرسانها ، وقد تبعها هو وفاتها بحصانه ، الذي يبعث في الجرى مثل حفيف النار في شجر العرفج .

اذا (١) هبطتْ سهلاً كأن غبارهُ بجانبه الأقصى دواخن تنضُب

كأن رعالَ الخيلِ لما تبددتْ بَوادي جراد الهبوة المتصوّب

---

(١) ديوان طفيل بن عوف الغنوى طبعة اوربا ، ص : ٩

تنضب : شجر له دخان أبيض شبيه الغبار الذي تثيره الخيل به .

بجانبه ، وفي رواية (بجانبها) ، وهي الأقوم عندي

الرعلة : الجماعة من الخيل يقال :

رأيت رعلة من الخيل ورعيلا وهي الجماعة المتقدمة . وأقبلت الخيل رعالا واراعيل

بواديه : أوله. الهبوة : الغبرة ، يقال ما هاج جراد الاهبت أو هاجت هبوة

وهصن الحصا حتى كأن رضاضه ذُرى بردٍ من وابلٍ متحلّب (١)

يبادرن بالفرسان كلّ ثنية جنوحاً كفرّاط القطا المتسرب

وعارضتها رهواً على متتابعٍ شديد القُصيرى خارجي مجنّب

كأنّ على اعرافه ولجامه سنا ضرمٍ من عرفجٍ متلهّبِ

ونحن نحس في وصفه روح الفارس يطرب للحرب والمغازة ، ويبعث الجو الصاخب ملأه غبار الخيل حتى استحال الى مثل دخان « تنضب » ـ وهو شجر له دخان أبيض ـ ويتطاير الحصا فيه كأنه

---

(١) الوهص : شدة الوطء . رضاضه : ما ترضض منه وتكسر . ذرى برد : يريد بذراه أعاليه . الوابل : المطر الشديد . ونحلب الماء : سال

الثنية : مطلع الجبل . ومنه : أخذوا في ثنى الجبل والوادي أي في منعطفه . ويقال : طلاع الثنايا أي ركاب المشاق . جنوحاً : يريد جانحة الى الأرض قليلا . الفراط ، جمع الفارط ، والفارط : ما سبق . المتسرب : الذي يمضي سربة سربة وعارضتها رهواً : أي بعدوٍ سهل ، ويقال : جاءت الخيل رهواً : أي تعدو متتابعة . المتتابع : المطرد الخلف . القصيرى : ضلع الخلف

الخارجي : الذي خرج من غير رباط . المجنب : الذي في ذراعه كالتحدب والانكباب ، وهذا من صفات الخيل المحمودة عندهم

العرف : الشعر النابت في محدب رقبة الفرس . وفلان يعرف الخيل : أي يجز أعرافها . السنا : مقصور ضوء البرق . الضرم : واحد الضرمة ، وهو ما أسرعت فيه النار من النبت . العرفج : شجر سهلي لين طيب الرائحة ، ولهبه شديد الحمرة يبالغ في حمرته يقال . « كأن لحيته ضرام عرفجة » والنار تسرع فيه . ونار العرفج يسميها العرب نار الزحفتين : لأن الذي يوقدها يزحف اليها ، فاذا اتقدت زحف عنها .

البرد من وقع حوافر الخيل ، هذا الجو يبعث في نفسه النشوة والفرح .

ومن وصافي الخيل سلامة بن جندل شاعر تميم وفارسها ، وهو حين يصفها يعني بجمال اجسامها ، أكثر من عنايته بوصف الوانها ، أو وصف جريها يقول (١):

يومانِ : يوم مقاماتٍ وأندية ... ويومُ سيرٍ الى الأعداء تأويبِ (٢)

وكرّنا خيلنا أدراجَها رُجعاً ... كسّ السّنابك من بدءٍ وتعقيب (٣)

والعاديات أسابيُّ الدماء بها ... كأنّ أعناقها أنصاب ترجيبِ (٤)

من كل حتٍ إذا ما ابتلّ ملبدُه ... ضافي السّبيب أسيل الخد يعبوبِ (٥)

---

(١) انظر ص : ٨ من ديوانه الذي طبعه الأب لويس شيخو في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩١٠

(٢) التأويب : الأمعان في السير من غدوة إلى الليل .

(٣) الكر : الرجوع ، والكرة : المرة . الأدراج : الطرق ، يقال رجع على ادراجه أي من الموضع الذي جاء منه . ادراجها : أي ذهبت من حيث جاءت . كس السنابك : السنبك : مقدم الحافر . والكس : في الأصل قصر الأسنان أو لصوقها بسنوخها . ويريد هنا ان سنابكها قد نحاتت وذهبت لأكل الطريق لها ، ولطول السفر عليها . والتعقيب : الرجوع والعطف .

(٤) العاديات : الخيل المغيرة . الأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى . الترجيب : ذبح النسائك في شهر رجب تعظيما للانصاب .

(٥) الحت : الجواد الذي لايجارى . وملبده : موضع لبده ، مثل محزمه : أي موضع حزامه . ومعذره : موضع عذاره : وضاف ، من الضفو : وهو السبوغ =

ليس بأقنى ولا أسفى ولا سَفِلٍ ... يُسقى رَواءً قفيَّ السكنِ مربوبِ (١)

تمَّ الدَّسيعُ الى هادٍ له بتعٍ ... في جؤجؤٍ كمداكِ الطيبِ مخضوبِ (٢)

تظاهرَ النيءُ فيه وهو مُحتفلٌ ... يُعطي أساهيَّ من جريٍ وتقريبِ (٣)

وعنترة يصف الخيل وصفاً ذاتياً ، يجعل فيه من حصانه صديقاً يفهم فارسه ، ويفهم الفارس عنه ، وكلاهما يحدث صاحبه باشارته . وقد ادار هذا الوصف في أشعاره ، ولاسيما في هـــذه القصائد التي يحدثنا بها عن معاركه .

يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهمِ (٤)

=والفضل من كل شيء . السبيب : شعر الناصية والذنب . اسيل الخد : أي سهل طويل ويستحب ذلك منه . ويعبوب : كثير الجرى ، كريم .

(١) ليس بأقني ، القنا : حدة في الأنف وهو مذموم في الخيل . والأسفى : الخفيف شعر الناصية والذنب ، وهو السفا . والسفل : المهزول . قفي السكن : الذي يسقى اللبن ويؤثر به دون السكن وهم أهل البيت .

(٢) الدسيع : مغرز العنق . البتع : طول العنق . والهادي : العنق ، وهادي كل شيء : أوله . الجؤجؤ : الصدر . ومداك الطيب . الحجر الذي يسحق به الطيب

(٣) النيء : الشحم . محتفل : سريع . اساهي : ضروب من الجرى ، والعرب تقول : « فروس ذو اساهي » : أي عنده ضروب من الجرى . التقريب : ضرب من العدو يرفع فيه الحيوان يديه معاً ويضعها معاً على الأرض

(٤) عنتر : حذفت تاؤه للترخيم . الأشطان : جمع شطن ، والشطن : الحبل الطويل الشديد الفتل يستقى به الماء من البئر ، شبه به رماح الأعداء تنوش صدر فرسه . اللبان : الصدر . الأدهم : فرس عنترة .

مازلتُ أرميهم بثُغرةِ نحرهِ ولَبانهِ حتى تسربل بالدم (١)
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم (٢)
لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

حمار الوحش :

وحمار الوحش أكثر حيوان الصحراء وصفاً في أشعارهم ويندر أن تجد شاعراً جاهلياً لم يتعرض لوصف حمر الوحش ومع ذلك فيندر أن تجد شاعراً منهم اتخذ وصف الحمار غاية . ان الواصف منهم يصف ناقته بالبيتين أو الثلاثة . أوما الى ذلك ، ثم يشبهها بحمار الوحش عدواً وخفة ونشاطاً . ويروح يصف هذا الحيوان ، ويصف الطبيعة تحيط به ، وقد يتسع هذا الوصف ويمتد الى عشرات الأبيات حتى لينسى القاريء ان الشاعر انما جاء بوصف حمار الوحش ليشبه به ناقته . وهم يكادون يتفقون في وصف هذه الحمر الوحشية ؛ انهم يتخذون من الحمار الذكر قلباً أو نواة للوصف ويظلون يدورون حوله .

فهو نشيط ، ذو اتن كثيرة ، وهذه الاتن خاضعة له خضوع النساء للرجل ، هو يدبر امرهن ويمضي بهن الى عين الماء . ويصفون الصائد

---

(١) ثغرة النحر : هي في البعير المحل الذي ينحر منه ، وهي من الفرس جؤجؤه ، وجؤجؤ الفرس ما تتأمن نحره . تسربل بالدم : أي صار الدم منه بمنزلة السربال أي عم جسده

(٢) ازور : مال . التحمحم : صوت مقطع يخرجه الفرس ، فيه شبه حنين ليرق صاحبه له

قد كمن لهذا القطيع ، وقد يبالغون في وصف الصائد ، وبأنه لا طعام له الا لحم هذه الحيوانات ، ثم يصفونه يرمي هذه الحمر فتنجو منه . ويظل بعض اصابعه متلهفاً . وقد يصفون الناقة بالبيتين أو الثلاثة ويقولون : إنها تشبه الثور الوحشي ، ثم يمضون في وصف هذا الثور ، وكيف ساقه المطر فالتجأ الى الارطي ، وكيف هاجت به كلاب الحي فعدا ، حتى اذا لم يجد بداً كر عليها بحربته فتركها بين مخذول متراجع وبين مبقور يسيل دمه .

وقد يشبهون ناقتهم بالظليم ويروحون يصفونه .

وننظر في هذا الوصف جملة فنراه ذاتياً ؛ يتحدث فيه الشاعر عن حمار الوحش أو عن الثور البري ، بعد ان يُلبسه النفس الانسانية ، ويسبغ عليه الشجاعة التي يعشقها العربي ويفخر بها ، فهو يطاعن الكلاب ويغلبهم ويكمن له الصائد فينجو هارباً بعد ان يتركه يعض على يديه من الأسف .

وتراهم ينظرون الى حمار الوحش واتنه نظرة العربي الى نسائه ؛ انه متعدد الزوجات وهن خاضعات لامره لا يفعلن أمراً الا بعد موافقته ، وهو يتقدم امامهن ، ويدافع عنهن ويعرض نفسه للخطر : خطر الصائد وغيره دونهن ، وكذلك امر العربي مع نسائه .

ووصفوا من طيور الصحراء القطاة والنعامة .

وصف طيور الصحراء :

ودار الغراب والحمامة في أشعارهم ؛ يخوفهم هذا بالتفرق والرحيل ، وتذكرهم هذه بصور الأحبة وايامهم . وأما النعامة

فكانوا يشبهون بها خيلهم سرعةً وجريا . ووصف زهير بن (١) ابي سلمى معركة بين القطاة والصقر ، يجدّ هذا في طلبها وهي تجد في الهزيمة منه . وقد وصف هذه الصورة ليشبه بها فرسه الوردية اللون ، التي اعتاد ان يطرد حمر الوحش عليها ؛ شبهها بقطاة الأجباب أفردها الشرك من اختها ؛ افردها والعطش يلح عليها ويلجؤها الى البئر ، والبئر قد أخذ طريقها عليها ، وزاد في أمرها ان انقض عليها باز قوي الجناح ، قد اعتاد صيد الطيور ، وخضاب ريشه بدمائها ، ويزيد في هذا ان تلجأ الى الوادي من البلز ، فيتبعها الوليد ويهم بصيدها .

والجميل في وصف زهير هذا ، أنه يتبع وجهة النظر التي يريد أن يسوق القارىء أو السامع اليها .

لقد أحاط القطاة بكل ظروف الخوف والرعب ، وسدّ عليها كل منفذ ليجعلها تطير وتسرع بطيرانها ما استطاعت ثم ليقرن هذه السرعة بسرعة فرسه . وهذا الأمر لا نجده عنده ، ولا عند غيره من الشعراء الجاهليين ، حين يصفون الحمر الوحشية . انهم يصفون الحمر الوحشية ليشبهوا بسرعتها سرعة ابلهم ، ولكن الطبيعة من حول تلك الحمر ، تذهلهم وتنسيهم ما قصدوه من وصفهم ، وما هكذا فعل زهير حين وصف القطاة .

---

(١) انظر قصيدة زهير البكائية :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أيةً سلكوا

في ديوانه من ص : ١٦٤ ـ ١٧٨ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

إيه لم ينس أنه انما وصفها ليشبه بها فرسه . وهو وان شعّب موضوع الوصف ، ظل يحوم حول نقطة واحدة هي سرعة القطاة وقوة طيرانها التي تتخلص بها من هذه المآزق .

ووصفوا الطبيعة الميتة كما وصفوا الطبيعة الحية ، وقد تعلقوا بالغيث لان حياتهم وحياة ماشيتهم عليه . كانوا يرقبون السماء حين تغيم ، ويخلبهم البرق لانه يبشرهم بالمطر ، فالشاعر الاعشى يسحره البرق كأنه شعل في حواشي السماء ، ويذهله عن لهوه وشرابه ، حتى يطلب الى أصحابه ـ وقد ثملوا واخذت فيهم الخمر ـ ان يشيموا البرق ويحزروا أين يسقط مياهه (١) :

بل هل ترى عارضاً قد بتُّ أرمقهُ كأنما البرقُ في حافاته شُعلُ
لم يُلهني اللهوُ عنه حين أرقبهُ ولا اللذاذة في كأس ولا شُغُلُ
فقلت للشرب في دُرنا وقد ثملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل؟

وامرؤ القيس وصف البرق وأتبعه وصف الغيث في أماكن من ديوانه . منها وصف له في المعلقة ؛ فهو قد سأل أصحابه عن البرق ووصفه بأن لمعانه يحاكي مصباح الراهب يمال بالزيت على ذبالته ، ووصف هطول مطره على جبل ثبير ـ وكأنه شيخ قد زمل في بجاده ـ ولم يفته أن

---

(١) العارض : السحاب يعترض في الافق ، ومنه قوله تعالى : « هذا عارض ممطرنا » ورمقه : نظر اليه ، ويروى : ارقبه . الشعل : جمع « الشعلة » من النار .
درنا : باليمامة ، وهي مخلاف لبني قيس بن ثعلبة وبها قبر الأعشى
ثملوا : أخذ فيهم الشراب . شيموا : انظروا الى البرق وقدروا أين صوبه

يلتفت الى الطبيعة فيجعلها فرحـــة مستبشرة تشاركه فرحه بالغيث ؛ فالمكاكي نشاوى كأنهن صبحن بسلاف الخمر ، والسباع قد ابتلت بل غرقت في هذا المطر .

وصف الطلل :

وهاج البدوَ الطلل والدمنة ؛ كانوا يترحلون في خيامهم يتبعون الغيث والعشب فاذا مر شاعرهم بأرض رحل عنها أحبته ، وأبصر آثارهم في الديار ، هاجت به الذكريات ، وهاجت عاطفته ، وأنطقته بالشعر الحار . وحسبك من أثر الطلل في أنفسهم أنهم جعلوه فاتحةً لقصائدهم ، لعلمهم بأنه يهيج السامع أكثر مما يهيجه أي شيء آخر في الصحراء . وقد أخذ أهل الحاضرة هذا الأمر تقليداً عنهم وظل الطلل يلازم الشعر العربي طيلة حياته . ولم يثن أهل المدن قول أبي نؤاس : « صفة الطلول بلاغة الندم » ولا قول غيره . وتراهم حين يصفون الطلل يستنطقون أحجاره ونؤيه وأثافيه ، بعد أن يقفوا عليه وقفة الحزين الباكي . ويثير أشجانهم ، أن الطلل أصبح مأوى للظباء ، أمنت فيه ، أو نامت وطال نومها والفها له ، حتى أفرخت فيه . وهذا الوصف نجده في أغلب المعلقات من ذلك قول زهير (١) :

أمن أُمِّ اوفى دمنةٌ لم تكلمِ بحومانة الدراج فالمتثلمِ

(١) ام اوفى : كنية حبيبة الشاعر زهير . الدمنة : مابقى من آثار الديار مسوداً بالبعر والرماد وغيرها ، والحومانة مفرد الحوامين ، وهي أماكن غلاظ . وحومانة الدراج والمتثلم : مواضع بالعالية ، والعالية اسم لما كان من جهة نجد من المدينة وعمائرها الى تهامة . ـ وقد اخرج البيت اخراج التوجع والتحسر .

ودارٌ لها بالرقمتين كأنها ... مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ معصم (١)

بها العينُ والآرام يمشين خلفةً ... واطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٢)

وقفت بها من بعد عشرين حجةً ... فلأياً عرفت الدار بعد توهمِ (٣)

أثافيٌ سفعاً في معرّس مرجلٍ ... ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم (٤)

---

(١) الرقمتان : حرتان أحداهما قرب المدينة والاخرى قرب البصرة ، وأراد بالرقمتين بينهما ، حيث تنتجع ، أي تطلب المرعى . وشم يده : غرزها بابرة ثم در عليها النيلج ، والوشم من التزين عندهم . النواشر : عصب الذراع ، وواحدته : ناشرة . والمعصم : موضع السوار

(٢) العين: البقر، والواحدة عيناء ، وسميت عيناً لسعة أعينها. الآرام: الظباء البيض الخوالص البياض . الخلفة : ان يخلف بعضها بعضاً ، اذا مضى قطيع منها جاء قطيع آخر . والأطلاء : جمع الطلا ، وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . والمجثم : موضع الجثوم ، والجثوم للطير والوحوش بمنزلة البروك للبعير

(٣) لأياً : بعد جهد وبطء . ويقال التأت عليه الحاجة : ابطأت . وعرفها بعد التوهم : أي بعد جهد ومشقة .

(٤) الأثافي ، واحدتها الأثفية : وهي حجارة توضع القدر عليها . السفع : السود

المعرس : المكان الذي تنصب فيه القدر . المرجل : كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو خزف أو حديد أو نحاس . النؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل الماء البيت من الخارج اذا اشتد المطر . والجذم . الأصل . وجذم الحوض : حرفه وأصله . لم يتثلم : يعني ان النؤى قد ذهب اعلاه ولم يتثلم ما بقي منه .

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم (١)

ويسحرنا من هذا الموقف أنه حزين يشيع الحزن في نفس القارىء فالشاعر لم يشأ ان يقول : إن هذا الطلل قد سكنته الظباء ، ومشت فيه آمنة وافرخت ، حتى صارت اطلاؤها تنهض من كل مجثم ، الا ليوحي الى سامعه أن هذا الطل قد أمعن في الاندراس ، حتى ان زهيراً نفسه لم يعرفه ـ الا بعد توهم ـ واصبح مسكن الآرام ، بعد أن كان مسكن الأحبة . وطال انقطاع الانس عنه حتى الفته الظباء ـ على نفرتها من الناس ـ واوت اليه ، وأفرخت فيه . وربما كانت هذه الصورة هي أبلغ الصور في التعبير عن الحسرة ، وإن كانت الاثافي السفع ، والنؤى ، وتحية الطلل ، والتسليم عليه ، لا تخلو من إثارة ريح الحزن في جوانب النفس .

ويطول بي القول لو عددت كل ما وصفه البدو ، مما يتصل ببيئتهم الطبيعية . إنهم وصفوا الصحراء ، والوادي ، والشِعب ، والغدير ، والسيل ، ووصفوا السماء والنجوم ، على ان وصف الغيث والبرق والطلل كان أكثر ما دار في شعرهم الذي وصلنا عنهم .

وصف الصيد :

وهناك فن آخر من الوصف وثيق الصلة بالبيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية ، ذلك هو شعر الصيد ،

---

(١) الربع : موضع الدار حيث أقاموا في الربيع . انعم صباحاً . : تحية ودعاء للدار

ومع أن العرب كانوا يكثرون صيد الظباء والأرانب والثعالب والطيور بأنواعها، فاننا لا نجد وصف الصيد كثيراً في أشعارهم .

نعم يندر أن نجد جاهلياً يصف ناقته الا ويشبهها بحمار الوحش ، ويندر أن نجده يتعرض لوصف حمار الوحش الا ويقرن به الصائد . على انه يبدو لي انهم يحتقرون الصائد او لا يحبونه على الأقل لانهم في كل حديثهم عنه ـ أو في أغلبه ـ يجعلون حمر الوحش تفلت منه ، برغم دربته ودرايته في صيده .

أما الحديث عن الصيد ووصفه على أنه لذة تقصد لذاتها ، فلا نجده في أشعارهم إلا قليلا . فامرؤ القيس وصف صيد الظباء حين أراد أن يدل على قوة حصانه ؛ وقد اتخذ من حصانه نواةً أو قالباً للوصف ، وظل يتخذ صور الصيد يصفها ، ويعرضها ليظهر بها عتق حصانه وقوته وسرعته . وكذلك فعل زهير في قصيدته : « صحا القلب عن سلمى واقصر باطله » وفي كافيته :

« بأنَّ الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوَّدوك اشتياقاً أيةً سلكوا »

ومع أنه أخبرنا أنه كان يركب فرسه يصطاد عليه الحمر ، فانه شُغل بوصف فرسه بان شبهها بالقطاة ، وراح يصف القطاة ولم يصف لنا شيئاً من طرادة أو صيده لهذه الحمر ، التي يخرج لصيدها على فرسه . وهذا الفن ، مع أنه ألصق بالبيئة الجاهلية التي كثر في صحرائها الحيوان والطير ،

واعتاد اهلها أن يقتاتوا على لحم هذه الحيوانات والطيور ، فاننا نراه اقلّ مما يجب أن يبدو فيه . وربما كان ضياع الشعر الجاهلي سبباً في هذا .

على أن هذا الفن نراه يبدو رائعاً في بيئة العراق في العصر العباسي الثاني . ونجد الخلفاء والولاة والامراء ، والطبقة العالية من الناس يعشقون الصيد ؛ يعشقونه لذته ، لا لما فيه من القوت ، ونجد الشعراء يصفونه ويفيضون في وصفه .

البيئة الاجتماعية

الجاهليون والحرب : وكثرت بينهم الحروب حتى اعتبروا الغارة والسلب مصدراً من مصادر الرزق ، يفخرون به ولا يخزون منه . وكان الثأر ـ الذي ، غالوا بالتمسك به ـ يهيجها ويبعث جذوتها . وصبغت الحرب حياتهم ، وجعلتهم يمدحون بالشجاعة ويفخرون بالقوة والبأس ، ويهجون بالجبن والضعف ؛ وكرهوا الانثى واسودت وجوههم إذا بُشِّروا بها ، لانها ليست لها قوة الرجل ولا تغني غناءه في الحرب ، وعُنوا بانسابهم ؛ ينضم بعضهم إلى بعض ليكثروا ويغلبوا في الحرب ، وعددوا زوجاتهم ، وفخروا بكثرة الأولاد والقبيل ، لهذا السبب عينه . وهكذا نرى الحرب تنفذ إلى كل طوية في نفوسهم ولا تتركها من غير أن تؤثر فيها ، ولا عجب بعدُ إذا انطقتهم الحرب وعُددها بالشعر ، وقد مرّ بنا انهم احبوا الخيول وقدموها على أنفسهم في الطعام والشراب لغنائها في الحرب .

وقد ننظر في شعرهم الذي قالوه في الحرب فنراه كثيراً جداً ويكفينا ان ابن سلام توهّم أنّ الامم التي لاحروب لها تكون قليلة الشعر ، وقد أسند قلة الشعر عند قريش وأهل الطائف لقلة حروبهم وفاته ان

الشعر فيض من النفس يصور بيئة الانسان التي يعيش فيها ، وان شعر البادية انما دار اكثره حول الحرب لأن حياة البادية قد ملئت بها . وكان حريا باهل الحاضرة أن يكثر شعرهم وان يمتلىء بتصوير حياة المدينة الهادئة ، كما امتلأ شعر البدو بتصوير حياة الصحراء المضطربة . ولا يعنينا من هذا الشعر ما قيل منه في الفخر ولا في رثاء من قتلوا في الحروب ، وانما الذي يعنينا منه ، هو ما اتصل بوصف المعارك وعددها .

* * *

وصف المعارك :

ونظر في هذا الشعر الوصفي فترى الجاهليين في الغالب يجملون فيه ولا يفصّلون في وصف المعركة ، ويتركون الخاتمة توحي إلى القارىء بما كان قبل الخاتمة . ومن جميل هذا الوصف الموجز للمعارك - عندي - قول عمرو بن كلثوم في معلقته .

وكنّا الأيمنينَ إذا التقينا ... وكانَ الأيسرينَ بنو أبينا (١)

فصالوا صولةً فيمنْ يليهم ... وصُلْنا صَولةً فيمنْ يَلينا

فابوا بالنِهاب وبالسبايا ... وأبنا بالمُلوكِ مُصفّدينا (٢)

وقد صور المعركة بمثل ايجازه هذا حين قال :

---

(١) يصف غناءهم في حرب نزار واليمن عند مقتل كليب وائل

(٢) النهاب : الغنائم والواحد نهب . الأوب : الرجوع . والتصفيد : التقييد . يقال صفدته أي قيدته وأوثقته . يقول : « فرجع بنو بكر مع الغنائم والسبايا ، ورجعنا مع الملوك مقيدين . أي اغتنموا الأموال وأسرنا الملوك

نَجُذ رؤوسهم في غير بر ... فما يدرون ماذا يتقونا (١)

كأن سيوفنا فينا وفيهم ... مخاريق بايدي لاعبينا (٢)

كأن ثيابنا منا ومنهم ... خضبن بأرجوان أو طلينا (٣)

وننظر في وصفه هذا فيخيل الينا أنه يصف لعبة جميلة من اللعب ، لا يصف معركة يفزع فيها الناس . وكذلك شأن العربي ، انه يحب الحرب ويعشقها ، بل هي ـ عنده ـ اولى لذاته (٤) ، وهو من اجل ذلك لا يصبغ المعركة بالخوف ؛ فالسيوف كأنها مخاريق بايدي اللاعبين ولم يقل عمرو بن كلثوم هذا عن قبيلته وحدها ، ولكنه قال « فينا وفيهم » والثياب خضبها الدم حتى كأنها قد صبغت بالارجوان ولم يدّع هذا لقبيلته وحدها أيضاً بل قال « منا ومنهم » .

ويوجز مثل هذا الايجاز سلامة بن جندل حين يصف المعركة والطعان ؛ ويصف اعداءه بانهم نجوا بخيولهم وقد عاف بعضهم درعه لينجو خفيفاً بنفسه .

---

(١) الجذ : القطع : في غير بر : في عنف . ولا يدرون ماذا يتقونا : يحذرون منا من القتل وسبي الحرم واستباحة الأموال و ...

(٢) المخاريق : جمع المخراق وهو سيف من خشب يلعب به

(٣) الأرجوان : صبغ أحمر شديد الحمرة ،

(٤) ينظر ديوان امرىء القيس ، في أبياته :

« وأصبحت ودعت الصبا غير أنني ... اراقب خلات من العيش اربعا »

ضممنا عليهم حافتيهم بصادقٍ ... من الطعن حتى أزمعوا بتفرُّق (١)

كأن مُناخاً من قُيون ومنزلاً ... بحيث التقينا من أكف وأسوُق (٢)

كأن اختلاءَ المشرفيّ رؤوسهم ... هويُّ جنوبٍ في يبيسٍ محُرَّق (٣)

لدن غُدوةً حتى أتى الليلُ دونهم ... ولم ينجُ إلا كلُّ جرداء خيفق (٤)

فألقوا لنا أرسان كل نجيبةٍ ... وسابغة كأنها متنُ خرنق (٥)

وسلامة يشيع في جو الوصف ما أشاعه عمر بن كلثوم في وصفه من المرح في الحرب، ولكنه يعني بوصف الأصوات في المعركة أكثر من صاحبه، فالتقاء الأكف والسيوف بعضها ببعض ووقعها في الخوذ والدروع يحدث صلصلة كصلصلة القيون، وجذ الرؤوس يحدث مثل صوت الريح تمر بالهشيم أو اليبيس من العشب. وفي وصفه لهذه الأصوات خفة حتى كأنه يطرب لوقعها طربه لوقع أصوات آلات الطرب.

---

(١) ازمعوا: هموا، عزموا.

(٢) المناخ: محل الاناخة. القيون جمع قين وهو الحداد.

(٣) الاختلاء: القطع. المشرفيّ: السيف المشرفي: المنسوب الى مشارف الشام. الجنوب: ريح الجنوب. اليبيس: العشب اليابس.

(٤) الخيفق: الفرس السريعة.

(٥) السابغة: الدرع التامة الطويلة، من سبغ الشيء سبوغاً أي طال الى الأرض. الخرنق: القتى من الأرانب، تشبه الدرع بمتون الخرانق في لينها وملامستها، قال الراجز: «لينة المس كمتن الخرنق».

ومع أن عمرو بن كلثوم وسلامة بن جندل قد جعلا جو الوصف سيوفاً ودماء وخيلا تكر واخرى تهزم ، الا انهما اسبغا عليه من نفسيهما المرحة ما يحببه الى القارىء ولا ينفّره منه . وكذلك شأن الجاهليين في أكثر ما وصفوا من المعارك .

وصف السلاح :

ووصفوا عدد الحرب ؛ وقد كثر هذا في شعرهم ولا عجب فاغلب هؤلاء الشعراء الذين وصلتنا أخبارهم كانوا فرساناً يشتركون في الحرب فيصفون ما رأته اعينهم أو أحسته أنفسهم .

وقد شهر اوس بن حجر بانه أوصف الشعراء الجاهليين للسلاح . واسلحتهم لا تعدو الرماح والسيوف والدروع والبيض والقوس والسهام وقد وصفوا هذه الآلات جميعاً وكانوا يوجزون في وصفها مثل ايجازهم في وصف المعارك . وقد نجدهم يفصلون بعض الشيء كالذى فعله الشماخ ابن ضرار حين وصف قوساً لصائد ، فذكر كيف زرعت هذه القوس وكيف عنى بها صاحبها وكيف ساومه عليها الصائد وكيف ندم على بيعها ، وفعل فعلهم حين يتتبعون حمر الوحش ساعة يشهون بها الناقة . على ان مثل هذا الوصف لآلات السلاح قليل في اشعارهم . ومن المشهور في وصف الرمح قول اوس بن حجر :

وانى امرؤ اعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشر أعصلا (١)

(١) الاعصل : المعوج ، يقال في انيابه عصل . ومن المستعار امر اعصل

أصم رديني كان كعوبه ... نوى القسب عراصاً مزجاً منصلا (١)

عليه كمصباح العزيز يشبه ... لفصح ويحشوه الذبال المفتلا (٢)

وهو وإن وصف الرمح في بيتين اثنين فقط إلا أنه أوحى بإيجازه هذا بما لا توحيه الصفحات الكثيرة. فالرمح أصم رديني وكعوبه كنوى القسب في تماسكه وصغره وصلابته، وهو مع هذه الصلابة عراصاً، أي لدناً مهتزاً، ثم هو يتوهج رأسه توهج مصباح العزيز شبه ليوم عيد الفصح.

وقد أشاع في وصفه لهذا الرمح حبه له وإن لم يشر اليه. فالعرب كانوا - وما زالوا الى عهدنا - شديدي الغرام بالتمر وتمر القسب هذا الذي شبه كعب الرمح بنواه من أحسن التمر، ولفظة «العزيز» و«عيد الفصح» توحيان للقارىء بنشوة الشاعر وفرحه.

ووصف الدرع بأنها مما اعده للحرب مع الرمح فقال:

وأملس صولياً كنهي قراره ... أحس بقاع نفخ ريح فأجفلا (٣)

---

(١) الأصم: الرمح الأصم. الردينى: نسبة الى ردينة وهي امرأة في الجاهلية كانت تسوي الرماح بخط هجر. الكعوب: عقد الأنابيب. القسب: تمر يابس صلب النواة. العراص: المهتز، يقولون رمح عراص المهزة. الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح، وأزججت الرمح وزججته: أي جعلت له زجاً. فهو رمح مزجاً منصلا: أي ذو نصل.

(٢) الفصح: عيد من أعياد النصارى. الذبال: جمع الذبالة: وهي الفتيلة.

(٣) الأملس: الناعم، وهو الدرع. النهي: بكسر النون الغدير، اذا انجفل من الريح نشأت على صفحتيه حلقات صغيرة بيضاء لامعة تشبه الدروع.

كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلعاً من النجم أعزلا (١)

تردد فيه ضوؤها وشعاعها فأحصن وأزين لامرئ إن تسربلا

وهو في أبياته في وصف الدرع تطلع علينا نفسه الفرحة بما شبه به الدرع . فالغدير نفحت فيه الريح وجعلته يتموج يشبه حلق الدرع في شكله . وأهم من هذا عندي ـ ما توحيه هيئة الغدير الى نفس العربي وقد ألهبه حر الصحراء وحرقه الظمأ وأعوزه الماء . إن صورة هذا الغدير تبعث الى نفسه الراحة بل النشوة أيضاً .

وننظر اليه ـ بعد أن وصف لألاءه والتماعه ـ إنه لم يجد فيه أداة وقاية فحسب ، ولكنه وجد فيه ثوباً يلبس للتزين والتجمل أيضاً . وقد عبر عن عجبه بجماله بصيغة التعجب وهي أبعد ما يستطاع التعبير به من الصيغ . ووصف السيف بقوله :

وأبيض هندياً كأن غراره تلألؤ برق في حيي تهللا (٢)

اذا سل من غمد تأكل أثره على مثل مسحاة اللجين تأكلا (٣)

كأن مدب النمل يتبع الربا ومدرج ذر خاف برداً فأسهلا (٤)

---

(١) الطلع : المكان المرتفع . النجم : هو من النبات ما لم يكن على ساق . قال الله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان » . الأعزل : المتجرد .

(٢) الهندي : السيف المطبوع من حديد الهند . الغرار : الحد . الحيي : السحاب المسف ، ومنه دعاؤهم « سقاكم الحيي » .

(٣) تأكل أثره : توهج واشتد بريقه .

(٤) الذر : جمع ذرة ، وهي أصغر النمل .

على صفحتيه بعد حين جلائه كفى بالذي ابلى وأنعتُ منصلا

والبرق الذي شبّه لمع السيف به، يوحي لنفس العربي بالمطر والغيث وماذا وراء هـــذا عنده؟ وشبه رونقه ساعة تتأمله العين بديباج النمال صاعدة يقابلها مدارج ذرها بطة، وقال «تأكل أثره» وهو كناية جميلة عن اشتداد لمعانه وبريقه حتى كأن أجزاءه يتداخل بعضها في بعض.

ووصف القوس وأبدع في وصفها ثم صار الى الكنانة والسهم حتى اذا أكمل عدد السلاح وصفاً قال:

فذاك عتادي في الحروب اذا التقت وأردف بأسٍ من خطوبٍ وأعجلا

واوس بن حجر لا ينفرد بوصف الســـلاح. ونكاد نقول إننا لا نعرف شاعراً جاهلياً لم يصف المعارك وما يتبعها وإنما شهر اوس بهذا - على ما يبدو لنا - لأنه جمع وصف السلاح كله في قصيدة واحدة.

* * *

الجاهليون والخمر:

وأثرت حياة الحرب في حياتهم الاجتماعية فدفعتهم الى الخمر، فالمحارب يستعين بشيء منها لتبعث فيه النشاط من جهة ولتكسبه عدم المبالاة فتمكنه من الهجوم واستقبال الموت بغير خوف من جهة اخرى. وكان الروم والفرس يتزودون بشيء منها في الحروب، وكان العرب يعرفون ذلك. يقول ابن قتيبة في كتاب الاشربة «ان العباس بن مرداس ترك الخمرة وكان معاقراً لها فقيل له: لم تركت الشراب وهو يزيد في سماحتك؟ ويقول ان المسلمين اصطبحوا بشيء من

الخمر يوم بدر لتزيدهم بأساً وشجاعة ». ونحن ننظر الى الخمر فنراها تلازم الحروب حتى لقد قال بعض المتحدثين عن الثورة الفرنسية إن انهار الخمر كانت تجري فيها بجانب انهار الدماء. هذا من جهة ومن جهة اخرى ان الناس في عصر الحرب يشعرون ان العمر قصير وان عليهم ان يتمتعوا بملاذ الدنيا ما استطاعوا ومن اجل ذلك هم يقبلون على الخمر والشراب. وسبب آخر هو هذا الاضطراب الاجتماعي الذي تبعثه الحرب ، وربما كان هذا في حياة البادية أظهر منه في حياة الحاضرة، فالقبيلة تصبح وكل شيء فيها هادىء ثم تمسي فاذا هي قد اغير عليها وفقدت نعمها ورجالها فلا يبقى أمامها الا أن تبحث عن الخمر تغرق فيها أحزانها . ولم يكن شرب الخمر عندهم امراً مذموماً بل كانت عادة محمودة يفخر بها الحي ويمدحه بها الشعراء . وكانت منقبة من مناقب الميت اذا أرادوا رثاءه وتعداد مناقبه.

* * *

وصف الخمر:

من هنا نشأ عندهم شعر وصفي كثير وصفت به الخمر وأوانيها وسقاتها . وكانت الخمر تستتبع الغناء فتعرضوا بعض التعرض لوصف الغناء أيضاً . وكما شهر اوس بانه أشهر وصاف السلاح شهر الاعشى بانه أشهر وصاف الخمر ، وقد ظل الشعراء الاسلاميون الى عهد ابي نؤاس والى ما بعد ذلك يرددون معانيه حين يصفونها .

والخمر وصفوها ببساطة وايجاز وذلك ديدنهم في اغلب ما وصفوا ، فقالوا عنها أنها صافية ، وقد يشبهونها بعين الديك صفاء كما يقول الهذلي :

وما ان فضلةٌ من افرعات كعين الديك أحصنها الصروحُ

وقد يبالغون فيقولون انها لا تحجب ما وراءها لصفائها كما قال سلامة بن جندل :

صرفٌ ترى قعر الاناء وراءها تودي بعقل المرء قبلَ فواقِ

ينسى للذتها أصالةَ حلمه فيظلُّ بين النوم والاطراقِ

ولندرة الماء عندهم تعرضوا لوصف الماء الذي يمزح بها فصاروا يحكون تاريخ هذه القطرات منذ ان تكونت في السحاب الى ان اخذها العربي وخلطها بكأسه .

الآنية والسقاة : وكانوا يصفون لونها يشبهونه بالدم أو دم الغزال ، ويصفون أوانيها فلا يزيدون على ان الابريق ابريق فضة وان الاداوة اداوة مقيرة . وقد يتعرضون لوصف الزجاجة فلا يزيدون على انها ذات اسرّة كما قال عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامة بعدما ركد الهواجرُ بالمشوف المُعلَمِ (١)

بزُجاجة صفراء ذات أسرّةٍ قُرنتْ بأزهر في الشمال مفدَّمِ (٢)

---

(١) المدامة : الخمر ، سميت بها لأنها اديمت في دنها . الهواجر : جمع هاجرة وهي أشد الأوقات حراً . المشوف : المجلو (يريد به الدينار المجلو المنقوش) وعرب الجاهلية يفخرون بشرب الخمر لأنها من دلائل الكرم عندهم .

(٢) الاسرة : جمع السر والسرور وهما الخط من خطوط اليد ، والجبهة وغيرها . . . الأزهر : الابريق الأبيض . المفدم : مسدود الرأس بالفدام ، والفدام : ما يوضع في فم الابريق ليصفى به ما فيه .

وقد جُنّ الشعراء الاسلاميون ممن وصفوا الخمر بقول عبيد:

كأن ابريقهم ظبيٌ على شرفٍ مُفدّمٌ بسبا الكتان ملثومُ

وداروا حوله وعرضوه بما لا يحصى من الصور.

وتعرضوا لوصف السقاة فوصف الأسود بن يعفر ساقيه بانه اغن منطّق قد لبس القراطق وصبغ اصابعه بالفرصاد. وكانوا اذا وصفوا الغناء لا يعدون ان المغنية ذات غنة في صوتها او ذات صحلة سببتها لها الخمر. يقول عبيد:

ومُسمعة قد أصحلَ الشُرب صوتها تأوّى إلى أوتار أجوفَ مجنوبِ (١)

ولست اريد أن افصل في هذا الموضوع - موضوع الخمر - وقد سبق ان كتبت فيه رسالة من قبل (٢).

---

(١) المسمعة: المغنية. الصحل: بحة في الصوت. أجوف مجنوب: يقصد العود، - آلة الطرب -.

(٢) ينظر: «تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى ابي نؤاس» تأليف جميل سعيد طبع مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٤٤.

مميزات الوصف الجاهلي

وننظر في هذا الوصف نجملة فنجد الفاظه قد اشتقت من بيئة الصحراء. ويندر جداً أن نرى فيه الألفاظ التي تدور في البيئة النهرية فالنهر والسفينة مثلا نكاد لا نعثر عليهما الا في النادر. وتبدو هذه الالفاظ غريبة بعض الشيء. وربما كان سبب غرابتها بعدها عن بيئتنا وعن استعمالنا وتبدو غرابتها أيضاً من هذه الدقة عندهم في تسمية اعضاء الحيوان والتدقيق في التفريق بين كل عضو وعضو، وجارحة وجارحة، ونرى هذا واضحاً في وصفهم للابل ولحمر الوحش.

الالفاظ: ونراهم في تعابيرهم يميلون في الغالب الى استعمال هذه الالفاظ بما وضعت له على الحقيقة. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على غنى اللغة البدوية وملاءمتها للتعبير عن كل ما يدور في الصحراء وما يجول في ذهن العربي وصفه.

الايجاز: وهم يميلون الى الايجاز في وصفهم، وكثيراً ما يعتمدون على الاشارة أو اللمحة وقد رأيناهم يصفون المعركة بأبيات قليلة لا يعدون فيها ذكر أولها ثم ذكر خاتمتها، أما ما بين ذلك

فيترك كونه لخيال السامع . وهذا الوصف أفعل في النفس من الوصف التفصيلي لأنه يدع كل سامع يتخيل على قدر ما تسعفه ذاكرته من الخيال وعلى قدر ما اوتي في هذا الموضوع الموصوف من تجارب . والايجاز طبيعة لهم لأن بيئتهم لا تسعفهم بالصبر والأناة .

وقد جرهم هذا الى جعل جملهم وعباراتهم قصيرة غير طويلة ، وجرهم هذا الى أن جعلوا البيت الواحد من القصيدة وحدة مستقلة بذاتها ولم يعلقوه بما سبقه ولا بما يليه .

الاطناب :

وبقدر ما نرى لهم من الايجاز في حديثهم عامة وفي وصفهم خاصة نرى لهم شطحات في التفصيل والاطناب تحار فى سببها ، كأن نرى شاعرهم يريد أن يصف الماء الذي مزجت به خمرته بالصفاء ـ كما في شعر امرىء القيس مثلا ـ فيروح يحكي تاريخ هذه القطرات منذ ان كانت في السماء سحابا وانعقدت مطراً في الجو وتساقطت على الارض الى ان أخذها هو وخلطها بكأسه . ونرى مثل هذا الاطناب أو التفصيل في وصفهم الناقة وتشبيهها بحمار الوحش ؛ انهم يحدثوننا عن الحياة الحمر الوحشية وعلاقتها بعضها ببعض ويصفون الطبيعة كاملة من حولها ، وكان يكفي ان يشير شاعرهم الى سرعتها التي أراد أن يصف بها سرعة ناقته ويكتفي . ولهم مثل هذا حين يصفون القوس كما في شعر الشماخ :

الخيال :

وخيالهم بسيط قريب . انهم لا يبعدون عما في بيئتهم ولا يغربون ولا يتعمقون . وعلة ذلك انهم لم تكن لهم فلسفة ولا كانت بيئتهم تضطرهم الى بحث عقلي يدعو الى التفكير العميق فيؤثر ذلك في شعرهم .

* * *

أما وصفهم من الناحية الفنية فهو عظيم القيمة ، انهم يتبعون الوصف الذاتي في اغلب ما يصفون . وشاعرهم يلبس ما يصف لباس نفسه ؛ يبث فيه الحياة وإن كان الموصوف مما لا يحس ولا يتحرك . وقد نرى هذا شائعاً في اوصافهم للبرق والغيث كالذي مر بنا من شعر امرىء القيس بل نراهم يبثون الحياة في الطلل والدمنة ويجعلونها تشعر — كما يشعر شاعرهم — بالحزن ، حين ترحل اهلها عنها وحين صارت مأوى للظباء وبقر الوحش . اما حمار الوحش الذي اعتادوا وصفه حين يصفون موقفهم ، فهو العربي بمعاملته لنسائه وبشجاعته ودفاعه عن نسائه ونفسه .

ويبدو لنا ان انفسهم ابداً ضاحكة مستبشرة رغم عيشتهم بتلك الصحراء التي تتناوح فيها ريح السموم وتلهبها الهاجرة . يصفون الحرب وعددها فيهشون ويفرحون بها ، ويصفون الطبيعة حيها وميتها فيبثون في الموصوف نشوة وفرحاً هما صورة انفسهم . ولا نعرفهم يصبغون الموصوف بصبغة قاتمة إلا اذا كان الموصوف دمنة او طللا يهيج لهم عهد الأحبة ، ويذكرهم به .

وهم في الكثير من وصفهم يتبعون الطريقة الإيحائية ، وهي افعل طرق الوصف في نفس السامع . إنها تحضر الصورة في خيال السامع بأن تصف صورة اخرى هي كالنتيجة لها ، كهذا الذي يريد ان يصف الفرح فيصف انفراج شفتيه وانبساط اساريره او يريد ان يصف الحزين فيشير الى اطراقه والى اغماض عينيه . والى حنى رأسه — وقد رأيناهم يتبعون هذه الطريقة حين يصفون الاطلال . انهم يشيرون الى الآثافي السفع والى الظباء تسرح وتفرخ فيها فيعلم السامع من ذلك ان هذه الديار قد هُجرت وطال هجرانها .

ونأخذ عليهم ان وصفهم تتكرر صوره ويشبه بعضه بعضاً ، فوصفهم للطلل واحد ، وكلهم يشبه ناقته بالحمار الوحش . وكلهم يصف هذا الحمار ويطيل في وصفه فيذكر معاملته لاتنه . ونجاته من الصائد الذي كمن له حيث يرد الماء . ونستطيع أن نقول إنهم أقدر على البيان والتعبير منهم على ابتداع المعاني . ولكن أنعلل اتفاقهم في هذه الأوصاف بان كلهم تقع عينه على هذه الصور وكلهم يتأثر بها ، وبان الصحراء تتشابه مظاهرها وتجري على هيئة واحدة فلا تنوع ولا تبدل ؟ . إني ارجح هذا لأني أرى وصف هذه المناظر في الغالب قد شاعت فيه العاطفة وصدق فيه التعبير . ونقرؤه فتتضح علينا عاطفة الشاعر وتعديتنا بما أحس في نفسه من حزن أو سرور . وهذا ما لا يتأتى للشاعر المقلد .

وآخذ عليهم أنهم لا يعينون وجهة النظر في الكثير مما يصفون ؛ نرى شاعرهم يريد أن يصف ناقته بالسرعة فيشبهها بحمار الوحش ، وكان عليه في مثل هذه الحالة أن يجعل السرعة في حمار الوحش هي نقطة الارتكاز التي يدير عليها وصفه ولكننا نراهم حين يصفون حمار الوحش يعنون بمعاملته لاتنه وبسوقها الى الماء وبنجاته من سهم الصائد . أما سرعته فقلما يتعرضون لوصفها . مع انها هي العرض الذي من أجله وصفوا حمار الوحش .

ورعا كان سبب هذا ان الطبيعة التي ينسجم بها الشاعر تنسيه نفسه وتنسيه انه إنما وصف هذا المنظر ليتخذه واسطة يشرح بها غيره .

الوصف فى شعر الحاضرة

واذا نحن جاوزنا البادية الى الحاضرة رأينا

شعر المناذرة والغساسنة :

المناذرة والغساسنة ليس لهم من الشعر ما يتفق مع ما روى لنا عنهم من حضارة واستقرار . فقد كنا نأمل أن نرى شعرهم صورة لوصف حياة المدن المتحضرة ببيوتها الثابتة وقصورها واسواقها ومزارعها ، كما رأينا شعر الصحراء وصفاً لحياة الصحراء الطبيعية والاجتماعية . وقد يقال ان هذا الشعر ضاع مع ما ضاع من الكثير من شعر العرب . على ان لاستاذنا الجليل أحمد امين بك رأياً [1] لا يسعنا الا ان نركن اليه وهو ان لغة المناذرة ولغة الغساسنة كانتا غير لغة قريش التي وصلنا بها ما وصلنا من شعر العرب .

المدينة :

وعلى اي حال رأى ابن سلام أن المدينة أشعر القرى العربية . ونحن - حين ننظر في شعر المدينة - نراه لا يختلف الا في القليل القليل عن شعر البادية ، ذلك لان حياة المدينة كانت كحياة البادية لا يفرقها الا هذا الاستقرار الذي استعاض به المدنيون عن بيوت الشعر او الخيام بالأطم والحصون . اما النزعة القبلية فكانت

(١) ينظر فجر الاسلام للاستاذ احمد امين .

ملحوظة في المدينة مثلها في البادية . ويكفينا ان ابن الخطيم يقول في يوم ثأره :

متى يأتِ هذا اليومُ لا تُلفَ حاجة بنفسي إلا قد قضيتُ قضاءها

وكان للأوس والخزرج أيام لا تقل عن أشد أيام العرب في الصحراء هولاً ففي يوم الربيع اقتتلوا - حتى كادوا يتفانون - وحصنوا الذرارى في الآطام وظنوا أنه سيخلص الى ابنائهم ونسائهم وعظم الشر بينهم حتى ما يلقى رجل خارج من داره ولا من نخله إلا قتل... »

وصف الحرب والسلاح :

هذه الحياة انتجت لنا شعراً يدور جله حول الحرب ، وساعد على كثرة هذا الشعر ان كانت الحرب سجالا بينهم تنتصر الأوس مرة فيقول قيس بن الخطيم يفتخر بنصرها وتنتصر الخزرج مرة فيقول حسان بن ثابت يفتخر بنصرها ، ويرد هذا على هذا وهكذا .

ونظر في هذا الشعر الوصفي فلا نرى فيه جديداً عما يقوله الجاهليون . وهو لا يفرق في روحه ولا في تشبيهاته عما كان عند الجاهليين إلا ما نلمح فيه من ذكر الحصون والنخل اللذين يميزان حياة المدينة عن حياة البادية . وهو حماسة اكثر منه وصفاً للحروب . يقول قيس بن الخطيم في قصيدته :

ألمّ خيالٌ ليلى ام عمرو ولم يُلمِمْ بنا إلا لأمر (١)

(١) الم : زار ، او نزل ،

الى أن يقول :

فلستُ لحاصنٍ إن لم ترونا ... نُجالدكم كأنا شرْبُ خمرِ

وتحمل حربهم عنا قُريشٌ ... كأن بنانهم تفريكُ بُسْرِ (١)

زجرنا النخل والآطام حتى ... إذا هي لم تشيعنا لزجر (٢)

هممنا بالاقامةِ ثم سِرنا ... كسيرا حُذيفة الخير بن بدرا

متى تلقَوا رجال الاوس تلقوا ... لباسَ أساود وجلود نمرا

ونصدق في الصباح اذا التقينا ... ولو كان الصباحُ جحيم جمرِ

* * *

شعر اليهود :

وكثر الخمر في حياة المدينة لأن يهودها كانوا يحيون حياة الترف على ان الذي وصلنا من شعرهم ليس شيئاً ، ذلك لانهم عادوا الرسول الكريم فمقتهم المسلمون ولم يرو لنا من شعرهم إلا ما جيء به ليشهد على عداوتهم للرسول وللمسلمين . ولو وصلنا شعرهم كاملاً لما شككت في انني واجد فيه وصف ما يتبع مجالس الخمر من آنية وسقاة وغناء وسمر . وقد وصلنا في شعر حسان شيء لا نراه يفرق عما كان عند البدو الجاهليين في شيء ولا نراه يستحق الوقوف عنده .

وصف النخل :

والجديد في شعر المدينة عن شعر البادية هو وصف بعض الشعراء للنخل الذي تنبته ارض المدينة ولا تنبته الصحراء

---

(١) البسر : التمر قبل ان يكون رطباً ، ويريد ان بنانهم احمر من الدم .

(٢) الآطام : جمع أطم بضمتين وهي القصور ، او البيوت المبنية بالحجارة ، والآطام كثيرة بالمدينة المنورة : بلد الشاعر .

يقول ابو هلال العسكري « ومن اجود ما قيل في الطلع من الشعر القديم قول كعب بن الأشرف :

ونخيل في تلاعٍ جمةٍ تخرج الطلع كأمثال الأكف

وما أشك في أن هذا البيت قد اجتزىء من قصيدة لو رويت لنا كاملة لأرتنا شعور كعب بن الاشرف واحساسه نحو النخيل . على ان هذا الوصف الذي يعجب به أبو هلال وهو تشبيه الطلع بامثال الأكف ليس شيئاً عندنا . والذي سحر أبو هلال منه هذا التقارب بين الصورتين في الشكل ... صورة طلع النخل ، وصورة الاكف . وهو يستحسن وصف الربيع بن ابي الحقيق لليف في قوله :

أذلك أم غرسٌ من النخل مزرع بوادي القرى فيه العيون الرواجع

لها سعفٌ جعد وليف كأنه حواشي بُرود حاكهن الصوانع

وهذا الوصف جميل عندنا ؛ يرينا شعور الربيع نحو النخل ، بهذا الايحاء الذي توحيه لنا البرود التي حاكهن الصوانع .

اما شعر حسان بن ثابت رضى الله عنه ، سواء ما كان منه في الجاهلية أو الاسلام فهو لا يستحق أن نقف عنده من أجل مافيه من الوصف ، لانه يدور على مناقضة قيس بن الخطيم في الجاهلية وعلى مدح المناذرة والغساسنة ، ويدور على مناقضة شعراء قريش في الاسلام . وهو في كل احواله لا يختلف عن شعر البدو الجاهليين .

الوصف في صدر الاسلام

شعر المكيين :

واشرق الاسلام بنوره على الجزيرة العربية ، ولم يكن لمكة في جاهليتها شعراء يحسبون الى جانب ابن الخطيم وحسان بن ثابت مثلا . فلما ناصبت الرسول العداوة وهاجر الى المدينة وكانت وقعة بدر واحد والخندق ، هاجت شاعرية المكيين فقالوا في هذه الحروب وردّ عليهم المدنيون فنشأ لنا شعر كثير ملئت به كتب السيرة ، يدور كله حول هذه المعارك وقد كثّره وساعد على نموه ان كانت هذه الحرب سجالا . انتصر المسلمون في بدر ثم غلبهم المكيون وانتصروا عليهم في احد . وقال أولئك ورد عليهم هؤلاء .

على ان هذا الشعر ـ برغم ان الكثير منه متزيد فيه ، كما أشار إلى ذلك ابن هشام وابن سلام ـ فانه لا يفرق عن وصف الجاهليين ولا عن وصف المدنيين لحروبهم .

واذا نحن جاوزنا الحرب وما حولها فاننا لا نرى للمكيين شعراً وصفياً في هذه الحقبة .

* * *

وخفت الشعر بعد ان انتصر المسلمون . وكان بهذا الشعر الذي

قيل في حرب الرسول الكريم مع المكيين عاملاً كبيراً في خفوت الشعر عامة ، ذلك لان بعض الصحابة الكرام كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ مثلا ـ كان يكره أن يروى هذا الشعر الذي قيل في بدر أو احد أو الخندق لأنه يثير الحزازات بين المسلمين ، إذ يذكرهم بمن قتل من آبائهم واخوانهم أو أصدقائهم وذويهم في هذه الحروب .

واندفع المسلمون نحو الفتح فكانت واقعة اليرموك وواقعة القادسية هدموا في احداهما دولة فارس ، وهدموا في الاخرى دولة الروم ، وكانت وقائع كثيرة جداً غير هاتين الواقعتين . ونعجب غاية العجب حين لا نرى حول هذه المعارك شعراً حربياً يعادل بعض ما قيل في ايام العرب أو بعض ما قيل من الشعر في الحرب بين المسلمين وبين المكيين .

وننظر في كل ما روى لنا من الشعر في هذه الحقبة فلا نرى فيه شعراً وصفياً يستحق أن نقف عنده .

وقتل الخليفتان عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهما وحكم الامويون وهدأ الناس وانبعث الشعر ثانية . وشجع الأمويون على نشره واستغلوه في ايقاد نار العصبية بين القبائل ليشغلوهم بأنفسهم عن بني امية وعن الخلافة والملك .

جرير والفرزدق والأخطل : وننظر في هذا الشعر وقد عنى الناس منه بشعر جرير والفرزدق والاخطل ، ويندر أن نجد قصيدة واحدة لم تقل في مدح أو هجاء ، ونراهم حتى في مديحهم وهجائهم

لا يعدون المعاني البدوية ، أما وصف الحاضرة فنكاد لا نجده عندهم .

بقي جرير يبدأ بالغزل وذكر الطلل والبكاء عليه . واذا ذكر البرق ذكره على انه يهيج هواه ويذكره بالأحبة .

أهاج البرقُ ليلة أذرعاتٍ هوىً ما تستطيعُ لهُ طلابا

فقلتُ بحاجةٍ وطويتُ أخرى فهاج عليَّ بينهما اكتئابا

ووجد قد طويتُ يكاد منه ضميرُ القلب يلتهبُ التهابا

ويقول :

سمت لي نظرةٌ فرأيتُ برقاً تهامياً فراجعني ادكاري

واذا أراد أن يهجو الأخطل عيّره بأيام غلبت فيها تغلب ، أو فخر بايام كانت لتميم . وقد يصف حرب هذه الأيام بعض الشيء ، ويصف الدروع فشبهها بالغدير كما كان يفعل الجاهليون . يقول للاخطل :

سما لكم الجحّاف بالخيل عنوةً وانت بشطّ الزابيين تنوّحُ (١)

عليهم مفاضاة الحديد كأنها أضا يوم دجنٍ في أجاليد ضحضحُ (٢)

---

(١) الجحاف هو الجحاف بن حكيم السلمى ، كان جالساً بحضرة عبدالملك فانشد الأخطل بيته : « الاسائل الجحاف ... البيت » يعرض به ، فخرج مغضباً من عبدالملك وحرض قومه ، فكانت واقعة « البشر » وفيها غلبت تغلب وقتل عدد من رجالها

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والأضا : الغدران . الضحضح من الأرض : مايكون فيه ماء رقيق . الاجاليد : واحدها جلد ، وهو الارض الصلبة المستوية ، يقال : أجلاد وأجاليد .

وظلّ لكم يومٌ بسنجار فاضحٌ ويومٌ بأعطان الرحوبين أفضحُ (١)

وظل الأخطل يركب ناقته الى الممدوح يشبهها بالثور الوحشي أو بحمار الوحش ، ويقيم المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما كان يفعل الجاهليون :

كأنها بعد ضم السير جبلتها من وحش غزة موشيّ الشوى لهق (٢)

باتت الى جانبٍ منها يكفئه ليلٌ طويل وقلب خائفٌ أرق (٣)

باتت له ليلة هاجت بوارحها ومُرزمٌ من سحاب العين يأتلق (٤)

فالقطر كالؤلؤ المنثور ينمضه اذا اقشعرّ بـــه سربالة لثق (٥)

---

(١) يوم سنجار : كان يوماً ـ والعرب تسمى المعركة يوماً ـ لقيس على بني تغلب ، وذلك في الحرب التي كانت بينهم في الاسلام . أعطان الرحوبين : هو يوم البشر ، اوقع به الجحاف ببني تغلب .

(٢) جبلتها : يعني بدنها . غزة : رملة في ديار بني سعد بن تميم فيها أحساء جمة ونخل . الشوى : الغوائم . الموشى : الذي فيه نقط من سواد وبياض ، شبهه بالوشى

(٣) الضمير في منها يعود الى غزة . يكفئه : يميله تارة كذا وتارة كذا خوفاً من مطر او صائد ، ويجوز أن تكون ألهاء عائدة على شجرة وان لم يذكرها

(٤) بوارحها : نجومها ، وكل ريح تكون في نجوم القيظ فهي عند العرب بوارح ، وأكثر ما تهب بنجوم الميزان وهي السمائم . المرزم : السحاب الذي فيه رعد . والعين : عين السحاب . يأتلق : يبرق

(٥) لثق : مبتل . ويقصد بسربالة جلده

يلوذ ليلته منها بغرقدةٍ ... والغصن ينطف فوق المتن والورق (١)

حتى اذا كاد ضوء الصبح يفضحه ... وكاد عنه سواد الليل ينطلق

هاجت به ذُبَّلٌ مُسحٌ جواعرها ... كأنما هنَّ من نبعيَّةٍ شِقَقُ (٢)

فظل يهوى الى أمرٍ يُساق له ... واتبعته كلابُ الحي تستبق

يفرّج الموت عنه قد تحضّره ... وكدنَ يلحقنه أو قد دنا اللحق

لما لحقنَ به أنحى بمِغْوَلِه ... يملا فرائصها من طعنه العلق (٣)

فكرَّ ذو حربةٍ يحمي حقيقته ... اذا نحا لكلاها الروقُ يمتزق (٤)

فهن من بين متروكٍ به رمقٌ ... صرعى وآخر لم يُترك به رمقُ

والأبيات جميلة رائعة الوصف ، قد التزم الشاعر فيها وجهة النظر وهي سرعة العدو وقوته ، وهو الأمر الذي دعاه إلى تشبيه ناقته بالثور الوحشي وأطال في وصف الطراد بين الكلاب وهذا الثور ، وكان الاولى

---

(١) الغرقدة : واحدة الغرقد ، شجر عظام من العضاه او كبار العوسج . ينطف : يقطر . المتن : الظهر

(٢) ذبل ـ يعني الكلاب الذبل . المسح : الرقيقة المؤخر . الجاعرة : حرف الورك المشرف على الفخذ ، او مضرب الفرس بذنبه على فخذيه . الشقة : ماشق مستطيلا وقد شبهها من ضمرها ودقتها بقسي النبع

(٣) يقول : لما لحقت الكلاب هذا الثور أنحى عليها بمغوله أي بقرنه ، فملأ فرائصها ، ـ وهي من قوائم الفرس عند رجل الفارس ـ بالعلق : وهو الدم

(٤) ذو حربة : يعني قرنه . يحمي حقيقته : أي يحمي ما يجب عليه أن يحميه من جسمه . الكلية : الرقعة تحت عروة المزادة . الروق : القرن

له ـ من ناحية الفن ـ ان يجعل الثور ينجو من الكلاب ويفوتها بعدوه ليكون ذلك أبلغ في تشبيه الناقة به ، ولكنه أبى إلا أن يطبعه بطابع العربي الذي يحمي حماه ويأنف من الهزيمة ، فجعله يكر عليها ويتركها بين هارب وبين متخبط بدمه .

وليس هؤلاء الشعراء الثلاثة هم خير الشعراء وانما فضلهم الاقدمون لان الأقدمين عنوا بشعر المديح والهجاء وعنوا بالشعر الذي ينصر سياسة الدولة فأعاروا أشعار هؤلاء هذا الاهتمام الكبير .

* * *

الوصف في شعر الخوارج : وقد انشق بعض الأحزاب الاسلامية على الأمويين ، وكان الخوارج والشيعة أشهر هذه الأحزاب . أما الشيعة فقد ظلوا يعملون في الكتمان وليس في شعرهم شيء يستحق أن نقف عنده من حيث اهميته الوصفية . وأما الخوارج فقد نما عندهم شعر الحرب لكثرة حروبهم وكان شعراؤهم فرساناً يحضرون المعارك شأن الشعراء الجاهليين . ومع أن شعرهم ضاع أكثره ، فان هذا الذي وصلنا منه يذكرنا بما في شعر الحرب الجاهلي من عاطفة مشبوبة وايجاز متناه . ومن امثلة هذا ميمية قطرى بن الفجأة :

لعمرك إنى في الحياة لزاهدُ وفي الأرض مالم ألق امَّ حكيم

الى أن يقول :

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتىً في الحرب غير ذميم (١)

غداة طفت عَلماء بكرُ بنُ وائلٍ ... وعُجنا صدور الخيل نحو تميم (٢)

وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تعومُ وظلنا في الجلاد نعوم

فلم أرَ يوماً كان أكثر مُقعصاً ... يمجُّ دماً من فائظ وكليم (٣)

* * *

بادية الحجاز :

وفي الحجاز وباديتها شعراء، على ان شعرهم قد ضاع أكثره ولم يصلنا من شعرهم الا ما كان غزلا أو نحوه ، وكان الناس يغنّونه ساعة يسمر الخليفة أو الأمير . ويكاد شعر الحجاز الذي وصلنا والذي نُسب أكثره الى عمر بن أبي ربيعة لا يعدو الغزل وقصص الهوى .

ومع ان الحجازيين كانت لهم مجالس يغنيهم فيها المغنون والمغنيات ، وكانوا يحضرونها ويهشون لها ، حتى يحدث صاحب الأغاني أن عمر بن

---

(١) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، قاتل فيها الخوارج جيوش الدولة الأموية حتى تكسرت الرماح ، وعقرت الخيل ، وكثرت الجراح . وتضاربوا بالسيوف والعمد ، وقتل فيها زعيمهم نافع بن الازرق

(٢) علماء : أي على الماء ، والعرب اذا التقت ـ في مثل هذه المواضع ـ لا مان استجازوا حذف احداها استثقالاً للتضعيف ، لان ما بقي دليل على ما حذف فيقولون : « علماء بنو فلان »

(٣) مقعصاً : من أقعصه برمحه ، اذا طعنه فمات مكانه ، وقعصه كذلك . فائظ : من فاظ يفيظ ويفوظ ، فيظاً وفوضاً أي مات .

أبي ربيعة كان يشق ثيابه اذا سمع جميلة تغني بأشعاره ، مع كل هذا فان الوصف الذي نجده في شعر الحجازيين بهذه المجالس قليل ، كالذي يرويه صاحب الأغاني في عبد الرحمن بن أبي عمار الملقب بالقس يصف غناء سلاّمة : وهي الجارية المغنية التي فتن بها يقول :

الم ترها لا يُبعد الله دارها اذا رجّعت في صوتها كيف تصنعُ ؟!
تمدُّ نظام القول ثم ترده الى صلصلٍ في صوتها يترجّعُ

أو في قوله :

اذا أخذت في الصوت كاد جليسُها يطير إليها قلبُه حين ينظُرُ
كأن حماماً راعياً مؤدياً إذا نطقت من صدرها يتغشمرُ

وليس لدينا من شك في أن وصف الصوت من أصعب ما يتصدى الشاعر لوصفه ، على اننا سنرى ان الشاعر ابن الرومي قد برز في هذا الموضوع وانشأ فيه القصائد الطوال .

ولست أشك فى أن الحجازيين كانوا يحتشمون عن اذاعة هذه المجالس باشعارهم ، ذلك لما كانوا يتمتعون به من مكانة في نظر المسلمين في عامة أقطار الأرض .

أما شعراء بادية الحجاز كجميل وكثير والمجنون وغيرهم ، فقد شغلوا بالغزل والمديح ولم يأتنا من أشعارهم في الوصف ما يستحق أن نقف عنده .

ولا يفوتنا أن نقول إن الشاعر ذا الرُمّة كان وصافاً كبيراً ، يقول

ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء »... ويقول يونس النحوى عنه « وكان أحسن الناس وصفاً للمطر » وفي « الشعر والشعراء » انه أحسن الناس وصفاً للظبية وولدها .

وقصيدته « مابال عينك منها الماء ينسكب » قد جعلها خالصة لوصف الطبيعة ، وكان يقول عن نفسه فيها انه جن بها جنوناً . وقد أعجب به معاصروه من الشعراء حتى كان جرير يقول : « لو خرس ذو الرمة بعد قوله قصيدته : ما بال عينك منها الماء ينسكب ، لكان أشعر الناس »

وقصيدته هذه قصيدة وصفية طويلة جداً تبلغ مائة وواحداً وثلاثين بيتاً ؛ وصف بها حمار الوحش والصائد والظليم . على أن القصيدة لا جديد فيها عما كان يقوله البدو الجاهليون إلا هذا الانفعال وهذه العاطفة التي تلفها . وحق لذي الرمة أن يعبر عنهما بقوله : « إنه جن بها جنوناً » .

والمهم - عندي - في وصف ذي الرمة انه أسبغ على بعض مناظر الصحراء ثوب النفس العربية دخلها الاسلام (١) أما اذا جاوزنا هذا فلا نرى عنده جديداً عما كان يقوله البدو .

* * *

العصر العباسي الأول : ويبدو لنا - بعد هذا التطواف كله - إننا لم نعثر إلا الآن على شاعر حضري يمثل حياة المدن ويصفها كما وصف الجاهليون حياة الصحراء .

---

(١) انظر أبياته في الحرباء ص ٢٦ من هذا الكتاب .

بشار :

لقد قالوا عن بشار إنه شاعر مجدد ، ولكن شعر بشار ضاع ، ولم يصلنا منه إلا ما نحا فيه منحى الجاهليين ، أو ما مدح فيه الامراء بالمعاني البدوية ، أو تغزل فيه . ولم يبعد في كل شعره هذا عن المعاني الدائرة فيما سبقه من الشعر . ونحن لا نطلب من بشار أن يصف ما يراه الناس من حياة الحاضرة وقد عاش كفيفاً لا يبصر .

أبو نواس :

واذا نحن جاوزنا بشار بن برد جئنا الى أبعد الشعراء صيتاً ، ذلك هو الحسن بن هاني « ابو نواس » ، لقد ثار على القديم وحاول أن يبتعد عنه ما وسعه الابتعاد ، وأهاب بالشعراء أن يبعدوا عن وصف الطلل والدمنة . وأعلن نسبه في الموالى ، فثار على العرب وحاول أن ينال منهم في حياتهم وعاداتهم ، وأن يقلل من قيمة شعرهم وأعلن كل هذا في أشعاره بلهجة جريئة قادحة . وكان يريد من الشعراء أن لا يصفوا إلا ما يبصرون وما تقع عليه أعينهم من حياة الحاضرة .

ومع كل هـــذا ، فقد كان مضطراً أن يمدح الخلفاء والامراء بما يعجبهم لأن جائزته متعلقة برضاهم ، فكان يضطر أن يجري على غير سنته وغير طبيعته ، وأن يركب الى الممدوح ناقة ، وأن يدّعي أن السير أتعبها وأهزلها ، ويصف الفيافي مرت بها والزبد يتطاير على أشداقها كالقطن ، كل هذا وهو يقيم مع الخليفة أو الأمير في بغداد ، ولم يركب اليه ناقة ، ولم تكن بينه وبينه صحراء .

على أنه اذا جاوز المديح كان أكثر اندماجاً في حياة الحاضرة ، وقد جن بالخمر جنوناً ، فوصفها بما لم يسبق اليه ، وعشق الطبيعة تحيط بمجالس الخمر ، فوصفها ، ووصف الحانات الحضرية والكؤوس يشرب بها الحضر ، وتنقش عليها صور الفرس ، وقد أبدع في هذا . ونظم وحده في الخمر ما يعدل كل ما نظمه العرب فيها . ولعب بالكلاب زمناً فقال في الطرد . والذي وصلنا من أشعاره وحده يربى على ما وصلنا من الشعر العربي كله الى عهده في هذا الفن أيضاً .

والذي يهمنا من هذا الشاعر أنه وجّه الشعراء الى الحاضرة ، ودعاهم الى وصف ما تبصره أعينهم من بيئتهم الطبيعية وبيئتهم الاجتماعية . وسنرى أن الشعراء في هذه الحقبة التي تلي عهد أبي نواس مباشرةً ، وهي الحقبة التي نريد الحديث عن وصفها في رسالتنا هذه ، قد اتجهوا الى وصف الحاضرة فأجلوها وأفاضوا فيها ، كما وصف الشعراء الجاهليون حياتهم البدوية .

ولسنا نزعم أن الشعراء في هذه الحقبة قد هجروا الشعر الجاهلي وقطعوا كل صلة بينهم وبينه ، فذلك ما لم يحدث في تاريخ الأدب العربي . وما لم يفعله الشعراء حتى عصرنا هذا الذي نعيش فيه ، ولكن الذي نراه هو أن هذا العصر كان ثورة على الشعر الجاهلي نزع فيه الكثير من الشعراء الحضريين الى فك قيودهم منه . على أنهم وإن كسروا بعض قيوده

بقي جباراً يسيطر عليهم ، ويعمل في أنفسهم من حيث يشعرون ولا يشعرون .

وما دام الشعراء في هذه الحقبة التي نتحدث عنها قد عمدوا الى وصف البيئة الحضرية ـ وهي تخالف البيئة البدوية بطبيعتها وبنظم حياتها الاجتماعية ـ فلابد لنا من الحديث عن بيئة العراق الطبيعية أولاً ، ثم الحديث عما وصفت به هذه البيئة ثانياً ، وسنفعل مثل هذا في الحديث عن البيئة الاجتماعية وما وصفت به أيضاً . ولابد لنا قبل الدخول في هذا أن نحدّد ما نعنيه في كلمة « العراق » وما نعنيه في « شعر العراق » .

ماذا نعني بالعراق

وماذا نعني بشعر العراق

يختلف جغرافيو العرب القدماء فيما تعنيه كلمة العراق اختلافاً كبيراً. واختلافهم هذا ناجم عن امرين اثنين، احدهما ان نظر فريق منهم الى والي العراق أيام حكم الأمويين، والى الأقاليم التي كانت تمتد سيطرته عليها. وكان هذا الوالي يحكم اقاليم كثيرة ومع ذلك كان يسمى والي العراق. يقول المدائني [1] « ومن ولي العراق فقد ولي البصرة والكوفة والاهواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان » وطبيعي اننا لا نستطيع أن نسمي هذه الأقاليم عراقاً وإن تبعت للعراق أو لواليه حيناً من الزمن.

ونظر آخرون إلى لفظة العراق من حيث معناها اللغوي، وحاولوا أن يطبقوا أرض العراق على مدلولها. واختلف هؤلاء في مدلول اللفظة لغوياً واتسع خلافهم، فاتسع خلافهم في تحديد العراق أيضاً. قال ابن الأعرابي « انما سمي العراق عراقاً لانه سفل عن نجد ودنا من البحر،

---

(١) معجم البلدان لياقوت، طبعة محمد أمين الخانجي الجزء السادس، ص ١٣٣

اخذ من عراق القربة وهو الخرز الذي في اسفلها » . وقال الخليل « العراق شاطىء البحر ، وسمي العراق عراقاً لانه على شاطىء دجلة والفرات مداً حتى يتصل بالبحر على طوله ... » وقال ابو عمرو : « سميت العراق عراقاً لقربها من البحر ، واهل الحجاز يسمون ما كان قريباً من البحر عراقاً . »

ونظر آخرون الى لفظة العراق على أنها فارسية معربة ، وقد اختلف هؤلاء في أصل اللفظة الفارسية ، فكان البون بينهم كالبون بين اولئك الذين اختلفوا في مدلول لفظة العراق حين حسبوها عربية . قال الأصمعي (١) « العراق معرب ايران شهر » وقد رأى ابن خرداذبة هذا الرأي ، قال وهو يتحدث عن افريدون الذي قسم الأرض بين أولاده « وملّك ايران وهو ايرج على ايرانشهر ، وهو العراق ، فالاكاسرة ملوك العراق من ولده » . وقال حمزة في الموازنة « والعراق تعريب ايراف بالفاء ومعناه مغيض الماء وحدور المياه » . وقال آخرون : العراق هو اقليم بابل . واختلف هؤلاء في تحديد بابل أيضاً ، فعدها بعضهم قرية صغيرة ، وعدها بعضهم تشمل الأقليم كله .

والذي يهمنا الآن ان نعرف : اي بقعة من الارض كانت تطلق عليها لفظة العراق في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ؟ يقول الاصطخري (٢)

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٢) كتابه مسالك الممالك ، طبعة اوربا صفحة ٧٨

« وأما العراق فحدّها في الطول من حد تكريت الى عبادان على بحر فارس ، وفي العرض عند بغداد : من قادسية الكوفة إلى حلوان ، وعرضها بواسط من واسط الى قرب الطيب ، وعرضها بالبصرة من البصرة الى حدود جبي ... » حدده الاصطخري هكذا ، وقد جرى المقدسي في تقسيمه على هذا التحديد . ونحن نركن اليه لانه عاش في هذه الفترة التي نتحدث عنها اولا ، ولانه جاب البلدان بنفسه وكتب أكثر ما كتبه عن مشاهدة وعيان ثانياً ، وسنركن الى اقواله في كل ما يعن لنا مما يتصل بارض العراق فيما بعد لهذين السببين . وهو يقول « وقد جعلناه ـ اي العراق ـ ست كور وناحية . وكانت الكور في القديم غير هذه إلا حلوان . ولكنا ابداً نجري الأمر على ما عليه الناس (١) »

* * *

ونعني بشعر العراق ذلك الشعر الذي قيل في بيئة العراق . ولا يهمنا كثيراً اذا كان الشاعر عراقياً قد نشأ من أم عراقية واب عراقي ، ام كان من الشعراء الذين ولدوا بعيداً عن العراق ونبغوا في الشعر ثم جاءوا العراق واستوطنوه وقالوا شعرهم فيه .

وغير خاف أن الشعراء العرب ، أو أكثرهم ، قد اتخذوا الشعر حرفة يتكسبون بها ، وظلوا يجوبون الأقطار من عهد النابغة الذبياني واعشى قيس الى ما وراء هذه الحقبة التي نتحدث عنها ، بل لم يكفوا عن شأنهم

---

(١) « كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، الطبعة الثانية ، من طبعة ليدن سنة ١٩٠٩

هذا الا في ايامنا هذه التي نعيش فيها . وليس قول الشاعر شوقي ـ وهو أشهر شعراء هذا العصر ـ ببعيد عن عهدنا :

شاعرُ الامير وما بالقليلِ ذا اللقب

فجرير والفرزدق من العراق ، والاخطل من الجزيرة . وكان الثلاثة يقصدون الشام والحجاز يمدحون الخلفاء والولاة . وكذلك كان غيرهم من الشعراء .

ولما تحولت الخلافة إلى بغداد صار الشاعر ينبغ ـ في أي بلد ـ فيتوجه إلى العراق ، حتى نكاد لا نعرف الشعراء في غير العراق في العصر العباسي الاول ، أيام كان للخليفة هيبته وللدولة هيبتها

وعلى هذا فأبو تمام ـ وإن كان من قرية جاسم في الشام ـ والبحتري ـ وإن كان من قرية منبج البعيدة عن العراق ـ كلاهما عراقي الشعر عندنا ؛ لانهما أمضيا حياتهما في العراق وقالا شعرهما أو أكثره فيه . أما ابن الرومي وابن المعتز وجحظة البرمكي فعراقيون نشأةً وشعراً .

هذا في القرن الثالث الهجري . واذا نحن جاوزناه الى القرن الرابع رأينا آية العراق تنقلب . كان الشعراء ينبغون في البلدان الاخرى فلا يجدون لهم قبلة غير العراق ، أما في القرن الرابع فشعراء العراق صاروا يخرجون منه إلى غيره من الاقطار ؛ ذلك لان الخليفة أصبح تبعاً لغيره ، وأصبح العراق حوالي منتصف القرن الرابع ولاية تابعة لآل بويه . وعلى ذلك لم تعد اعطيات الخليفة ولا اعطيات امراء بغداد بأكبر

الأعطيات التي ينالها الشعراء . بل نرى البحتري قبل أن ينسلخ القرن الثالث الهجري يمدح أحمد بن طولون ويقول :

فأصبحتُ في بغداد لا الظلُّ واسعٌ ولا العيشُ ظلٌ في غضارته رطبُ
أأمدحُ عمال الطساسيج راغباً إليهم ولي بالشامِ مُستمتعٌ رغب

وعلى ذلك فالمتنبي ـ أكبر شعراء العربية ـ وإن ولد بالكوفة ونشأ في العراق ليس بعراقي الشعر عندنا ، لانه قال شعره ـ أو جل شعره ـ عند سيف الدولة وولاته وعند كافور ، وعند عضد الدولة وابن العميد في فارس. وابن نباته السعدي ـ وإن كان بغدادي المولد والمنشأ ـ ليس بعراقي الشعر عندنا أيضاً ، لانه قال في العراق :

بلادٌ أنفسُ الأحرار فيها كضبِّ القاعِ تُروى بالنسيم
يجوز بها وينفقُ كل شيءٍ سوى الآداب طراً والعلوم

وهجرها الى سيف الدولة .

أما بقية الشعراء الذين نعتمد عليهم فهم الذين أقاموا في العراق وقالوا شعرهم فيه ، أو الذين كانوا من العراق ، ولكنهم كانوا يترحلون الى غير العراق يمدحون أميراً أو والياً ثم يعودون الى العراق . وقد كفانا صاحب اليتيمة هـــذا الأمر حين جمع شعراء القرن الرابع في يتيمته وصنفهم تبعاً لأقطارهم .

وإذاً فشعر العراق الذي سنتحدث عنه هو الشعر الذي قيل في العراق مما يتعلق بوصف بيئته الطبيعية أو الاجتماعية .

بيئة العراق الطبيعية
وأثرها

في شعر العراق عامة وفي شعر الوصف خاصة

مقدمة في البيئة :

الانسان وثيق الصلة بالأرض ، حتى لنستطيع أن نقول إنه ابن الأرض ونتاجها . منها يطعم ، وفيها ، يربى وهي تقوده وتوجه افكاره ، وتطبعه بطابعها فتؤثر في جسمه وعقله ونفسه . والبيئة هي التي أمدت ابن الجبل بعضلات أرجله القوية التي تيسّر له تسلق الجبال . وهي التي أضعفت هذه العضلات في أبناء السواحل والأنهار ، ولكنها عوضتهم عنها بقوة في الصدر وقوة في الساعد . وهكذا مكّنتهم أن يدفعوا زوارقهم وسفنهم ، وأن يديروا مجاديفهم بخفة وسهولة . وهي التي ربطت سكان الانهار بتلك التربة الخصبة ، ولكنها ضيّقت نظرتهم وحددتها بضيق أرضهم . وهي التي خلقت لابن الصحراء جسماً يلائم الصحراء ورمالها وحرارتها ، كما خلقت لابن القطب جسماً يلائم القطب وبرده وثلوجه . يقول الباحثون في الأجناس البشرية [1]

---

(١) ينظر كتاب :

Influence of Geographic Environment-Semple P. 32

إن صلة الانسان ببيئته وأرضه ، أكثر ارتباطاً وتعقيداً من صلة الحيوان والنبات ، بالبيئة والارض . ويقولون : إنك لا تستطيع أن تقول إن ابن الصحراء يمكنه ان يعيش في القطب ، وان ابن القطب يمكنه ان يعيش في الصحراء إلا اذا استطعت أن تقول إن الجمل ـ وهو ابن الصحراء ـ يستطيع أن يعيش في القطب ، وأن دببة القطب في استطاعتها أن تعيش في الصحراء .

وقد لاحظ كارلرتر (١) Carl Ritter ان المحيط الذي يعيش فيه الانسان ، يفعل فعله في كل عضو من اعضائه ؛ لاحظ ان عيون التركمان إنما كانت صغيرة طولانية ، قد احيطت بجفن غليظ منتفخ ، نتيجة لتلك البيئة الصحراوية التي يسكنها هؤلاء ، ونتيجة لاثر تلك البيئة في هذا العضو الهام الحساس .

ولاحظ ستانهوب سميث (٢) Stanhope Smith ان ارتفاع الاكتاف ، وقصر الاعناق ، عند تتر منغوليا إنما جاء نتيجة لعادتهم في رفع اكتافهم رفعاً مستمراً ، يقون به اعناقهم عادية تلك الريح الباردة ، التي تهب عليهم فيحارون في مواجهتها ، وتترك الفرد منهم ، وهو أبداً يرفع كتفيه ويقلص عنقه ، حتى كأنه يريد أن يُدخل رأسه في جسمه ليقيه بذلك عادية الريح . ولاحظ ان عيونهم الصغيرة التي يكثر فيها

---

(١) و (٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة

الحول ، وحواجبهم الناتئة ، ووجوههم العريضة التي برز عظم الوجنة فيها ... لاحظ ان هذا كله ، إنما كان نتيجة لكثرة هبوب الرياح العاتية الباردة عليهم ، ونتيجةً لشدة بريق الثلوج ولألأتها لألأةً تبهر العين وتأخذ البصر ... وقد تمادى في كلامه هذا حتى قال « إن البرد بفعاليته يشوّه كل سحنة ويطبعها بطابع الشدة والصرامة .

وقد لاحظ تين (١) Taine النقادة الفرنسي أن الانكليزي إنما وُهب هذه القدم العريضة الضخمة ، نتيجة لعيشه في تلك الارض الرخوة اللينة . ونستطيع أن نقول إن صحراء العرب قد فعلت في قدم العربي مثل ذلك ، وربما كان هذا الامر في غاية الوضوح ، اذا نظرنا الى خف الجمل ـ وهو ابن الصحراء ـ . لقد وهب هذا الخف ، ليساعده على السير في الرمال ، ولئلا تغطس قدمه فيها وتغور ، إذا أسرع .

أثرها في اللون : والبيئة ، كما أثرت في خلقة الانسان وهيئته ، أثرت كذلك في ملامحه ولونه ، فهي التي كست أهل المناطق الاستوائية الحارة لونهم الاسود البراق ، وكست جسم العربي هذه السمرة النحاسية ، وكست اهل البلاد الباردة لونها الابيض . وقد تحدث ابن خلدون عن هذا في مقدمته ، ورد على السعودي ، وعلى القصاص والنسّابين العرب ، الذين زعموا أن الزنج إنما أسود لونهم لدعوة نوح على ابنه حام .

---

(١) انظر مقدمة كتابه History of English Literature

وان هذا الابن إنما كُسي بالسواد ـ وهو أقبح الالوان وأبشعها عند العرب ـ لدعوة دعاها أبوه عليه . لقد رد ابن خلدون على هذا القول واعتبره خرافة ، وعزا ذلك الى بيئتهم الحارة وإلى شمسهم المحرقة . قال في المقدمة(١) : «وفي القول بنسبة السواد الى حام، غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات . وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني ، من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة احداهما من الاخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ؛ فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم . وتسود جلودهم لافراط الحر ... » ثم يتحدث عن أهل الشمال ، وعلى اثر الجو البارد في ألوانهم وعيونهم وشعورهم وأمزجتهم ، ويرى أن سبب غلط النسابين إنما جاء من ظنهم أن هذا الاختلاف في الألوان ، إنما سببه الاختلاف في الأنساب . ولم يعلموا ما للارض من أثر في ذلك .

* * *

أثرها في اللغة :

ويظهر أثر البيئة الطبيعية واضحاً في اللغة ؛ إنها غنية غنى عظيماً فيما يتعلق بالبيئة من حيوان ، أو نبات ، أو رمال أو جبال ؛ وهي فقيرة فيما يبعد عن البيئة ، أو يكون ضعيف الصلة بها . فقبيلة الدنكا ـ القبيلة الافريقية التي تسكن أعالي النيل الأبيض ـ قد

(١) مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، من صفحة ٨٢ ـ ٨٥

غنيت لغتها كلّ الغنى بأسماء الألوان ؛ فيها أسماء عدة تدل بها على تدوّج الظل ، وتدل بها على تدرج الصبغة واللون قوة وضعفاً ، ولهم في الألوان ألفاظ خاصة متمايزة ، يحـــددون بها ألوان حيواناتهم بدقة متناهية ، فعندهم (١) : القهوائي ، والأشهب ، والأكمت ، والأحمر ، والأبيض ، والمدنّر والمرقط .. وهكذا لهم أسماء كثيرة يتدرّجون بها تدرج الألوان في كل حيوان .

والصموئيد (٢) Samoyedes الذين يقطنون شمال روسيا ، لهم اثنا عشر لفظاً يعبرون بها عن تدرج الألوان الرصاصية . وقد جاءتهم هذه الألوان من تلون غزال الرنة ، واضطرارهم الى تسميته وتمييز بعضه عن بعضه .

واذا نحن نظرنا الى العرب في هذا ، وجدنا اللغة غنية كل الغنى ، في الألوان التي تكثر في صحرائهم . إن للخضرة والسواد ـ وقد كانوا يسمون أحدهما باسم الآخر ـ نحواً من أربعين اسماً (٣) . وقد غنيت لغتهم غنى عظيماً فيما يضطرب ببيئتهم من حيوان أو نبات ، كما افتقرت فيما لا يحتاجون اليه ، أو فيما هو قليل الصلة بتلك البيئة . وفي فجـــر

---

(١) ينظر كتاب Influence of Geographic Environment P. 32

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣) ينظر قاموس المخصص لابن سيده في هذا ، وهو قاموس رتبه على المعاني ولا نعرف له مثيلا في العربية .

الاســـــلام (١) . وأنت اذا نظرت الى اللغة العربية ... فألفاظ اللغة ـ مثلاً ـ في منتهى السعة والدقة ، اذا كان الشيء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية ، وهي قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك ، ويقارن الاستاذ أحمد أمين بك بين ما يتعلق بالسفينة وبين ما يتعلق بالابل من الألفاظ ، ويقول إن السفينة لم تستغرق من مخصص ابن سيدة إلا أقل من سبع صفحات ، على حين تستغرق الابل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة . وتجد اللغة غنية اذا نظرت الى ما وضعوه للعشب والصحراء والوديان ، ولكنك تجدها فقيرة ، اذا فتشتها فيما يتعلق بالبحر ، وموجه ، وتياراته ، وسفنه .

ونحن نستطيع أن ننظر ونرى عكس هذا عند الامم التي تقطن السواحل والجزر ، وتجوب الأنهار والبحار ، كالامة الانكليزية مثلاً . إننا نرى لغتهم وافرة الألفاظ غاية الوفرة ، فيما يتعلق بالبحر ، ولكنها فقيرة غاية الفقر ، فيما يتعلق بالصحراء .

* * *

أثرها في التعبير : وأثر البيئة الطبيعية واضح في تعابير سكانها ، فالبيئة النهرية أو البحرية ، تشتق تشبيهاتها واستعاراتها وأمثالها ، مما يتعلق بالنهر ، أو البحر . والبيئة الصحراوية ، تشتق تشبيهاتها واستعاراتها وأمثالها ، ممـــا يضطرب في الصحراء . يقول

(١) ينظر كتاب فجر الاسلام ، تأليف الاستاذ أحمد أمين ، من صفحة ٥٧ ـ ٥٨

بلاكستون Blackstone عن جزائر الرجل (Isle of Man) (١) .
إن القضاة في هذه الجزر ، حين يحلفون أنهم سيطبقون القانون من غير محاباة ولا جنف ، يقولون : « إننا سنستقيم في تطبيق هذا القانون استقامة العمود الفقري ، في ظهر سمكة الهيرنج البحرية » . وهل ترى أن التعبير عن القسم يكون هكذا ، لولا كثرة السمك عند هؤلاء ؟

واذا نظرنا الى التعبير ، في البيئة الصحراوية مثلاً ، رأيناه ، منتزعاً منها ، متلوناً بلونها . لقد أحب العرب العشب ؛ لأنه ماشيتهم وعليه حياتها وحياتهم . ومن هنا أحبوا الربيع وسموا به أسماءهم . وصار اللون الأخضر أحب الالوان الى نفوسهم ، لانه لون العشب الزاهي الذي يبعث في نفوسهم الحياة ، وصاروا اذا أرادوا مدح الرجل نعتوه بالاخضر واذا أراد مفتخرهم أن يفتخر قال :

وأنا الاخضرُ من يعرفُني أخضرُ الجلدة في بيت العربْ

واذا أرادوا أن يصفوا بعضهم بالنعمة وصفوهم بالخضرة . وقالوا : « اخضرت نعالهم » اذا أرادوا انهم تنعموا بنعمة أبطرتهم ، وجعلتهم ينزعون الى المخاصمة والشر . قال شاعرهم :

قومٌ اذا اخضرتْ نعالهمُ يتناهقونَ تناهُقَ الحُمُرِ

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا اللون المحبب الى نفوس العرب

---

(١) ينظر كتاب :
Influence of Geographic Environment - Semple P.40

في وصفه للجنة ، وفي لباس اهلها ، وفي مجلسهم . قال تعالى ، في وصف الجنة : « ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان » أي قد أدهامتا من الخضرة ، يريد أن خضرتها قد زهت حتى قربت من لون السواد ، وهو أقصى ما يصله اللون الأخضر من القوة . وقال تعالى في وصف ثياب أهل الجنة وألوانها : « عليهم ثياب سندس خضر واستبرق ... » وقال تعالى في وصف مجلس أهل الجنة : « متكئين على رفرف خضر .. »

* * *

أثرها في الخيال : واذا نظرت الى فعل البيئة الطبيعية ، فيما يتخيله الناس ، رأيت عجباً ، فالاسكيمو الذين يعيشون في الثلوج ، ولا يرون الشمس إلا قليلاً ، ويرون من الريح الباردة حشيت بفتاة الثلوج حشواً ، ما يفعل فعل الابر في وجوههم ، هؤلاء الاسكيمو اذا تخيلوا جحيمهم ، تخيلوه زمهريراً بارداً ، قد لفه الظلام لفاً ، وهاجت فيه العواصف الثلجية من كل صوب . وأنت تعرف وصف صحراء العرب ، وما يقاسونه من حرارتها في الصيف ، فانظر قوله تعالى في وصف الجحيم : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يُصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » وانظر قوله تعالى حين يتحدث عن عذاب اهل النار ؛ إنه ـ سبحانه ـ

يتجاوز كل صور العذاب الى العطش ؛ لان العرب لا يعرفون في صحرائهم لوعةً كلوعته ، قال تعالى : « ونادى أصحابُ النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمها على الكافرين » .

واذ نظرتَ الى أثر البيئة الطبيعية في وصف الجحيم ، فانظر الى أثر البيئة في وصف الجنة ، في قوله تعالى : « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار . يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ... »

* * *

أثرها في الذوق والادب :

واذا علمت أن البيئة الطبيعية ، هي التي تفرض على سكانها أشكالهم وألوانهم ، وتعابيرهم ، وخيالهم ، فاعلم ان هذه البيئة ـ هي التي تفرض على الناس أذواقهم فيما يستسيغونه من هذه الأشكال ، والألوان ، والأصوات .

واذا كانت بيئة التركمان ، قد جعلت عيونهم صغيرة ، قد غلظ جفنها بعض الشيء ؛ وجعلت الوجه عريضاً مستديراً ، قد برزت عظام وجنته ؛ وجعلت العنق قصيراً ، كأنه داخل في الجسم ؛ فاعلم أن أهل تلك البيئة إنما يرون هذه الصفات ، هي صفات الجمال دون سواها . وتستطيع أن تنظر الى العرب فترى ذوقهم في هذا على الضد من ذلك ، انهم يحبون الرقبة الطويلة ، كرقبة الظبي ، ويحبون العين فيها حور ودعج ، كعين الظبي أيضاً ، ويحبون الخد الأسيل ... ويريد شاعرهم أن يطري

جمال عشيقته ، فيقرنها بالظبية ويقول :

فعيناك عيناها وجيدك جيداها

أو يقول :

ولها عينان في طرفيهما حَوَرٌ منها وفي الجيد غَيَدْ

وتنظر إلى فعل الطبيعة ، في ذوق الناس للالوان ، فترى أن العرب يتشاءمون وينفرون من كل أسود . إن السواد عندهم لون الحزن ، وإنهم يكرهون الغراب (١) ويتشاءمون منه للونه الاسود ، واذا أرادوا أن يذموا خبراً أو يوماً قالوا : يوم أسود ، أو خبر أسود — وترى الزنجي يحب هذا اللون ويكلف به . وكلما اسودت المرأة ، وبرق لونها من شدة السواد كانت عنده أحلى وأجمل ، ولا بأس أن أنقل ما قاله لوبون في كتابه

---

(١) قال النابغة الذبياني :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك تنعاب الغراب الأسود

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد

وقال جرير :

إن الغراب بما كرهت لمولع بنوى الأحبة دائم التشحاج

ليت الغراب غداة ينعب دائباً كان الغراب مقطع الأوداج

والبوارح : جمع بارح ، وهو الطائر الأشأم ، ومن أقوالهم : فعلة بارحة ، وقتلة بارحة ، أخذوها من الطائر البارح . ونعاب الغراب : صوته ، وكذلك التشحاج . والأوداج : جمع ودج ، وهو عرق في العنق ، قال عبدالله بن الزبير — بفتح الزاء — الأسدى الشاعر :

لا احسب الشر جاراً لا يفارقني ولا احز على مافاتني الودجا

« حضارة العرب » عن ذوق الناس في الجمال عامة قال (١) : « فاذا ما نيط أمر الجمال والبشاعة بمختلف الشعوب ، رأيت اختلافاً كبيراً في التعبير ؛ فالبيزنطي كان يفضل العذارى الضامرات الممطولات على إلاهات قدماء اليونان . والبرابرة الميروفنجيون ، كانوا يرون صور النساء الغليظة الشفاه أجمل مما أنتجته الحضارة اليونانية واللاتينية ، والهمجي من افريقيا الجنوبية ، يرى المرأة الهوتنتيّة ـ التي هي أشنع نساء العالم في نظرنا ـ جميلةً جمال فينوس وابولون عند الاوربي ... »

ولست اريد أن أفيض في هذا الموضوع ولكني أكتفي بهذه الاشارة اليه ، وأقول إن البيئة قد فرضت أثرها على أذواق ساكنيها لا في الجمال وحده ، ولكنها فرضت عليهم ذوقهم فيما يأكلون ، ويشربون ويلبسون ، وفرضت عليهم ذوقهم في هذا الأدب الذي يقرأونه حيناً ، فتهش له نفوسهم وتنبسط ، ويقرأونه حيناً ، فتنفر منه نفوسهم وتنقبض . ومما علّلوا به عزوف الغربيين عن أدب الكتب السماوية المقدسة ، الذي يقرؤه أهل الشرق فيجدون فيه ـ ولا سيما في القرآن الكريم ـ مالا يوصف من المتعة ـ علّلوا عزوفهم عنه ، بان هذا الأدب ، قد نزل على أهل بيئة تخالف في طبيعتها بيئة الغربيين . وأي أثر يبعثه ذكر العطش ، أو الحرارة مثلاً ، في نفس الغربي وهو لا يعرف حرارة الصحراء ، ولا

(١) تنظر صفحة ٥٣٤ من الترجمة العربية لكتاب غوستاف لوبون ، ترجمة الاستاذ محمد عادل زعيتر .

يعرف ما يعانيه أهلها ، عند الجدب والجفاف ، من العطش ؟

بيئة العراق :

وفي ضوء ما ذكرنا ، يمكننا أن ننظر الى البيئة العراقية وأثرها ، فنقول : إن أرض العراق سهلة خصبة ، تنحدر انحداراً يشتد ويكثر ، كلما سرنا من الجنوب الى الشمال . ويكثر انحدار هذه الأرض في جنوبي العراق ، حتى يغمرها الفرات ـ تعاونه دجلة بعض الشيء ـ فيتكون من جراء ذلك مستنقع كبير ، كان له أكبر الأثر في حياة العراق الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية . وقد انعكس ظل هذا كله في الأدب .

وأرض العراق في الجنوب هشة رخوة ، تسهل حراثتها وفلاحتها ، وهي تشتد وتصلب ، كلما سرنا صُعداً إلى الشمال . وقد فخر البصريون حين ناظروا الكوفيين في ذلك ـ قالوا : « قال (١) مجاهد لما أوحي الله جلّ وعز الى الأرض ايام نوح ؛ فقال : « يا أرض ابلعي ماءك ... الآية » . كانت أرض الكوفة آخرها ابتلاعاً وأشدها تقمساً ، فمن هناك سائر الأرضين تكرب على ثورين أو حمارين وتكرب هذه على ستة ... »

وهي في الجنوب ملحة سبخة قد كثر فيها النخيل ، كثرة ليست لبقعة من بقاع العالم . يقول الاصطخري ، وهو يتحدث عن أرض البصرة : « ولها (٢) نخيل متصلة من عبدس الى عبادان ، نيف وخمسين فرسخاً

---

(١) ابن الفقيه . كتاب البلدان ص ١٨٥

(٢) ينظر كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، صفحة ٨٠

متصلاً ، لا يكون الانسان منه في مكان ، إلا بحيث يُرى نهر ونخيل أو بحيث يراهما . وهي في مستوى لا جبال فيه ، ولا بحيث يقع البصر على جبال»

انهر العراق :

ويروي أرض العراق نهران هما دجلة والفرات . وقد شهر العراق بهما حتى سمي « بلاد الرافدين » وفضلهما على هذا القطر كبير ، حتى لقد سمي « هبة الرافدين » إذ ليس العراق ، من الأقطار التي يمكنها أن تحيا على المطر ، والآبار ، والعيون ؛ فهي قفر بلقع لا حياة لها بدون هذين النهرين .

وهذان النهران ـ دجلة والفرات ـ ينبعان من جبال الأتراك ويجريان الى العراق ، ويقترب بعضهما من بعض عند بغداد ، ويتصلان بأربعة أنهر هي : نهر الصراة ، ونهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك . ويتباعد النهران بعضهما عن بعض بعد بغداد ، وينحدران الى الجنوب نحو خليج البصرة . ودجلة تتبطح بعد أن تجاوز واسط ، ويصعب سلوكها الى تخوم البصرة . وكذلك شأن الفرات ، فانه بعد أن يجاوز الكوفة ، ينحدر الى غربي واسط ، فيتبطح في بحيرة عظيمة ؛ ومن هنا يتكون هذا المستنقع الكبير الذي قلنا إن أثره كان كبيراً في حياة العراق.

وقد عملت يد المدنية ، التي نبتت في وادي الرافدين ، على الاستفادة من هذين النهرين الجليلين ؛ فشقت منهما النهيرات ، والترع ، والقنوات ، وسقت بها الارض الخصبة التي يجريان فيها ، فآتت ثمارها وأُكلها طيباً .

يقول الاصطخري (١) « وذكر بعض أهل الاخبار أن أنهار البصرة عُدت أيام بلال بن أبي بردة ، فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر ، تجري فيها الزوارق ... » واني إذ أسمع هذا العدد الضخم الآن ، أتعجب منه ويعتريني الشك في صحته . وكان الاصطخري نفسه قد تعجب منه ، وأخذه الشك في صحته ، فهو يقول : « وقد كنت أنكر ما أذكر من عدد هذه الانهار ، في أيام بلال بن أبي بردة ، حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم ، عدداً من الأنهار صغاراً تجري فيها كلها زواريق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه ، أو الى الناحية التي يصب فيها ، واشباه ذلك من الاسامي فجوّزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها ... »

وقد والى خلفاء بني العباس عنايتهم في شق هذه الانهار والاستزادة منها ، يقول اليعقوبي في حديثه عن سر من رأي (٢) « ولما فرغ المعتصم من الخطط ، ووضع الاساس ، للبناء في الجانب الشرقي من

---

(١) ينظر كتابه : المسالك والممالك ، طبعة اوربا صفحة ٨٠ . والاصطخري من مدينة اصطخر ، كان رحالة طاف بلاد المسلمين من بلاد العرب الى الهند الى الاوقيانوس الاتلنتيكي ، وكان يصف البلاد بما يسمع عنها أو يرى فيها . وكان كتابه هذا أساساً لمن صنف بعده ، في بابه ، من علماء العرب . وقد ترجم الى الالمانية وطبع سنة ١٩٤٠ . والافرنج يعدون الاصطخري من أول جغرافيي العرب

(٢) ينظر كتاب اليعقوبي المطبوع على هامش كتاب « الاعلاق النفيسة » لابن رسته صفحة : ٣١٤

دجلة ، وهو جانب سرّ من رأي حفر الانهار من دجلة ، وصيّر الى كل قائد ناحية من النواحي ... »

وحين ضعف امر بني العباس ، وقنعوا من الخلافة بالدعاء والخطبة — على حد تعبير ذلك العصر — لم يفت اولئك المتسلطين ان يعنوا بالري ، وبحفر الانهار ، واصلاح مافسد منها ، يقول مسكويه (١) : «وكان ببغداد أنهار كثيرة ، وكان منها مرافق للناس ، لسقي البساتين ولشرب الشفة في الاطراف البعيدة من دجلة ، فاندفنت مجاريها ، وعفت رسومها ... فأمر عضد الدولة بحفر عمدانها ورواضعها ... »

ومع كثرة هذه الترع وهذه النهيرات كثرة تدعو الى العجب ، فان الناس لم يمنعهم ذلك من حفر الآبار والاستزادة منها في سقي البساتين . يقول المقدسي (٢) في حديثه عن الكوفة : « والنهر على طرفها من قبل بغداد ، ولهم آبار عذبية حولها نخيل وبساتين ولهم حياض وقنى ... »

مناخ العراق :

ومناخ العراق مختلف متقلب . يقول المقدسي عنه (٣) : « فبغداد وواسط وما دخل في هذا الصقع ، بلد رقيق

---

(١) ينظر كتابه « تجارب الامم » ، الجزء السادس صفحة ٤٠٦ ، « وظهر الاسلام » للاستاذ أحمد أمين ، صفحة : ٥٦

(٢) تنظر الطبعة الثانية من كتابه : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » طبعة ليدن صفحة ١١٧

(٣) تنظر الطبعة الثانية من كتابه : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » طبعة ليدن صفحة ١٢٥

الهواء ، سريع الانقلاب ، ربما توهّج في الصيف وآذى ، ثم انقلب سريعاً » وقد كان الخلفاء ، والولاة ، وعلية القوم المترفون ، يحمل اليهم الثلج ليستعينوا به على قسوة الحر وشدته . يقول أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل [١] » إن أول من حمل اليه الثلج الحجاج بن يوسف بالعراق . ولا نظن ذلك صحيحاً ، إذ نستبعد كل البعد أن يكون اولئك الحكّام الذين حكموا العراق قبل الحجاج بن يوسف ، قد قطعوا صيف العراق وصبروا على حره من غير أن يُحمل اليهم الثلج . لقد حكمه السومريون والاكديون ، وحكمه الفرس وكان لملوكهم من الجبروت والغطرسة ، والاستبداد بالرعية ، وكان لهم من الترف في الحياة ما يجعلنا نستبعد أن نظنهم غبروا صابرين على حر العراق ، وأن يكون الحجاج بن يوسف أول من حمل اليه الثلج .

والحر ببغداد يبلغ في الصيف درجة لا يُصبر عليها ، يحدثون أن أبا وهب بن وهب القاضي قال [٢] : « كنت عند الرشيد يوماً واستدعى ماء مبرداً بالثلج فلم يوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر اليه بذلك ،

---

(١) ينظر كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندي ، طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٩ الجزء الرابع عشر ، صفحة ٣٩٥

(٢) ينظر « ضحى الاسلام » للاستاذ أحمد أمين صفحة ١٢٠ ، وينظر « شرح نهج البلاغة » لابن أبي الحديد ، طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، المجلد الأول صفحة ١٢٢

وأحضر اليه ماء غير مثلوج ، فضرب وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضباً ... » ويقولون عن علي بن الفرات انه كان اذا ولي الوزارة ارتفعت أسعار الشمع والثلج ، وانه حين اعيد للوزارة سنة ٣٠٤ هجرية بعد عزل علي بن عيسى ، سق ليلة إعادته للوزارة بوليمة ٤٠ ألف رطل من الثلج ، بسبب شدة الحر تلك الليلة (١) .

واذا كان هذا حر بغداد ، فاعلم أن حر البصرة أقسى وأشد ، وهو حر مُزجت فيه الحرارة بالرطوبة ، وكثر في الهواء بخار الماء ، فأصبح التنفس عسيراً شاقاً . يعرق الجسم ويبتل ، ويظل يتصبب عرقه ، والريح تهب عليه ولا تنشفه ، لأنها رطبة مشبعة ببخار الماء ، لكثرة المستنقعات حول تلك المناطق ، ولقربها من البحر . وتعتري الجسم من هذا لزوجة مضايقة ، حتى يقول المقدسي : « وربما نزل عليهم شبه الدبس بالليل » . ويقول أيضاً : « وبالبصرة حر عظيم ، غير أن الشمال ربما هبت فطاب ... ورأيتهم - أي سكان البصرة - اذا كانت جنوب ، في ضيق صدر ، يلقي الرجل صاحبه فيقول : ألا ترى ما نحن فيه ؟! فيجيبه : نرجو من الله الفرج »

يقول المقدسي هذا في القرن الرابع وقد شاهدهم ، وأقول : إنهم ما زالوا الى الآن كذلك . لقد عشت سنين في البصرة وما حولها ، وشاهدتهم حين تهب عليهم هذه الجنوب ، ان عامة الرجال في قرية الفاو

---

(١) تأريخ الكامل لابن الأثير ، الجزء السادس صفحة : ١٣٩ .

وما جاورها عراة الأجسام لا يتستّرون إلا بالأزر ، ويبل العرق أجسامهم ، والريح تهب عليهم فلا تنشفها . وقد يغسلون ملابسهم فتظل اليوم واليومين وهي مبتلة رطبة لا تنشف لكثرة ما يحمل الهواء من الرطوبة . بل قد تضع اللباس الجاف اليابس في الهواء فيترطب ويعود غير صالح لأن يلبس .

ويقول المقدسي عن البطائح : « والبطائح نعوذ بالله منها ، ومن شاهدها في الصيف رأى العجب ، إنهم ينامون في الكلل ، وثم بق له حمة كالأبرة إنما هي نحرة ... » ويقول عن الصليق ـ وهي مدينة على بحيرة طولها أربعون فرسخاً ، يتصل ضياعها بسواد الكوفة ـ شديدة الحر ، كربة بليدة ؛ بق مهلك ، وعيش ضيق . ادامهم السمك ، وماؤهم حميم ، وليلهم عذاب ... »

هذا مناخ العراق عامة في الصيف ، اما شتاؤه فيقول المقدسي عنه (١) « والجو بارد في الشتاء ، وربما جمد الماء في البصرة وجميع بغداد ، » ويقول ابن الأثير (٢) في حوادث سنة ٣٩٨ هجرية « وفي هذه السنة وقع ثلج كثير ، ببغداد ، وواسط ، والكوفة ، والبطائح ، الى عبادان ، وكان ببغداد نحو ذراع ، وبقي في الطرق نحو عشرين يوماً »

---

(١) ينظر كتابه : « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » صفحة ١٢٦

(٢) ينظر كتابه : الكامل

هذا مناخ العراق في الشتاء والصيف . إنه حار مضايق ، بل خانق مهلك في الصيف ، وبارد قارس في الشتاء ؛ تدمع له العينان ويحمر الانف ويخدر الوجه ويتجمد . أما بقية فصول السنة فغير واضحة فيه ؛ إن الناس بين حالين : برد شديد أو حر شديد إلا الربيع فانه قصير ، شديد القصر . ومع ذلك فاذا قلنا إن الصيف خانق مهلك بحره ، والشتاء مجمّد مخدر ببرده اذا قلنا : إن هذين الفصلين قد تطرفا في شدتهما ، فنستطيع أن نقول إن الربيع ـ على قصره ـ قد تطرّف بجماله : برودة تدعو الى الخفة والنشوة ، وسماء زرقاء صافية ، وشمس مشرقة بغير ما حرارة مضايقة ، وأشجار خضرة مورقة ، وورد متفتح ، ونسيم عليل بليل يداعب الخضرة والشجر وطيور هائمة مغردة ، كأنها قد رأت هذا الجو الساحر الجميل بدعاً في هذا البلد ، بعد أن قاست ما قاست من حر الصيف وبرد الشتاء ، وكأنها قد علمت أن هذا الجو الجميل ، قصير طارىء ، فراحت تريد أن تأخذ لنفسها أكبر حـــظ ممكن منه ، فهي أبداً تتقافز وتتطاير ، وهي أبداً تغرد وتصدح .

واذا كان هذا ربيع المدن ، فاعلم أن الربيع فيما حولها أجمل منه فيها . إن الصحراء تكتسي بالورد الطبيعي الجميل ، الذي يأخذ العين بألوانه ، وإن شقائق النعمان يغلب بلونه وحجمه على هذه الورود الطبيعية الجميلة فيكتسحها اكتساحاً ، وقد تنظر فترى حقولاً منه قد صُبغت بلونه الأحمر الجميل

وفي هذه الأرض الخضرة الجميلة ، التي كثر شقائقها ووردها ، وكثرت طيورها ، ترى أسراباً من الظباء يتصدى لها الناس فيصطادون منها ما شاءوا ...

هذا هو الربيع في العراق : متعة ولذة قصيرة ـ ولكنها لذة حادة لا تعدلها اللذة الطويلة الخفيفة .

ونسمع بعض الجغرافيين العرب يقولون عن مناخ العراق ـ وهم من غير شك عندي يقصدون مناخه في ربيعه هذا الذي تحدثت عنه ـ يقول ياقوت (١) : « والعراق أعدل أرض الله هواءً ، وأصحها مزاجاً وماءً » . ويقول المقدسي عنه : « إنه لطيف الماء ، عجيب الهواء ... »

أثره في الحياة :

هذا الجو المتطرف بحره ، والمتطرف ببرده ، والمتطرف بجمال ربيعه ، قد خلق نوعاً من التطرف نلحظه في شتى نواحي هذا القطر ؛ نلحظه في الخُلق ، ونلحظه في السياسة ، ونلحظه في الديانة والتقاليد ، ونلحظه في الأدب أيضاً .

والعراقي عصبي ثائر ، ولاسيما في فصل الصيف ، وفي شهري تموز وآب بصورة خاصة ، تراه يسخط ويغضب للكلمة البسيطة لا يرى فيها غيره بأساً . وقد لوحظ أن المخاصمات والمشاجرات بل والجرائم تكثر في هذين الشهرين عنها في بقية أشهر السنة .

---

(١) معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، الجزء السادس صفحة : ١٣٥

وكما نلحظ هـذه العصبية في الفرد ، نلحظها في المجموع أيضاً . لقد كان العراق كثير الفتن ، كثير القلاقل . عنى الأمويين وأقلقهم ؛ وإننا نقرأ خطب الحجاج فنحس ارتعاده وزمجرته في ثنايا ألفاظه . وكأن جو العراق قد فعل به فعله أيضاً ، فتطرف في القسوة ، وتطرف في الشدة ، وتطرف في القتل .

وإذا حولنا نظرنا الى التقاليد الاجتماعية ، والمذاهب الدينية ، وجدنا هذا التطرف ملحوظاً فيها أيضاً . لقد نشأ مذهب الخوارج في العراق ، وناهيك بالخارجي متطرفاً : في صراحته ، وشجاعته ؛ وفي عقيدته ، واستقتاله في سبيلها . وحول نظرك الى المذاهب الاسلامية الاخرى ترى العراقيين تعصبوا لآل علي ، وتعصبوا لعلي حتى ألهه بعضهم ، وهبك تقول : إن صلة علي بالرسول ، قد أسبغت عليه هذه الصفة القدسية ، التي تمادى فيها بعض الناس ، فما تقول في عصبية الناس لمعاويه !؟ يقول المقدسي إنه مر بالجامع فرأى اناساً يعتقدون بمعاوية اعتقاد الألوهية في علي . وانهم هموا بقتله حين حاول أن يبين لهم شططهم وجنفهم عن الطريق .

وظهر أثر هذا التطرف في العبادة بحياة الناس ، وعلاقات بعضهم ببعض . واننا نرى في الكثير من السنين ـ حين نفتح كتب التاريخ في هذه الحقبة ـ فتناً بين السنة والشيعة . ونجد كلاً من هاتين الطائفتين

تقسو ، وتتطرف في القسوة على صاحبتها حتى تصل القتل والحرق .

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣١٤ هجرية « ووقع في بغداد حريق في مكانين ، مات فيهما خلق كثير ، وأحرق في أحدهما الف دار ودكان » ويقول في حوادث سنة ٣٦٢ هجرية وهو يتحدث عن أبي الفضل « إنه أرسل حاجباً له يسمى (صافناً) وكان شديد العصبية للسنة ، فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ ، فاحترق حريقاً عظيماً ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر الف انسان ، وثلثمائة دكان ، وكثير من الدور ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يحصى ... »

وإذا حوّلنا نظرنا الى المذهب الصوفي رأينا الذين قفزوا به ، وتطرفوا ، إنما تطرفوا في العراق ؛ ونرى ذلك حين ننظر الى الزهّاد والوعّاظ ، وناهيك بالخلاج متطرفاً في صوفيته ، وناهيك بالحسن البصري متطرفاً في زهده ووعظه .

* * *

وقد لحظ الأوائل هذا الأمر في بيئة العراق . يقول أبو حيّان التوحيدي « ولقد ورد بغداد سنة ٣٤٦ هجرية أربعة وستين وثلثمائة ، أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ، صحبة ذي الكفايتين ، فلقي من أصحابنا البغداديين عنتاً شديداً ، ومناكدة ، وذلك أن طباع أصحابنا معروفة بالحدة والتوقد ... وهو خلق تابع لهواهم ، وتراهم قد احتاجوا من أجل ذلك الى علاج شديد ، ومقاومة طويلة ، وقلّ من يتخلص الى

غاية في هذا الباب لغلبة الطباع وسوء العادة [١] ... » وقال الثعالبي [٢] وهو يتحدث عنها « وبها أرباب النهايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع » وقال اليعقوبي [٣] وقد فصّل وبيّن « ... ولا أحذق من مغنيهم ولا ألطف من صانعهم ، ولا أكتب من كاتبهم ، ولا أبين من منطيقهم ، ولا أعبد من عابدهم ، ولا أورع من زاهدهم ، ولا أفقه من فقيههم ، ولا أخطب من خطيبهم ، ولا أشعر من شاعرهم ، ولا أفتك من ماجنهم ... »

* * *

أثره في الأدب :

وإذا حولنا نظرنا الى الأدب ، رأينا هذا التطرف ملحوظاً فيه أيضاً . لقد قال أبو نواس في الخمر ، وأي قول لشاعر عربي وراء قوله فيها ؟. وقال في الغلمان ، وأي شاعر داناه فيما قال ؛ تطرف في المجون والخمر وراح يرغّب الناس في الدنيا ، وجرى صديقه أبو العتاهية على غير سنته وعلى غير مذهبه ، وراح يرغّب الناس عن الدنيا ، فتطرف في شعره الزهدي ، تطرف أبي نواس في شعره الخمري والمجوني .

---

(١) كتاب المقابسات ، لأبي حيان التوحيدي طبعة القاهرة صفحة ٣٠٧

(٢) ينظر كتابه : « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » طبعة مطبعة الظاهر سنة ١٩٠٨ صفحة : ٤٠٤

(٣) كتاب « البلدان » المطبوع مع كتاب « الاعلاق النفيسة لابن رسته » طبعة ليدن صفحة : ٢٣٥

وجرى ابن حجاج (١)

(١) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد . اشتغل بالحسبة اولاً ثم عدل عنها الى الكسب بالشعر ، وقد مدح الكثير من معاصريه ، ومدح الأمير البويهي عز الدولة بختيار ، وكان متصلا بالوزير المهلبي ، وهو الذي طلب منه أن يهجو المتنبي ، كما كان متصلا بسابور بن اردشير ، وابن بقيه ، وعضد الدولة ، وبهاء الدولة ، وابن العميد ، يمدحهم ، كما كان يبعث قصائده الى سيف الدولة يمدحه فيبعث اليه الجوائز . وديوانه ، يقع في عدة مجلدات ، بعضها - مخطوط - في مكتبة باريس ، وبعضها في المتحف البريطاني ، وبعضها بمكتبة تيمور ، ومكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة . وقد اختار الشريف الرضي - وهو من معاصري ابن الحجاج ومن اصحابه - مجموعة من قصائده سماها « النظيف من السخيف » ، توفي ابن الحجاج عام ٣٩١ هـ ورثاه الشريف الرضي .

وقد قرأت بعض ديوانه المخطوط في دار الكتب المصرية ، ونسخته ، وهو يقع في أكثر من خمسمائة صفحة . وقد هممت بنشره ، ولكنني عدلت عنه لانني رأيت فيه مجوناً لا من هذا النوع الذي تهش له النفس وتنبسط به ، كبعض مجونيات ابي نواس مثلا ، ولكنه من هذا النوع الذي تستقبحه النفس ، وتنقبض منه . والكثير منه محض سباب . واني حين أقرأه الآن أتعجب وأقول : أي ذوق كان ذوق الناس الذين عاصروه ، حتى قال عنهم ابو منصور الثعالبي وعنه : « ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الادباء ارواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه ، ومنهم من يغلو في الميل الى ما يضحك ويمتع من نوادره . ولقد مدح الملوك والامراء ، والوزراء والرؤساء ، فلم يخل قصيدة فيهم من سفائح هزله ، ونتائج فحشه .. وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال ، وأسرى من الخيال ... »

هذا ماقاله أبو منصور الثعالبي في يتيمته عنه ، وهذا ما حداني الى البحث =

وابن سكرة (١) صاحبه في ميدان السخف والفحش واستعمال البذي من الألفاظ ، والبذي من المعاني . وإننا لا نقرأ قصيدة واحدة لابن الحجاج من غير أن نجد ذكر العورات وذكر بيت الخلاء يتردد فيها لا مرة واحدة ولكن مرات كثيرة .

ولا تقولن إن هؤلاء الذين تطرفوا أفراد قلائل ، فقد كان يتبع كل واحد من هؤلاء طائفة كبيرة — لقد راج شعر أبي العتاهية عند الزهاد والراغبين عن الدنيا وهم كثير ، وراج شعر أبي نواس عند المنهالكين على الدنيا وهم كثير أيضاً ، وراج شعر ابن حجاج عند المتطرفين

= والتنقيب عن ديوانه ، حتى اذا قرأته ، رأيته عظيم القيمة في الدلالة على عصره من الناحية التأريخية ، والاجتماعية ، أما قيمته الشعرية فليست شيئاً عندي ، فسبحان مغير الأحوال ومبدل الأمزجة والأذواق

(١) ابن سكرة : هو ابو محمد بن عبدالله بن محمد الهاشمي البغدادي ، من ولد علي بن المهدي بن ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي ، كان — كزميله ابن الحجاج — جارياً في ميدان السخف والمجون ، وكان يقال ببغداد : إن زماناً جاد بمثل ابن سكرة وابن حجاج لسخي جداً ، ويقال إن ديوان ابن سكرة يربى على خمسين الف بيت . منها أكثر من عشرة آلاف بيت في قينة سوداء يقال لها « خمرة » وقد اتخذها عرضة ملحه ونوادره . وهو — عندي — أمعن في الشاعرية من ابن الحجاج ، — وان كان ابن الحجاج اشهر منه ، وقد قال الاستاذ الجليل أحمد أمين بك في كتابه ظهر الاسلام ص ١٥٢ عنهما معاً « ... انهما يمثلان الادب الشعبي ، وحالة العصر في مجونه وهزله ، وفساده وانحطاطه ، وادبه المكشوف الذي لا يراعي خلقاً ولا ذوقاً ، فكل لفظة منها تعرت وسقطت صالحة لان تكون في الشعر ، وأن تقال في حضرة الملوك ، والوزراء والقضاة . »

أمثاله وهم كثير أيضاً . ويذكر الثعالبي — وهو يعجب حين يذكر ، أن ديوان ابن الحجاج كان يباع — على سخفه وعلى ما فيه من الفحش — بخمسين الى سبعين ديناراً ، وهو ثمن كبير ضخم ، يدل على إقبال الناس على هذا اللون من الشعر .

ولك أن تقول إن هذه النحل المتطرفة ، وهؤلاء الدعاة لها وهؤلاء الشعراء ، أغلبهم كان دخيلاً على العراق ؛ إن لم يكن دخيلاً بشخصه فبنسبه وجنسه . فأقول إن للبيئة فعلها ، وإن هؤلاء ما كان ليروج مذهبهم في نحلة ، أو في شعر لو لم يهيأ لهم المناصرون من سكان العراق ، يتقبلون نحلهم ويتطرفون في التعصب لها ، ويتقبلون شعرهم ويذوقونه ويتطرفون في التعصب له .

ولكن أنعزو هذا كله الى بيئة العراق ، والى بيئته الطبيعية بصورة خاصة ؟ الحق إنني لا أستطيع أن أفصل أثر البيئة الطبيعية عن البيئة الاجتماعية ، وأن البيئتين متداخلتان ؛ تعملان معاً ، ولكنني أرى أن للبيئة الطبيعية المكان الأول .

وقد قام الغربيون ببحوث لا تدع شكاً عندي في هـــذا . عزا هاينرش فون ترايتشكه[1] Heinrich Von Treitischke في كتابه السياسة خلو سويسرا ، وخلو الأراضي الألبية المرتفعة Alpine Lands من

(١) ينظر كتاب :
Influence of Geographic Environment - Semple P. 19

التطور الفني ، والشعري ، الى منظر الطبيعة العنيف هناك ، وقال : « إن جلالها المهيب هو الذي يشل العقول » وقد عزّز رأيه هذا بأن رأى أن أهل التلال والجبال التي يقل ارتفاعها عن الألب ، كأهالي سوابيا وفرانكونيا وتورونجيا ، حيث تكون الطبيعة هناك ألطف وأهدأ ، وحيث تكون منبهة منشطة في غير ما عنف ، كما في سويسرا . هذه الطبيعة ـ على حدّ رأيه ـ قد خلقت كثيراً من الشعراء والفنانين (١) ويعقب سيمبل Semple على رأيه هذا بقوله . وهذه حقائق لا تقبل الجدل ولا الأخذ ولا الرد فيها (٢).

ووجد مثل هذا ، في فرنسا أيضاً ، فالطبيعة الفنية تنقص أرض سافوي الوعرة العالية وتنقص مقاطعة الألب Alpine Province وتنقص الجهات الشرقية من البرانس ، كما تنقص شبه جزيرة بريطانيا ، على حين تكون الطبيعة الفنية مواتية ، ويكون الفن مزدهراً ، في كل انهار الأراضي الواطئة في فرنسا . وقد وجد ان أغلب الكتاب الانشائيين ، وكتاب الرسائل Men of Letters الفرنسيين ـ عامة ـ هم من أهل أرض الأنهار ، أو من أهل السهول ، وقلّ أنْ يكونوا من سكان الأراضي المرتفعة أو الجبال .

---

(١) ينظر كتاب :

Influence of Geographic Environment - Semple P. 19

(٢) نفس الكتاب ونفس الصفحة

ولا نعرف للنقاد العرب مثل هذه البحوث ، وربما صرفهم عنها أنّ الشاعر ينشأ في بيئته ولكنه أبداً يترحّل عنها ، الى حيث يمدح الوالي ، أو الأمير ، أو الخليفة . وقد عزوا الشاعرية إلى الجنس الذي ينتمي اليه المرء ، لا إلى البيئة التي يعيش فيها، وناظروا الشعوبيين بأن اعتبروا العرب ، أو الجنس العربي، أشعر (١) الامم . واختلف اليمانيون والمضريون منهم، وبان أثر اختلافهم في هذا الأمر، يقول ابن رشيق: «وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن : في الجاهلية بأمرىء القيس ، وفي الاسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولّدين بالحسن بن هاني وأصحابه : مسلم بن الوليد وأبي الشيص (٢)

---

(١) نجد هذا في مناظرات الجاحظ للشعوبية ، ومنه ماجاء في عمدة ابن رشيق ١/٤٧ طبعة الخانجي : « وقال رجل لابن الرومي يمازحه : ما انت والشعر؟ لقد نلت منه حظاً جسيماً وانت من العجم ، أراك عربياً في الاصل أو مدعياً في الشعر » قال : « بل انت دعي اذا كنت تنتسب عربياً ولم تحسن من ذلك شيئاً ... وله يقول من ابيات :

إياك يابن بويب أن يستشار بويب
قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب

(٢) ابو الشيص : هو محمد بن رزين بن سليمان بن تميم ، وهو ابن عم الشاعر دعبل ، كان منقطعاً الى عقبة بن جعفر بن الاشعث الخزاعي ، امير الرقة ، وكان عقبه جواداً فأغناه عن غيره . حكى عبدالله بن المعتز أن ابا خالد العامري قال له : « من اخبرك انه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذبه ، والله لكأن الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان ، وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك » وأبو الفرج - وهو من يركن الى حكمه وعلمه - لا يرى رأى =

ودعبل [١] وكلهم من اليمن ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائيين : حبيب والبحتري ، ويختمون الشعر بأبي الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا محالة ، وكان ينسب في كنده ... فيقولون : « بدأ الشعر بكنده يعنون امرأ القيس ، وختم بكنده يعنون ابا الطيب ... » ونظير هذه الملاحظات نجده عندهم فيما يقولونه عن تنقل الشعر في القبائل [٢] ويرون أنه كان في ربيعه ثم انتقل الى قيس ثم استقر في تميم .

وقد ذهب بعضهم الى أن الشعر له صلة بالوراثة ، وأن الأب الشاعر قد يولد ولداً شاعراً ، ويظهر أن نظرهم الى زهير بن أبي سلمى ، وحسان ابن ثابت ، ورؤبه ، وابن المعذل ، وابن أبي حفصه ، وإلى أبي الشيص وابنه ، هو الذي دعاهم الى هذا . يروي صاحب العمدة ، أن الفرزدق مر يوماً بمضرس الفقعسي ، وهو غلام حديث السن ، ينشد الناس شعره ،

= ابن المعتز ، في أبي الشيص ، وهو عنده خامل ، لوقوعه بين مسلم بن الوليد ، وأشجع ، وابي نواس ، وقد حكم عليه وديوان شعره بين يديه

(١) دعبل — هو أبو جعفر بن رزين بن سليمان الخزاعي ، كان بذي اللسان كثير الهجاء ، شديد التعصب على النزارية والقحطانية ، وقيل إنه كان يتشطر ويصحب الشطار ، وكان صديقاً للبحتري ومسلم بن الوليد ، وكان البحتري يتعصب له ويقول : « دعبل عندى أشعر من مسلم بن الوليد ، لأن كلامه أدخل في كلام العرب ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم . وقد توفي دعبل سنة ٢٤٦ هـ وعمره ٩٨ سنة .

(٢) ينظر كتاب « العمدة » لابن رشيق ، طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ الجزء الأول ، صفحة : ٥٤ وما بعدها

فحسده على ما سمعه منه ، وقال له - بعد كلام طويل فيه تعريض وتصريح - : « أدخلتْ امك البصرة ؟ » وفهم عنه مضرس ما أراد ، فقال : « كلا ولكن أبي » ورجع الى الانشاد فاستحى الفرزدق . ويحدثون عن الحطيئة ، أنه سمع الفرزدق ينشد شعراً أعجبه ، فقال : « أنجدتْ امك » فقال الفرزدق : « بل انجد أبي » واشار الى هذه الحادثة الطرمّاح (١) بن حكيم وعرّض بالفرزدق بقوله .

واسأل قفيرة بالمروت (٢) هل شهدت شوط الحطيئة بين الكسر والنضد
أو كان في غالب شعرٌ فيشبهه شعر ابنه فينال الشعر من صدد

---

(١) الطرماح : هو الطرماح بن حكيم الطائي من فحول شعراء الدولة الأموية ، نشأ بالشام ثم انتقل الى الكوفة ، وكان خارجياً على مذهب الخوارج الصفرية ، وكان شديد العصبية للقحطانيين ، وقد عده الجاحظ في البيان والتبيين من الخطباء الشعراء . وقال : انشد الكميت قول الطرماح :

اذا قبضت نفس الطرماح اخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : اي والله وعنان الخطابة والرواية

(٢) وقفيرة هذه هي التي يقول فيها جرير للفرزدق هاجياً :

وامكم قفيرة ربيتكم بدار اللؤم في دمن النبات
وحان بنو قفيرة اذ اتوني بقين مدمن قرع العلاة

والمروت : المروت والحفر ، منازل التيم من بني تميم ، وبالمروت ادركت بنو تميم بني قشير ، وقد اصابت منهم سبياً ونعماً ، فقتلوا رئيسهم بحير بن عبدالله بن سلمة بن قشير ، وانهزمت بنو قشير .

وغالب والد الفرزدق وكثيراً ما يفخر به ويباهي جريراً ، كأن يقول :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لهاترة من جذبها بالعصائب
اذا مارأوا ناراً يقولون ليتها - وقدخصرت ايديهم - نارغالب

وعرض ابو السمط مروان الأصغر بن أبي الجنوب بن مروان بن ابي حفصة بعلي بن الجهم بقريب مما قاله الطرماح للفرزدق قال :

لعمرك ما الجهم بنُ بدرٍ بشاعر وهذا عليٌ بعده ينظم الشعرا
ولـكن أبي قد كان جاراً لامه فلما تعاطى الشعر أوهمنى أمرا

* * *

أثرها في الشاعرية والشعراء :

ونعود الى بيئة العراق فنرى ان هذه البيئة مواتية للفن وللروح الشعرية ، وقد كثر فيه الشعراء ؛ فالصاحب بن عباد يكتب الى عبدالعزيز (١) بن يوسف ، وقد بعث السلامى (٢) الشاعر اليه يقول : « قد علم مولاي اطال الله بقاه ان باعة الشعر أكثر من عدد الشعر (٣) » وما اشك ان هؤلاء الذين

---

(١) عبدالعزيز بن يوسف : وزير بنى بويه ، كان كاتباً مشهوراً . وهو الذي تشفع لابي اسحق الصابى عند عضد الدولة البويهي حين هم بقتله .

(٢) السلامى : ولد في كرخ بغداد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ونسبته في بنى مخزوم ، كان يطوف البلاد يمدح الامراء ، وكان يرافق عضد الدولة في بعض اسفاره ، وقد طلب اليه مرة ان يصف « شعب بوان » وكانا قد مرا به ، فوصفه السلامى في الحال . وكان عضد الدولة يقول : « اذا رأيت السلامى في مجلس ظننت ان عطارداً نزل من الفلك اليّ ، ووقف بين يدي » والصاحب بن عباد يقول في السلامى « وممن خبرته بالامتحان فأحمدته ، وقررته بالاختبار فاخترته ... وله بديهة قوية ، توفي على الروية ومذهب في الاجادة يهش السمع لوعيه ، كما يرتاح الطرف لرعيه »

(٣) ينظر كتابه : « يتيمة الدهر » لأبي منصور الثعالبي الجزء الثانى ، صفحة : ٣٧٠

كانوا اكثر من عدد الشعر كان كلهم ، او جلهم من العراق .

وقد لوحظ بوجه عام أن الأراضي الخصبة ، التي تكونت سهولها من طمى الأنهار ، تكون كثيرة الثروة ، كثيرة الناس ، ويكون لذلك أثره في حياتها الاجتماعية والفنية . وقد مرت بنا المقارنة الآن بين أهل الأراضي السهلية ، وبين أهل الأراضي الجبلية ، ذات الطبيعة العنيفة الرهيبة التي تشل العقول ، وتمنع الفن والشعر من الازدهار .

وننظر الى العراق نفسه ، فنرى الفن يزدهر فيه في الأراضي السهلية الخصبة ، التي تغمرها مياه الأنهار ؛ فالعراق في جنوبه أكثر سهولة ومياهاً منه في شماله ، وهو كذلك في فنه وشعره ؛ إن الجنوب أكثر فناً وشعراً من الشمال والوسط ، وإن بغداد وما حولها الآن ؛ يتغنى أهلها في حفلاتهم ومراقصهم العامة ، بأشعار أهل الجنوب ؛ بأشعار هؤلاء الذين يعيشون في حواشي المستنقع الكبير الذي مر ذكره بنا ، وقد اتخذوا لهم أكواخاً من القصب ، الذي ينبت ويكثر حول هذا المستنقع واعتمدوا في حياتهم على زراعة الأرز ، وعلى اسماك هذا المستنقع وطيوره المائية ، التي يصطادونها ويتمتعون عليها . واتخذوا لهم زواريق صغيرة يدفعونها بقصبة غليظة كالرمح ، يقتطعونها من آجام هذا المستنقع وادغاله — وهم في هذه الحياة يشعرون ويغنون شعرهم . وقد تجوب في مستنقعهم الكبير زواريقهم — وكم من مرة جبت انا فيه — فتسمع نقرة الطبل

تأخذك من كل مكان ، وتسمع غناءهم ينبعث من كل عشة وكوخ .

وقد يحاول بعض الذين ينظمون الشعر الآن ، في بغداد وما حولها تقليد شعرهم ، ولكن أين هذا من ذاك ؟! إن لشعرهم ليطةً بالقلب ، وانك حين تسمعه وتسمع غيره ، ترى الفرق واضحاً بين الصرخة الحقة يبعثها الألم ، وبين الصرخة يبعثها التمثيل أو التقليد .

ولو أن الشعراء في القديم غنوا لأنفسهم كما يغنّي الشعراء الآن لرأيتُ ـ ولا أشك في هذا ـ هذا الامر في القديم ، مثله الآن ، ولكن الشعراء قديماً كانوا يغنون للخلفاء ، والامراء ، وذوي الثروة والجاه ، والنفوذ ، والشعر يكثر ويزدهر حيث يكثر الجاه ، والمال ، والقوة ؛ لان الشاعر بعد أن ينبغ في بلده ، لا يقيم فيه ، بل يرتحل الى الامير يمدحه ويطلب نواله .

هذا أمر ، وأمر آخر ، هو أن أهل هذه البيئة ، لم يكن لهم من الثقافة والحظ ، ما يمكنهم من تعلم العربية ، وقول الشعر فيها ، وهم إنما ينظمون شعرهم بلغتهم التي يتكلمونها ، وهي بعيدة بعض البعد عن لغة الكتب ، وما كان الناس ، ولا سيما في القديم ، ليعنوا بتدوين ما يكتب في مثل لغتهم .

أثرها في الشعر :

وبعد أن نظرنا الى أثر بيئة العراق في الشعراء وفي خلق العراقيين ننظر الى أثرها في الشعر .

أثر الماء :

وقد ظهر أثر البيئة النهرية في تعابيرهم . ومما يجري كالمثل من شعر ابن الحجاج عندهم « حتى متى ترقص في زورقي ؟ » . وقد لوّن الماء تعابيرهم ؛ فابن المعتز يسمي رونق الوجه وحسنه ماءً ، ويضيفه الى الوجه :

لم ترِد ماءَ وجهه العينُ إلا شرقتْ قبلَ ريها برقيب

ويضيفه الى الحسن مرة فيقول :

ويكادُ البدرُ يشبهُهُ وتكاد الشمسُ تحكيه
كيف لا يخضرُّ عارضه ومياهُ الحسنِ تسقيه

والجاهليون أولعوا بالمرأة الخدلجة البدينة ، وكانوا اذا أراد أحدهم أن يصف أردافها شبهها بكثبان الرمل ، وقد بقي أثر هذا التشبيه دائراً في الشعر العربي ، حتى عند أهل المدن ، التي لا رمال فيها . على أننا نرى بيئة العراق النهرية تحول هذا التشبيه ، الى مثل قول ابن سكّره :

قد قلتُ لما مرَّ بي مُعرضاً كالبدر تحت الغسق الداجي
يهتز من مشيته مُتعباً من كفلٍ كالموج رجراج

ونلمح أثر البيئة النهرية ذات الفيضان ، وذات الغرق والسباحة في مثل قول ابن المعتز :

فقُلْ في مكرعٍ عذبٍ وقد وافاهُ عطشانُ
وضم لم تحسنه لنا في الريح أغصانُ

كما ضمَّ غريقُ ســـا بحاً والماء طوفانُ

أو نلمحه في مثل قول أبي نواس ، وهو يتحدث عن هجر خليلته ، وزهدها في وصله :

يا ويحَ أهلي يروني بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائي
لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في وصلي مشيتِ بلا شك على الماء

ونلمح أثر المد والجزر في شعر بشار بن برد ، يمدح أحـــد آل برمك يقول :

لعمري لقد أجدى عليَّ ابن برمك وما كل من كان الغنى عنده يجدى
مُقيد ومتـــلاف سبيلَ ثرائه اذا ما غدا أو راح كالجزر والمد

وأبو نواس يقول لبعض أهل البصرة :

آيا منْ كنتُ بالبصـ ـرةِ أصفي لهمُ الودَّا
شربنا ماءَ بغـــدا . د فأنسانا كُمُ جِدَّا

ونحس أثر البيئة وأثر الهجاء في قوله هذا حين نسمع قول المقدسي في حديثه عن البصرة : « وأما الماء الملاصق لها فغير حلو ولا طيب ويقال عنه : ثلثه ماء البحر ، وثلثه ماء الجزر ، وثلثه ماء الحجر » وأهل البصرة يزدادون عطشاً في الصيف حين يشربون الماء الملح وما أشك أن هذا الأمر هو الذي أوحى الى ابن الرومي في قوله :

فدعْ عنك الكثير فكم كثير يُعافُ وكم قليلٍ مستطابِ

وما اللجج الملاح بمرويات وتلقي الري في النطف العذاب

* * *

ونلمح أثر جو العراق الثقيل في الصيف وأثر شمسه

أثر الجو في التعبير :

المحرقة في هجاء ابن الحجاج :

يا نومةً في شمس آ ب على التراب بلا حصير

يا حيرةَ العطشان وقـــتَ الظهر في وسط الهجير

وليعرف القارئ ما حر آب هذا ، نذكر شعر ابن لنكك (١) البصري :

حزيرانٌ وتموزٌ وآبٌ ثلاثةُ أشهرٍ فيها العذابُ

فان قُرنتْ بشهر الصوم صرنا سبائك في بواتقها تُذابُ

---

(١) ابن لنكك : هو محمد بن محمد بن جعفر ، يقول عنه الثعالبي : « فرد البصرة وصدر ادبائها ، وبدر ظرفائها في زمانه » وهو شاعر شعبي ، قعد به حظه ، فصار يقول لزمانه :

يازماناً ألبس الأحـــرار ذلاً ومهانة

لست عندي بزمان إنما أنت زمانة

ونظر الى شعراء عصره ، فأوسعهم شتماً وهجاءً ، ولا سيما هؤلاء الذين نفقت سوقهم ، كأبي الطيب المتنبي وابي رياش اليمامي ، وكان يجيد اذا قال البيتين أو الثلاثة ، فأذا تعدى ذلك ثقل شعره ، وسخف ، ومما يروى ان الصاحب كتب على ظهر جزءٍ من شعر ابن لنكك :

شعر الظريف ابن لنكك مهذب ومحكك

مذهب وممسك بمثـــله يتمسك =

وبشار بن برد يفضل ريح الجنوب ، لأنها تهب من نحو عبده عشيقته ، على ريح الشمال فيقول :

هوى صاحبي ريحَ الشمالِ إذا جرت ... وأشفى لقلبي أنْ تهبَّ جنوبُ
وما ذاكَ إلا أنها حين تنتهي ... تناهي وفيها من عُبيدةَ طيبُ

ولنوضح ريح الشمال هذه وريح الجنوب ، نعيد قول المقدسي في حر البصرة : « ويكون بالبصرة حر عظيم ، غير أن الشمال ربما هبت فطاب » ويقول : « ورأيتهم اذا كانت جنوب في ضيق صدر ، يلقى الرجل صاحبه فيقول ألا ترى ما نحن فيه !؟ فيجيبه : نرجو من الله الفرج » . ويقول ابن لنكك البصري :

نحن بالبصرة في لو ... نٍ من العيش ظريفْ
نحن ما هبتْ شمالٌ ... بين جناتٍ وريفْ
فاذا هبتْ جنوبٌ ... فكأنا في كنيفْ

هذا كله ، وبشار بن برد يفضل أن تهب الجنوب ، لانها تأتي من

= وقد ترجم له ياقوت في معجم الادباء : ١٩/٨ ، وترجم له الثعالبي في الجزء الرابع من يتيمته ، وعقد فصلا على اهاجيه في ابن رياش ، صاحب الوزير المهلبي ، ومما قاله فيه ابن لنكك :

يقول ابن هاني أفسد الشعر ضلةً ... وشعر ابي تمامكم هو أضيع
ابا الريش ياصفعان ، صفعك واجب ... ولكن مضى من كان في الله يصفع

والضمير في يقول يعني به (ابا رياش) ، وابن هاني هو ابو نواس الشاعر المشهور .

ناحية حبيبته عبدة ، على الشمال .

ونلمح أثر جو العراق البارد في الشتاء في قول ابن المعتز :

بُلينا وقد طاب الشرابُ وأشعلت ... حُميّاه في الفتيان نارَ نشاطِ
بأبرد من كانون في يوم شمالٍ ... وأكثر فسواً من رياح شباطِ

* * *

ولوّن الربيع — على قصره — تعابيرهم ، وكان الورد أبرز ما في الربيع عندهم ، وقد قارنوه بالخدود وقال شاعرهم (١) :

عشيةَ حيّاني بوردٍ كأنه ... خدودٌ أُضيفت بعضُهنّ الى بعض
وولى وفعلُ السكرِ في حركاته ... من الراح فعل الريح بالغُصُن الغض

---

(١) خالد الكاتب

هو : ابو يزيد ، ويكنى ابا الهيثم ، من أهل بغداد ، كان يقول فلا يزيد — في الغالب — على الأربعة أبيات ، وسؤل في هذا فقال : « اذا بلغت المراد في أربعة أبيات فالزيادة فضل » ودخل على ابراهيم بن المهدي فاستنشده فقال : « ايها الأمير أنا غلام أقول في شجون نفسي ، لا أكاد أمدح ، ولا أهجو » فقال : « ذلك أشد لدواعي البلاء » فأنشده خالد :

عانيت نفسي في هوا ... ك فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها اليـ ... ـك ولم اطع من يعذل
لا والذي جعل الوجو ... ه لحسن وجهك تمثل
لا قلت : إن الصبر عنـ ... ـك من التصابي أجمل

فبكى ابراهيم وصاح ... وحين بويع ابراهيم بن المهدي بالخلافة بعث الى خالد وقال : « أنشدني ياخالد شيئاً من شعرك » فقال : يا أمير المؤمنين ! ليس شعري من الشعر الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من الشعر لحكماً ،

ولوّن الورد تعابيرهم ، وشاع فيها فقالوا : « زمن الورد » لزمن الشباب ولكل زمان جميل . وما أجمل قول ابن سكّره (١) :

وعاذلةٍ هبتْ بليلٍ تلومني ... وما عندها من لذّة القصف ماعندي

فقلتُ لها كُفي ملامك إنني ... بشغلٍ عن العُذال في « زمن الورد »

وسموا البرد المستطاب وهو برد الربيع « برد الورد » وكنوا مضحكهم « بأبي الورد (٢) » . وقد أجاد البحتري حين تحدّث عن

= وإنما أمزح وأهزل » فقال له : لا تقل هذا ، فان جد الأدب وهزله جد ، هات . فأنشده خالد أبياته التي أولها :

عش فحبيك سريعاً قاتلي ... والضنى إن لم تصلني واصلي

وأنت ترى من هذه النتف التي سقتها اليك ان الشاعر خالد الكاتب يكاد يكون نسيج وحده بين شعراء العربية ، لقد غلب على شعر الشعراء المديح أو الهجاء ، وما هكذا هو . وقد وجدت نسخة من ديوانه مخطوطة بمكتبة تيمور المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وتصفحتها فشغفت بشعره أيما شغف ، ونسختها في أربعة كراريس ، واني اعالج الآن تصليحها ومقابلتها ، وآمل ان أطلع على الناس قريباً — إن شاء الله — بديوان هذا الشاعر فيرون فيه لوناً جديداً من الشعر ، لا عهد لنا بمثله فيما بين أيدينا من دواوين الشعراء .

(١) انظر صفحة ١١٥ من هذه الرسالة فقد سبقت ترجمة فيها .

(٢) وأبو الورد هذا يقول عنه الثعالبي : بلغني انه كان من عجائب الدنيا في المطايبة والمحاكاة ، وكان يخدم مجلس المهلبي الوزير ، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي فيعجب الناظر ، والسامع ، ويضحك الثكلان ، وكان ابو اسحق الصابي قد بلي به حتى قال فيه :

ومن عجب الأيام ان صروفها ... تسوء امرءً مثلي بمثل أبي الورد

فياليتها اختارت نظيراً وإنها ... رمتني بشنعاء الدواهي على عمد

لاعجه ، بغلامه « نسيم » فسمي النسيم العليل « نسيم الورد » وقال إنه يفضل « نسيمه » عليه ويعاديه من أجله :

أميلوا الزجاج الصفو عني فانني أقمتُ وما شخصي لكم بمقيم
فقل « لنسيم الورد » عنك فانني أعاديك إجلالاً لوجه « نسيم »

وربما كان عشقهم للون الأحمر له صلة بلون الورد هذا ، يقول بشار بن برد :

هجان عليها حمرة في بياضها تروق بها العينين والحسن أحمر

ويقول :

أحب الخاتم الأحمر من حب مواليه

ويقول ابن المعتز :

وقمرية الأصوات حمر ثيابها تهين ثياب الوشي جراً وتسحابا

ويقول :

اذا ضم قرناً بين كفيه خلته يعاني عروساً في غلائلها الحمر

وأكاد أقول إن العرب الجاهليين كانوا لا ينظرون الى هذا اللون نظرة العراقيين له . لقد قرنوه بما يكرهون . يقول ابن سيده : « الأحمر من الرجال : القبيح الحمرة » وقالوا « سنة حمراء » ، كناية عن السنة المجدبة البغيضة وقالوا « ميتة حمراء وموت أحمر » وتقول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل :

فلله عيناً من رأى مثله فتى ... أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا

اذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... الى الموت حتى يترك الموت أحمرا

وقالوا : احمر البأس ، اذا اشتد . والريح الحمراء : الريح القاسية الشديدة ، وربما كان ذلك لانها تحمل معها التراب الصحراوي الأحمر ، يقول الفرزدق في نقيضة له مع جرير :

اذا اغبرّ آفاقُ السماء وكشّفت ... كُسور بيوت الحي حمراء خرجف (١)

وهتكت الأطناب كلّ عظيمة ... لها تامكٌ من صادق النيّ أعرفُ (٢)

وجدت الثرى فيناء اذ يبس الثرى ... ومن هو يرجو فضله المتضيفُ (٣)

ويمكن أن نضيف ما قاله أبو عبيدة الى ما قلناه ، في تعليل كرههم للون الاحمر ، قال : « إنما وصفت العرب الشدة بالحمرة ـ فيقولون : الموت الأحمر لان الغالب على ألوان السباع الحمرة »

---

(١) وروى ابو عمرو « إذا احمر آفاق السماء » . وآفاق السماء : جوانبها . الكسور : واحدها كسر : وهو ما وقع على الأرض من البيت . وبيوت العرب إنما هي الأكسية يتخذون منها البيوت ويكونون فيها .

(٢) الأطناب : جمع طنب وهو حبل الخباء . كل عظيمة : أي كل ناقة عظيمة . لها تامك : لها سنام تامك ، أي عظيم مرتفع ، ومن المجاز بناء تامك ، وشرف تامك . اعرف : طويل العرف . يقول : اذا اصابها البرد دخلت في الخباء فقطعت الأطناب ، وإنما تفعل ذلك من شدة البرد

(٣) وروى ابو عمرو : « وجدت القرى » ، والثرى يريد به الندى ، وهذا مثل

وهكذا نرى أن بيئة البادية كرّهت اللون الأحمر للعرب لأنها قرنته بما يكرهون ، وحببت بيئة العراق هذا اللون لاهلها لانها قرنته بالورد والخدود . وقد أحب العراقيون اللون الأصفر (١) كما أحبوا اللون الاحمر .

* * *

أثر البيئة الزراعية : وطغت البيئة الزراعية على تعابيرهم ، وقد شُهر العراق بالنخل وظهر هـــذا فى مثل قول ابن الرومي يهجو :

رأيتكم تستعدون السلاح ولا ... تحمون في الروع من أعدائكم سلبا
كالنخل يشرع شوكاً لايذودُ به ... أيدي الجُناة ولا يحميهم الرُّطبا

وقد أولع بهذا المعنى ، وأداره في أشعاره من ذلك قوله :

رأيتُكُم تبدون للحرب عدةً ... ولا يُمنع الأسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ... ولا يمنع الخراف ما هو حامل

ونشم رائحة التمر الحامض من قول ابن سكرة ، وهو يتحدث عن شتم امرأة ، جرى وراءها بعد أن شمط شعره ، يقول :

لما رأتْ كفي بها وصبابتي ... وتأملتْ شمطاً يلوح بعارضي
قالتْ : أكلتَ جناكَ ثم أتيتنا ... بمُدوّدٍ من تمر عمُرِكِ حامض

---

(١) انظر المقال الممتع الذي نشره استاذنا الجليل أحمد أمين بك ، في الجزء الأول من كتابه : «فيض الخاطر» ص : ٢٥٨ عن حب العراقيين للون الأصفر .

ونلمح أثر بيئة العراق الزراعية في شعر ابن الرومي :

كلُّ الخلال التي فيكم محاسنكم ... تشابهتْ منكم الأخلاق والخلق

كأنكم شجر الاترجّ طاب معاً ... حملاً ونوراً وطاب الطعم والورق

ويقول الثعالبي (١) « إن هذا التشبيه يضرب مثلاً لمن طاب أصله وفرعه ، وكل شيء منه » .

ونرى أثرها في قول أبي نواس ، يهجو أحد النحويين وكان يسمى « الكبش » :

رأيت الكبش قد أبدى خشوعاً ... وتأبى ذاك فيشته اللعينة

وما ينفك طولَ الدهر يسعى ... بقشاة يسدّدها لتينة

واستعارته من البيئة الطبيعية في غاية الجمال ، على أنها في غاية الفحش أيضاً ، وحسبنا أن نقرأ قصيدة ابن الرومي :

أجنتْ لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان : تفاحٌ ورمان

وفوق ذينك أعناب مهدّلة ... سودٌ لهن من الظلماء ألوان

وتحت هاتيك عناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان

ونرجس بات ساري الطل يضربه ... واقحوان منير النَور ريّان

يولين ما فيه اغرام وآونة ... يولين ما فيه للمشعوف سلوان

ولا يدمن على حال لمعتقد ... أني وهنّ كما شبّهن بستان !؟

فنعلم أن الخدود تفاح ، وأن النهود رمان ، وأن الشعر الأسود

---

(١) ثمار القلوب في « المضاف المنسوب » صفحة : ٤٧١

أعناب مهدلة ، وأن الأصابع عناب ، وأن العيون نرجس . وقد كانت هـذه الصور عند أهل البادية غيرها عندهم ؛ فالعين عين الرئم او بقر الوحش ، والشعر كأنه الليل ، والنهود كحقّ العاج ، والأصابع أساريع ظبي ، او مساويك اسحل ، والأسنان برد . وهكذا نرى البون شاسعاً بين بيئة الصحراء القاحلة ، وبيئة العراق النهرية الخصبة .

نرى مما مر ، أن أثر البيئة العراقية ظاهر ، في كل فنون الشعر ؛ ظاهر في المديح ، وفي الهجاء ، وفي الغزل وهو في الوصف أظهر وأبين منه في غيره من الفنون . لقد تقسم شعر الوصف هذه البيئة الطبيعية ، وإننا يندر أن نرى نباتاً ينمو ، أو حيواناً يضطرب في هذه البيئة ولا نرى له أثراً في شعر الوصف .

لقد قال الشعراء في الجو ؛ وصفوا حره وبرده : وصفوا الهاجرة ووصفوا سقوط الثلج ، ووصفوا النيران والمواقد . ونظروا الى السماء فوصفوها غائمة ، ووصفوها صاحية . وتحدثوا عن السحاب ، وعن المطر ، وعن البرق وعن الرعد .

ونظروا الى الأنهار ؛ فوصفوها في اضطرابها وهدوئها وتحدثوا عن المد والجزر . ونظروا الى ما في هذه الأنهار ، فوصفوا الأسماك والطيور المائية .

ونظروا الى حيوان الأرض وطيورها وحشراتها ، فتحدثوا ، وأكثروا الحديث في فن الصيد : صيد الأسماك ، وصيد الطيور ، وصيد الظباء وما الى ذلك . ولم يفتهم الحديث ، عن الحشرات ، فتحدثوا عن البعوض والبق .

ونظروا في نبات هذه البيئة ، فتحدثوا عن النخيل ، وعن أشجار الفاكهة ، وتحدثوا عن الورد والنرجس ، وتعصبوا لهما وعليهما ، وهجا بعضهم بعضاً من أجل ذلك . وقد تطرفوا في هذا الباب تطرفهم في التعصب للمذاهب والنحل .

هذه كلها موضوعات وصفية ، عرض لها شعراء الوصف العراقيون ونرى ان البحث لا ينتهي بنا لو اردنا معالجة كل جزء من هذه الموضوعات على حدة . على أننا سنعالج ما اتفق منها ، وننظر اليها جملة . فنتحدث في فصل عن وصف الطبيعة ، نلمّ به بأهمّ ما عالجه شعراء العراق في طبيعتهم السهلية النهرية ، وسنلتفت في حديثنا ، ونعني بهذه النواحي ، التي امتازت بها بيئة العراق عن غيرها . ولا نريد أن ننظر الى هذه الموضوعات نظرة المؤرخ ، يستقصي ما قيل ولكننا سندير البحث على نظرة العراقيين الفنية الى الطبيعة ، وسنرى الى أي حد نفذ جمالها الى انفسهم .

وسنعقّب على وصف الطبيعة بفصل آخر ، نبحث فيه موضوع الصيد وهو وإن كان جزءاً من الطبيعة ، إلا أننا أفردناه في البحث لأهميته في شعر العراق ، وفي بيئة العراق . وسنعقّب على هذا الفصل بفصل آخر نبحث فيه نظرة العراقيين الى السفن . وهذا الموضوع وإن اشتركت فيه البيئة الطبيعية والاجتماعية إلا اننا نراه الى البيئة الطبيعية أقرب وألصق منه بالبيئة الاجتماعية .

وصف الطبيعة

شغف الطبقة الحاكمة بالطبيعة وشعرها :

إن الخلفاء والامراء والوزراء وعلية القوم قد اهتمت بالطبيعة ، وحاولت أن تقول ، وأن تسمع ما يقال فيها من شعر . وقد شُهرت قصور الثريا بما فيها من شجر ، وزهر ، وطير ، وحيوان . وشهر الخليفة الراضي بولعه بهدم القصور وتصييرها بساتين . ويقول مسكويه عن عضد الدولة : « إنه حوّل الكثير من خرائب بغداد الى بساتين . فامتلأت الخرابات بالزهرة ، والخضرة ، والعمارة ، بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار ، وجلبت اليها الغروس من فارس وسائر البلاد » (١) وابن مقلة (٢) « كان له بستان عظيم ، عدة أجربة ، شجر بلا نخل ، عمل له شبكة إبريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر ، كالقماري ، والدباسي ، والهزار ، والببغ ،

---

(١) مسكويه ، في تجارب الامم ، الجزء السادس ص ٥٠٧ـ٥١٠ ، وينظر الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لمتز ، الترجمة العربية ، الجزء الأول صفحة : ٤٤

(٢) « ظهر الاسلام » للاستاذ أحمد أمين بك ص ١٠٣ ، والمنتظم لابن الجوزى

والبلابل ، والقبج . وكان فيه من الغزلان ، والنعام ، والايل ، وحمر الوحش . وبُشّر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بري ، فباض وفقس ، فأعطى من بشره بذلك مائة دينار » وكان الوزير المهلبي مولعاً بالورد : له مضحك يكنى بأبي الورد (١) ، وكان يحب أن يشرب على الريحان ، وله حجرة تعرف بحجرة الريحان (٢) ... فيها حوض مستدير ، ينصب اليها الماء ، من دجلة بالدواليب . وفي كتاب الروزنامجة : « حضرنا مع الاستاذ ، أبي محمد ـ الوزير المهلبي ـ فاستدعى دناً للوقت ، وخماراً من الدير ، وريحاناً من الحانة » .

ويحدث عنه التنوخي (٣) الشاعر ، وهو نديمه ،

---

(١) انظر صفحة ١٢٩ من هذا الكتاب .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة القاهرة الجزء الثاني صفحة ٢٠٨

انظر يتيمة الدهر للثعالبي ايضاً ، الجزء الثاني في أخبار المهلبي

(٣) التنوخي : هو أبو القاسم علي بن محمد بن داود ، شاعر بصري ، تقلد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وصرف عنها فسافر الى سيف الدولة ، فاكرم مثواه ، وكان المهلبي وصحبه يعدونه « ريحانة الندماء وتأريخ الظرفاء ... ويحكى انه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ، ويجتمعون عنده في الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة ، والتبسط في القصف والخلاعة ... فاذا تكامل الانس ، وطاب المجلس ولذ السماع ، وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب ، من الف مثقال الى مادونها ، مملوءاً شراباً قطر بلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيه ، بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش =

يقول (١) : « شاهدت أبا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة في داره، ولها فورات عجيبة، يطرح الورد في مائها، فتنفضه على المجلس، فيقع على رؤوس الجالسين، ويعد شربه عليه، ويلوغه ما أراد منه أنهبه » .

وكما كان هؤلاء يحبون الطبيعة كانوا يحبون الشعر الذي توصف به. فالشاعر ابن المعتز يمدح الخليفة المعتضد بأن يصف ما في قصر الثريا من جداول، وأشجار، وأزهار، وأطيار . وعضد الدولة البويهي لا يهون عليه أن يمر بشعب بوان من غير أن يوصف الشعب بشيء من الشعر، فيقول لشاعره السلامي (٢) « قل في الشعب فقد سمعت ما قال المتنبي فيه » فيقول السلامي قصيدته المشهورة :

= بها بعضهم على بعض، ويرقصون ... فاذا اصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت، والتوقر، والتحفظ بهيبة القضاة، وحشمة المشايخ الكبراء » هذه حياة التنوخي الشاعر، وقد قرأت في الكتب القديمة ان له ديوان شعر، على انني بحثت - ما وسعني البحث - في فهارس المخطوطات في متاحف الدنيا فما رأيت له خبراً، وكل الذي وصلنا من شعره، ما نقله لنا بعض الذين ترجموا له كصاحب اليتيمة وياقوت ... ومن كتبه التي بين ايدينا : كتاب الفرج بعد الشدة، وهو مجموعة قصص تصور حالة الحياة الاجتماعية في عصره .

(١) انظر معجم الادباء، لياقوت ٦ / ١٣٨

(٢) انظر يتيمة الدهر الجزء الثاني صفحة ٣٨١ ، وانظر ترجمته في هذا الكتاب

إشرب على الشعب واحلل روضه أنفا قد زاد في حسنه فازدد به شغفا
إذ ألبس الهيف من أغصانه حللاً ولقّن العجم من أطياره نتفا
واثمرت حسنه الأغصان مثمرة من نازع قرطاً أو لابس شنفا

وكما كان يطلب من شعرائه أن يقولوا في الطبيعة كان يقول هو فيها أيضاً ، من ذلك قوله في الخيري :

يا طيب رائحة من نفحة الخيرى اذا تمزّق جلبـــاب الدياجير
كأنما رُش بالماورد أو عبقت فيه دواخن ند عند تبخير
كأن أوراقه في القدّ أجنحة صفرٌ وحمرٌ وبيضٌ من دنانير

والوزير المهلبي ، كان يحب أن توصف مجالسه ، وأن يقال في خمره وورده . وكان هو شغوفاً بشعر الصنوبري (١) ، كثير الانشاد له في مجالسه ، وهو الذي نشره في بغداد (٢) وربما كان الصنوبري ، أول وصافي

---

(١) الصنوبري : هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري ، ولد بأنطاكية ، وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة . سكن الرها ، وتغنى كثيراً بذكر حلب والرقه ، وكان يقيم بها سيف الدولة الحمداني . وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر نحم حوله الغروس والرياحين ، وشجر السارنج . وهو عند الاستاذ متز « أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي ، يجمع الى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء ، والضياء ، والهواء ، مع التطلع الى أسرارها الجميلة » والصنوبري مات عن عمر يناهز الخمسين عاماً سنة ٣٣٤ هـ ، ومع ان الصولى جمع شعره في نحو مائتي ورقة ، ورتبه على حروف الهجاء ، فان ديوانه ضاع ولم تصلنا الا نتف من أشعاره .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢/١٩٧

الطبيعة ، والمهلبي يقلّده في ثلجياته وروضياته ، يقول في الثلج والورد :

الورد بين مضمّخ ومضرّج ... والزهر بين مكلّلٍ ومتوّج
والثلج يهبط كالنثار فقمْ بنا ... نلتذ بابنة كرمةٍ لم تمزج
طلع النهار ولاح نور شقائقٍ ... وبدتْ سطور الورد تلو بنفسج
فكأن يومك في غلالة فضةٍ ... والنبت من ذهب على فيروزج

ويقول :

يومٌ كأن سماءه ... شبه الحصان الأبرش
وكأن زهرةَ روضه ... فرشتْ بأحسن مفرش
فسماؤه دكن الخزو ... ز وأرضه خضر الوشي

ويقول في وصف الشمس :

الشمس في مشرقها قد بدتْ ... منيرةً ليس لها حاجب
كأنها بودقة أحميت ... يجول فيها ذهبٌ ذائب

وهكذا نرى أن هذه الطبقة العالية من القوم ، قد أحبت الطبيعة وأحبت الشعر الذي يقال فيها .

شغف الشعراء والأدباء :

وعلم الادباء والشعراء أن علية القوم ، تؤثر الشعر الذي توصف به الطبيعة على غيره ، فراحوا يقدمون هذا الشعر على سواه ، ويقولون إن السرّي (١) الرفاء كان

(١) هو ابو الحسن بن أحمد الكندي ، نشأ بالموصل ، وقضى باكورة شبابه يرفو ويطرز فيها ، ثم تركها الى حلب وبغداد يتكسب بشعره ، =

ينسخ ديوان كشاجم (١) ويبيعه . وقد انتشر شعر كشاجم في العراق وكشاجم شاعر الطبيعة وصديق الصنوبري ، كان ينسج على منواله في شعره وهو القائل له :

أتنسى زمناً كنا به كالماء والخمر
أليفين حليفين على الايسار والعسر
مكبين على اللذا ت في الصحو وفي السكر
نُرى في فلك الآدا ب كالشمس وكالبدر

وتأثر السري الرفاء بكشاجم ، وكان من الوافدين على بغداد المكثرين لمدح المهلبي الوزير . وله شعر كثير في وصف الطبيعة المحيطة به ،

= وقد اقام مع سيف الدولة بحلب حتى اذا مات قصد بغداد ، ومدح رؤساءها وبقي فيها حتى مات سنة ٣٦٦ هـ ، وقد ترجم له الثعالبي وأكثر من ذكر أشعاره ، ومما قاله عنه : « .. ولله دره ما أعذب بحره ، واصفى قطره ، واعجب أمره ، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدهر ، ويعلق في كعبة الفكر ، .. » وهو - عندي - أكثر شعراء العرب وصفاً ، ولا اعرف شاعراً عربياً يدانيه بكثرة ما قاله في الموضوعات الوصفية ، أما قيمة وصفه من الناحية الفنية فسيأتيك رأينا فيه إن شاء الله .

(١) كشاجم : شاعر ، كاتب ، منجم ، وصاحب مطبخ لسيف الدولة . نسج على منوال الصنوبري في شعره . تنقل في الشام ومصر ، وشهر بوصف الطبيعة ، وكان السري ينسخ ديوان كشاجم - ويدس فيه أحسن أشعار الخالديين ، ليزيد في حجم ما ينسخه من شعره ، وليوقع بالخالديين ، فيدعي أنها سرقا شعر كشاجم ، وقد توفي سنة ٣٢٠ هـ

فقد وصف الورد ، والشجر ، والطيور ، والسمك ، ووصف السماء ونجومها .

وكثر شعر الطبيعة الوصفي ، وصار حديث الناس في مجالسهم (١) . وصار موضوعاً تمتحن به الشاعرية . يقولون إن السلامي حين خرج من بغداد الى الموصل ، ورأى بها أبا عثمان (٢) الخالدي وأبا الفرج (٣) الببغا ، وأبا الحسين التلعفري وهم شيوخ الشعراء ، أتهمه بعضهم بأن الشعر المرويّ عنه ليس له وأرادوا أن يمتحنوه ، فقال الخالدي : أنا أكفيكم أمره واتخذ دعوة جميع الشعراء فيها ، وحصل السلامي معه ، فلما توسطوا الشرب ، أخذوا في ملاحاته ، والتفتيش على قدر بضاعته ، فلم يلبثوا أن جاء مطر شديد ، وبرَدّ ستر الأرض ، فألقى أبو عثمان نارنجاً كان بين

---

(١) انظر ديوان ابن نباته السعدي ، النسخة الخطية بمكتبة تيمور المحفوظة بدار الكتب المصرية

(٢) أبو عثمان الخالدي ، كان أبوعثمان هذا وأخوه ، قيمين على مكتبة سيف الدولة ، وقد الفا في اختيار شعر بشار وابن الرومي والبحتري ، ومسلم بن الوليد ، ولها «حماسة الخالديين» مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية ، وقد نقل الكثير من اشعارهما واخبارهما الشابشتي صاحب كتاب « الديارات » المخطوط بدار الكتب المصرية ايضاً .

(٣) ابو الفرج الببغا : هو عبدالواحد بن نصر المخزومي من أهل نصيبين ، ولقب بالببغا للثغة فيه ، كان في أول شبابه متصلاً بسيف الدولة ، وحين مات سيف الدولة تنقل أبو الفرج في الموصل وبغداد ، وكان صديقاً لأبي اسحق الصابي ، كانا يتهاديان ويتكاتبان بالنظم والنثر .

أيديهم على ذلك البرد ، وقال : يا أصحابنا هل لكم في أن نصف هذا؟ فقال السلامي ارتجالاً :

لله در الخـــالدي الأوحد الندب الخطير
اهدي لماء المزن عنـــد جموده نار السعير

فلما رأوا ذلك أمسكوا عنه .... (١)

وأبو اسحاق الصابي يهدي الى أبي الفرج البيغا قبجة ، ويبعث معها أرجوزة طويلة ، ثم يسأل أبو الفرج رأيه في الارجوزة الوصفية ، لا في القبجة التي أرسلها ، والتي قيلت الأرجوزة بسببها ، يقول له :

دونك يا ذا الفخر للباب ارجوزةً من صنعة الكتاب
باكورةً من ثمر الألباب وتحفةً من تحف الآداب
هدية الأتراب للأتراب قل ما ترى فيها ولا تحاب
هل خلصت من هجنة وعاب وسلمت من عيبة العياب
أم خلتها أشبه بالصواب فهات ما عندك من جواب

وكثر هذا الشعر الوصفي ، وقال الشعراء في الأشجار ، والفواكه والخضر ، والزهر ، والسماء ، والنجوم ، والليل والنهار . وألفت الكتب في جمعه ، وراح أبو هلال العسكري مثلاً ، يبحث في أشعار القدماء والمعاصرين ، حتى اذا وجد في القصيدة أشعاراً في وصف زهرة ، أو

(١) اليتيمة ـ في الحديث عن السلامي ، في الجزء الثاني صفحة : ٣٦٦

شجرة ، أو حيوان ، أو طائر ، أو سحاب ، أو سماء أو نجوم ، انتزعها من القصيدة ، وكتب لها عنواناً ، ووضعها في كتابه « ديوان المعاني » . وقد ينظر حوله فيرى أن بعض ما في الطبيعة لم يقل في وصفه أحد ، فيعز عليه ذلك فيقول هو فيه . يقول : (١) « وقلت في الهنة النادرة تحت ورقة البنفسج ، ولم أسمع فيها من الشعر العربي شيئاً » ويقول : « وقلت في الآس ، ولا أعرف فيه لأحد شيئاً بديعاً (٢) » ويقول : « وقلت في الزمان ، ولا أعرف فيه شيئاً مرضياً (٣) » وهكذا نرى الطبقة الحاكمة والشعراء والنقاد ، قد عنيت بشعر الطبيعة . والذي نريده الآن هو : كيف نظر شعراء العراق الى الطبيعة حين وصفوها ؟

علام يدار فن التمتع بالطبيعة ؟

التمتع بالطبيعة فن — كبقية الفنون — يعتمد الى حد بعيد على حالة الفرد وشخصيته . وقد تحدث Wendell White ويندل وايت عن هذا الفن (٤) ، وأدار التمتع بجمال الطبيعة ، على المباينة والاختلاف بين اجزائها . يرى أن عالم الطبيعة مؤلف من اجزاء لا حصر لها ، وأن هذه الأجزاء يغاير

---

(١) ينظر كتاب « ديوان المعاني » طبعة القدسي الجزء الثاني ، صفحة ٢٤

(٢) نفس المصدر الجزء الثاني صفحة : ٢٩

(٣) نفس المصدر الجزء الثاني صفحة : ٣٧

(٤) ينظر كتاب :

Psychology of Making Life Interesting, P: 131-139 ;

بعضها بعضاً، فليس هناك جبل يشبه جبلاً ولا واد يشبه وادياً، ولا نهر يشبه نهراً. والاختلاف بين الصخور يربى على عدد الصخور. والأشجار يختلف بعضها عن بعض نوعاً وتفصيلاً. والازهار تتباين لوناً وهيئةً وحجماً، وتتباين فيما يفوح منها من عطر. والفواكه، والخضر، تختلف كاختلاف الأزهار، وتزيد عليها باختلافها بالطعم.

والسماء مملوءة بالعجائب، يبهر الناس منها القوس قزح، والمغيب، والشروق؛ وتعجبهم زرقة السماء حين تكون صاحيةً، كما يعجبهم لونها الأكدر حين تغيم وتهم ببعث المطر.

والأصوات في الطبيعة مختلفة: مختلفة في ظهورها وخفوتها، وفي ارتفاعها وانخفاضها، ومختلفة في طول النبرة وقصرها؛ فرفرفة الطيور وتغريدها، وهديلها، تختلف عن هدير الماء، وزمجرته، وخريره، وتختلف هذه عن عصف الريح، وهبوبها رخاءً، وهذه كلها تختلف اختلافاً بعيداً عن حفيف الشجر، وعن هزيم الرعد.

وهكذا نرى أن الاختلاف بين أجزاء الطبيعة في أشكالها، وألوانها، وأصواتها لا حصر له ولا حد. ولو شئنا أن نعدد ذلك لأعجزنا التعداد، ولكن كيف يسر الناس بهذه الأجزاء المتنوعة المختلفة؟..

هناك اتحاد عجيب غامض، بين مناظر الطبيعة، وأصواتها، وطعومها وروائحها، وبين سمع الناس، وبصرهم، وحاسة الشم، وحاسة الذوق.

فيهم . ويختلف الناس في هذا ، اختلاف الطبيعة نفسها ، في الوانها ، واصواتها ، واشكالها ،

فالناس في قطر ، يختلفون عنهم في القطر الآخر . وللبيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان أثرها الواضح في هذا ، وإن أصوات الابل التي لا يطرب لها اهل المدينة ، قد وجد فيها اهل الصحراء ، ما وجدوه في سجع الحمام الذي يذكرهم بالأحبة ، وسموا صوتها حنيناً ، وقالوا إنه يهيج الوجد في نفوسهم لأحبابهم . ويقول الكاتب الصيني Lin Yutang (١) « ان نقيق الضفادع ، وصرير الصراصر ، يعجب الصينيين غاية العجب وإنهم يحبونها ويعجبون بها أكثر من حب غيرهم وعجبهم بالكلاب والقطط » . ونحن نرى ان صرير الصراصر من الأصوات التي تعافها بل تكرهها أنفسنا . واما نقيق الضفادع ، فان الشاعر ابن الرومي حين اراد ان يهجو الشاعر المغني جحظة (٢) البرمكي ، لم يجد أكثر من أن يقول له :

---

(١) ينظر كتابه : The Importance of Living, P. 298-347

(٢) جحظة : هو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحي بن برمك ، كان صاحب فنون وأخبار ونوادر ، ومنادمة . جمع أبو نصر المرزبان أخباره وأشعاره ، وأبو الفرج يروى عنه في أغانيه كثيراً ، وقد جمع أخباره أيضاً ، ولكنها ضاعت ولم تصلنا . وجحظة لقب لقبه به عبدالله بن المعتز . وقد لج ابن الرومي في هجائه من ذلك قوله :

تخاله أبداً من قبح منظره ... مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدعٌ في لجةٍ هرمٌ ... اذا شدا نغماً أو كرَّ انظرا

= نبئت جحظة يستعير جحوظه ... من فيل شطرنج ومن سرطان
وا رحمتا لمنادميه تحملوا ... ألم العيون للذة الآذان

وجحظة شاعر رقيق ، وهو - عندي - أرق شعراء هذه الحقبة التي كتبت هذه الرسالة في وصفها - وكان طنبورياً حاذقاً ، يقول شعره ويغنيه على طنبوره ، وقد أورد له الشابشتي « في دياراته » جملة من شعر الخمر ، وكان ينشده ويغنيه في الديرة ، والحانات ، ومجالس الخمر . وله من الكتب : كتاب الطنبوريين ، وكتاب الترنم ، وكتاب المشاهدات ، وله ديوان شعر . وكتب في التنجم ، والطبيخ ، عمر نحو مائة عام وتوفي سنة ٣٢٤ هـ ، وأشعاره عذبة جميلة ، ومن هذا الذي لا يهزه قول جحظة في مدينة بزوغا - التي كانت تقع على فرسخين من بغداد - :

طرقنا بزوغا حين أينع زهرها ... وفيها لعمر الله للعين منظر
وكم من بهار يبهر العين حسنه ... ومن جدول بالبارد العذب يزخر
ومن مستحث بالمدام كأنه ... - وإن كان ذمياً - امير مؤمر
وفي كفه اليمنى شراب مورد ... وفي كفه اليسرى بنان معصفر
شقائق تندى بالندى فكأنها ... خدود عليهن المدامع تقطر
وكم ساقط سكراً يلوك لسانه ... وكم قائل هجراً وما كان يهجر
وكم منشد بيتاً وفيه بقية ... من العقل إلا انه متحير
فكان مجني دون من كنت أتقى ... ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر
وكم من حسان جس أوتار عوده ... فألهب ناراً في الحشا تتسعر
يغني واسباب الصواب تمده ... بصوت جليل ذكره حين يذكر
أحن حنين الواله الطرب الذي ... ثنى شجوه بعد العزاء التذكر

والقصيدة بقية نقلها ياقوت في معجمه ٢ / ٢٤٧

والغربيون مثلا يملون النغم ، يتردد على وتيرة واحدة ، ولا نملّه نحن . ويبدو هذا واضحاً حين نسمع موسيقاهم ، أو نقارن قصائدنا بقصائدهم ؛ إن قصائدنا تطول وتظل على نفس البحر ونفس الروىّ ، وليس الشأن عندهم كذلك . ويقولون إن ضجة الطيور حين تمتزج بحفيف الشجر ، تروقهم أكثر من سماعها لوحدها . ونلحظ أن شعراءنا حين اعجبوا باصوات الطيور وأداروها في أشعارهم ، إنما أداروها منفردة . وهم حين يتحدّثون عن زقزقة العصفور ، وهديل الحمام ، وتغريد البلابل ، ودعاء الورشان ، قل أن نراهم يتحدثون عن هذه الأصوات مجتمعة ، أو مجتمعة ممزوجة بحفيف الشجر ، أو خرير الماء ، او ما الى ذلك .

ويقول Lin Yutang (١) « إن اللقلق في البرك المائية ، يستهوي الصينيين بمنظره الساحر ، ولونه الأبيض النقي ، حتى ليتمنى الواحد منهم لو أنه خلق لقلقاً » والشاعر الصيني Lin Hoching يقول انه رضي ان يتزوج : شجرة الخوخ بدلاً عن المرأة ، وأن يتخذ اللقلق ولداً .

وهذا الطائر مثلاً ليس شيئاً في أدبنا العربي ، وأنا لا أعرف شاعراً أحبه أو ارتاح له . بل نرى أن ابن الأثير (٢) عاب على ابي الطيب المتنبي قوله في وصف كتيبة سيف الدولة :

---

(١) ينظر كتابه : The Importance of Living, P. 323

(٢) ينظر كتاب « المثل السائر » لابن الاثير طبعة بولاق صفحة ١٠٨

وملمومـــة سيفية ربعيـة يصيح الحصا فيها صياح اللقالق [1]

بان لفظة « اللقلق » من الالفاظ المبتذلة ، التي لا تستحق ان تدخل في الشعر .

* * *

شغف شعراء العراق بالشكل واللون :

وهكذا يكثر اختلاف الناس في نظرهم الى الطبيعة حتى أن الشيء الواحد يُحب في البلد ويهام به ، وهو بعُد مكروه ، مرغوب عنه ، في البلد الآخر .

وإذاً كيف نظر شعراء العراق إلى الطبيعة ، وكيف وصفوها ؟ .

لقد اهتم عامة الشعراء بأشكال الطبيعة ، وألوانها ، وهيئاتها ، وصار همهم إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الشجرة ، أو الزهرة ، أو الهلال ، أو ما إلى ذلك من أجزاء الطبيعة ، أن يصفوها كما هي في ظاهرها ، لا كما هي في نفوسهم . إنهم يرسمون الشيء الذي يتحدثون عنه بألفاظهم ، فهم يشبهون اللون بلون أعمق منه وازهى ، وإذا أرادوا الحديث عن هيئة

---

(١) هذا البيت من قصيدة مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب فبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

والملمومة : الكتيبة المجتمعة . وسيفية : منسوبة الى سيف الدولة ، وربعية منسوبة الى ربيعة ، وهي قبيلة سيف الدولة . واللقالق : جمع لقلق ، وهو طائر كبير يسكن العمران في أرض العراق ، وهو كثير في قرى العراق . ويصيح الحصا فيها : يريد أنه يصوت من وقع حوافر خيلها

الشيء ، أعملوا عقولهم في ذكر صورة مقاربة له . إن همّ اكثرهم هو أن يجعل الألفاظ تقوم مقام ريشة الرسام في وصف ما يريد ، ويرى بعضهم أنه وصل الغاية ، إذا استطاع أن يصف الصورة بأن ينقلها كما تنقلها آلة التصوير . وقد علل الاستاذ متز هذه الظاهرة بقوله (١) : «وقد اتصل العرب بشعوب اخرى ، تختلف عنهم اختلافاً تاماً ، وربما كان لهذه الشعوب فنون اخرى غير الفنون الكلامية ، ولكن العرب لما غلبوهم ، علّموهم الكلام لا التصوير ، أي أنهم وضعوا في أيديهم القلم ، بدلاً من ريشة الرسام المصور . ولما آل الأمر الى هذه الشعوب وأصبحت هي القابضة على زمام الفن ، زاد الشعر التصويري زيادة كبيرة »

وهذا التعليل مقبول عندنا ؛ ذلك لأننا نعرف للعرب من الشعراء والادباء ما لا يحصى ، ولا نعرف لهم رساماً أو نحاتاً مشهوراً . وليس لنا أن نقول إلا أنهم قد استعاضوا بشعرائهم الوصّافين ، عن الرسامين والنحاتين ، وإنهم اعتاضوا بألفاظ لغتهم ، عن الريشة في يد الرسام ، والازميل في يد النحات . ويبدو لنا ـ فوق ما رآه الاستاذ متز ـ أن حياة الترف التي شاعت في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ، وأن اهتمام الناس بالتماثيل والصور ، هو الذي وجههم الى الاهتمام بظواهر الاشياء وجعلهم يعنون ـ أول ما يعنون ـ بألوانها ، وأشكالها . وقد كثر في

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : الترجمة العربية ١ / ٤٢٧

شعرهم وصف الصور رسمت على أواني الخمر . ولم ينس البحتري أن يسجل إعجابه بصور الايوان حين وصفه وتحدّث عنه في سينيته المشهورة ، حتى ليبدو لنا أن الاهتمام بالصور ، كان ديدن العامة كما كان ديدن الخاصة ؛ فالشاعر ابن سكرة يقول لغلام أمرد كان قد عشقه ، وكان هذا الغلام مولعاً بالنقوش وبالسجاجيد المنقوشة :

أنت لا تعرف الصلاةَ فقل لي لِمْ تأنقتَ في شرا سجّاده

وسرت هذه العدوى الى الشعراء ، فشغلوا بالظواهر وصار همهم نقل الشكل ، أو اللون ، أو الهيئـــة ، الى مثيلاتها . يقول ابن المعتز في النارنج :

كأنما النارنجُ في أغصانه من خالص الذهب الذي لم يُخلطِ
كرةُ رماها الصولجانُ الى الهوا فتعلقتْ في جوها لم تســـقط

ويقول في الليمون :

يا حبذا ليمونـــة تُحدثُ للنفس الطربْ
كأنها كافـــورةٌ لها غشاءٌ من ذهبْ

ويقول في النار الموقدة :

وموقداتٍ بتن يضرمنَ اللّهبْ
يُشبعنه من فحمٍ ومن حطبْ
يرفعن نيراناً كأشجارِ الذهبْ

ويقول الشريف الرضي في سقوط الثلج ببغداد :

أرى بغداد قد أخنى عليها ... وصبّحها بغارته الجليد (١)

كأن ذرى معالمها قلاص ... نواء كشّطت عنها الجلود (٢)

كأن به لُغام العيس باتت ... تساقطه عجال الرجع قود (٣)

علا قمم النجاد فكل واد ... على نشراته سبٌ جديد (٤)

ويقول أبو عاصم البصري في الهلال والثريا :

رأيتُ الهلال وقد أحدقته ... نجومُ الثريا لكي تسبقه

فشبّهته وهو في إثرها ... وبينهما الزهرةُ المشرقة

---

(١) أخنى عليه في كلامه : أفحش عليه ، ومن المجاز أخنى عليهم الدهر : بلغ منهم بشدائده ، وأتى عليهم .

(٢) ذرى الشيء : أعاليه . المعالم : الآثار يستدل بها على الشيء . والمعالم ، جمع المعلم : وهو في الأصل الأثر يستدل به على الطريق . القلاص : جمع قلص ، والقلص : جمع القلوص : وهي الشابة من النوق ، وكشط البعير : نزع جلده ولا يقال سلخه ، وإنما يقال كشطه أو جلده تجليداً

(٣) اللاغم : ما حول الفم ، يقال : الزبد على ملاغم البعير ، ومن المجاز تلغمت المرأة بالطيب . القود : جمع أقود ، وهو الطويل العنق ، يقال : فرس أقود ، وخيل قود

(٤) السب (بالكسر) الخمار أو العمامة . والشقة الرقيقة ، يقال لها سبيبة . وهذه سبيبة من ثوب وسبائب .

ذكر الثعالبي طائفة من أشعاره في يتيمته ، في الجزء الثاني صفحة : ٣٤٠ ، مطبعة الصاوي بمصر .

بقوس لرام رمى طائراً فاتبع في إثره بندقـــه

وله في اقتران الهلال بالزهرة :

قارن الزهرةَ الهلالُ وكانا في اقتران ما بين صدٍ وهجره

فاذا ما تقارنا قلتَ طوقٌ من لُجينٍ قد علّقت فيه دره

ويقول السلامي في الثريا :

فسمونا والفجر يضحك في الشـــــرق إلينا مبشراً بالصباح

والثريا كرايةٍ أو لجـــــامٍ أو بنانٍ أوطائرٍ أو وشاح

ويقول ابن الحجاج في المجرة :

يا صاحبيَّ استيقظا من رقدةٍ تُترى على عقل اللبيب الأكيس

هذي المجرة والنجومُ كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس

وأرى الصباقد غلّسَتْ بنسيمها فعلام شربُ الراح غير مغلّس

ومن المشهور جداً وهو كثير الدوران في كتب البلاغة ، قول ابن المعتز في الهلال :

أهلاً بقطرٍ قد أنار هلاله فالآن فاغدُ إليَّ المُدام وبكّر

وانظر اليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عنبر

وقوله فيه :

انظر الى حسنِ هلالٍ بدا يهتكُ من أنواره الحندسا

كمنجلٍ قد صيغ من فضةٍ يحصد من زهر الدجى نرجسا

ويقول في الديك :

وقام فوق الجدار مُشترفٌ كمثل طرف علاه أسوار
رافع رأسه طوراً وخافضه كأنما العرفُ منه منشارُ

* * *

هذه الأبيات قيلت خالصة ، لوصف الطبيعة ، وهي تتجه لوصف الشكل او اللون كما تبصرهما العين ؛ فالنارنج في لونه الاصفر كالذهب الخالص ، وفي شكله ككرة الصولجان . والليمونة في شكلها كالكافورة ، وفي لونها كالذهب أيضاً . والنار مضرمة ، كاشجار الذهب ـ على فرض وجودها ـ لوناً وشكلا . والهلال كزورق الفضة ـ على فرض وجوده أيضاً ـ قد أثقلته حمولة من عنبر .

وهكذا نرى ابن المعتز ، لا يحاول أن يفعل أكثر من أن يرسم صور الطبيعة كما ترسمها آلة التصوير ، ولكنه يحاول ذلك بألفاظه ، وهو وإن تأنق ، في هذه الصور وجعلها من الذهب الخالص والفضة ، نراها لا تروقنا كثيراً . لقد كنا نطمع أن نراه يصف هذه الصور الجميلة ، وصفاً يدخل فيه العنصر الذاتي ، ويكسبه الروح والحياة ، على أن ابن المعتز ـ في أغلب ما يصف ـ لا يتجاوز إحساس العين إلى إحساس النفس .

ولكن أترانا نستطيع أن نقول : إن العراقيين مولعون باللون الأصفر [1] وإن هذا اللون الاصفر ، هو الذي شغل ابن المعتز في وصفه؟

(١) ينظر فيض الخاطر ، الجزء الاول صفحة : ٢٥٨

وجعله لا يبصر سواه ، فوجه همه الى إظهاره والاعلان عنه ؟ نستطيع أن نقول هذا لولا أننا رأينا أن هذه هي طريقة ابن المعتز في كل ـ او في أغلب ـ ما يصف .

وننظر الى هذه الأبيات التي ذكرناها لبقية الشعراء فنراها لا تعدو طريقة ابن المعتز ، فالشريف الرضي يشبه سقوط الثلج ببغداد بالقلوص كشط عنها الجلد ، وعلام هذا ؟ ومتى كان لون القلوص كشط عنها الجلد موضحاً للون الثلج ؟ وهل يحتاج لون الثلج الى إيضاح !؟

وصور أبي عاصم البصري في الهلال ، والثريا ، والزهرة ، صورٌ أكدَّ فيها عقله ومع ذلك ، فالزهرة أحق في أن توضح صوره التي جاء بها لا يضاحها هي .

* * *

نقد النظرة الشكلية :

هذه الطريقة الشكلية في الوصف ، هي التي نراها في اغلب وصف شعراء العراق للطبيعة . وقد مر بنا وصف المهلبي للشمس ، بانها كالبودقة المحماة اذيب فيها الذهب ، ومر بنا وصفه للسماء ؛ بانها تشبه الحصان الابرش . ومر بنا وصف عضد الدولة للخيري ؛ بأنه يشبه الدنانير الحمر والصفر والبيض .

وبعدُ ، ماقيمة هذه الطريقة الشكلية في الوصف ؟

إننا الآن نفضل الوصف الذاتي عليها ، وهي عندنا ليست شيئاً ،

ولكنها كانت كل شيء عند القدماء ، كانت كل شيء في القرن الرابع الهجري وما بعده ؛ وهذا ابن رشيق يقول في العمدة « خير الوصف ما قلب السمع بصراً » وليس اولى من هذه الطريقة في قلب السمع بصراً وعلى هذا فابن المعتز خير الشعراء الوصافين في عصره ، إذا قيس بهذا المقياس الذي قال به ابن رشيق ، ولكنه ليس شيئاً إذا نظرنا اليه بذوقنا الفني الآن .

لقد ساقهم انصرافهم الى الألوان ، والأشكال ، الى أخطاء فنية شنيعة ؛ ذلك لانهم أغفلوا إيحاء هذه الصور التي يأتون بها ، لتوضيح اللون أو الشكل . ولو فطن الشريف الرضي ، الى ما توحيه صورة القلوص كشط عنها الجلد ، في النفس من نفور واشمئزاز ، وإلى ما توحيه صورة الجليد يسقط على الارض من بهجة لا تبعد عن تشبيه هذه بهذه ، وإن تقاربتا في اللون . ولو فطن ابن المعتز إلى ما توحيه صورة عرف الديك الاحمر ، وإلى ما توحيه صورة المنشار في النفس ، وإلى بعد البون بينهما لكفّ عن هذا اللعب .

ومما أتعجب له قول ابي هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني »:[1] وليس في شعر المحدثين ، في الحية ، أحسن من قول ابن المعتز :

كأني ساورتني يوم بينهم رقشاءُ مجدولةٌ في لونها بلقُ[2]

---

(١) ديوان المعاني طبعة القدسي ٢ / ٢٥

(٢) مجدولة : من جدل الحبل : فتله ، ومنه زمام مجدول .

كأنها حين تبدو من مكامنها غصنٌ تفتّح فيه النَور والورَق

لقد نظر الى أن الغصن الذي تفتح فيه النور والورق ، يشبه الحية في لونه وشكله ، وما فطن إلى هذا البون الشاسع ، فيما بينهما من الايحاء ؛ إن الحية توحي بالرعب والفزع ، وإن الجلد ليقشعر منها ، وإن الغصن الذي تفتح فيه النور والورق ، تهش له النفس ، وتطمئن اليه ، وتسرّ به .

وعندي أن ابن المعتز ـ رغم امتلاكه للحاسة الفنية ، في الكثير من شعره في الطبيعة ، وفي غيرها ـ يعتبر من المسؤولين عن توجيه شعراء العراق هذه الوجهة الظاهرية في وصف الطبيعة ، بل وفي وصف غيرها أيضاً . لقد صرف همه إلى التشبيه وقال (١) « إذا قلت كأن ، ولم آت بعدها بالتشبيه ، فض الله فمي » وغفل عما يوحيه التشبيه .

واذا تحدثت عن هذه الناحية ، ناحية الايحاء في الألفاظ والتشبيه ، فاني أستطيع ان أقول : إنني لا أعرف في العربية شاعراً ، تنبّه الى ما توحيه الألفاظ وتوحيه صورة المشبه به ، كابن الرومي . ولا عجب فهو القائل :

تقول هذا مجاجُ النحل تمدحُهُ وإن هجوتَ فقل قيءُ الزنابير

وعندي انه أعمق شعراء هذه الحقبة في أحساسه الفني . إنه يدرك أن التشبيه ، لا يؤتى به لمجرد بيان الشكل ، أو الهيئة ، أو اللون ، بل

---

(١) ديوان ابن المعتز صفحة : ٣

ربما كانت هذه الاشياء ثانوية فيه ، وإنما يؤتى به ، ليزيد في الوحي الذي تبعثه الصورة في النفس ، وقد يكون ذلك مقبولاً أو ممجوجاً على حسب ما توحيه الصورة . يقول في تفضيل النرجس على الورد :

أيها المحتج للور د بزور ومحال
ذهب النرجس بالفضـــــــل فانصف في المقال
لاتقاس الأعين النجـــــــل بأسرام البغال

ويقول :

يامادح الورد لاينفك عن غلطه ألستَ تبصره في كفّ ملتقطه
كأنه سرم بغل حين سكرجه عندالبراز وباقي الروث في وسطه

وهكذا نراه يجعل القارىء ، أوالسامع ، يشمئز من هاتين الصورتين وينفر من صورة الورد حين تقرن بها . وقد وصف بها الورد وهو متفتح كما وصفه قبل التفتح . على ان الصورتين مشابهتان للون الورد في اللون ، والشكل ، ولكنهما تختلفان عنه كل الاختلاف في وحيهما وتأثيرهما .

وأستطيع أن أقول إن ابن الرومي نظر الى الطبيعة وبُهر بها . وحدثنا عن أثرها في نفسه حين وصفها ، وقد شاركه في هذه النظرة شعراء آخرون ، كان شعرهم ـ على قلته ـ في وصف الطبيعة ، هو الشعر الحق الذي يعتمد على الحاســـة الفنية عند الشاعر ، ولا يكون البصر والسمع والذوق إلا طريقاً الى هذه الحاسة الفنية وأداة لها . والشعر هنا

لا يدور على ظواهر الأشياء المصورة ، ولكنه ينفذ الى أثرها في النفس . ومثل هذه النظرة نظر الغربيون الى الطبيعة حين وصفوها ؛ رأوا شجرة الصفصاف بهدوئها وأوراقها المتدلية المتراخية فأوحت بالحزن إليهم، حتى سموا بعض الصفصاف « بالصفصاف الباكي » Weeping Willow وزادوا على ذلك بأن قالوا : « لبس الصفصاف » To wear the willow كناية عن قولهم « لبس ثوب الحداد » . ورأوا في شجرة الصنوبر إيحاءً بالرقة والنحافة . ويقول لينيوتنج Lin Yutang « إن فناني الصين يتكلمون عن سمو شجرة الصنوبر بين الأشجار كما يتكلم ماتيو ارنولد Matthew Arnold عن سمو هومير بين الشعراء .

وليس هذا الأمر مقصوراً على هاتين الشجرتين . إننا نجد ذلك في أكثر الأشجار والأزهار ، بل وفي أكثر الطيور والحشرات .

وأهل العراق ، أكان لصور الطبيعة وحي في نفوسهم كما كان ذلك عند الغربيين والصينيين ؟

نظر أهل العراق الى ألفاظ الزهر والشجر وتفاءلوا ببعضها وتشاءموا من بعضها ؛ فكرهوا التهادي بالسوسن وأحبوا التهادي بالعود ، لأن الأول يوحي بكلمة سوء ، والثاني يوحي بالعودة . ونظروا كما نظر السري الرفاء حين قال :

أهدت على نأي المحل وقد أنأى التصبر طول هجرتها

نارنجـــةٌ منها استعير لها ما ألبست من حسن بهجتها
وكأن ما يخفيه باطنها ما أضمرت من سوء غدرتها

ونظروا الى مقلوب الألفاظ ، قال ابن المعتز :

اترجة قد اتتك برا لا تقبلنها اذا بررتا
لا تقبلن برها فانى وجدت مقلوبها هجرتا

ونراهم بنظرتهم هذه يقربون من النظرة عند الغربيين ، إذ أوحى لهم النارنج بالشيء يحسن ظاهره ولا يستساغ باطنه ، لأنه حلو الظاهر حامض الباطن ... على أننا ما زلنا نرى أن مثل هذا الوحي وحي العقل ، على حين نرى أن وحي الغربيين في الشجر والزهر وحي الخيال والشعر .

الوصف الذاتي :

وليس معنى هـذا أن شعراء العراق لم يحسوا بالطبيعة ؛ لقد خلطها ابن الرومي بأعز ما يربطه بالحياة ، خلطها بالشباب ، وخلطها بالحبيب . وهو حين يحدثنا عن هذه الثلاثة يبدو إحساسه بالطبيعة أعنف من إحساسه بهما ؛ يقول :

يذكرني الشبابَ جنانُ عدنٍ على جنباتِ أنهار عذاب
تُفَيِّءُ ظلَّها نفحاتُ ريح تهز متون أغصان رطاب
اذا ماست ذوائبها تداعت بواكي الطير فيها بانتحاب

* * *

يذكرني الشبابَ رياضُ حزن ترنَّم بينها زُرقُ الذباب

اذا شمس الاصائل عارضتها وقد كَرَبت توارى بالحجاب
والفت جُنحَ مغربها شعاعا مريضاً مثل ألحاظ الكعاب

* * *

يذكرني الشباب سراةُ نهيٍ نمير الماء مطرد الحباب (١)
قوته مزنة بكرٌ وأضحي ترقرقه الصبا مثل السراب
على حصباء في أرض هجان كأن ترابها ذفر الملاب (٢)

* * *

تذكرني الشبابَ صبا بليلٌ رسيسُ المس لاغبةُ الركاب
أتت من بعد ما انسحبت مليا على زهر الربى كل انسحاب
وقد عبقت بها ريا الخزامى كريا المسك ضوّع بانتهاب

* * *

يذكرني الشبابَ وميض بُرقٍ وسجعُ حمامةٍ وحنينُ ناب
فيا أســـفاً ويا جزعا عليه ويا حزناً الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزّى !؟ لقد غفل المعزى عن مصابي

---

(١) النهي : الغدير . الماء النمير : العذب الصافي . الحباب ، والحبب ، وهي الفقاقيع تطفو عليه كالقوارير .

(٢) الأرض الهجان : الأرض الكريمة التربة . والأصل في الهجنة : بياض الروم والصقالبة . الذفر : حدة الرائحة ، يقال : روضة ذفرة ، ومسك أذفر . الملاب : بوزن سحاب ـ عطر ، أو هو الزعفران .

وابن الرومي حين وصف الطبيعة التي تذكره بشبابه ، لم يصف نارنجها بالذهب ، ولا وصف ليمونها بالكافورة ، ولا عمد الى وصف شكل ولا لون من ألوانها ، ولكنه عمد الى وصف هذه الصور الكبيرة التي تعلق بالنفس. ورسم بأبياته الثلاثة صورة الطبيعة كاملة : جنان عدن على جنبات أنهار عذاب ، ووصفها وهي أبهى ما تكون ؛ وصفها والطير على أغصانها الرطاب ، تعبث بها الريح فتميس وتتداعى الطير عليها . ووصف رياض الحزن التي تذكره بشبابه ، فاوجز ولكنه وفي وزاد على مايفعله التفصيل ، وصف رياض الحزن في أبهى ما تكون عليه أيضاً ؛ وصفها وقد ترنم زرق الذباب فيها ـ والعرب يرون الذباب يألف الروض إذا اعتم والتف ـ وصفها حين تبعث الشمس عليها شعاعها الذهبي ساعة الغروب ، وقد صبغ المنظر بالحياة حين أشار الى هذا التجاوب بين الشمس والروض. ووصف الغدير الذي يذكره بالشباب ، ولم يجد في وصفه إجادته في وصف الجنان والروض ؛ ولعل السبب في هذا ان الغدير ألصق بحياة أهل البادية منه بحياة الحضر . ثم وصف الريح التي تذكره بالشباب ، فكانت صبا بليلاً ، مرت على زهر الربى وعبقت بها ريا الخزامى .

وهكذا نرى ابن الرومي خلط شبابه بالجنان تجري فيها الأنهار ، وتنتحب على اغصانها المائسة الأطيار ؛ وخلطه بالرياض ، وبالغدير قرته المزنة البكر ورقرقته الصبا واطرد حبابه ، وخلطه بريح الصبا البليلة كما

خلطه بوميض البرق وسجع الحمام . وقد أجاد في وصف هذه الصور التي خلط بها شبابه أيما إجادة . وولّى شباب ابن الرومي ولكنه ظل مقروناً بصور الطبيعة الجميلة ، يراها فتهيج ذكرياته ويعاوده الحنين إليه .

وقرن حبيبه بالطبيعة كما قرن شبابه بها ، فالعيون تذكره بالنرجس والخدود تذكره بالتفاح ، والنهود تذكره بالرمان ، والشعر الأسود يذكره بالأعناب المهدلة ، وهكذا نراه يمزج هذه الصور ، ويمزج حنينه بها حين يصفها ، ويتحدث عنها . ويخيل للقارىء أنه أكثر حنيناً لصور الطبيعة منه لما في الحبيب ، يقول :

طاف الخيال وعن ذكراك ماطافا ... فكان أكرم طيف طارق طافا

طيف عراني فحياني وذكّرني ... بالنرجس الغضّ والتفاح اتحافا

عيناك جاورتا خدّين ما خلقا ... إلا شقاء يراه الغر إترافا

وكم ألمّ فأهدت لي محاسنه ... من الفواكه والريحان أصنافا

رمانَ عدن وأعناباً مهدلة ... واقحوواناً بسقي الراح رفافا

ويانعاً من جنى العنّاب يتبعه ... قلب المودع تذكاراً وتأسافا

أسرى بانواع ريحان وفاكهة ... يأبين قطفاً وإن خيلن اقطافا

أقرّ عينيّ في ليلي وصبّحني ... وجداً أفاضهما بالماء شفافا

لا خير في قرة للعين معقبة ... دمعاً يحدر في الخدّين ذرافا

* * *

والربيع يعرفه كل بلد ولكنه في العراق غيره في سائر البلدان.

وصف الربيع:

إن العراقيين يعانون من حر الصيف الذي تصبب له الأجسام عرقاً، ويعانون من برد الشتاء الذي يجمد منه الوجه ويخدر، وتدمع له العينان، ما يجعلهم يرون الربيع غير ما تراه سائر البلدان. والربيع في العراق متطرف بجماله تطرف الصيف بحرارته والشتاء ببرودته، وهو قصير لا يبلغ الشهرين ولكنه يحمل في طياته اللذة الحادة، التي لا تعدلها اللذة الخفيفة الطويلة. وبعدُ، لا نعجب أن نسمع ابا تمام حين يصف الربيع يتخيله بساما من الفتيان، وأن يتخيل الأرض فيه نشوى تختال في زهرها المفوَّف الألوان، يقول:

إن الربيعَ أثرُ الزمان ... لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوَّراً في صورة الانسان ... لكان بسّاما من الفتيان
بورِكتَ من وقتٍ ومن أوان ... فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تختال في مُفوَّف الألوان ... في زهرٍ كالحدق الرواني
من فاقعٍ وناصعٍ وقان

وأبو تمام قد أحس الربيع في دخيلة نفسه وأسبغ عليه الحياة حين وصفه، ولم يكتف بأن جعله فتى، حتى جعله بساماً من الفتيان وشعر كأن الأرض نفسها تشعر بجمال الربيع فهي نشوى، تختال في أثواب الزهر المفوَّف. وهذه الجملة التي يعلن بها عن شعوره في الربيع «بورِكت

من وقت ومن أوان » ـ على قصرها ـ تصف لنا ما يحمله أبو تمام من شعور في الربيع .

وأبو عبادة البحتري يشعر بجمال الربيع ، ويخيل إليه أن كل حي شاعر بهذا الجمال ، مزهو به ، حتى ليكاد ينطق ويعلن عن وفرة زهوه وفرحه . ويخيل إليه أن ندى الربيع قد همس في أذن الورد فتنبّه الورد من نومه ، وردّ الربيعُ للشجر خضرته ، فلبس لبسه بعد أن كان مُحرِماً قد خلع عنه اللباس ، وأعار النسيم رقة صيرته كأنفاس الأحبة :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبّه النوروز في غلس الدجى ... أوائل وردٍ كن بالأمس نوّما (١)

---

(١) النوروز : عيد فارسي ، لم يكن شيئاً في عهد الأمويين ، حتى إذا كانت دولة بني العباس ، صار الناس يحتفلون بالنوروز أكثر من احتفالهم بعيد الفطر والأضحى ، وكان الناس يلهون بالطبيعة فيه ، ويشربون الخمر ، ويرون أنهم يعظمون كسرى في هذا ، وقد دار ذكر النوروز محاطاً بالطبيعة والخمر ، في شعر أبي نواس ، من ذلك قوله :

سقى الله أياماً ولا هجر بيننا ... وعود الصبا يهتز في ورق خضر
يبا كرنا النوروز في غلس الدجى ... بنور على الأغصان كالأنجم الزهر
يلوح بأعلام المطارف وشيه ... من الصفر فوق البيض والخضر والحمر
اذا قابلته الريح أومى برأسه ... الينا بشرب أذسروا ومال من السكر

وانظر : « تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس لجميل سعيد » لترى أثر الأعياد الفارسية في أشعار الخمر والطبيعة .

يفتقها برد الندى فكأنه ينثُّ حديثاً كان قبل مُكتّما (١)

ومن شجر ردَّ الربيع لباسه عليه كما نشرت وشياً منمنما

أحل فأبدى للعيون بشاشةً وكان قذى للعين إذ كان محرما (٢)

ورقَّ نسيم الريح حتى حسبتُه يجيءُ بأنفاس الأحبة نُعَّما

فما يحبس الراح التي أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تترنّما ؟

والبحتري قد أخذ صورة أبي تمام في وصف الربيع وزاد عليها ؛ جعله أبو تمام فتى بساماً ووصفه البحتري بأنه يختال ضاحكاً . ولا أعرف إحساساً في وصف الربيع أعمق من إحساس البحتري حين يصف الورد وقد نبهه الربيع من نومه ، ويصفه وقد بعث البشاشة في كل شيء . وإحساسه بأن النسيم أنفاس الأحبة ، هو إحساس الروح والنفس لا إحساس الجلد والجسم .

وننظر في وصف أبي تمام ، ووصف البحتري للربيع فنرى أن أبا تمام يصفه وصف الحكيم ، يفكر ثم يقول ؛ ولكن الشاعرية لا تفارقه ولا تبعد عنه حين يصف . أما البحتري فقد نظر الى الدنيا نظرة الشاعر ذى الاحساس المرهف ، فوصف خلجات «الورد» - إن كان للورد ما يصح أن نسميه بالخلجات . ويحس ابن الرومي أثر الربيع في الدنيا فيقول :

---

(١) نث الحديث : أذاعه وأفشاه

(٢) الحل والاحرام - يشير بهما الى قولهم أحرم الحاج أي لبس لباس الاحرام ، وضده أحل .

فالأرض في روض كأفواف الحبر نيّرة النوار زهراء الزهـــر
تبرجت بعـــد حياءٍ وخفر تبرج الانثى تصدّت للذكر

* * *

وأظهر مظاهر الربيع ظهوره في الروض والشجر والطير.

وصف الروض:

وشعراء العراق يحسون ذلك ، وما أجمل ما ينقل ابو تمام احساسه بحالة الروض ، سكبت عليه المزنة ماءها فراحت نواراته تبكي من شدة الفرح :

الروض ما بين مغبوقٍ ومصطبح من ريق مكتفلات بالثرى دُلُح(١)
دُهمٌ اذا ضحكت في روضة طفِقَتْ عيون نوّارها تبكي من الفرح

والبكاء من الفرح هو غاية التعبير عن السرور .

وينقل ابن الرومي إحساسه بالروضة ، فيخيل الينا انه يحيا مع أغصانها وطيورها ؛ فيرى الاغصان تتناجى ويوسوس بعضها لبعض ، ويراها تتثنى وتحرك أعطافها من النشوة ، ويرى الطيور تترجح في هذه الغصون ، وهي تغني من فرحها وتتداعى ، ويعجب غاية العجب بهذا المنظر فيتمنى لو حملت ريح الشمال التي تطوف به التحية الى أحبابه عنه :

حيتك عني شمالٌ طاف طائفها بجنة فجرت روحاً وريحانا
هبت سحيراً فناجي الغصن صاحبه مسوساً وتداعي الطير إعلانا

---

(١) المغبوق : الشارب عشية . والمصطبح : الشارب صباحاً ، ودلح: مفردها دلوح ، وهي من دلح البعير : أي تثاقل في مشيه ، ومنها سحابة وسحائب دلح ، والسحابة « تدلح » من كثرة مائها ، كأنها تنخزل انخزالاً

ورق تغنّي على خضر مهدلة تسمو بها وتمس الارض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

* * *

وربما كان الورد أهم مظاهر الربيع في العراق. واذا كان الربيع

وصف الورد:

قصير العمر فالورد قصير العمر مثله أيضاً. ولا نعرف سراً من اسرار الطبيعة أحبه شعراء العراق وهاموا به وأكثروا وصفه وأداروه في أشعارهم كالورد. وقد صاحوا بابن الرومي ولجوا في هجائه (١) لانه تعصب عليه وحط من قيمته بان فضل النرجس عليه.

واني شعور يطلع علينا من أبيات جحظة المغني الشاعر (٢)، حين يهيب بكل نائم أن يسرع في يقظته، ويأخذ لنفسه حظها من الورد وهو الضيف الحبيب الذي لا تطول زيارته، يقول:

يا راقداً ونسيم الفجر منتبهٌ في ربقة القفص والأطيار تنتحب
الورد ضيف فلا تجهل كرامته وهاتها قهوة في الكأس تلتهب

---

(١) يقول ابن المعتز يرد على ابن الرومي:

يا هاجي الورد لاحييت من رجل غلبات والمرء قد يؤتى على غلطه
هل تنبت الأرض شيئاً من أزاهرها إذا تحلت بحلى الوشي من نمطه
أحلى وأشهر من ورد له أرج كانما المسك مذرور على وسطه

انظر كتاب « السكردان على حاشية المخلاة » صفحة: ٢٥٢

(٢) انظر صفحة ١٤٦ ـ ١٤٧ من هذا الكتاب، وانظر اخباره في معجم الادباء لياقوت، وفي أغاني ابي الفرج.

سقياً له زائراً تحيا النفوس به ... يجود بالوصل حيناً ثم يجتنب

تبـاً لحرٍ رآه وهو ذو جـدةٍ ... لم يقض من حقه بالشرب مايجب

وواضح أن جحظة حين وصف الورد لم يحاول نقل صورته كما كان يفعل ابن المعتز ، ولكنه تحدث بحاسته الفنية عنه . وهو حين يصف أثر الورد في نفسه لا يغفل وصف الطبيعة تحيط بالورد . يصفه ومعه نسيم الفجر العليل وحوله الأطيار تغرد . ثم لا يستطيع أن يذكر هذا المنظر من غير أن تتداعى صور مجلس الشراب في نفسه . ونراه يبعد عن وصف الورد وأوراقه ولونه ، ولا يفعل ما فعل عضد الدولة حين وصف الخيري بأن أوراقه كالأجنحة ، وألوانه كالدنانير الصفر والبيض واحمر . ولكن يتجاوز هذا كله الى الحديث عما وراء الأشكال والألوان .

وقريب من قول جحظة قول الصابي :

أما ترى الورد قد حياك زائره ... بنفحة فرّجتْ عن كل مصدور

كأن أنفاسه أنفاسُ غانيةٍ ... معشوقةٍ خالطت أنفاس مخمور

تفتحت وجنات في جوانبه ... كأنما انتزعت من أعين الحور

وقوله فيه أيضاً :

وزائرة لنا في كلّ حول ... لها حظان من حسن وطيب

تنال النفس حين تشم منها ... منال العين من وجه الحبيب

كأن زمانها نعتاض فيه ... إذا طلعت شباباً من مشيب

وهو قول في غاية الجمال عندي ، تحـــدث فيه أبو اسحاق عن إحساسه بعطر الورد ، وهو عنده أنفاس معشوقة كما يراها المخمور . ووصف لونه ، ولـكن لا كما يراه بعينه ، بل كما يحسه في قرارة نفسه ، ولونه لا لون الدينار الأحمر أو الأصفر ولا لون الذهب ولـكنه لون الحبيب . وتحدث عن زمن الورد ، وهو زمن يعتاض فيه شباباً عن مشيب ، وماذا وراء ذلك في نفس الشيخ !؟

والتنوخي ينفث في الروض الحياة ، فيصفه مبتسماً فرحاً بالندامى يزورونه فيمد لهم يداً يحييهم بها ، يقول :

أما ترى الروض قد وافاك مبتسماً ومدّ نحو الندامى للسلام يدا
فاخضر ناضر في أبيض يقق وأصفر فاقع في أحمر نضدا
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحمر ذا خجلاً واصفر ذا كمدا

وقد كثر الشعر في الزهر ووصفه ، ولا أعرف زهرة لم يقل فيها الشعراء شعراً ، على ان الورد هو الذي احتل المكانة الاولى ، ولو أن أدب العراق ـ كما مر ـ فكنوا عن البرد المستطاب « ببرد الورد » وكنوا عن زمن الشباب وعن كل زمن جميل « بزمن الورد » وما أجمل قول ابن سكرة في هذا :

وعاذلة هبت بليل تلومني وما عندها من لذة القصف ما عندي
فقلت لها كفي ملامك إنني بشغل عن العذال في «زمن الورد»

* * * * *

واذا نحن جاوزنا الرياض والورد الى الطير، رأينا ان العراقيين قد شغفوا به ولا سيما الحمام، فانه منح من نفوسهم ما لم يمنحه حيوان أو طائر غيره. يقول الجاحظ في كتابه «الحيوان» (١) من مناقب الحمام حبه للناس وانس الناس به، وانك لم تر حيواناً قط أعدل موضعاً ولا أقصد مرتبة من الحمام. وأسفل الناس لا يكون دون أن يتخذها، وأرفع الناس لا يكون فوق ان يتخذها، وهي شيء يتخذه ما بين الحجام الى الملك الهمام، والعموم، مع عموم شهوة الناس له. وليس شيئاً مما يتخذونه هم أشد شغفاً به ولا اشد صبابة منهم بالحمام. ثم تجد ذلك في الخصيان كما تجده في الفحول، وتجده في الصبيان كما تجده في الرجال، وتجده في الفتيان كما تجده في الشيوخ، وتجده في النساء كما تجده في الرجال» ونرى من حديث الجاحظ أن عامة اهل العراق يتخذون الحمام، ولا يمنعهم من اتخاذه منزلة، أو سن، أو جنس. وقد عني العراقيون به وجعلوه واسطة المقامرة، وقد دفعهم هذا الى العناية بأنسابه. «حتى كان الذي يشتمل عليه ديوان اصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التي تضاف الى ابن الكلبي، والشرقي بن القطامي وابي اليقظان وابي عبيدة النحوي. (٢) ووصف الهذيل المازني، المثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام

وصف الطير:

(١) انظر «كتاب الحيوان» طبعة الحلبي سنة ١٩٣٨ الجزء الثالث، من صفحة ١٤٤ - ٢٥٣

(٢) نفس المصدر السابق

فقال : « والله لهو أنسب من سعيد بن المسيب ، وقتادة بن دعامة للناس ، بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١) ... »

وكما احتلّ هذا الطائر مكانة في حياة العراقيين ، احتل مكانة في أدبهم وشعرهم ، وقد أفاض الجاحظ في الحديث عنه . تحدث عن كل شيء يخصه حتى غزَله وحبه . على انني رأيتُ الشعراء ، أكثر ما التفتهم منه هديله ودعاؤه ، ويبدو أن صوته عندهم كان مثاراً لكمين الوجد ، ودفين الهوى . وإذا أراد أحدهم أن يبالغ في سلو العاشق أو سلو الحزين قال كما قال البحتري :

أطاع عاذله في الحب إذ نصحا وكان نشوانَ من سكر الهوى فصحا
فما يهيجه نوحُ الحمـــام اذا ناحَ الحمامُ على الأغصان أو صدحا

وكأن البحتري ينفي عنه هذه التهمة إذ يقول :

وورقٌ تداعى بالبكاء بعثن لي كمين أسى بين الحشا والحيازم
وصلتُ بدمعي نوحهن وإنما بكيتُ لشجوي لا لشجو الحمائم

وربما كان الشريف الرضي ، أكثر شعراء هذه الحقبة التي أتحدث عنها ، إحساساً بما في صوت الحمام من أسى ، وهو يتحدث عنه حديث ابن الرومي عن الطبيعة . لقد قرنه بشبابه وهواه ؛ يرى الحمامة تغني فرحاً ومع ذلك يهيج صوتها فيه الوجد ، ويذكره بسالفة الليالي وبأيام الشباب

(١) نفس المصدر السابق

والوصال . وقد يجذبه الحديث عن صوتها الى الحديث عن فراخها ، وعشها ، وطوقها ، وقد يوازن بين ما دفعها على الغناء ، وبين ما أهاجت له في غنائها ، يقول :

وأرقني دعاء الورق فيها ... على جُرحٍ قريب الاندمال (١)

تذكرني بسالفة الليالي ... وسالفةِ الغزالة والغزال (٢)

وأيام الشباب مساعفات ... جمعن لنا وأيام الوصال

كأنفاس الشمول كرعتُ فيها ... على ظمأ وأنفاس الشمال (٣)

أقول لها وقد رنت مراحاً ... لبالُكِ يا حمامةُ غير بالي (٤)

تباعد بيننا من قيل شاكٍ ... تعلّق بالغرام وقيل سالي

---

(١) الورق : جمع ورقاء . والورقاء : الحمامة في لونها بياض الى سواد . دمل الجرح واندمل : تماثل .

(٢) السالفة : في الشطر الأول من البيت : الماضية . والسالفة في شطره الثانية : هي ناحية مقدم العنق ، من لدن معلق القرط الى قلت الترقوة ، ومنه قولهم : امرأة حسنة السالفة والسالفتين ، وهما مقدم العنق

(٣) الشمول : الخمر ، من قولهم « غدير مشمول » وهو الغدير الذي ضربته ريح الشمال فبرد ، ومن هنا قالوا للخمر ، شمول ، ومشمولة . والكرع : تناول الماء بالفم من موضعه ، من غير استعانة بالاناء او الكفين .

(٤) الرنة : يقال سمعت له رنة ورنيناً أي صيحة حزينة ، وفي كلام ابي زبيد الطائي : « شجراؤه مغنة ، واطياره مرنة »

تريع إلى درادق عاطلات وهن بعيد آونة حوالي (١)

عوار لا تزال الدهر حتى تجللها بريـــط غير بالي

مراحك قبل طارقـــة المنايا وقبل مرد عادية الليالي (٢)

وقد يهيجه صوتها فيترحم لها ، ويعجب مما بينهما ، ويرى نفسه أحق بالنوح منها لأنها لم تفجع بالف ولم تُلو بوعد . ثم هي فوق ذلك ، قد ملأت عشها طعاماً ، وما هو كذلك ، يقول :

يا طائر البان ما غربت عن سكن يوماً ولا كنت عن مأوى بمطرود

---

(١) الريع : الرجوع والالتفات ، ومنه قولهم « مايريع لكلامك ، ولا يريع لصوتك » وقول الشاعر :

طمعت بليلى أن تريع وإنما تقطع أعناق الرجال المطامع

الدرادق : جمع الدردق ، وهو الطفل الصغير : ومنه قول الشاعر :

تالله لولا صبية صغار كأنما وجوههم أقمار

داردق ليس لهم دثار بالليل الا ان تشب نار

لما رآني ملك جبار بابه ما وضح النهار

وواضح ان الشريف الرضي قصد بها فراخ الحمامة الصغار . عاطلات : من عطلت المرأة وتعطلت : خلاجيدها من القلائد ، وهو يقصد خلوجيد صغار الحمامة من الطوق . وحلي : من حليت المرأة حلياً : صارت ذات حلى .

(٢) الطارقة : من قولهم طرقه الزمان بنوائبه ، واصابته طوارق السوء . والعادية : من قولهم « دفعت عنك عادية فلان ، اي ظلمه وشره .

وأنت في ظل أفنانٍ مهدلةٍ تحنو عليك بقنوان العناقيد (١)
ملأت عشك طعماً غير مختلس بلا رقيب وورد غير تصريد (٢)
تبكي وما لك من إلف فجعت به ولا لويت على بُعدٍ بموعود
ظلمت ما أنت من همّي ولا كمدي إن العليل لقلبٍ عاده عيدي
أنا الذي إن بكى وجداً خقق له كم بين باكٍ من البلوى وغرّيد!

ونرى ان الشريف الرضي قد صبغ وصفه بلون حزين قاتم ، هو صورة لنفسه الحزينة التي ظلت تطمع في الخلافة والملك ، وزادها حزناً ما كانت تعرفه من أخبار أسلافها العلويين الذين ما فتأوا يثورون ويجاهدون فيغلبون ويقتلون ، منذ أن قتل جدّهم الامام الأكبر علي بن أبي طالب .

ثم زاده حزناً أن ذكر شبابه . ويبدو أنه قال هذه القصيدة بعد أن اكتهل ، وودع شبابه آسفاً متحسراً ، واستطيع أن أقول إنني لا أعرف شاعراً في العربية بكى شبابه وتحسر عليه ، كالشريف الرضي ومهيار الديلمي ، مع إننا لا نعرفه يأتي بأشعار الطبيعة ، بل في أغلب

(١) أفنان : جمع فنن ، وهو الغصن . قنوان : جمع قنو ، وهو العذق ، ومنه مثلهم « أحلى من عذق ابن طاب » وهو ضرب من التمر ، ومنه قول كثير عزة :

وهم أحلى اذا ما لم تثرهم على الأحناك من عذق ابن طاب

(٢) والتصريد : من قولهم صرد السقى ، اي قطعه دون الري .

وصفياته ، إلا بالأحاجي والألغاز ، نراه يكثر الحديث عن الطير في شعره ، يشجيه صفير الحمام ويهز نياط قلبه ، حتى ليتوهم أن الحمامة ، إنما تتحدث عن ضميره هو ، لا عن ضميرها هي . وربما كان لهذا الأمر صلة بطبيعته الفارسية . وقد رأى استاذنا الجليل أحمد أمين بك (١) أن هذا الشعور الفارسي الرقيق نحو الطير ، والحيوان ، له صلة بالمانوية ، التي تحمي الحيوان وتعطف عليه .

يقول مهيار في سماع ورقاء :

ترنمت ترنم الأسير ... ورقاء فوق ورقٍ نضير

تنطق عن قلب لها مكسور ... كأنها تخبر عن ضميري

لبيك يا حزينة الصفير ... إن استجرت فبمستجير

مثلك في تبلد المهجور ... قصّ جناحي زمني فطيري

لك الخيار أنجدي أو غوري ... وحيثما صار هواك صيري

وإن أردت الأمن أن تحوري ... فيممي « بغداد » ثم سيري

---

(١) انظر « فجر الاسلام » صفحة : ١٤٣ في الحديث عن « زياد الأعجم » وأن حمامة سجعت بجانبه فقال :

تغني أنت في ذمتي وعهدي ... وذمة والدي ان لم تطاري

وبيتك أصلحيه ولا تخافي ... على صفر مزغبة صغار

فاما يقتلوك طلبت ثأراً ... له نبأ لأنك في ديارى

فقتلها حبيب بن المهلب ، فاستعدى زياد الأعجم المهلب عليه ، فحكم له بدية جارته .

أو خوتمي بربعها المعمور مذ غاب فيه قمري بالنور
عسى تقولين لأهل الحور وا وحشتي لبعدك المسرور

ومهيار كما يهيجه ترنم الورق ، تهيجه زقزقة العصافير ، وتحنها على فراخها ، يقول الجاحظ : (١) « والعصافير لا تقيم في دور الامصار إذا شخص أهلها عنها ، إلا ما كان منها مقيماً على بيض أو فراخ ، فانه ليس في الارض طائر أحنى على ولده ، ولا اشد تعطفاً من عصفور ... » ومهيار يلحظ هذه العاطفة في العصفور ، ويلحظ حزنه في ريشاته الضعاف المرتجفة ، وهذا أمر لا يراه الا واله بالطير ، له مع ولهه إرهاف في الحس ، يقول :

أأن تحدث عصفور على فنن أنكرت يوم اللوى حلمي وأنكرني
ما كنت قبل احتبالي في الحنين له أخاف أن بُغاث الطير تقنصني (٢)
زقا فذكرني أيام كاظمة عمارة الدار من لهو ومن ددن (٣)

---

(١) انظر كتاب « الحيوان » طبعة السندوبي ٢ / ٣٢٨

(٢) الاحتبال ، من حبل الصيد واحتبله : صاده بحبائله . والحبائل : الاشراك . بغاث الطير : ما لا يصيد منها

(٣) زقا : يقولون : « سمعت زقاء الديك والهامة » . وكاظمة : تقع على سيف البحر ، في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وكثيراً ما ردد اسمها مهيار في أشعاره ، من ذلك قوله :

يا نسيم الصبح من « كاظمة » شدما هجت الجوى والبرحا

الددن : اللعب ، والضرب بالأصابع

أشتاق ميّاً ويشكو فقد أفرخه لقد أبنتُ عن الشكوى ولم يُبن
دلت على الحزن ريشاتٌ ضعفن به عن نهضةٍ ودليلُ الحب في بدني

واذا كانت أصوات الطيور هي التي لفتت الشريف الرضي وميهاراً، فان الصابي قد شغفه من بعض الطيور ألوانها؛ وقد وصف القبجة التي أهداها الى أبي الفرج البيغا، فلم يُعن بغير وصف ألوانها، على أنه لم يتجه في وصفها اتجاه ابن المعتز، ولكنه يشعرنا أنه يعشق الألوان ويكلف بها كلف غيره بمباهج الحياة. وتبدو لنا نفسه - في وصفه - متعلقة باللون الأحمر (١) الذي أحبه العراقيون، أكثر من تعلقها بغيره من الألوان:

أنعتُ طارونية الثياب لابسةً خزاً على الاهاب
تصبّغت تصبغ النصابي وأبرزت وجهاً بلا نقاب
ريّان من محاسن الشباب مكحولة العينين كالكعاب
مغموسة الحاجب بالخضاب منتمارها أحمر كالعناب

* * *

وصف السماء:

والتأمل في السماء ونجومها قديم في العراق. لقد شهرت بابل بسحرها وتنجيمها، وشاع ذلك عنها حتى سميت العين الساحرة بالعين البابلية. وزاد في تأمل الناس في السماء أن كتب الهند

(١) يرجع الى صفحة ١٣٠ من هذا الكتاب

والفرس ، التي تعني بالنجوم كانت قد ترجمت . وزاد في ذلك أيضاً هذا الاضطراب الاجتماعي ، الذي شُغِل الناس به ، والذي شمل الحياة حتى جعل المسافر لا يسافر إلا بعد أن يستشير المنجمين ويعرف طالعه ، والتاجر لا يقبل على صفقة إلا بعد أن يرى طالعه ، والقائد لا يتجه إلى الحرب إلا بعد أن يعرف طالعه ، ويختار وقت التحرك . ومن أوائل القرن الثالث نهي المنجمون المعتصم ، عن حرب الروم ، وعرَّض بهم ابو تمام ، في قصيدته التي قالها في فتح عمورية . ويقولون إن الوزير ابن مقلة استشار المنجمين قبل أن يبني قصره ، فأشاروا عليه بوضع أساس البناء بين المغرب والعشاء ففعل . ومع أنه استشارهم في الوقت المناسب ، لمقابلة الخليفة الراضي ، وأشاروا عليه به فان الراضي أسلمه إلى ابن رائق ، فعوقب وقطعت يده .

وظل تعلق الناس بالتنجيم يزداد كلما ازدادت الفتن ، والثورات الداخلية ، والمصادرات ، والحروب . وصار الناس يعتقدون ويبالغون بالاعتقاد في الحظ . وقد شهر ابن الرومي بتشاؤمه ، وصار اعداؤه يزهدون ممدوحيه فيه ، ويحذرونهم شؤمه . وهو يفزع من هذه التهمة ، ويحاول أن يدرأها عن نفسه ، فيقول لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر :

نحن ميامين على أننا على أعاديكَ مشائيم

لما دخلنا دخلت نعمةٌ كان لها حولك تحويم

هذه الامور زادت في توجيه الناس الى السماء . ويؤسفني أن أقول إن هذا الشعر الذى وجدته في السماء لا يعدو أن يكون نظما يُعالج موضوعات ، كان النثر أولى بمعالجتها ؛ لانها أدخل في باب العلم . أو يتخذ من السماء ، ونجومها ، سلماً للمدح . وقد شُهر الصابي في مثل هذا الشعر ، كتب الى المطهر بن عبدالله :

نالَ المنى في يومك الأجودْ مستنجحاً بالطالع الأسعدْ
وارقَ كمرقي زُحَلٍ صاعداً الى المعالي أشرف المصعدْ
وفض كفيض المشترى بالندى اذا اعتلى في برجه الأبعدْ
وزدْ على المريخ سطواً بمن عاداكَ من ذى نخوة أصيدْ
واطلع كما تطلع شمس الضحى كاسفةً للحندس الأسودْ
وخذ من الزُهرة أفعالها في عيشك المقتبل الأرغدْ

وهكذا يجري في نظمه . والقصيدة أولى أن تعد في باب المديح ، من أن تعد في باب الوصف .

وقد يتجه الشعراء الى السماء فيعنون بأشكالها وألوانها ، ويقتصرون على إمتاع حاسة النظر . ويكون همُّ الشاعر - اذا تحدث عنها - ان يقرب صورتها من صورة أرضية مألوفة . وقد مر بنا أمثلة من هذا ، في القمر ، والثريا ، والمجره (١) .

---

(١) يرجع الى صفحة ٨٧ - ٨٨ من هذا الكتاب .

وقال بعض الشعراء في السحاب ، والمطر والرعد والبرق ، وصف المطر :

ووصف بعضهم أثر هذه الصور الطبيعية في نفسه ، ومن جميل القول قول أبي تمام في الديمة ، وملاحظته أن المحل قد هرب منها خائفاً ، يستتر كما يستتر المريب . ووضعه نفسه موضع الثري المكروب ، والمكان الجديب ، والروض المستبشر ، في النظر اليها قال :

ديمةٌ سمحةُ القياد سكوب ... مستغيثٌ بها الثرى المكروب
لو سعت بقمة لاعظام نعمى ... لسعى نحوها المكانُ الجديب
لذّ شؤبوبها وطاب فلو تستطيع قامت فعانقتها القلوب (١)
فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليه ... وعُزالى تنشا واخرى تذوب (٢)
كشف الروضُ رأسَه واستسر المحلُ منها كما استسرّ المريب

وينظر الشريف الرضي الى البرق ، فيهيج له من الشوق وصف البرق :

ما هاجه نوح الحمام ، وينظر اليه على أنه لمع من ديار أحبته وعشاقه ، وهذه نظرة قديمة ، عرفناها في قديم الشعر العربي ، وهي بأهل البادية أولى منها بأهل الحاضرة ؛ على أن الشريف الرضي في عامة شعره بدوي ؛ حتى ليخيل الى القارئ ، أنه من سكان الصحاري والخيام ، لا من سكان المدن والبيوت ، يقول :

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر

(٢) العزالى ، جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها .

أيا لله أي هوى أضاءَ ... بريقُ بالطويلع إذ تراءى

ألم بنا كنبض العرق وهناً ... فلما جازنا ملأ السماء

كأن وميضه أيدي قيونٍ ... تعيد على قوابضها جلاء

طربت إليه حتى قال صحبي ... لأمرٍ هاجَ منك البرقُ داء

ولم يك قبلها يقتاد طرفي ... ولا يمضي الهوى حيث شاء

خليليَّ اطلقا رسني فاني ... أشدُّ كما على عزمٍ مضاء

ويظهر تعلق نفس الشريف الرضي بالبرق ، بهذه التسمية المصغرة التي دلت على حبه له والتصاق نفسه به ، وبهذا التعبير الجميل عن وميضه بأنه وهنٌ كنبض العرق ؛ وهو إحساسُ النفس لا إحساس العين والنظر. ولا عجب فقد مزج الشريف الرضي هذا البرق بهواه ، وقال إنه ما كان يهتاج بهذا البرق قبل أن يعشق ، فلما عشق نظر اليه نظرةً خلطت بما في نفسه لأحبته .

ونظر ابن الرومي الى الشمس ساعة الغروب وأحس بوداع النوار ، وبولهها لفراقها فقال وأبدع في وصف الغروب :

اذا رنقت شمس الاصيل ونفضت ... على الافق الغربي ورساً مذعذعا (١)

وودعت الدنيا لتقضي نحبها ... وشوَّل باقي عمرها فتشعشعا

---

(١) رنق ، رنق الطائر : وقف صافاً جناحيه لا يمضي ، ومن المجاز رنقت السفينة : دارت في مكان واحد لا تمضي ، ورنقت الراية : رفرفت . ورنقت الشمس . الورس : نبت أصفر يكون باليمن . ويقال : ورس الثوب : صبغه بالورس

ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خداً الى الارض أضرعا (١)
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعيها صُوراً إليها روانياً ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعا (٢)
وبين إغضاء الفراق عليهما بأنهما خلا صفاءٍ تودعا

ونرى ان امتزاجه في الطبيعة هو الذي اوحى له بالالفة بين الشمس وبين النوار ؛ فالنوار مريضة وضعت على الارض خداً اضرع لفراق الشمس . وهذه الصورة يقترب بها ابن الرومي من وحي الطبيعة عند الغربيين : رأوا شجرة الصفصاف بتدليها توحي الحزن ، ورأى هو النوار تخيل اليه أن النوار قد خشع ومد طرفه الى الشمس يرنو اليها ، وعيونه قد اخضلت بالدمع حزناً لفراقها ، ولا عجب فهو والشمس خلا صفاءٍ تودعا.

* * *

ولم يفت شعراء العراق ان يتحدثوا عن صيفهم الحار الذي يطبخ الاجسام بحرارته ، وعن شتائهم القارس الذي يجمد وصف الجو :

---

(١) النوار (بالضم والتشديد) نور الشجر ، والواحدة نوارة ، ويقال نوّر الشجر : خرج نواره ونوره . الأضرع : الضاوي النحيف

(٢) الصور : الميل في العنق ، يقال رجل أصور ، وهو أصور الى كذا اذا مال عنقه ووجهه اليه . ورنا اليه ، ورنا له رنواً : أدام اليه النظر ، ومن المجاز حدثني فرنوت الى حديثه

يبرده الماء ويخدر له الوجه وقد قرنوا حديثهم عن حر الصيف بالبق ، وهو كثير في العراق . والمستنقعات في جنوب العراق معدن البق . يقول الثعالبي (١) في بق البطائح « ومن امثلتهم بق البطائح يضرب به المثل في الكثرة وسوء الأمر ... وبلغني انها ربما ظفرت بالانسان السكران النائم فاكلت لحمه وشربت دمه ، ولم تبق الا عظامه عارية » وقد كثر وصف هذا الطائر في شعر ابن المعتز ، ولكنه ظل يتحدث عنه كما يراه بعينه لا كما يحس أثره ومضايقته في نفسه . ومن جميل الوصف في هذا وصف ابي اسحاق الصابي :

وليلة لم أذق من حرها وسناً كأن من جوها النيران تشتعل
أحاط بي عسكر للبق ذو لجب ما فيه إلا شجاع فاتك بطل
من كل شائلة الخرطوم طاعنة لايحجب السجف مسراها ولا الكلل
طافوا علينا وحر الصيف يطبخنا حتى اذا طبخت أجسامنا أكلوا

وقد وصف ليلة الصيف بانها تباعد بين الجفن والوسن ، ثم وصف البق فلم تفته الاشارة الى صوته المضايق . وقد اوحى لنا بهذا في عبارته « ذو لجب » وأوحت لنا عبارته « ما فيه الا شجاع فاتك بطل » بلجاجته ومضايقته . وخلط الحر بالبق في البيت الأخير وجعلهما يتضافران ويتعاونان عليه . وقد أجاد الصابي في وصفه هذا ولا نعرف شاعراً عراقياً بلغ مبلغه في هذا الوصف .

---

(١) تنظر ص ٨٢ من هذه الرسالة

وتحدثوا عن الشتاء ، واغرتهم ثلجيات الصنوبري بوصف الثلج ، فقلدوها وجعلوا سقوط الثلج حافزاً لهم على مجالس الخمر ! وقد مر بنا شعر المهلبي وعضد الدولة في هذا .

ونظر القاضي التنوخي (ابو القاسم) الى لذة النار حين يكون الثلج قد غطى الأرض وغشاها فقال :

أما ترى البرد قد وافت عساكره ... وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
والأرض تحت ضريب الثلج تحسبها ... قد ألبست حبكاً أو غشيت ورقا
فانهض بنار الى فحم كأنهما ... في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا ... برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

وبعيد ما بين هذا الوصف وبين وصف الشريف الرضي لسقوط الثلج . وما أجمل هذه الصور العقلية التي استخدمها التنوخي لايضاح الصور المادية والتي جرى فيها على غير سنة النقاد ؛ أنها تنم عن ثقافة التنوخي العميقة .

* * *

وصف الانهار :

وإذ كانت بيئة العراق بيئة نهرية ، فقد لون الماء تعابيرها وطغى عليها . وصف الشعراء العراقيون ـ في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ـ الانهار حين تطغي وتعلو بالمد ، وحين تنخفض بالجزر وكثر ذلك في شعر السري الرفاء وابن المعتز وابن الرومي . ومن جميل ما وصفت به دجلة وهي فائضة ، أبيات السري الرفاء التي يقول فيها :

احذركم أمواج دجلة إذ غدت مضندلة بالمد أمواج مائها
فظلت صغار السفن يرقصن وسطها كرقص بنات الزنج عند انتشائها
تفرقها هوج الرياح وتعتلي ربى الموج من قدامها ووراثها
فهن كدهم الخيل جالت صفوفها وقد بدرتها روعة من ورائها
كأن صفوف الطير عاذت بأرضها وقد سامها ضيماً اسودّ سمائها

والسري الرفاء قد أجاد في التعبير عن ارتفاع الماء واضطرابه، بما وصفه لنا من حركة السفن. وقد وفق في تشبيهه هذا، فالزنج معروفون بخفتهم ورقصهم، وقد ذكر صورهم ليوحي لنا بالسواد وهو لون السفن تطفو في دجلة وقد طليت بالقار. وقد أمعن السري الرفاء ودقق في وصف ما يعتري هذه السفن من الاضطراب ليوحي لنا بصورة دجلة حين تفيض. وجعل وصفه في يوم عاصف ليكون ادعى إلى هيجان الماء والى هيجان السفن فيه.

وقصيدة التنوخي ابي القاسم وهي القصيدة التي وصف بها نهر معقل ونهر دجلة. وتحدث عنهما في المد والجزر من أجمل قصائد الماء الوصفية عندنا. وقد اتخذ من عينه واذنه وذوقه أدوات لهذا الحديث. وكان الصاحب يفضل هذه القصيدة على سائر شعر التنوخي ويرى أنها من امهات قلائده، يقول:

أحب إلي نهر معقل الذي فيه لقلبي من همومي معقل
عذب اذا ما عبّ فيه ناهل فكأنه من ريق حب ينهل

متسلسل وكأنه لصفائه دمع بخدي كاعب يتسلسل

وكأن دجلةَ إذ يغطمط مدها ملك يعظم خيفةً ويبجل

وكأنها ياقوتة أو أعين زرقٌ تلائم بينها وتوصل

عذبت فما تدري أماء ماؤها عند المذاقة أو رحيق سلسل

ولها بمدٍ بعد جزر ذاهب جيشان يدبر ذا وهذا يقبل

ونهر معقل هذا هو الذي يقول فيه السلامي الشاعر :

معقلي نهر معقل فان ارتحـــت الى منزل فدير نجاح

وحياتي بما حوته الى الخما ر مصروفة أو الملاح

مركبي مثل لمتي أدهم جو ن ويحكيهما نديمي وراحي

* * *

وصف الأصوات :

ويرى الاستاذ متز في حديثه عن الأدب في القرن الرابع الهجري أن الشعراء أهملوا وصف المسموعات .

وكأنه يريد أن يقول إن إحساسهم بجمال الأصوات لم يكن شيئاً ، يقول :

« وقد (١) اهمل وصف المسموعات إهمالاً شديداً ، فمثلاً وصف السلامي الشاعر المتوفي عام ٣٩٤ هجرية السكر المبني بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه أو صوتها ، ولم أجد من هذا القبيل إلا مثالاً في شعر للأمير البويهي عز الدولة ، وهو قوله في سياق قصيدة له :

« والماء ما بين الغصون مصفق مثل القيان رقصن حول الزامر »

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - الترجمة العربية ١ / ٤٤١

على أني يبدو لي أن حاسة السمع عند شعراء العراق لا تقل إرهافاً عن حاسة البصر في اتجاهها الى الطبيعة ، واستماعها لوقع الأصوات . وليست أصوات الطيور من هديل ، ودعاء ، وزقزقة وحدها هي التي يطرب لها شعراء العراق ، ولا يلومون الأغصان إن اهتزت ورقصت لها ، يقول ابن المعتز :

روضة من قرقف أنهارها وغناء الورق فيها في ارتفاع (١)
لا تلم أغصانها إن رقصت فهي ما بين شراب وسماع (٢)

بل لم يفت سمعهم ، ما في أصوات الذباب حين يطير في الروض من جمال حتى ليسميه ابن الرومي تغريداً ، ويشبهه بالصنج يحثحثه النشوان ، ويسحره هذا الصوت حين يمزج بشدو الطير :

وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
واذكى نسيم الروض ريعان ظله وغني مغنى الطير فيها فسجعا
وغرد ربعي الذباب خلالها كما حثحث النشوان صنجاً مشرعا (٣)

---

(١) القرقف : الخمر ، يقولون سميت بها لأنها تقرقف شاربها أي ترعده

(٢) السماع : الغناء ، والمسمعة : المغنية .

(٣) الربعي : ما ولد في الربيع ، ويعنون به الحسن الجيد ، ومنه قولهم : ولد فلان ربعيون وصيفيون : مولودون في زمن الشباب والهرم . ويقولون : لبني فلان ربعي من المجد : قديم . حثحث : حرك . ومنه حثحث الميل في العين : حركه فيها . الصنج : آلة معروفة ، تقرع مع النفخ في البوق ، ومن أمثلتهم « أعجبهم قرع الزنوج بالصنوج »

واذا كانت أصوات الذباب عندنا الآن بشعة كريهة ، فانما جاءنا هذا من =

فكانت أرانين الذباب هناك كم على شدوات الطير ضرباً موقعا

ولم يفت البحتري حين وصف شربهم بالمطيرة في الشتاء ، صوت الاثل تلاعبه الشمال وتسقط عليه قطرات المطر ، بل رآه أجمل وقعاً في نفسه من غناء مخارق . ولا فاته ما في صوت الريح ، ووقع قطرات المطر من جمال في تجاوبهما ، بل رأى فيه عتاباً واعتذاراً :

= النظرة الحديثة اليه في أنه يتوسط في نقل جراثيم الأمراض ، وانه يتكاثر وينمو حيث تكثر الوساخة والقذارة ، وما كان القدماء ينظرونه هذه النظرة . إن صورة الذباب عندهم مقرونة بصورة العشب والربيع ، ولا تسل عن حب العرب للعشب والربيع ، ذلك لأنه يكثر حيث ينمو النبت وتزهو الخضرة ، ومن أجل هذا أحبوه ، والفوا صوته ، وقالوا : « واد أغن » اي كثير العشب ، قالوا : لأنه اذا كان كذلك الفه الذبان ، وفي اصواتها غنة . وسموا الوادي المخصب المعشب « مغناً » لأنه اذا كان كذلك صار فيه صوت الذباب . ومن المشهور الدائر على السنتنا الآن قولهم : « حديقة غناء وروضة غناء » وما سميت كذلك الا لطنين الذباب بها . وتقرأ ابيات عنترة فتبين لك علاقة الذباب بالروض واضحة ، يقول :

أو روضة أنفاً تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم
سحاً وتسكاباً فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

واذا علمت ان هذه هي نظرة القدماء للذباب وأصواته زال عجبك من تسمية ابن الرومي لصوته تغريداً ، ومن تشبيهه بالصنج يحتكه النشوان . وانظر أبيات ابن الرومي في هذا المعنى ، وقد مرت بك في هذا الكتاب

ويوم بالمطيرة أمطرتنـــا سماء صوب وابلها عقار (١)

تلقينا الشتاء بـــه وزرنا بنات اللهو إذ قرب المزار

أقمنا أكلنا أكل استلاب هناك وشربنا شرب بدار

تنازعنا المدامة وهي صرف وأعجلنا الطبائخ وهي نار

رضينا عن مخارق وابن خير بصوت الأثل إذ متع النهار (٢)

تزعزعه الشمال وقد توافى على أنفاســـها قطر صغار

غداة دجنة للغيث فيها خلال الروض حج واعتمار

كأن الريح والقطر المناجي خواطرها عتابٌ واعتذار

* * *

(١) المُطيرة : قرية من نواحي سامراء ، وكانت من متنزهات بغداد وسامراء ، وقد دارت في أشعار الشعراء ، من ذلك قول ابن المعتز فيها :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر

فطالما نبهتني للصبوح به في غرة الفجر والعصفور لم يطر

الصوب : نزول المطر . وصاب المطر أرضهم : مطرها وجادها وغاثها . الوابل : المطر الشديد ، ومنه وبلت السماء .

(٢) مخارق وابن خير : مغنيان مشهوران . الأثل : شجر ، وهو نوع من الطرفاء الواحدة « أثلة » والجمع أثلات . قال تعالى : « ذواتي أكلٍ خمط وأثلٍ وشيءٍ من سدر قليل » . متع ، يقولون : جبل مانع : أي طويل مرتفع . ومن المجاز متع النهار : ارتفع غاية الارتفاع وهو ما قبل الزوال

نظرة في وصف الطبيعة :

يتضح من كل ما مر ان شعراء العراق ، قد انقسموا في وصفهم للطبيعة قسمين ؛ نظر بعضهم إلى ألوانها وأشكالها ، فكان همه ، في وصفه أن ينقل شكل الموصوف ولونه الى ذهن القارىء أو السامع . ونظر آخرون الى الطبيعة ؛ فتحدثوا عن أثرها في أنفسهم . وكان هذا النوع من الشعر في القرن الثالث ، أكثر منه في القرن الرابع . فكأن الشعر الذي يُعنى بنقل الاشكال ، والصور قد طغى عليه ، وأضعفه ونما على حسابه . وهذه النظرة الثانية ، قريبة من نظرة الغربيين للطبيعة . على أن من شعراء الغرب ، من نظر الى الطبيعة نظرة الصوفي إلى الخالق ، وفنى فيها ، كما يفني الصوفي في الله . ولا نعرف شاعراً عربياً في هذه الحقبة ، بل ولا في غيرها ـ نظر الى الطبيعة هذه النظرة .

وهذا أمرٌ لا يضير الشعر العربي في شيء ، فلكل بلد طبيعته ومقاييسه . وشعر الطبيعة عند الغربيين لم يزدهر إلا حديثاً ، وازدهر بعد أن تحرر الناس ونمت (الرومانتيكية) ، وازدهرت الفلسفة ؛ فنظر الشعراء الى الطبيعة ، وشغفوا بها ، وفلسفوها في وصفهم .

ويرى بعضهم (١) أن سلطان الدين ، كان حائلا بينهم وبين الطبيعة وأن الكتب المقدسة ، حين تحدثت عن آدم وعن طرده من الجنة إلى

---

(١) انظر كتاب :
The Importance of Living by Lin-Yutang P. 299

الأرض ، أسبغت ثوب التقديس على ما في الجنة وقللت من شأن ما في الأرض ، لتحقّر الطبيعة الأرضية ، حين تقارن بما في السماء من جهة ، وتزيد في إجلال ما في الجنة وترغب الناس فيها من الجهة الاخرى . فالأنهار هناك ، غير الأنهار هنا ، والأشجار هناك غير الأشجار هنا . والحيوان والطير في الجنة ، غير الحيوان والطير في الأرض .

هذه النظرة الواطئة ، إلى الطبيعة الارضية ، كان لها أثر كبير في صدوف الناس عن الطبيعة . وظل الناس هكذا حتى إذا طغت الحرية على قيود الدين وسلطانه ، ونزع الناس الى التحرر ... نظروا الى هذه الطبيعة الأرضية ، وبالغ بعضهم حتى قال إنها هي الجنة ، وان الجنة لا تكون خيراً منها (١) ، وعظمت في نفوسهم فهاموا بها ، وأبدعوا في وصفها .

نظرة المعتزلة :

والمسلمون ، أكان لدينهم أثر في نظرتهم الى الطبيعة ؟ لقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى الطبيعة ، وعظّمها في عيونهم للدلالة على عظمة خالقها . وتناول السماء ، والارض ، والبحر ، والحيوان ، والطير ، ووصفها وأبدع في وصفها ، على أن وصفها ، كان واسطة لا غاية .

وفي هذه الحقبة التي نتحدث عنها توجه الناس إلى الطبيعة على نحو ما توجه اليها القرآن الكريم . وكان المعتزلة ـ أهل العقل ـ هم قواد هذه

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠٠

الحركة. وقد نظم بشر (١) بن المعتمر قصيدتين طويلتين ، تناولهما الجاحظ في كتابه « الحيوان » بالشرح فاستطرد وأفاض كما هي عادته . وقد تحدث بشر بن المعتمر فيهما عما يمشي على الارض ويدب ويزحف ، وعما يطير في الهواء ، وعما يسبح في الماء ـ يقول :

تبـــارك الله وسبحانه من بيديه النفع والضر
من خلقُه في رزقه كلهم الذيخُ والثَيتَلُ والغُفر (٢)
وساكن الجو إذا ماعلا فيه ومن مسكنه القفر

ويمضي في ذكر الحيوان والطير متجهاً في حديثه اتجاهاً يدلل به على عظمة الخالق تعالى وحكمته ، وهو يتعمد ذكر ما تحار له النفوس من طبائع الحيوان ليكون ذلك أمعن في الدلالة على قدرة الباري تعالى وعظمته .

وقد نسي بشر بن المعتمر أن يعرض لجمال الحيوان ، ولأثره في

---

(١) بشر بن المعتمر : مؤسس فرع الاعتزال في بغداد ، كان متصلاً بالفضل بن يحيى البرمكي مقرباً اليه . ازهرت حياته في ايام الرشيد ، وهو قوي في شخصيته الاعتزالية ، كما هو قوي في شخصيته الأدبية . ويروون أنه أول مؤسس لعلم البلاغة العربية . توفي سنة ٢١٠ هـ .

(٢) الذيخ : ذكر الضبع . الثيتل : وهو شبيه بالوعل ، مما يسكن في رؤوس الجبال ، ولا يكون في القرى . الغفر : ولد الاروية ، واحد الأروى . والأروى : جماعة من إناث الأوعال .

النفس الانسانية . ونسي أن خلقة الجميل دليل مقنع على قدرة الخالق ، وربما كانت أفعل الادلة في النفس الانسانية .

ولو اتجه بشر هذا الاتجاه في شعره لكان لشعر الطبيعة عند المعتزلة ، بل وعند غيرهم من المسلمين صورة غير التي رأيناها ، ولقرب من شعر الطبيعة الذي نراه عند الغربيين .

* * *

وبعد أن فرغنا من وصف الطبيعة ، نتحدث عن وصف الصيد . ووصف الصيد جزء من وصف الطبيعة ، ولكننا أفردناه في البحث لأهميته عندنا .

وصف الصيد

ربما كان الصيد أول فن عامته الطبيعة للانسان ،

شغف العراقيين بالصيد :

تعلمه ليدفع شر الكواسر عنه ؛ يوم كان هائماً على وجهه في الكهوف والمغارات والغابات . وتعلمه ليغذي نفسه بصغار الحيوان وضعافه .

ومرّ الزمن وتحضر الانسان وسكن المدن والبيوت ، وأمن غائلة المفترس من الحيوان ، وخزن لنفسه من القوت ما يكفيه لأشهر بل لسنين ، ولكنه ظل يحب الصيد ويتخذه ملهاة ، وبقي الملوك وعلية القوم ـ كما بقي الرعاع والعامة ـ يحبونه ويتسلون به .

والعجيب أن الشرائع ـ حتى التي أعارت الرحمة عنايتها ـ لم تحرّم الصيد ، بل حببته واستحسنته . وقد جعلته الوثنية في أسمى درجات العبادة ، فجعله اليونان تحت رعاية ارطميس (١) وكان المصريون القدماء يرون في صيد الضواري زلفى دينية يتقربون بها الى الآلهة . وفي سفر التكوين

(١) دائرة المعارف ـ البستاني

من التوراة [١] « إن نمرود ـ حفيد نوح ـ كان صياداً عظيماً ، وإن داود كان يطارد كواسر الحيوان التي تسطو على مواشي أبيه » . ويقول كشاجم [٢] : « وكان اسماعيل مولعاً بالقنص محباً له ، متعباً نفسه فيه ، مباشراً لعمل آلات الرمي بيده . وقصده أبوه ابراهيم عليه السلام زائراً فلم يصادفه لشغله بالقنص » .

والاسلام لم يحرم الصيد ، بل أحل صيد البر والبحر ، وربما كان من الرفق بالحيوان أن جعله آمناً حين يحرم الناس .

* * *

وقد عني سكان العراق ـ منذ أقدم العصور ـ بالصيد ، فكان البابليون شغوفين بهذه الرياضة ، وكانت لهم حدائق يحبسون بها الحيوان .

وربما كان الفُرس أشد غراماً من البابليين بهذا الفن ، وقد اتخذوه وسيلة يتدربون بها على الرماية في الحرب . ويقولون عن الملك كورش انه كان أول صيادي زمانه . وقد تحدث الجاحظ [٣] عن مطاردة فيروز ابن قباذ وإلحاحه في طلب حمار الوحش . ونظم الخيام مطاردة بهرام جور لحمار الوحش رباعية من رباعياته .

---

(١) التوراة ص ١٠ : ٩

(٢) كتاب المصايد والمطارد ـ النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة الحسينية بالموصل بالعراق .

(٣) الحيوان طبعة الحلبي ، ج ١ ص ١٤٠

ولم يكن خلفاء بني العباس أقل شغفاً بالصيد ممن سبقهم من الملوك والحكام. عُني به السفاح [١]، وعني به الرشيد والأمين والمعتصم، وفي الخليفة المهدي يقول الشاعر :

يغدو الامام اذا غدا للصيد مأمونَ النقيبه
فتؤوب ظافرةً جوا رحُه واكلبه الأديبه
بمخالب وبراثن بدماء ما اقتنصت خضيبه

وجاء خلفاء هذه الحقبة التي نتحدث عنها فلم يشغلهم ما هم فيه عن الصيد بل ربما كانوا أكثر اهتماماً ممن سبقهم من الملوك، لأن غيرهم قد أخذ تدبير الملك عنهم، وتركوا ولا شغل لهم إلا اللهو والعبث.

يقولون عن المعتضد [٢] إنه أول من استسن حلقة الصيد وانه كان يخرج لصيد الأسد [٣]. والخليفة المتقي كان يخرج الى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع. وفي ديارات الشابشتي [٤] « وذكر الفضل انه خرج ذات يوم مع المعتز للصيد، قال: فانقطعنا عن الموكب أنا وهو ويونس بن بغا، فشكا المعتز العطش فقلت له: يا أمير المؤمنين إنّ في هذا الدير راهباً أعرفه .... فهل لأمير المؤمنين أن نعدل إليه ؟ »

---

(١) المصايد والمطارد ـ كشاجم ـ النسخة الخطية بالمكتبة الحسينية بالموصل
(٢) النويري طبعة دار الكتب ج ٩ ص ٤٢٨
(٣) المصايد والمطارد لكشاجم.
(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٧١ (١)

وفي المعتز هذا يقول البحتري :

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه ... إلهٌ لأن النيلَ من تحته يجري
ولو بَصُرت عيناه بالزوّ لازدرى ... حقيرَ الذي نالت يداه من الأمر (١)
إذا لرأى قصراً على ظهر لجة ... يروح ويغدو فوق أمواجها يجري
تصاد الوحوشُ في حفاف طريقه ... وتستنزل الطير العوالي على قسر
ولم أر كالمعتز إذ راح موفياً ... عليه بوجه لاح في الزونق النضر

* * *

وشغف آل بويه بالصيد ، وربما كانت قصص صيد الاكاسرة — وقد كانت شائعة في ذلك العصر — مما زادهم شغفاً بها . يقول الجاحظ (٢) « وزعموا — وكذلك هو في كتبهم — أن ملوك الفرس كانت لهجة بالصيد . إلا أن بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام » . ويقص كشاجم قصصاً طريفاً عن صيد بهرام جور هذا ، يقول : « وكان (٣)

---

(١) « الزو » . في أساس البلاغة للزمخشري « وركبوا في الزو وهو اسم لمجموع سفينتين تقرنان . وفي القاموس المحيط : « والزو .. سفينة عملها المتوكل لا جبل ، ووهم الجوهري ، وانما غره قول البحتري :

ولا جبلاً كالزو يوقف تارةً ... وينقاد إما قدته بزمام »

(٢) انظر كتاب الحيوان طبعة الحلبي ١ / ١٤٠

(٣) انظر كتاب المصايد والمطارد لكشاجم . وهذا الكتاب نادر ، يقولون إن نسخة الموصل هذه هي النسخة الثانية منه ، وكان الاستاذ « ولفنسون » الاستاذ بالجامعة العبرية قد هم بنشر هذا الكتاب ، وظن أن النسخة التي لديه =

لبهرام حظية معنية في جميع الآداب ، فاقترحت عليه حضور الصيد معه فأجابها الى ذلك فبينما هما يتصيدان إذ عنّ له سرب ظباء ، وكان أرمى الناس فقال لها : كيف تحبين أن أرمي هذه الظباء ؟ فقالت : اريد أن تجعل ذكورها إناثاً ، وإناثها ذكوراً . ففهم وقدّر أن تكون قد توهمت عليه العجز ... ثم رمى التيوس من الظباء فرمى قرونها فصارت كالاناث ، وجعل يرمي الاناث فتثبت النشاب في موضع القرون . ويقال إنها طالبته بالجمع بين ظلف الظبي وقرنه ، فرماه بندقة فأصاب أذنه ، فحكها بظلفه ، فرماه بنشاب فشلّه » .

وقد شهر بختيار الملقب بعز الدولة في الصيد ، وساعده على هذا أن كان شجاعاً ذا قوة تمكنه أن يمسك الثور العظيم بقرنيه (١) فلا يتحرك ، ويذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٦١ هـ أن جماعة من أهل ديار بكر ونصيبين ، استنصروا أهل بغداد لما فعله بهم الروم من القتل والنهب . قال : « وكان بختيار حينئذ يتصيّد بنواحي الكوفة ، فخرج اليه وجوه أهل بغداد مستغيثين ، منكرين عليه اشتغاله بالصيد »

= هي الوحيدة في العالم حتى كتب الاستاذ الصديق سعيد الديوه جي عن نسخة الموصل هذه . وقدر لي أن زرت الموصل ، فأطلعني الاستاذ الديوه جي عليها . ولا أعرف كتاباً في العربية يبحث بالصيد وشؤونه كهذا الكتاب .

(١) انظر ابن تغري بردي طبعة كلفورنيا صفحة ١٩ .

وهذا الأمير نفسه انحدر لمحاصرة (١) عمران بن شاهين فأقام بواسط يتصيد شهراً، حتى ضجر عسكره وعاد خائباً. وكان هذا الامير شديد العناية بكلاب الصيد، مر عليها ابن الحجاج وهي تطعم لحوم الجدا فتحسر وقال:

رأيتُ كلابَ مولانا وقوفاً ورابضةً على ظهر الطريقِ
فمن ورد له ذنبٌ طويلٌ يعنّفه ومهلوب خلوقي
تغذى بالجدا فوددت أني وحقّ الله خركوش سلوقي
جفاني اللحمُ وهو شقيق روحي فمن يعدي على ذاك الشقيق

وكان هذا الامير شغوفاً بالخيل، والخيل من أهم عدد الصيد. وكان عضد الدولة مشغوفاً بها أيضاً، رثاه ابن نباتة السعدي (٢) بقوله:

---

(١) انظر كتاب الكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة ٣٥٩. وعمران بن شاهين، توفي سنة ٣٦٩، وقد بقي ثائراً في أهواز العراق أربعين سنة، والخلفاء والأمراء والقواد يطلبونه فلا يقدرون. وقد حاربه الوزير المهلبي بعسكره فكان عسكره بين قتيل وأسير، ونجا المهلبي سباحة. وحين توفي عمران هذا خلفه ابنه «الحسن». وبعث عضد الدولة وزيره المطهر بن عبدالله لحربه، يقول ابن الأثير «.. ثم جرت بينه وبين الحسن وقعة في الماء استظهر عليه الحسن وكان المطهر سريعاً قد ألف المناجزة، ولم يألف المصابرة، فشق ذلك عليه.. وخاف المطهر ان تنقص منزلته عند عضد الدولة، ويشمت به اعداؤه.. فعزم على قتل نفسه، فأخذ سكيناً وقطع شرايين ذراعه، فخرج الدم منه.. ثم مات وحمل الى بلده» ابن الأثير ٨/٢٣٣

(٢) ديوان ابن نباته السعدي ـ النسخة الخطية بدار الكتب المصرية

جيادك في الرياض معطلات جفاها السير بعدك واللغوب (١)

ولا مضغ الشكيم لها قضيم ولا شم الجنوب لها ذنوب (٢)

تقاد الى الركاب مجنبات وما لهوانه قيد الجنيب

وقد اكلت سنابكها الموامي فلان المشي منها والدبيب (٣)

وكما كان الخلفاء والامراء شغوفين بالصيد ، كان بعض الوزراء وعلية القوم شغوفة به ايضاً ، يذكر المهلبي الوزير لذاته فيقول :

رب ليل قطعت فيه خماري بغزال كأنه مخمور

ومصادٍ سرحت فيه ونصرٍ باز بازي مظفـــر منصور

بصقور مثل النجوم اذا انقضت وغضف كأنهن صقور

وشغف العامة بالصيد ويرى الصابي ان الخاصة تعده نزهة وملعباً والعامة حرفة ومكتسباً . والجاحظ يتحدث عن المصائد التي كان ينصبها الناس للحمام فيقول : « (٤) واذا مر بالقرى والعمران سقط ، واذا سقط

---

(١) اللغوب : الاعياء الشديد . يقولون : تعب حتى لغب . ومسه لغوب .

(٢) الشكيم ، والشكيمة في اللجام : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، التي فيها الفأس ومن هنا جاء قولهم « فلان شديد الشكيمة » : اذا كان شديد النفس أنفاً أبياً . القضم : الأكل باطراف الاسنان ، وهو قضم وقضيم . الذنوب : هو الفرس الذنوب ، وهو الوافر هلب الذنب . وهذا من صفات الخيل الكريمة عندهم .

(٣) السنابك : جمع سنبك : وهو طرف مقدم الحافر . الموامي ، جمع موماة وهي المفازة ، لا ماء فيها

(٤) الحيوان ـ طبعة الحلبي ٣/٢١٨-٢١٩

أخذ بالبايكير (١) وبالقفاعة (٢) وبالملقف (٣) وبالتدبيق (٤) وبالدشاخ (٥) ورمي أيضاً بالجلاهق (٦) وبغير ذلك من أسباب الصيد »

بيئة العراق والصيد :

وبيئة العراق الطبيعية كانت مواتية كل المواتاة للصيد بكل انواعه ، فتربته السهلية التي تخضر في الربيع تكون خير مصاد للظباء والارانب والثعالب ، وآجامه وغياضه تكون خير مصاد لكواسر الوحش ؛ من الأسد وغيرها ، وأنهاره الكثيرة خير مسرح لصيد السمك وطيور الماء . وزاد في هذا أن كانت الديرة التي يقصدها الناس للشراب والتمتع بجمال الطبيعة ، قد بنيت بحيث تكون مسرحاً لصيد البر وصيد النهر . والناس يركنون اليها ليستريحوا بعد عطشهم أو تعبهم من مطاردة الصيد ، وقد مر بنا ان الفضل والمعتز ويونس بن بغا ركنوا الى الدير حين أدركهم العطش ، وقد كان

---

(١) البايكير : كلمة فارسية مركبة من « باي » ومن « كير » ومعناها جاذب . ومحصل اللفظين : جاذب البوهة : ويراد بذلك مصيدة تحبك بالحبال عيوناً كعيون شبكة صيد السمك ، وتجعل على شكل سلة كبيرة تقلب على فمها

(٢) القفاعة : شيء يتخذ من جريد النخل ثم يغدف به على الطير فيصطاد.

(٣) الملقف : آلة من آلات الصيد .

(٤) التدبيق : الاصطياد بالدبق . والدبق ـ بكسر الدال ـ غراء يصطاد به الطير.

(٥) الدشاخ : كلمة فارسية مركبة من : « دو » اي اثنين ، و « شاخ » أي شعبة أو رأس . ومحصل معناها ذو الرأسين : وهي آلة صيد حديدية .

(٦) الجلاهق : البندق الذي يرمى به الصيد ، فارسي معرب

دير سمالو (١) الذي يجري أمامه نهر الخالص المعروف بنهر المهدي مصاداً للسمك ، كما كانت حوله أجمة قصب يرمي فيها الطير .

والناس يقصدون هذه الديرة بخيلهم وكلابهم وفي هذا يقول ابن المعتز:

ولما اعدت خيلنا للطرا د جعلنا الى الدير ميعادها

وقاد مكلبنا مضمرا سلوقية طالما قادها

معاممة من بنات الربا ح اذا سألت عدوها زادها

وفي وسط دير قنى الواقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد ، نهر جار يقصده الناس بشباكهم وشصاصهم ، لصيد السمك . والرفاء يقول :

صب بغرات الصبا مكلفُ هاجَ هواء الديرُ والمستشرف

له من الآس الجني رفرف وجدولٌ لجّته لا تنزف

تصقلُ متنيه الرياح العصّف حيتانه دانيـــة تلتفّ

وعني الناس في هذه الحقبة بالكتابة عن الحيوان والصيد ، فالجاحظ في كتابه الحيوان قد أفاض في الحديث عن الصيد ، ووصف الكلاب وأسهب في وصفها ، وتحدث عن تدريبها على الصيد ، وما قد يحدث لها من أمراض . وألف ابن المعتز كتابه « الجوارح والصيد »

---

(١) دير سمالو : يقع هذا الدير برقة الشماسية ببغداد ـ وحديثه في ديارات الشابشتي . انظر نسخة هذا الكتاب مخطوطة بدار الكتب المصرية

وكتب كشاجم كتابه « المصايد والمطارد » وكتب الكتّاب ، كالصابي مثلاً فصولاً مستفيضة عن الصيد .

واذا كانت عناية الناس بالصيد ، قد بلغت بهم هذا الحد من الاهتمام ، فانما ذلك من أجل ما يجده الناس فيه من اللذة . وقد قيل[1] « لو أن ملكاً يهدى إليه عدد كبير من أصناف الوحش ، والطير ، لم يبلغ فرحه بذلك جزءاً واحداً من اغتباطه بقنبرة ضئيلة ؛ يدأب في صيدها أو عكرشة هزيلة يظفر بها » ومن أجل هذه اللذة عشقه الملوك وشغل به بختيار عن تدبير ملكه . واذا كان هذا مبلغ اللذة فيه ، فلا عجب أن تهيج من أجله العاطفة ويجري من أجله الشعر على اللسان . وربما كانت أشعار الصيد من أقدم ما يروى في شعر كل امة ؛ فاليونان لهم في شعر هوميروس إسهاب يدل على مواقع الصيد من نفوسهم . واذا أردنا أن نعرف مكانة الصيد في نفس العربي فعلينا أن ننظر في شعر امرئ القيس ، وهو أقدم ما وصلنا من الشعر ، وأن نقرأ له :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل لخيلي كري كرةً بعد إجفال

وقالوا إن اللذة التي ذكرها هنا ، إنما هي لذة الصيد ، ونراه قدّمها على الخمر والنساء . وقد تعرّض لهذا الفن ، مع امرئ القيس ، زهير

(١) المصايد والمطارد لكشاجم : النسخة الخطية بمكتبة الحسينية بالموصل

ولبيد ، ويندر أن نجد شاعراً جاهلياً لا يتعرض لوصف حمار الوحش ، ومطاردة الصياد له ، وهم يذكرون ذلك حين يصفـــون إبلهم . وقد مر بنا هذا .

ومع أن الاسلام قد أحلّ الصيد ، فاننا نجد هذا الفن يختفي أو يكاد في الشعر الاسلامي ؛ شأنه شأن شعر الخمر ؛ يختفيان في العهد الأموي ، ثم يبعثان بعثاً رائعاً على يد أبي نواس . حتى أن بروكلمان لم يستطع أن يصدق أن أبا نواس هو الذي بعث هذا الفن ؛ وبعثه على هذه الصورة الرائعة ، من غير أن يكون الشعراء الاسلاميون قد سبقوه اليه ، ومهدوا له طريق القول فيه ؛ فيقول وهو يتحدث عن أبي نواس [١] : « نذكر الى جانب زهدياته أشعاره عن الصيد ، التي تبدو مبتكرة عند النظرة الاولى ، ولكن لابد أن له في هذا الضرب من الشعر أسلافاً نسج على منوالهم ولم تصلنا أخبارهم » .

ونحن لا نعجب ، ولا نستكثر هذا على أبي نواس ، وقد رزق عاطفةً جياشةً وشاعرية قوية ، وسيطرة عجيبة على اللغة . وقد رأيناه يأتي بالعجب حين تهيج عاطفته ، حتى في الفنون التي تبدو بعيدة عن حياته كفن الزهد مثلا . والجاحظ لم يستكثر ذلك عليه بل ولم يعجب . يقول وهو يتحدث عن أراجيز أبي نواس في الصيد : [٢] « وانا أكتب

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ١ / ٤١٤

(٢) الحيوان : في الحديث عن الكلب

لك رجزه في هذا الباب ، لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زمناً ، وعرف منها مالا تعرفه الأعراب ، وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه . هذا مع جودة الطبع ، وجودة السبك ، والحذق بالصنعة . وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، وترى أن أهل البدو أبداً أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ، فان اعترض هذا الباب عليك ، فانك لا تبصر الحق من الباطل »

وننظر في وصف أبي نواس للصيد ، فنراه نحا به غير منحي الجاهليين ؛ أخذ الفَرَس عندهم المحل الأول ، وأخذ الكلب المحل الاول عنده . وربما كان سبب ذلك أن الفُرْس اعتبروا الكلب هو العدة الاولى من عدد الصيد . وقال الجاهليون شعرهم في الصيد قصيداً وقاله هو رجزاً . وقد أثرت طردياته في شعراء القرن الثالث والرابع ، ونسجوا على منواله فوصفوا الصيد بالرجز ولم يصفوه بالقصيد ، وظلوا يدرون أشعار أبي نواس ، وقلّ أن نرى لهم شيئاً جديداً ؛ هذا إذا استثنينا وصف صيد السمك الذي أغفله أبو نواس إغفالاً ، ولم يقل فيه شيئاً .

وصف الصيد بالكلاب : ولنرى كيف يحذو ابن المعتز حذو أبي نواس بذكر رجزه في وصف كلب الصيد :

قد أغتدى والليل كالغراب راخى القناع حالك الاهاب

ملق السدول مغلق الأبواب حتى اذا الصبح بدا من الحجاب

بمشية جلت عن الشباب بكلبةٍ سريعة الوثاب

تنساب مثل الأرقمِ المنسابِ كأنما تنظر عن شهاب[1]

بمقلة وقف على الصواب فكم وكم من أجردٍ وثاب

قد قصمته بشبا الانياب ومنعته جولة الذهـــاب

وهو ينحو نحو أبي نواس في هذا ، فأبو نواس يبدأ وصفه للصيد بقوله :

قد اغتدى والليل في ادهامه لم يحسر الصبح دجى ظلامه

أو بقوله : « قد أغتدى والليلُ في اعتكاره » أو بقوله : « قد اغتدى في فلق الاصباح » والى أمثال هذا الابتداء ، الذي لا يفرق عما بدأ به ابن المعتز في شيء .

ومن الجميل وصف ابن المعتز الكلبة بأنها « تنساب مثل الارقم » ولكنّ هذا قد أخذه من قول أبي نواس أيضاً .

كأن متنيه لدن اسرى به متنا شجاع لجّ في انسيابه[2]

ونرى ان ابا نواس يغفل — في كل طردياته — ذكر الصراع يدور بين الكلاب والطريدة ، ويتابعه ابن المعتز في هذا ، وربما كان هذا الموقف أجمل مواقف الصيد والذها عند الصياد . والعاطفة تكون مهتاجة فيه ،

---

(١) الأرقم : الحية التي فيها سواد وبياض .

(٢) الشجاع : ضرب من الحيات .

أكثر منها حين يُظفر بالصيد . يقول كشاجم (١) « ولو ان الصيد أمكن من نفسه في أول اثارته لنقصت لذته وقدح في موقعه ، قال بعض المحدثين :

لولا طرادُ الصيدِ لم تك لذةٌ ... فيه فطاردْ بالوصالِ قليلا
هذا الشرابُ أخو الحياةِ فما به ... من لذةٍ حتى يُصيب غليلا »

ولهذه المواقف وصف جميلٌ في شعر الصيد الجاهلي ، وما أجمل وصف الأخطل لمعركةٍ بين الثور الوحشي وكلاب الصيد ، ذكرها وهو يشبه ناقته به :

حتى اذا كاد ضوء الصبح يفضحُه ... وكاد عنه سوادُ الليل ينطلق (٢)
هاجت به ذُبَّلٌ مُسحٌ جواعرُها ... كأنما هنَّ من نبعية شقق
فظل يهوى الى أمرٍ يُساق له ... واتبعته كلاب الحي تستبق
يفرج الموت عنه قد تحضّره ... وكدن يلحقنه أو قد دنا اللحق
لما لحقن به أنحى بمِعوله ... يملا فرائصها من طعنه العلق
فكر ذو حربة يحمي حقيقته ... اذا نحى لكلاها الروقُ يمتزق
فهنَّ من بين متروكٍ به رمقٌ ... صرعى وآخرُ لم يُترك به رمق

وقل أن نجد شاعراً جاهلياً وصف الصيد وفاتته هذه اللحظة منه .

---

(١) انظر المصايد والمطارد وقد سبقت الاشارة اليه .

(٢) تقدم شرح هذه الابيات في صفحة : ٧٧ و ٧٨ من هذا الكتاب

على أنني لا أعرف شاعراً عباسياً واحداً عني في وصف هذه الناحية الهامة. والسري الرفاء [١] نحا نحو ابن المعتز، أو نحو أبي نواس في وصف الصيد بأراجيزه، وحاكاهما في اتجاهاته ومعانيه

وصف الصيد بالفهد :

وصادوا بالفهد كما صادوا بالكلب، وكان المكتفي مشهوراً بحبه للفهود. وزعموا أن أول من صاد [٢] بالفهد كليب وائل أو همام بن مرة، وربما كان للعصبية بين العرب والشعوبيين أثر في هذه الدعوى. وقيل الشعر بالفهد، ولكنه قليل جداً اذا قيس بما قيل في الكلب، يقول ابن المعتز :

قد اغتدى قبل غدوٍ بغلس ... وللرياض في دجى الليل نفس

حتى اذا النجم بدا لي بالقبس ... قام الفهاد في ظلام قد حلس

ونراه يغدو بالفهد ساعة يغدو بالكلاب، يغدو وما زال الظلام حالكاً، والصبح قد طلع أو كاد، والرياض بدت تبعث عطرها في نسيم الصبح. ولعل أجمل ما قيل في الفهد قول ابن المعتز من قصيدة يمدح بها الخليفة :

ولا صيد إلا بوثابةٍ ... تطير على أربع كالعذب

وإن اطلقت من قلادتها ... وطار الغبار وجد الطلب

فزوبعة من بنات الرياح ... تريك على الأرض شداً عجب

---

(١) قصائده في الصيد في ديوانه ص ١٣، ٢٥٤، ٢٥٨ طبعة الغدسي

(٢) النويري، طبعة دار الكتب المصرية ٩/٢٤٧

تضم الطريد الى نحرها كضم المحب لمن قد أحب

الارب يوم لهـــا لو يدو م أراقت دماً وأغاثت سغب

لها مجلس في مكان الرديـــ ـف كتركية قد سبتها العرب

ومقلتها سائل كحلُها وقد حليت سبجاً من ذهب (١)

فظلت لحوم ظباء الفلا ة على الجمر معجلة تلتهب

ويبدو أن ابن المعتز كان شغوفاً بإناث الحيوان أكثر منه بذكوره، فقد وصف في ارجوزتيه السابقتين انثى الكلب، وتحدث هنا عن انثى الفهد. ونرى حبه لهذا الحيوان بادياً في قوله: إن مجلسها بمكان الرديف مجلس التركية قد سبتها العرب، وهو يدري مقدار فرح العرب بالتركية يسبونها. ويصف عينها وصفه لعين المعشوقة. وماذا وراء أن يقول: «سائل كحلها» ونراه يكاد يقترب من وصف الجاهليين للمعركة بين حيوان الصيد وبين الطريدة، وفرح حيوان الصيد حين يقبض عليها بقوله:

تضم الطريد الى نحرها كضم المحب لمن قد أحب

وجملة «تضم الى نحرها» أقرب أن توصف بها حبيبة، من أن توصف بها انثى الفهد.

وهكذا نرى الشاعر ابن المعتز قد تنكب عن مذهبه، الذي عرفناه له، في وصف الطبيعة، وأسبغ على حيوان الصيد إنسانيةً، ما كنا نراه

(١) السبج: نوع من الخرز

يفعلها حين كان يصف الازهار والأوراق ؛ فهو قد وصف هذا الحيوان وصفاً ذاتياً. وصف جهم لها كما وصف فرحها هي بالصيد تقبض عليه . ونراه لا يتأنق هنا بصوره ، وألفاظه ، كما كان يفعل في الكثير من شعره . ونستطيع أن نقول إنه جرى في هذه القطعة الوصفية على سجيته وطبيعته .

ووصفوا طيور الصيد ، ويظهر أن العصبية بين العرب والشعوبيين قد ظهرت هنا أيضاً ، فزعم بعضهم أن بهرام جور أول من لعب بالصقر وأول من صاد به ، وزعم بعضهم (١) أن الحارث بن معاوية بن ثور بن كنده أول من صاد بالصقر وضراه ، ولهم قصص في ذلك .

وقد وصف الصقر أبو نواس ونحا ابن المعتز منحاه فقال :

وأجدلٍ لم يخلُ من تأديب ... يرى بعيد الشيء كالقريب (٢)

يهوى هويَّ الدلو في القليب ... بناظر مستعجم مغلوب (٣)

كناظر الأقبل ذي التقطيب ... رأى اوزاً في ثرى رطيب (٤)

---

(١) انظر نهاية الأرب للنويري ، طبعة دار الكتب المصرية : الجزء العاشر صفحة : ١٩٦

(٢) الأجدل : الصقر

(٣) القليب : البئر قبل ان تطوى ، أي قبل ان تبنى بالحجارة ونحوها ، والجمع قلب بضمتين . الناظر المستعجم : الذي ينظر الى الشيء كأنه يعرفه

(٤) القبل في العين اقبال السواد على الأنف ، في مثل الحول ، او هو إقبال نظر كل من العينين على صاحبتها . ومنه قول عنترة في صفة حصانه :

سلس القياد الى القتال فعينه ... قبلاء شاخصة كعين الأحول

فطار كالمستوهل المرعوب ينفذ في الشمال والجنوب (١)

وهو بوصفه هذا يستخدم الألفاظ استخدام الرسام للريشة، وكأنه يحاول ان يستعيض بتصوير الالفاظ عن التصوير بالقلم. وقد أجاد في رسم هذه الصورة كل الاجادة، على انه جرى فيها على مذهب صاحب العمدة الذي يرى أن خير الوصف ما قلب السمع بصراً.

ويبدو لي - مع كثرة حديث ابن المعتز عن الصيد - أنه لم يكن صياداً، وإلا فكيف يفوته ان يرى طرد الكلب والفهد والاجدل للطريدة، من غير ان يشعر باللذة ويصفها، حين يتحدث عن هذه الحيوانات؛ مع ان هذه اللذة هي التي جذبت الناس الى الصيد وجعلتهم يولعون به ويعشقونه.

وقريب من قوله في الأجدل قوله في الباشق:

يا كف ما حييت إذ غدوت ... بباشق يعطيك ما ابتغيت

لا يتقيه هارب بفوت ... سهم مصيب كلما رميت

مؤدب يسرع إن دعوت ... لا عيب فيه غير عشق الموت

وقد وصف ابن الرومي صيده للطير، ولطير الماء مع أصحابه، وعدّ ذلك لذة من لذات الشباب التي يعجز الوصف عنها، يقول كالمخاطب لنفسه:

(١) المستوهل: الفزع، ومنه قول طفيل:

فقلنا لها لما رأينا الذي بها ... من الشر لا تستوهلي وتأملي

بكيت فلم تترك لعينيك مدمعا زماناً طوى شرخ الشباب فودعا
سقي الله أوطاراً لنا ومآرباً تقطّع من أقرانها ما تقطّعا
أحن فاستسقى لها الغيث مرة وأثنى فاستسقى لها العين أدمعا

* * *

وقد اغتدى للطير والطير هجع ولو أبصرت مغداي ما بتن هجعا
بخلين تمابي ثلاثةَ اخوةٍ جسومُهُم شتى وأرواحهم معا
اذا ما دعا منا خليلٌ خليلَه بأفديكَ لباهُ مجيباً فأسرعا
فثاروا الى آلاتهم فتقلدوا خرائط حمراً تحمل السم منقعا
محملةً زاداً خفيفاً مناطه من البندق الموزون قلَّ واقنعا
وقد وقفوا للحائنات وشمروا لهن الى الانصاف سوقاً وأذرعا
وجدَّتْ قسيّ القوم في الطير جدها فظلتْ سجوداً للرماة وركعا
طرائح من بيضٍ وسودٍ نواصع تخال أديم الأرض منهن أبقعا
فكم ظاعن منهن مُزمع رحلةٍ قصرنا نواه دون ما كان أزمعا
وكم قادمٍ منهن مرتاد منزلٍ أناخ به منا مُنيخٌ فجعجعا

* * *

هنالك تغدو الطيرُ ترتادُ مصرعاً وحسبانها المكذوبُ يرتاد مرتعا
تؤوب بها قد أمتعتك وغادرتْ من الطير مفجوعاً بها ومفجّعا
لها عولة أولى بها ما تصيبه وأجدر بالأعوال من كان موجعا
وما ذاك إلا زجرها لبناتها مخافة أن يذهبن في الجو ضُيعا

* * *

كأن بنات الماء في صرح متنه اذا ما علا روق الضحى فترفعا

زرابيٌّ كسرى بثها في صحانه ليحضر وفداً أو ليجمع مجمعا

تريك ربيعاً في خريف وروضةً على لجة بدعاً من الأمر مبدعا

فظل صحـــابي ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرّعا

وقد نُقّبت شمس الاصيل ونُقّضت على الافق الغربي ورساً مزعزعا

وابن الرومي في هذه القصيدة يصف لنا ذهابه بخلين من أخلائه، ويصف الفة الثلاثة لبعضهم، ثم يصف صيدهم للطير، ولطير الماء. ونراه يتقمص روح الطائر المصيد، فيصف شعوره أكثر من وصفه لشعور الصائد. إن الشفقة تأخذه على الطيور حين تُرمى، وتنسيه فرحه بالصيد، وهو إذ يصف فرح أصحابه يتداعى الى نفسه بؤس الرمية فيقول: «فظل صحابي ناعمين ببؤسها». وهو كلما هم بذكر الفرح بالصيد، غلبته الشفقة عليه فقرن الصورة الفرحة بضدها.

تؤوب بها قد أمتعتك وغادرت من الطير مفجوعاً بها ومفجعا

واسلوبه هنا أقرب الى التبكيت والتعنيف منه الى الاستحسان.

ونراه في آخر أبياته يصف طيور الماء وجمالها، ويصفها قبل أن تُرمى. ويخيل إليّ أن نفسه لم تطاوعه على وصفها ساعة ترمى، فتجاوز ذلك واختصره اختصاراً.

وصف صيد السمك :

وامتازت هذه الحقبة بوصف صيد السمك ، ولابن المعتز ارجوزة صغيرة فيه اخذ معانيها السري الرفاء وأدارها في شعره .

وبيئة العراق مشهورة بالسمك ، وهو يقع من طعام بعض المدن ، ـ ولا سيما الجنوبية منها ـ موقع الخبز من طعام عامة الناس . وما زال الصيادون في جنوب العراق يصطادون السمك بكثرة بشباكهم وشصاصهم ، ويصطادونه بأن يغرزوا جريد النخل في النهيرات والجداول ، حتى اذا ما ارتفع ماؤها بالمد ثم انخفض بالجزر ، بقي السمك محصوراً ، من غير أن يستطيع الرجوع . ولهم ساعة إخراج السمك من هذه المصائد فرحٌ ينطقهم بالاغاني ، ويحرك اجسامهم بما يُشبه الرقص . ويقولون عن قدماء المصريين (١) إن صيادي السمك منهم كانوا يغنّون ـ وهم يشدّون الشبكة من الماء ، بما يشبه حداء الابل . وفي « الف ليلة وليلة » كثيراً ما يُقرن الحديث عن صيد السمك بأغاني السماكين .

وابن المعتز حين يصف صيد السمك بارجوزته ، لا يُغفل وصف الجدول وحصاه النقي ، وزهره الربعي المبتسم ، ثم يصف سمكه وصيده بالشبكة والشص . يقول :

يا رب جاري نهرٍ فضيٍّ ... مضطرب على حصىً نقيٍّ

(١) شعر الطبيعة ـ سيد نوفل صفحة ١٣

وتربةٍ ذات ثرى وضيّ ... وزهرٍ مبتسمٍ ربعيّ
مكتهلٍ ومرضع صبي ... كأنه فرائد الحلي
باكر بالغداة والعشى ... ريق الندى في شبم عذري
ظل ببالٍ فارغ خلي ... وما ادّعي من شبع وري
قد عاذ بالحسن من الانسيّ ... محكماً في السمك اللجيّ
يلقطها بمعول مدرى ... لقط نصال الغرض الرمي
صحبته بأجلٍ وجيّ ... ومقلةٍ تلحق بالقصي

والبسري الرفاء يكثر وصف صيد السمك (١)، وهو رأس شعراء هذه الحقبة في هذا الفن، على أنه يدير أوصاف أبي نواس وابن المعتز في خروجهم الى الصيد، في أراجيزه واشعاره في السمك. فهو « يغدو وجلباب الظلام أزرق » أو هو يغدو:

والصبح حملٌ بين أحشاء الدجى ... والريحُ كالراح نأى عنها القذى
ينم رياها على زهر الربى

وقد عشق قول ابن المعتز في وصف الشبكة بان لها « مقلة تلحق بالقصي » وراح يدير هذا المعنى في عامة أراجيزه في وصف صيد السمك فالشبكة « عيون لم تشب بغمض » وهي « كلها نواظر لا تطرف » ويقول إنه ذهب:

---

(١) ديوان السرى الرفاء صفحة ٦ـ٧، ١٠، ٢٤، ٦٥، ١٤٦، ١٥٧، ١٧٠، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٦٧ طبعة القدسي

بأعين لم تؤت من إغفاء كثيرة تُربى على الاحصاء

ويصف السمكة بقوله :

كمدية مصقولة الحدّين كأنما صيغت من اللجين

أو يقول وهو يتحدث عن الصياد :

جاء بأمثال المدى تألقُ ومثل أنصاف السيوف تبرق

وهكذا يدير اوصاف السمك بأراجيزه ، وقل أن يعدوها . وكم كنت أود لو غنّانا بمثل أغاني السمك الشعبية التي نسمعها اليوم ، يقولها صيادو السمك وهم يعالجون سحب الشبكة من الماء ، او يقولونها في مصايد الجريد ، يقبضون فيها على السمكة فتزلق من أيديهم ، ثم يتبعونها وهي محصورة لا تستطيع الافلات . وعندي أن أجمل ابيات السري الرفاء في هذا الباب ، ابياته التي يهيجه فيها جدول الدير ، وموقعه الجميل ، وروضه المدبج المفوف ، فينطلق — كما يقول — بجواده إلى خمرته ، ومعه شصه وشباكه ليصطاد ، يقول :

صبٌ بغرات الصبا مكلّفُ منسحبٌ مئزره والمطرفُ

برغم من يلحي ومن يعنّفُ تشوقه حتى يكاد يتلف

خدٌ أسيلٌ وقوامٌ أهيفُ وصاحباه فتية وقرقف

وعدّتاه سابح ومرهفُ هاج هواه الدير والمستشرف

وروضه المدبج المفوف شرب صحيح وهواء مدنف

للعين فيه أي وجه تصرف ... بساط منشور نداه ينطف

له من الآس الجنيّ رفرف ... وجدول لجته لا تنزف

تصقل متنيه الرياح العصف ... حيتانه دانية تلتقف

فماؤه مرقرق منطّف ... مثل السراب افترّ عنه الثغثف

فهي على ساحته ترفرف ... كل بسهم حتفه مستهدف

الحفهن والحمام الحف ... شبهتها بالدرع حين ترصف

بها عيون لحظهن أوطف ... يطرفها الماء وليست تطرف

ثم تلاها قصب مجوّف ... مثل القنا ثقفه المثقف

وكل عقفاء إليه توصف ... مثل الهلال وهي منه أنحف

من صفتيها الرفق والتعجرف ... فلم تزل ترسل ثم تخطف

ونحن من أشتاتها نؤلف ... كأنها خناجر تعطّف

أحلّ لي عذابهن المصحف

وهو في ارجوزته هذه يقص قصة صيده ، من بدئه الى نهايته ، ونراه يعني بوصف ما حول الصيد ، أو ما حول السمك اكثر من عنايته بالسمك ؛ يمعن في وصف الروض ووصف الجدول تضربه الريح ، وهو يقرن عدد صيده للسمك بالسلاح : فالشبكة درع ، والقصبة قناة مثقفة ، ثم تجره صور السلاح هذه فيصف السمكة بتشبيهها بالخنجر . وقد صبغ السري قصيدته الوصفية بروح مرحة راقصة ، ظهرت في بحرها الذي يلائم الحركة ، أكثر مما يلائم العاطفة المنسابة .

وقد عرض مهيار الديلمي للقول في السمك ، ولكنه عرض له على أنه أحجية (١) يحاجي بها .

وصف الأسد وكثر الأسد في العراق ورأى الخلفاء وعلية القـــوم وصيدها : رياضةً ولهـــواً في صيده ، وقد مر بنا أن الخليفة المعتضد والخليفة المتقي كانا يخرجان لصيد الأسد . ويتحدثون عن الحجاج بن يوسف (٢) أنه حين قبض على جحدر ـ وكان لصاً فاتكا يقطع الطريق في اليمامة ـ ألقاه الى أسد جائع كان قد صيد حول واسط ، ولكن جحدر هذا قهر الأسد وتغلّب عليه ، فأعفاه الحجاج وتركه .

وكان العراقيون يروضون خيولهم رياضة خاصة ، ويخرجون عليها لصيد الأسد فتلقاه وهي رابطة الجأش ، ذلك بأن يقدموا لها طعامها الى جانب قفص ربط فيه الأسد فتعتاد رؤيته يوماً بعد يوم . ولهم طرق خاصة يروضونها على اتقاء هجماته (٣) حتى تصير تلقاه ولا تنفر منه .

وقد خرج الفتح بن خاقان (٤) الى صيد الأســد وصاده ، فقال

---

(١) ديوان مهيار الديلمي طبعة دار الكتب المصرية ١ / ١٥٢ ، ٢ / ١٢٢

(٢) انظر رغبة الآمل في شرح الكامل للمرصفي ، في قصيدة جحدر العكلي

(٣) كتاب الصيد عند العرب في القرون الوسطى للدكتور زكي حسن

(٤) الفتح بن خاقان : وزير المتوكل ، كان تركياً . وله كتب الجاحظ رسالة في مناقب الترك يشيد بها بشجاعتهم وبأسهم . ودخل الأتراك متآمرين على المتوكل ليقتلوه ، فضربوه بالسيف « وأقبل الفتح بن خاقان يمانعهم ، فبعجه واحد منهم بالسيف في بطنه فأخرجه من متنه ، فلفا بالبساط الذي قتلا فيه ، وطرحا =

البحتري قصيدته المشهورة فيه، منها :

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فلات بها السيف الحسام المجربا (١)

غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد ناباً للقاء ومخلبا (٢)

يحضنه من نهر نيزك معقل ... منيع تسامى روضه وتأشبا (٣)

يرود مغارا بالظواهر مكثباً ... ويحتل روضاً بالأباطح معشبا (٤)

يلاعب فيه اقحواناً مفضضاً ... يبص وحوذاناً على الماء مذهبا (٥)

= ناحية ... » وقد أشار البحتري الى هذا في قصيدته المشهورة في رثاء المتوكل .

محل على القاطول أخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

(١) ويروى « فضلت » . وفل السيف ثلمه وكسره . وتفللت مضارب السيف : تكسرت

(٢) الخدر : الستر . والجارية المخدرة : التي لزمت الخدر ، ومن المجاز ليث خادر ومخدر أي ملازم لعرينه

يحدد : من تحديد الشفرة وإحدادها واستحدادها ، ويقال حد السيف أي صار حاداً ، ومنه سيوف حداد ، ومن المجاز السنة حداد : أي قاطعة

(٣) تأشب ، الأشب : شدة التفاف الشجر حتى لا مجاز فيه ، يقال : غيضة أشبة ، وتأشب الروض : تجمع والتف على بعضه

(٤) الظواهر : جمع ظهر وهو من قولهم « نزلوا في ظهر من الأرض وظاهرة » وهي المشرفة ، ومشرفة الأرض : أعاليها . الأباطح : جمع أبطح ، والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٥) البصيص : البريق ، يقال بص الشيء اي لمع . الحوذان : نبات طيب الطعم ، زهره أحمر في أصله صفرة

اذا شاء غادى عانةً أو غدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)

يجـــر الى أشباله كل شارق ... عبيطاً مدمي أو رميلاً مخضباً (٢)

ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف ... الى تلف أو يثن خزيان أخيبا

شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبري ... له مصلتاً عضباً من البيض مغضبا

فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً اذا الهيابة النكس كذبا (٣)

هزبرٌ مشى يبغي هزبراً وأغلبٌ ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا (٤)

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد منك مهربا

فلم يغنه إن كر نحوك مقبلاً ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا

حملت عليه السيف لا عزمك اثني ... ولا يدُك ارتدَّتْ ولا حدُّه نبا

وكنت متى تجمع يمينك تهتك الـ ... ضريبة أو لا تبق للسيف مضربا

وقد أجاد البحتري فيها أيما اجادة، وكانت فاتحة لقصائد اخرى كثيرة في وصف صيد الأسد نحا نحوها المتنبي في قصيدته التي قالها في بدر بن عمار:

---

(١) العانة: الأتان أو القطيع من حمر الوحش. العقائل: جمع عقيلة، وعقيلة كل شيء: أكرمه. والسرب: القطيع من الظباء وحمر الوحش. الربرب: قطيع بقر الوحش

(٢) كل شارق، اي كل مطلع شمس. العبيط: اللحم العبيط، وهو الخالص الطري. والرميل من الطعام، ما خلط بالرمل.

(٣) الضرغام: الأسد. الهيابة: الجبان الكثير الخوف. النكس: الرذل

(٤) الهزبر: الاسد القوي. الوجه الباسل: الشديد العبوس، ومنه قولهم «أسد باسل»

أمعفّر الليث الهزبر بصوته لمن ادخرت الصارم المصقولا

وننظر الى قصيدة البحتري هذه ، فهو يحدثنا فيها أن الفتح بن خاقان قد خرج للقاء الأسد أو لصيده ؛ ولم يلق الأسدَ عفواً أوعن غير قصد ، ثم يصف لنا البحتري قوة هذا الأسد ، ويتبع الوصف الايحائي في ذلك فيخبرنا أن البقعة التي استوطنها قد كثر حوذانها واقحوانها المفضض كناية عن أن الحيوانات الاخرى لم تكن لتستطيع الاقتراب منها ، بل يوحي لنا وصفه بأن الأسد هذا هو الذي استنفد ما في هـذه الأرض من حيوان . ثم يوجز البحتري كل الايجاز في وصف صيد الأسد لحيوانات تلك البقعة وما يجري له من الصراع معها ؛ يوجز ذلك بأربع كلمات هي : « العبيط المدمي » و « الرميل المخضب » وهاتان العبارتان تكفي لتصوير المعركة كاملة في ذهن السامع ، وتكفي لاظهار بطش الأسد وقوته في خياله .

ثم يتخذ هذا كله وسيلة للاشادة بالفتح بن خاقان ليقول إن الأسد الذي لقيه الفتح كان أسداً ذا أشبال ، وكان قد اعتاد الصيد . وتكون القصيدة بعد هذا أدخل في باب المديح منها في باب الوصف . لقد غلّب البحتري لفظة الضرغام على لفظة الرجل أو البطل ، فجعل الخيال يتجه الى صراع ضرغامين لا صراع رجلين أو صراع بطلين ثم أسبغ على الأسد إنسانية ، وجعله إنما يكر على الفتح لأنه علم أنه هالك لا محالة .

وأكثر الشريف الرضي من ذكر الأسد ووصفه ولكنه لم يصفه على أنه حيوان يصطاده الناس، بل ذكره على أنه حيوان (١) ذو بأس ترجف الخيل من سماع همهمته :

تصدّع عن همهامه الخيل والقنا صياحك في أعقاب طردٍ تشلّه (٢)

له وقفةُ المِجزاع ثم تُجيزه حفيظةُ مجموعٍ على الروع شملُه

ويمر الركب بعرينه متكتمين منه، خائفين ان يفضحهم بغام الرواسم:

إذا همّ لم تقعد به عَزَماتُه وإن ثار لا تعيا عليه المطاعمُ

نمر وراء الليل نكتُمه السُرى وقد فضحتنا بالبغام الرواسم (٣)

له كل يوم غارة في عدوه تشاركه فيها النسور القشاعم (٤)

وكثر وصف الأسد في شعر (٥) مهيار، على انه نحا في وصفه منحى استاذه الشريف الرضي حتى نراه يبدأ قصيدته الدالية .

نبهته فقام مشبوح العضد أغلب لو سيم الهوان ما رقد

---

(١) ديوان الشريف الرضي ص ٦٧، ٧١٢/٧٩٩، ٨٧٠

(٢) الهمهام . يقال « همهم الاسد » والهمهمة : ترديد الصوت في الصدر . الطرد : النعم يغار عليها وتساق مسرعة . تشله : تسوقه بخفة وسرعة

(٣) اسرى : سار ليلا والسرى : سير الليل، ومنه قولهم طال بهم السرى . البغام يقال للظبية والناقة بغام، وهو ارخم صوتها . رسمت الابل رسماً : وهو ضرب من العدو، ومنه إبل رواسم .

(٤) القشعم من النسور والرجال : المسن

(٥) ديوان مهيار طبعة دار الكتب المصرية ١/٢٦٧، ٣٠٨

بوصف الاسد وله دالية اخرى نحا بها نحو قصيدة البحتري في الفتح بن خاقان . وفي ديوانه [١] « وكتب بها الى الامير أبي الذواد المفرج بن علي بن مزيد ... يمدحه ويصف ملاقاته للاسد وظفره به وقد طال سؤاله في ذلك » .

وصف الخيل :

وعرض شعراء العراق في هذه الحقبة لوصف الخيل ، وقالوا فيها واكثروا وإننا اذا استثنينا ابن المعتز لانجد لهم في وصف الخيل ساعة الصيد شيئاً . فالبحتري وهو أنعت شعراء هذه الحقبة للخيل ، وعنه يقول ابو هلال انه أوصف المحدثين [٢] للخيل وأكثرهم إجادة في نعتها لا نجد له شيئاً في وصفها ساعة الصيد .

والشريف الرضي يكثر وصفها [٣] ولكنه حين يصفها يعني بوصف الفارس أكثر من عنايته بوصف الفرس ، او هو يمدح نفسه ويتخذ وصف الخيل واسطة لذلك .

يستشعر الطِرفُ زهواً يوم أركبه كأنه بنجوم الليل منتعل
والخيل عالمة ما فوق أظهرها من الرجال جبانٌ كان أو بطل

واذا كان ابن المعتز هو الذي وصف الخيل ساعة الصيد فقد وصفها هكذا :

---

(١) انظر صفحة ٣٠٨ من ديوان مهيار طبعة دار الكتب المصرية

(٢) ديوان المعاني ، طبعة القدسي ٢/١١٥

(٣) ديوان الشريف الرضي صفحة : ٣٧ ، ٦٣ ، ٥٥٩ ، ٦٥٦ ، ٧٤٨ ، ٧٥٢ ، ٨٧١ ، ٨٤٨

قد أغتدى بقارحٍ مسوّم يعبوب (١)
ينفي الحصا بحافرٍ كالقدح المكبوب
وضحكت غرته عن موضع التقطيب (٢)
اذا عدت أربعة لقنصها المطلوب
لم ينقطع غبارها قبل دمٍ مصبوب

وهو في أبياته هذه يتجه لوصف الحصان ، وقد اجاد بوصفه الايحائي هذا وأوجز ايجاز الجاهليين في وصفهم ؛ وصف حصانه بثلاث كلمات : قارح ومسوم ويعبوب . وأجاد كل الاجادة بأن وصف جريه بعبارة واحدة وهي : « ينفي الحصا » وهـــذا الوصف الايحائي الذي يتجه صاحبه الى وصف ما يريد بذكر نتائجه وما يتسبب عنه ، والذي نرى الجاهليين أكثروا استعماله في وصف الطلل ، هو أقوى الوصف وأفعله أثراً في نفس السامع أو القارئ . على انه لم تفته العناية بوصف الاشكال والهيئات فعمد الى رسم حافره فشبهه بالقدح المكبوب . أما معركة الصيد فلم يشر اليها الا بالدم المصبوب . وانني لا اعرف في الشعر العربي قديمه وحديثه شاعراً وصف حصانه ساعة الصيد ووصف معركة الصيد وما يعتريه من نشوة وفرح فيها ، مثل امرىء القيس في معلقته :

(١) القارح : الفرس الأغر . المسوم : مفرد المسومة : وهي الخيل المرعية المعلمة . اليعبوب : الفرس العداء ، مأخوذة من الجدول اليعبوب وهو الشديد الجرية
(٢) الغرة : بياض في جبهة الفرس . يقال : فرس أغر .

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)

مسح اذا ما السابحاتُ على الوني أثرن غباراً بالكديد المركل (٢)

يزل الغُلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقّل (٣)

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٤)

فعنّ لنا سربٌ كأن نعاجه عذارى دوارٍ في مُلاءٍ مذيّل (٥)

---

(١) اغتدى : اخرج في الغدوة . الوكنات : جمع وكنة ، وهي مواقع الطير . الأوابد : الوحوش . ويقال ، تأبد الموضع : اذا توحش وخلا من القطان . وقيد الأوابد : يقيد الوحوش بسرعة لحاقه اياها . والهيكل : الفرس العظيم الجرم

(٢) مسح : من سح الماء يسح : صب ، يصب ، أو انصب ينصب ، وفرس مسح ، يصب الجرى والعدو صباً بعد صب . السابحات : جمع سابح : والسابح من الخيل ، الذي يمد يديه في عدوه . الوني : الفتور والتعب . الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة . المركل : من الركل ، وهو الرفع بالرجل ، والضرب بها .

(٣) الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والجمع الصهوات . أثواب العنيف : أي أثواب الرجل الثقيل الشديد . يريد انه « يزلق عن ظهره من لم يكن جيد الفروسية عالماً بها ، كما يرمى بأثواب الحاذق في الفروسية لشدة عدوه ، وفرط مرحه في جريه .

(٤) الأيطل الخاصرة . الارخاء : ضرب من عدو الذئب . يشبه خبب الدواب . السرحان : الذئب . التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو . التتفل : ولد الثعلب

(٥) عنّ : أي عرض وظهر . السرب : القطيع من الظباء أو بقر الوحش . النعاج : اناث الظأن أو بقر الوحش — وهي المقصودة هنا — . دوار : اسم صنم ، كان يطوف حوله الجاهليون — تشبهاً بالطائفين حول الكعبة — اذا نأوا عن الكعبة . الملاء : جمع ملاءة . والمذيل : الذي اطيل ذيله

فأدبرن كالجزع المفصّل بينه ... بجيد معمٍ في العشيرة مُخول (١)

فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ ... دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل (٢)

فألحقنا بالهاديات ودونه ... جواحرُها في صرّة لم تزيّل (٣)

كأن دماء الهاديات بنحره ... عُصارةُ حنّاءٍ بشيبٍ مُرجّل (٤)

وظلّ طُهاةُ اللحم من بين منضج ... صفيف شواءٍ أو قديرٍ معجل (٥)

وربما كان أبو نواس، ومن لف لفه، قد أخذوا أقوالهم في خروجهم الى الصيد، من قول امرىء القيس في أول هذه الأبيات؛ فهم ظلوا يغدون الى الصيد، مثل هذا الوقت الذي قال إنه يغدو فيه.

ونراه في أبياته هذه، يجاوز وصف الحصان المادي؛ فلا يصف حافره وأنه كالقدح المكبوب، ولا يتحدث عن غرّته الضاحكة كما فعل ابن

---

(١) الجزع: الخرز اليماني. المعم: الكريم الأعمام. والمخول: الكريم الأخوال. والمعم المخول: هو الذي كرم أعمامه وأخواله

(٢) العداء والمعاداة: الموالات. الثور والنعجة: يقصد بها انثى بقر الوحش وذكرها. الدراك: المتابعة. وأراد في بيته، أن حصانه أدركها دون معاناة أو مشقة، وفي هذا دلالة على كرمه

(٣) الهاديات: أوائل الوحش التي تتقدم القطيع. والجواحر: المتخلفات التي تظل في آخر القطيع. الصرة: الصيحة. والتزيل: التفرق

(٤) الترجيل: تسريح الشعر. والشعر المرجل: المسرح بالمشط.

(٥) الصفيف: المصفوف على الحجارة لينضج. والقدير: اللحم المطبوخ في القدر.

المعتز ، ولكنه يتجاوز ذلك الى الحديث عن جريه ونشاطه ... فهو مسح حين تكون السابحات قد أخذها التعب ، وراحت تركل الأرض بأرجلها ركلاً يثير لشدته الغبار . وهو مرح خفيف « ينزل الغلام الخف عن صهواته » ويصف عدوه بأنه إرخاء السرحان ، أو تقريب التتفل . ويصف لنا فرحه بالصيد ساعة يراه: فنماجه عذارى دوار، قد لبسن الملاء المذيل ، وهن حين ينفصلن عن بعضهن كالخرز اليماني ، قد فصّل بينه في القلادة . ولا يرضي بذلك حتى يضع هذه القلادة ، بجيد معم في العشيرة مخول ؛ ليكون ذلك أدعى الى إظهار حسنها . ثم يصف جرى حصانه وراء الطريدة ، وأنه لا يكتفي بالطريدة الواحدة بل يتبع الثور والنعجة معاً . ويدركهما ولما يتعب ويبله العرق . ثم يصف حالة الصيد يطارده هذا الفرس فيبغته بغتة ، يدرك فيها أوائل الوحش وهادياته ، على حين تظل أخرياته تصر صرة الرعب .

وهكذا نرى أن امرأ القيس بأبياته هذه ، لم يدع شيئاً مما يستثير عاطفة الصائد وينطقه بالشعر إلا قاله. ولا عجب فقد أولع بالصيد وعشقه ويقولون إنه من الأسباب التي طرده أبوه من أجلها

وفرحة الصائد هذه التي أغفلها شعراء العراق ، ورأيناها في شعر امرىء القيس ، نراها عند زهير أيضاً يقول :

فبينا نُبغّي الصيدَ جاء غلامُنا يدبُّ ويخفي شخصَه وبضائله (١)

فقال : شياه راتعات بقفرة بمستأسد القريان حوٌ مسائله (٢)

ثلاث كأقواس السراء ومسحَلٌ قد اخضرّ من لسّ الغمير جحافله (٣)

وقد خرم الطرادعنه جحاشه فلم يبقَ الا نفسهُ وحلائله (٤)

فقال : أميري ماترى رأى مانرى أنختله عن نفسه أم نُصاوِلُه (٥)

---

(١) نبغي : نبتغي ونطلب . يدب : يمشي مشى النملة والطفل والضعيف . يضائله : يصغر شخصه لئلا يفزع الصيد .

(٢) الشياه هاهنا : الحمير . والمستأسد من النبت : الذي طال وتم . والقريان : مجاري الماء الى الرياض ، الواحد قرى . الحو : النبات بضرب الى السواد ، وانما يضرب النبات الى السواد لشدة خضرته . ومسائله : اي مسائل الماء .

(٣) ويروى « وناشط » . كأقواس السراء : منطويات ، لأن البقل يطوين أي لا يشربن الماء إكتفاءً به . والسراء : شجر تتخذ منه القسى . والمسحل : الحمار الوحشي . وسحيل الحمار : أشد نهيقه . اللس : الأخذ بمقدم الفم . الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر ، فيخرج تحته نبت أخضر ، فيكون غميراً لهذا الطويل اي مغموراً . الجحافل : جمع جحفلة ، وهي لذى الحافر كالشفة للانسان

(٤) خرموا : فرقوا . وانما يريد أخذوا جحاشه واحداً واحداً . وذلك أن الصيادين يطردونه فيدع جحاشه فيأخذونها . الحلائل : جمع حليلة . وهي زوج الرجل ، وقد استعارها هنا للأتن

(٥) أميره : الذي يؤامره أي يستشيره . ماترى رأى ما نرى في الصيد .. أي قد رأينا كذا وكذا فما ترى فيه ؟ نختله : نخادعه . نصاوله : نواثبه جهاراً ونصول به .

وبعد ، هذا شعر العراق في وصف الصيد رأيته

نظرة في شعر الصيد :

كثيراً في القرن الثاني عند أبي نواس ، وفي القرن الثالث عند ابن المعتز ، ولكنه جد قليل عند شعراء القرن الرابع . ولا اعلل ذلك بأنهم لم يصفوه . فقد وصفوا حتى « المدخنة » وقالوا حتى على « لسان المدخنة » شعراً ، ولكني رأيت الثعالبي يغفل العناية بهذا الشعر . ودواوين شعراء العراق مع أنها كانت موجودة في أيامهم ، وفيما وراء ذلك ، لم تصلنا . وجل ما وصلنا من شعرهم هو ما كتبه الثعالبي في يتيمته عنهم . ويبدو لي أن هذه الدواوين لو وصلت لكان لنا رأي آخر في شعر الصيد عندهم .

وأمر آخر جدير بالاهتمام ، هو أنهم جعلوا وصف الصيد رجزاً مع أن الجاهليين جعلوه قصيداً ، وعندي أن الرجز اكثر ملاءمة لوصف الصيد من القصيد ؛ ذلك اننا حين نتبع تاريخ الرجز ، نراه لا يقال إلا في المواطن يقلق الانسان فيها قلقاً مادياً ، او في المواطن يقلق الانسان فيها قلقاً مادياً يصحبه قلق نفسي . نراهم يقولونه في الاستقاء على البئر (١)

---

(١) قال ابن سلاّم في طبقات الشعراء ص ١١ « من قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن تميم :

قد رابني من دلوى اضطرابها والنأى في بهراء واغترابها
إلا نجيء ملأى يجيء قرابها

ومن المشهور قولهم :

يا أيها الماتح دلوى دونك إني رأيت الناس يحمدونك

ويحدون به ، وقد قاله المسلمون في حفر الخندق (١) وقالوه في المبارزة (٢) ، والمبارزة من الامور التي يقلق الانسان فيها قلقاً نفسياً مع قلقه المادي او الجسمي . والصيد شبيه بهذه المواطن ، فالانسان يضطرب فيه اضطرابا ماديا يصحبه شيء من الاضطراب النفسي ؛ ساعة يرى الطريدة ويجري في اثرها .

وبحر الرجز نراه أكثر تمثيلاً للحركة المادية ، منه للعاطفة المنسابة التي نجدها في الغالب في بحور الشعر الطويلة ، ونراها في الرثاء ، أو في الغزل العذرى الحزين .

ويبدو لي أن أبا نواس ، حين وصف الصيد بالرجز ، سار وراء طبيعته وعاطفته ، ولم يقلد غيره . على أن غيره من شعراء العراق ، قد قلدوه وساروا وراءه فكانت لنا هذه الاراجيز التي قصرت أن تلحق بشعر الصيد عند الجاهليين ـ على قلته ـ او عند ابي نواس .

---

(١) في السيرة أن المسلمين كانوا يرتجزون في حفر الخندق ، وأن الرسول الكريم قال : « لا هم إن العيش عيش الآخرة » وارتجزوا بقولهم :

« سماه من بعد جعيل عمرا »

(٢) من المشهور في الرجز رجز ابن رواحه في حرب مؤتة . ورجز المسلمين في حرب الجسر بفيل الفرس :

يا لك من ذي أربع ما أكبرك يا لك في يوم الوغى ما أنفرك

ومن مشهور الرجز .

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ننعي ابن عفان بأطراف الاسل

الموت أحلى عندنا من العسل

وصف السفن

البيئة النهرية والسفن :

السفينة في البيئة النهرية كالجمل في الصحراء ، والعرب لم يبعدوا كثيراً حين سموا الجمل « سفينة الصحراء » .

وأهل البيئة النهرية يتعلقون بسفنهم تعلق أهل الصحراء بجمالهم ، والسفينة عند أهل العراق أداة للسفر والتنقل ، وهي عدة من عدد الصيد المائي . كما هي عدة هامة من عدد الحرب أيضاً .

وقد كثر الشعر البدوي الذي وصفت به الجمال ، وكذلك كثر الشعر العراقي الذي وصفت به السفن ، والعجب ان شعراء العراق حين كانوا يصفون سفنهم كانوا يقلدون الشعر البدوي الذي وصفت به الجمال وينحون منحاه .

والعراق في هذه الفترة التي نتحدث عنها غيره الآن ، كان أكثر سكاناً ومدناً ، وأكثر زراعة وأنهاراً .

كان شبكة متصلة من الأنهار ، حتى قالوا عن جنوبه إنه يحتوي على مائة الف وعشرين الف نهر ، وربما كانت هذه الانهر نهيرات صغيرات ،

على أنها كانت صالحة لأن تجري فيها الزواريق (١) والطيارات (٢) والزبازب (٣) وصالحة لأن يصاد فيها السمك . ويبدو لنا أنهم استعملوا السفن في تلك الحقبة ، استعمال الناس الآن للسيارات الخاصة والعامة . وقد أحصى في أوائل القرن الرابع عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد وحدها فكانت ثلاثين ألفاً . وكانت دار الخلافة تنفق لأرزاق الملاحين التابعين لها ، وهم أصحاب الطيارات والسميريات (٤) والحراقات (٥) وما اليها خمسمائة دينار في كل شهر .

وكان لكل من ذوي اليسار طيّار ، وكان أصحاب الجاه يتنقلون غالباً في الماء . ويحدثون عن كثرة هذه السفن ، أن عضد الدولة حين أعاد

---

(١) الزوارق : جمع زورق ، والزورق ضرب من السفن اصغر من الخلج – بضمتين – وهي السفينة الكبيرة

(٢) الطيارات ، جمع طيار : وهو ضرب من السفن سريع السير ، خفيف . وكان للخليفة المتقي عام ٣٣٣ هـ طيار يسمى الغزال . انظر « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » الطبعة الأولى ٢ / ٣٣٣ . « وحكاية ابي القاسم البغدادي » طبعة متز صفحة : ١٠٧

(٣) الزبازب : جمع زبزب . وهو ضرب من السفن ايضاً

(٤) السميريات . أي مراكب اهل « سميرة » انظر « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ٢ / ٣٣٥ . وكتاب « الديارات » للشابشتي ورقة : ١٧ . وكتاب « تاريخ بغداد » طبعة سلمون ص : ٧٣ وهي تسمى السميريات المعبرانيات

(٥) الحراقات : جمع حراقة . نوع من السفن ، فيها مرامي نيران يرمى بها العدو

الخليفة في الماء سنة ٣٦٤ هـ، وكان الأتراك قد أخذوه معهم ، امتلأت دجلة بالسميريات والزبازب ، حتى لو أراد انسان ان يعبر دجلة على السميريات من واحدة الى اخرى لأمكنه ذلك لكثرتها .

وكان للوزير برذون ينتظره في الباب ، كما كان له طيار ينتظره في الشاطىء . وزاد في اهمية الواسطة النهرية التي يستقلها الوزير ان كانت دار الوزير حتى عام ٣٢٠ هـ هي الدار التي كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشاطيء الشرقي لنهر دجلة ، والتي كانت تسمى « دار المخرم » . والوزير اذا افرغ من عمله استقل طياره وسار ... يقول ابن مقلة « كنت بين يدي ابن الفرات في وزارته الاولى ونحن في دار الخلافة نقرر أرزاق الجيش ... فلما فرغ مما أراده خرج وركب طياره وبلغ نهر المعلّى ... فقال : انا لله! انا لله قفوا ، فوقف الملاحون ، فقال لي وقع الى أبي خراسان ، صاحب بيت المال بحمل سبعمائة الف دينار تضاف الى مال البيعة .

ثم استوزر ابن مقلة هذا ، وصار الطيار ينتظره كما كان ينتظر ابن الفرات ، وجاء الشاعر المغني جحظة (١) البرمكي ، وكانت بينهما صحبة وصداقة ، فاستأذن للدخول على صديقه الوزير فلم يؤذن له فبعث اليه بقوله:

قل للوزير أدام الله دولته اذكر منادمتي والخبز خشكار (٢)

---

(١) انظر ترجمة هذا الشاعر في صفحة ١٤٦ من هذا الكتاب

(٢) خشكار : كلة فارسية معربة . وما زال الناس في بعض جهات العراق يقولون للشيء « خشكاري » حين ينسبونه الى الرداءة وخبز الخشكار : الخبز المصنوع من الدقيق غير المنخول .

اذ ليس في الباب بردون لنوبتكم ولا حمار ولا في الشط طيّار

وكان الناس حين يشيعون مسافراً أو يستقبلون قادما كثيراً ما كانوا يشيعون أو يستقبلون في طياراتهم وزبازبهم ، ففي عام ٣١٢ عاد القائد مؤنس المظفر الى بغداد ، فركب الوزير طياره للسلام عليه ، ولتهنئته بمقدمه ، وقد استكبر ذلك مؤنس من الوزير ، حتى ان الوزير حين هم بالانصراف نزل مؤنس في طياره وقبل يده .

وخرج الشريف الرضي يهنئ بعض أصدقائه من الرؤساء بقدومه من سفر في الماء فقال :

رأينا بوجهك نور اليقين حتى خلعنا ظلام الريب

وما زلت تمسح خد الصباح وترجم قلب الظلام الأشب (١)

بمطرورة الصدر خفاقة تطير مجاذيفها كالعذب (٢)

تعانقك الريح في صدرها ويشتاقك الماء حتى يثب

تمر بشخصك مر الجياد وتسرى برحلك سير النجب (٣)

وقد بلغتك الذي رمته وحقّ المبلغ أن يُصطحب

---

(١) الأشب : المتزاحم المتراكم ، وهو من شدة التفاف الشجر حتى لا مجاز فيه ، ومنه قولهم : « غيضة أشبة »

(٢) المطرورة : المحددة ، من قولهم : سنان مطرور ، وطررت السكين : أحددته . وطرة كل شيء حرفه . ومجذاف السفينة : مشتق من قولهم : جذف الطائر ، اذا كان مقصوصاً فرأيته اذا طار كأنه يرد جناحيه الى خلفه . العذب : خرق الألوية ، ومنه قولهم : خفقت على رأسه العذب .

(٣) الرحل : ما يجعل على ظهر البعير كالسرج . والنجب بضمتين جمع النجيب : وهو الجيد من الابل .

ولم يفته أن يصف ما حول السفينة ؛ فعبر عن مقاومة الريح لراكبها بالمعاندة ، وعبر عما تثيره حولها من الموج وما يضطرب ويثب في صدرها منه بأنه إنما يثب شوقاً للمسافر القادم . ثم أجمل القول في سرعة سيرها بأنها تمر مر الجياد ، وماذا وراء مر الجياد من السرعة !؟ وأوجز وتناول من وصف السفينة ما يتصل بسيرها وسرعتها فقط ، فوصف صدرها بأنه مطرور ، وذلك أدعى الى سرعتها والى قوة شقها الماء ، وعبر عن سرعة مجاذيفها بالطيران فأوحى للسامع بأن هيئة السفينة على هيئة الطير وان مجاذيفها تقوم مقام جناحيه ، وقد أجاد في هذا .

وكان خلفاء بني العباس ، والوزراء ، والطبقة العالية من الناس : كالتجار والملاكين وغيرهم يتخذون السفن ، والطيارات ، والسميريات ، واسطة للهو والنزهة في دجلة ، ولا سيما في الليالي المقمرة من أشهر الصيف الحارة . وقد ملئت « ألف ليلة وليلة » بالحديث عن هذه النزه النهرية ، وأسبغت ما شاءت عليها من حياة حافلة بالشعر والخيال . وكانوا يتأنقون في هذه السفن ويتفننون في صنعها ، يقولون إن الأمين أمر بعمل خمس حرّاقات : إحداها على هيئة الأسد والباقيات على خلقة الفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق على عملها مالاً عظيماً . وابتنى سفينة عظيمة على خلقة الدلفين (١) ، وهذه كلها للنزهة والأبهة . وقد أشار الى حراقات الأمين ابو نواس في قوله :

(١) الدلفين : ـ بضم الدال وكسر الفاء ـ دابة بحرية .

ألا ترى ما أعطيَ الأمينُ أعطيَ بما لم تَرَهُ العيونُ
ولم تكنْ تبلغه الظنونُ الليثُ والعقابُ والدلفينُ

ووصف أبو نواس ركوب الأمين لحراقته، التي هي على هيئة الأسد ووصف جريها في الماء وتعجب الناس منها بقوله :

سخّر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب (١)
فاذا ما ركابه سرن براً سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرتَ الشدق كالح الأنياب (٢)
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صورة ليث يمر مر السحاب

ثم يشير الى الحراقة التي تشبه هيئة العقاب بقوله :

سبحوا إذ رأوك عليـــه كيف لو أبصروك فوق العقاب (٣)
ذات زور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب (٤)

وكانوا يخرجون في هذه السفن يتصيدون بها السمك وطيور الماء،

---

(١) صاحب المحراب : النبي داود . والمحراب : محراب المسجد وهو صدره، وقيل سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى .

(٢) الشدق : جانب الفم، وجمعه أشداق . والأهرت : الواسع الشدقين .

(٣) العقاب : طائر من الجوارح، قوي المخالب، أعقف المنقار .

(٤) الزور : بالفتح، أعلى الصدر . المنسر، بوزن المبقع لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها . العباب : من عباب البحر أي موجه .

حدّث ابراهيم بن الحسن بن سهل قال :

كنا مع الواثق بالقاطول (١) وهو يتصيد فصاد صيداً حسناً وهو في الزوّ ـ والزو كلمة فارسية معناها البحر ، ويظهر أن العراقيين أطلقوها على السفينة الكبيرة ، أو ما يركب به البحر ـ من الاوز وطير الماء وغير ذلك . ثم رجع وتغدى ودعا بالجلساء والمغنين وطرب ، وقال من ينشدنا ؟ فأنشده الحسين (٢) بن الضحاك :

سقى الله بالقاطول مسرح طرفكا ... وخصّ بسقياه منا كب قصركا

والقصيدة طويلة طرب لها الواثق وقال : « لله درك يا حسين ما أقرب لسانك من قلبك » (٣)

وخرج البحتري مع المعتز في الزو فقال :

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه ... إلهٌ لأن النيل من تحته يجري

ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها ... لقلّ لديه ما يكثر من مصر

ولو بصُرت عيناه بالزو لازدرى ... حقير الذي نالت يداه من الامر

---

(١) القاطول : اسم نهر مقطوع من دجلة ، وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر ، وعليه قصر المتوكل المسمى القصر الجعفري ، وإياه أراد البحتري بقوله في رثاء المتوكل :

محل على القاطول أخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

(٢) الحسين بن الضحاك : صديق أبي نواس ، وهو أشهر شعراء الخمر بعد أبي نواس ، انظر حديثه في : « تطور الخمريات في الشعر العربي » لجميل سعيد .

(٣) انظر الأغاني طبعة دار الكتب المصرية الجزء السابع صفحة ١٥٩

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجةٍ يروح ويغدو فوق أمواجه يجري
تُصاد الوحوش في حفاف طريقه وتُستنزل الطير العوالي على قسر
ولم أر كالمعتز إذ راح موفياً عليه بوجهٍ لاح في الرونق النضر

وكما كانت السفينة من عدد الصيد كانت من عدد الحرب . وكان من أسباب نجاح ثورة الزنج والقرامطة وعمران (١) بن شاهين في جنوب العراق ، ان هؤلاء كانوا أعلم بحرب الأنهار من جنود الدولة وقوادها . وكانت الحيل الحربية تدور في الغالب حول تدمير السفن . ففي سنة ٣٣١ سار يوسف بن وجيه صاحب عمان في مراكب كثيرة يريد البصرة ، وحارب البريدي حتى ملك الأبلّة ... وكان للبريدي ملاح أخذ زورقين وملأهما سعفاً ، وأرسلهما في منتصف الليل مع الجزر ، والنار فيهما (٢) وكانت مراكب ابن وجيه تشد بعضها الى بعض في الليل حتى تصير كالجسر ، فاحترقت قلوع ابن وجيه ومراكبه ومن فيها ، ونهب الناس منها مالا عظيما .

شعر السفن الوصفي :

هذه البيئة النهرية التي خلقت لنا من السفن وسائل للسفر ، والنزهة والصيد والحرب ، خلقت لنا شعراً وصفياً كثيراً يدور حول السفن وما يتعلق بها . على أن الشعر الجاهلي

---

(١) انظر حديثه في صفحة ٢٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ، في حوادث سنة ٣٣١ هـ

ـ وشعر الابل بصورة خاصة ـ قد صبغ هذا الشعر بصبغته ، وجعل الشعراء حين يصفون السفينة ، يضعون أوصاف الناقة أمامهم ويعددون ما تشبه به السفينة الناقة وما تختلف به عنها .

وصف مهيار :

وربما كان الشاعر مهيار الديلمي ، أكثر شعراء هذه الحقبة وصفاً للسفن ؛ لقد كثرت قصائده التي يمدح بها ويبعثها في الاعياد الى الرؤساء وعلية القوم ، وكان في قصائده هذه يركب السفينة الى الممدوح كما كان الشاعر الجاهلي أو الاسلامي يركب الناقة الى الممدوح ، ثم يصف هول الماء واضطرابه ، واشرافه هو على الهلاك ، كما كان يفعل شعراء المديح الجاهليون أو الاسلاميون في وصف المفاوز والمهالك التي اجتازتها بهم رواحلهم حتى وصلوا الى الممدوح . ويصف سير السفن في الماء ، كما يصف غيره سير الناقة في الصحراء أو المفازة . وأشعاره كلها في السفن تكاد لا تخرج عن هذا . يقول في قصيدة كتبها لابي الحسن محمد ابن الحسن الهماني :

نشدتك قرب لي معودة الطوى ... عليها سوى الماء العليق حرام (١)

اذا ظهر طرف لم يطق غير فارس ... ففرسانها المستبطنون زحام (٢)

---

(١) الطوى : الجوع . العليق : ما تعلفه الدابة من شعير ونحوه .

(٢) الطرف ، بالكسر : الكريم من الخيل . المستبطنون : جمع المستبطن وهو من استبطن الشيء : دخل في بطنه ، ومنه قولهم استبطن الوادي .

تسرب شق الأيم في الترب طرقه لها زبد من شدها ولغام (١)
كأن صفاء الماء ينفرج القذى بها عنه وجه عطّ عنه لثام (٢)
من الحبشيات اللواتي اذا انتمت اسر لها سام وأظهر حام
اذا رحلت بالشرع مرت كأنها جوافل من طرد الشمال نعام (٣)
فاما ركبناها فبلّ غليله فؤاد به نحو الكرام أوام (٤)
واما عدانا للمقادير عائق فما تمنع الاقدار كيف ترام
وإن تتقدمني فصلٌ وهديتي صلاة الى سمع العلا وسلام
فبلغ وقل لا طامعاً في رجوعه الام على فرط السماح تلام؟
وكم يطمع الأعداء فيك بهزهم وقد جلّ عن شم التراب شمام

ومهيار ينظر الى الناقة ساعة يصف السفينة، فيصفها بأن عليقها الماء وان العليق حرام عليها؛ ويصف ركابها بأنهم أكثر من ركاب الخيل. ويسمي زبد الماء تشبيهه بزبد الناقة ولغامها. وقد أكثر الشعراء الجاهليون والاسلاميون من الحديث عن زبد الناقة ولغامها حين يركبونها الى الممدوح. وهو لا يتجاوز صور البادية ولا يبعد عنها حين يصف الماء

---

(١) الأيم: الحية الذكر. الشد: السرعة في الجرى.

(٢) عطّ، العط: الشق من غير بينونة، يقولون: جذبت ثوبه فانعط.

(٣) رحلت: وضع عليها الرحال، وهو ما يوضع على البعير عند السفر. الشرع: الشراع.

(٤) الأوام: يقال في جوفه أوام وأوار، وهو حرارة العطش.

ينفرج عنه القذى ، إذ يشبهه بالوجه اميط عنه اللثام ، ويصف السفينة بأنها ترحل ولكن بالشرع لا بالرحال . ويصف جريها حين تسوقها ريح الشمال وتدفعها بحري النعام . وهو يذكرنا بقول المهلهل حين قتل كليب :

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

والذي يبعد به مهيار عن وصف الابل هو نظره الى شكل السفينة قد طليت بالقار من ظاهرها وبقيت بطنها بيضاء ، فوصفها بأنها حامية الظهر سامية البطن . ويتخلص من وصفه هذا للسفينة بأنه إنما ركبها ليبل غليل العطش الذي به للكرام الذين يمدحهم ويطلب رفدهم . وهو يسير هذه السيرة في قصائد اخرى غير هذه كثيرة (١) .

وقد يبتعد عن الناقة بعض الشيء ، كما في قصيدته التي يصف بها السفينة التي حملته الى محمد بن مكرم والى عمان وأعمال البحر :

ولتبلغني المجد سابحة بالظهر ليست من بني الظهر (٢)
ترتاح للضحضاح خائضة وتكد بالمتعمق الغمر (٣)
تجري الرياح على مشيئتها فتخال طائرة بما تجري

---

(١) انظر ديوان مهيار الديلمي طبعة دار الكتب المصرية ١ / ٤١٤ ـ ٤١٥

(٢) الظهر : طريق البر ، وناقة ظهيرة ، وجمل ظهري : قوي

(٣) الماء الضحضاح : القريب القعر ، غير العميق . الغمر : بوزن الجمر ضد الضحضاح ، وهو الكثير العميق .

بين وصف السفينة ووصف الناقة :

ونقارن بين ما وصف به شعراء العراق السفن ، وبين ما وصف به شعراء البادية الابل ، فترى البون بعيداً بينهما . لقد قلد شعراء العراق شعراء البادية في ناحية واحدة ، هي وصف الناقة يركبها الشاعر الى الممدوح . والشاعر البدوي في أغلب هذه القصائد لا يكون صادقاً وكذلك كان شعراء العراق حين وصفوا سفنهم وقالوا ما قالوا في ركوبها الى الممدوح .

على أن هناك ناحية هامة في وصف العرب للناقة ، وهي وصف ما لها من المنزلة في أنفسهم . لقد كانوا ينظرون الى ابلهم نظرتهم الى أنفس متاعهم بل نظرتهم الى أولادهم . والشاعر طرفه يحدثنا عن عبثه حين تأخذه نشوة الخمر فيتعرض لابل بعض شيوخ العشيرة ، يضربها بالسيف ثم يصف لنا أثر فعله هذا في نفس الشيخ ، حين يبصر ناقته وقد سقطت على الأرض ، فيعاتب طرفه عتاباً أقرب الى البكاء منه الى الكلام :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مخافتي ... نوادِيَها أمشي بعضب مجرَّد (١)

فمرت كَهاةٌ ذاتُ خيفٍ جُلالةٌ ... عقيلةُ شيخٍ كالوبيل يلندد (٢)

---

(١) البرك : الابل الكثيرة البارکة . والهجود جمع هاجد ، وهو النائم . بواديها : أوائلها . والسيف العضب المجرد : القاطع ، المسلول من غمده . يريد أنه أراد أن ينحر بعيراً منها فنفرت لتعودها ذلك منه .

(٢) الكهاة والجلالة : الناقة الضخمة السمينة . والخيف : جلد الضرع . والعقيلة : كريمة المال . الوبيل : العصا الغليظة الضخمة . واليلندد والألندد والألد : الشديد الخصومة .

يقول وقد ترَّ الوظيفُ وساقها ... ألستَ ترى أن قد أتيتَ بمؤيد (١)

وقال إلا ماذا ترون بشارب ... شديدٍ علينا بغيه مُتعمّد (٢)

هذه النظرة لا نراها عند شعراء العراق ، حين يصفون سفنهم . ويحدثنا الشعراء أن ملاحي دجلة كانوا يغنون للسفن ويحدونها حداء الأعراب للابل ، يقول مهيار :

يا راكباً تنقله سابحةٌ ... ورهاء لا من جنة ولا خرق (٣)

تحدى برجزٍ ليس من أشجانها ... ونغم لم يصبها ولم يشق (٤)

ويقول حين يقارن بين حداء الابل وبين ما يتغنى به الملاحون :

يحدو المطيّ الزاجرون لها ... وتساق بالتهليل والذكر

ويقول :

أسالك دجلةَ تجري به ... محايدة موجها مُزبدا

تحنُّ وما سمعت في الظلا ... م غيرَ غناء النواتيّ حُدا

وابن الرومي يطربه حداء الملاحين في النهر - ولا عجب فهو ذو

---

(١) ترّ : قطع ، يقال ، ضرب يده بالسيف فأترّها . ووظيف الدابة هو مقدم ساقها . المؤيد : الداهية العظيمة الشديدة .

(٢) بشارب : أي بشارب خمر . البغي : الظلم والطغيان .

(٣) ورهاء : حمقاء ، ومن أقوالهم : ريح ورهاء ، اذا كان في هبوبها خرق وعجرفة . الجنة : الجنون .

(٤) صباه : استمالة . وبه صبوة إليها : أي ميل ورغبة فيها .

نفس حساسة تعشق الصوت الجميل ، وتهش الى الغناء — فيقول للقاسم ابن عبيد الله :

ذا ولا تنس إذ نشر البستا نُ أصناف وشيه وتراءى

وتغنى القمريُّ فيه أخاه وأجابتْ مكاءةٌ مكاء

ويريد أن لا ينسه إذا شرع على دجلة في ليلة مقمرة :

وأجاب الملاح في بطنها الملا ح يحتث بالسفين الحداء

والذي نظنه أن غناء الملاحين لسفنهم لا يشبه غناء الاعراب لابلهم . ويخيل إلي أننا لو قدّر لنا أن نعثر على حداء الملاحين لوجدناه بعيداً عن حداء الابل . على أننا لا نعرف شاعراً ملاحاً عاش في هذه الحقبة وغنى لسفينته غناء الاعرابي لناقته . وأغلب الذي وصلنا من الشعر هو شعر المديح التقليدي .

ونظر الآن الى الغناء الشعبي ، يغنيه الملاحون ، فتراه قد ملىء بالعاطفة ؛ حب للسفينة وحدب عليها ، وحب للسفينة لانها بلغته ارض الحبيبة ، وحب للملاح لانه أوصله الى دار الحبيبة . وقد ينعكس الأمر ومع ذلك فالغناء يظل مملوءاً بالعاطفة فيكون هجاءً ومسبة للسفينة ، لانها أبعدت الشاعر عن حبيبته ، وشتما للملاح لانه قادها وتباعد بها عن ديار الاحبة

ومع اني أرى ان شعراء هذه الحقبة كانوا مقلدين في الكثير من شعرهم ، فالذي أراه ايضاً ان هناك غناء عاطفياً يتصل بالسفن غير انه لم يصلنا ، لضياع الكثير من شعر هذه الفترة التي نتحدث عنها .

الحياة الاجتماعية
وأثرها في شعر العراق عامة
وفي شعر الوصف خاصة

الحالة السياسية وأثرها :

كان العراق في هذه الحقبة التي نتحدث عنها مضطرباً أشد الاضطراب ؛ مضطرباً في سياسته وإدارته ، مضطرباً في عناصره وأجناسه ، مضطرباً بما فيه من ديانات ونحل . وقد أدى به هذا الى أن اضطربت حياته العامة ، فكثر فيه البؤس وتعدى حده ، كما كثر فيه الترف وتعدى حده أيضاً .

هذه الحياة الاجتماعية المضطربة أثرت في شعره عامة ، وفي شعره الوصفي بصورة خاصة .

كان الخلفاء في هذه الحقبة ضعافاً ، يسرفون في الترف لأنهم يعلمون أنهم سيسرف بهم في العذاب ، وكذلك كان شأن الوزراء ، بل وشأن العمال والكتبة أيضاً ، والشعب يتحمل هذا التصرف المشين فيفتقر ويتدهور .

إعتمد بنو العباس أول أمرهم على الفرس في بناء دولتهم ، وقدموهم

واذا شراعاها لها نشرا خفقت بقادمتين من نسر (١)

يحدو المطيّ الزاجرون لها وتساق بالتهليل والذكر

من لي بقلبٍ فوقها ذكرٍ مصغ لعذلي تابع أمري (٢)

قالوا الشجاعة انه غرر متقارب الميقات والقدر

يومان في لج فان فضلا بزيادةٍ فبليلة العبر (٣)

هيهات مني ساحل يبسٌ والبحر يُفضي بي إلى البحر

القصدُ والمقصودُ من شبه في الجود أوحد من الغزر

ما ان إلا ان ذا أجنٌ ملح وذاك زلالة القطر (٤)

وهو في أبياته هذه يصف سيرها في الضحضاح والضحل ، وفي العميق الغمر ، ويصفها بان الريح تعاونها حتى تخال طائرة لسرعتها لاجارية ، ويصف شراعاها بانهما قادمتي نسر . ثم يصف حالة الملاحين يهللون بالذكر من خوف البحر والريح . والجميل في وصفه انه يسبغ

---

(١) القادمة : مفرد « القوادم » وقوادم الطير : ريشه ، وهي عشر في كل جناح ، وهي « القدامى » أيضاً .

(٢) القلب الذكر : الشديد القوى . ومثله قولهم ، مطر ذكر : غزير ، وقول ذكر أي صلب متين ، وشعر ذكر ، كما يقال شعر فحل . ومنه رجل ذكر ، وسيف ذكر .

(٣) اللج : من لج البحر ، اي عظمت لجته وتموّج ، وهو بحر لجيّ

(٤) أجن الماء : تغير طعمه ولونه ، ومنه قولهم : « يفسد الرجل المجون ، كما يفسد الماء الأجون »

على السفينة حياة ويجعل لها إرادة فيسند اليها الفعل « ترتاح » ويجعلها « خائضة » ، وهي كلمة توحي للسامع بان « فتاة » لا سفينة هي التي تخوض ، وهو يزيد في هذا الايحاء في « تكد » ولا يتبادر للسامع منها ان الذي يكد غير ذي روح وحياة . ثم يقترب من الناقة أيضاً ، ولكنه يعود فيصف البحر مضطرباً حول السفينة ويصف ذعره هو من اضطرابه . وهو يتخلص من هذا كله الى المدح تخلصاً جميلاً في أن البحر الملح الذي يركبه سيفضي به الى بحر عذب ، ذلك هو الامير الممدوح .

وصف السري الرفاء :

والسري الرفاء كان يركب السفن الى الممدوح ، ركوب القدماء للناقة أيضاً ، على أنه أنفذ من مهيار في وصف حركة السفينة في سيرها واختيالها . وهو يمعن في وصف لونها الاسود ، ذلك لان السفن العراقية كانت تطلى ـ في الغالب ـ بالقار . وفي « الحيوان » للجاحظ ان (١) ـ الحجاج أول من أجرى في البحر السفن المقيرة والمسمرة ، غير المخرزة ، يقول السري :

ودعتنا إلى العراقِ هنات ... لأمورٍ تنقضُّ مثلَ العقابِ (٢)
كلُّ زنجيةٍ كأن سوادَ الليـ ... ـل أهدى لها سواد الاهاب
تسحب الذيل في المسير فتختـ ... ـالُ وطوراً تمر مرَّ السحاب

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ، الجزء الأول صفحة : ٨٢

(٢) فيه هنات ، وهنوات : خصال سود ، ومنه قول الشاعر لبيد :
أكرمت عرضي أن ينال بنجوةٍ ... إن البرى من الهنات سعيد

وتشق العباب كالحية السودا ء أبقت في الرمل اثر انسياب

واذا قُوِّمت رؤوس المطايا للسُرى قوِّمت من الاذناب

مهديات الى الأمير لبابا من ثناء يثني على الآداب

وهو وان لم يبعد عن صور وصف الجمال في الصحراء ، الا انه أمعن في وصف سواد هذه السفينة . وقد أجاد في هذا ، ذلك لان الامعان في وصف سوادها يوحي الى من يعرف السفن انها جيدة الطلاء بالقار ، أو انها قد طليت حديثاً به . وقد أجاد في وصف أثر الماء تتركه خلفها ، وعبر عنه تعبيراً جميلاً أكسب السفينة حياة ومرحاً حين قال : « تسحب الذيل » وعقب على ذلك بقوله : « تختال » . وتعبيره عن شقها للماء بسير الحية السوداء في الرمل غير حسن ، فالصورة مشابهة لما يريد في الهيئة الا انها تختلف كل الاختلاف عنها بالايحاء . إن منظر السفينة تشق الماء مسرعة الى حبيب ، يبعث الراحة والسرور في نفس المسافر ، وليس هكذا منظر الحية السوداء تشق الرمل وهي منسابة فيه . وما أكثر ما يتورط السري الرفاء في مثل هذا ؟ .

وابن الرومي مع انه وصف البحر وما يفعله في نفسه من المخاوف ، وقال إنه لم يتعلم من السباحة الا الغوص ، وانه أسرع الى قاع البحر من الصخرة ترمي فيه ، وانه يرى في البحر تضربه الامواج فيضطرب فرساناً يلبحون نحوه بالسيوف ، فانه يقول واصفاً السفينة التي ركبها الى الممدوح :

اليك ركبنا بطن جوفاء جونة ... تخايل في درع من القار فاحم (١)

تواهق أشباهاً لها ونظائراً ... مامعة بالودع سفع الملاطم (٢)

اذا هي قيست بالنسور تشابهت ... بمصطخب التيار جم الزمازم

اذا اعجلت لم يسترث طيرانها ... وان امهلت زفت زفيف النعائم (٣)

وان أيقنت ان سوف تقطع زاخراً ... الى زاخر بالعارفات النوائم

هو البحر لا ينفك في جنباته ... رغاء المطايا لانئيم العلاجم (٤)

ونلاحظ ان ابن الرومي في هذه القصيدة يصف وصفاً ظاهرياً وهو لا يبعد في أوصافه هذه كثيراً عن أوصاف الجاهليين للناقة ، فهو لا يحدثنا عن أثر الرحلة في نفسه ، ولا يدخل العنصر الذاتي في الموضوع الذي يتحدث عنه . وهذه ليست طريقة ابن الرومي فيما عرفناه له من الوصف فيما سبق . والذي يبدو لي ان الرجل لم يركب البحر الى هذا الممدوح ، وانما قال ما قال تقليداً .

---

(١) الجون : الأسود ، والجون الأبيض ، والكلمة من الاضداد ، وواضح انه يقصد الأسود ، لأنه قال ان السفينة قد طليت بالقار

(٢) تواهق : من قولهم : تواهقت الركاب أي مدت أعناقها في السير وتبارت فيه . الودع : خرز بيض تخرج من البحر ، وهي تتفاوت في الصغر والكبر . السفع : الحمرة في سواد .

(٣) الزفيف : سرعة الطيران مصحوبة بصوت ، ومنه زفيف الريح ، أي شدة هبوبها .

(٤) النئيم : الصوت الخافت الضعيف ، يقال سمعت نئيم القوس . العلاجم : جمع العلجم ، وهو الطويل من الابل والحمر .

وفضلوهم على العرب . ولما ولى الخلافة المعتصم ، وكانت أمه أمةً تركية ، شغب الفرس عليه وأرادوا أن يكون العباس بن المأمون خليفة بدله . وتجمهروا ونادوا العباس بالخلافة ، وألحوا في ذلك حتى خشى العباس على نفسه من عمه فخرج اليهم ، وصاح بهم : « ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه ... » وانطوى هذا الحادث ، ولكن أثره ظل في نفس المعتصم . لقد أدار رأيه في رأسه وصمم على التخلص من العباس ابن أخيه ، ومن العنصر الفارسي الذي ناصره ؛ أما العباس فقد اتهمه وسجنه ومنعه الماء في حبسه حتى مات عطشاً ، وأما الفرس فقد استقدم لهم الأتراك ؛ أخواله . كانت ام المأمون فارسية ، وقد ركن المأمون الى الفرس فنصروه وثبتوه ، وإذن فليركن المعتصم الى الترك ففيهم قوته ، وفيهم نصرته على هذا العنصر الفارسي . واستقدم المعتصم ثمانية عشر الفاً منهم من جهات التركستان وقوّى شأنه بهم ، وظل معهم في بغداد حتى أرهجوا المدينة وأقلقوها ، فشكاهم البغداديون اليه فبنى لهم « سامرا » ونقلهم اليها . وحاول ان يحافظ على دمهم فمنعهم من الزواج ، واستقدم لهم نساءً من جنسهم وزوّجهم فتناسلوا وكثروا ...

ومات المعتصم والأتراك قوة الدولة ؛ عليهم تعتمد وبهم تقاتل . على أنهم ما لبثوا أن أخذوا أعنة الحكم بأيديهم وصاروا قوة تخافها رعايا الدولة ، بل يخافها الخلفاء والوزراء أيضاً . خرج المتوكل متنزهاً إلى ناحية

القاطول فشرب وعربد على (ايتاخ)، فهم ايتاخ بقتله، فلما أصبح أخبر المتوكل بذلك فاعتذر الى ايتاخ وقال له: «أنت أبي وربيتني[1]» ومَن ايتاخ هذا؟ إنه طباخ تركي رفعه المعتصم ورفعه الواثق من بعده، وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فبيد ايتاخ يقتل وبيده يحبس. وقد حبس ابنَ الزيات وقتل أولادَ المأمون. ومن أجل ذلك لم يكن كبيراً عليه أن يهم بقتل المتوكل حين عربد المتوكل عليه.

ونظر المتوكل الى الترك فوجدهم قوة الدولة، ولكنها قوة تسير كما تشاء هي لا كما يريدها هو. وتنكّر لهم، وأراد أن يعتمد على العرب في إذلالهم فترك عاصمته خارجا الى دمشق بحجة أن هواءها يلائم صحته. وراح يكيد لهم من هناك، ولكنهم ما لبثوا أن أرغموه على العودة الى العراق وان قتلوه بمجلس أنسه؛ قتله باغر التركي حارسه بمؤامرة من القواد الاتراك.

وجيء بالمنتصر ابنه خليفة. جاء به الاتراك لعلمهم انه كان على غير صفاء مع أبيه، وألحوا عليه في خلع أخويه المعتز والمؤيد مخافة أن ينتقل الحكم اليهما، فينتقما من قتلة أبيهما المتوكل.

وسارت الدولة بعد مقتل المتوكل، والخليفة لعبة بيد الأتراك؛ يختارونه حتى اذا وجدوا فيه خصماً يخشى بأسه، أو طالبوه بالمال ولم يستطع أداءه قتلوه وجاؤا بآخر وهكذا.

---

(١) انظر تأريخ الطبري: الجزء الحادي عشر، صفحة ٣٣

لقد اختار بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش — وهم أتراك — أحمد بن المعتصم الذي لقب بالمستعين ، ولكنه ما لبث أن علم بمؤامرة تدبر لاغتياله فهرب من سامرا الى بغداد . وبايع الاتراك المعتز بالله فكانت الحرب بينهما . وأصبح المعتز خليفة ، وطالبه الجند الاتراك بالمال فتعذر عليه ، فجاؤا الى منزله بسلاحهم وبعثوا اليه فقال إنه أخذ الدواء أمس وإنه لا يقدر على الكلام من الضعف ، فدخل اليه جماعة منهم وجروا برجله وأخرجوه ، وقميصه ممزقة في مواضع وآثار الدم على منكبه ، فأقاموه في الشمس وظل يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي اقيم فيه ، وبعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، ثم خلع ودفع الى من يعذبه فمنع الطعام والشراب ثلاثة ايام حتى طلب حسوة من ماء البئر فلم يعطها . ثم أدخلوه سردابا مجصصاً بالجص السخين وأطبقوا عليه فأصبح ميتاً .

هذه هي حياة المعتز ، بل هذه هي حياة الخلفاء بيد الاتراك . ويطول بنا القول لو شئنا أن نذكر فعل الاتراك بكل خليفة . على أننا نقول إن الاتراك صاروا يتفننون في تعذيب الخلفاء وصاروا يسملون أعينهم وهي بدعة ابتدعوها ، وكان الخليفة القاهر أول من سملت عينه ، ولكنه لم يكن آخر من سملت عينه من خلفاء بني العباس .

وقد يحدث أن يتولى الخلافة خليفة ذو هيبة ، فيحاول أن يسترد مكانتها ولكنه يهزم أمام تيار الاتراك القوى . يقولون إن الخليفة المهتدى

ـ وكان شجاعاً جريئاً ـ سمع بمؤامرة يدبرها الاتراك لقتله ، فتقلد سيفه وأمر بادخال المتآمرين عليه ، وصاح بهم (١) : « بلغني ما أنتم عليه ولست كمن تقدمني : مثل المستعين والمعتز . والله ما خرجت اليكم إلا وأنا متحنط وهذا سيفي والله لاضربنّ به ما استمسك قائمه بيدي ، والله لئن سقطت مني شعرة ليذهبن أكثركم » .

ونرى موقفه هذا موقف الرجل الجريء ، على أنه ليس بموقف الرجل الحازم . لقد دارت الدائرة عليه وقتلوه . وقد يحدث أن يؤول الأمر الى خليفة ذى هيبة وشجاعة وحزم فيأخذ على يد الاتراك بعض الشيء ، كالذي حدث أيام المعتضد وابنه ولكن هذا لا يلبث أن يزول وان يعود الاتراك الى ديدنهم .

ومرت الأيام واستكان خلفاء بني العباس ، وقنعوا من الخلافة بالخطبة . وقد ينظر بعضهم في أخبار أسلافه قبل أن يستورد المعتصم هذا العنصر التركي البغيض ، ويرى ما كان لهم من سطوة وهيبة ومنعة ، وينظر إلى حاله وقد غُلب على أمره . إنه لا يحاول أن يثور كما فعل المهتدى ولكنه يُغرق أحزانه بكؤوس الشراب ، ويسرى عن نفسه بسماع الغناء . يقول أبو الحسن العروضي ـ مؤدب الخليفة الراضي (٢) ـ إنه دخل على الخليفة

---

(١) انظر تأريخ الطبري ، الجزء الحادي عشر ، صفحة ٩٤

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١١ .

الراضي في يوم المهرجان فرآه محزوناً وبيده دينار عليه صورة « بجكم » وقد كتب عليه :

انما العز فاعلم للأمير المعظم سيد الناس بجكم

فقال الراضي : « ما ترى صنع هذا الانسان وما تسمو اليه همته وما تحدثه به نفسه ؟ » ولكنه ما لبث أن أخذته اريحية وطرب حين أنشده العروضي :

صل الندمان يوم المهرجان بصاف من معتقة الدنان (١)

بكأس خسرواني عتيق فان العيد عيد خسرواني (٢)

---

(١) المهرجان : عيد فارسي ، يقع في السادس والعشرين من شهر تشرين الأول ، وهو ستة أيام ، ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر ، ويقال إنه عمل في عهد افريدون ملكهم . ويقولون ان اردشير وأنوشروان ، كانا يأمران بأخراج ما في خزائنهم — في المهرجان والنيروز — من انواع الملابس والفرش ، فتفرق كلها في الناس على مراتبهم . وفي هذين العيدين يقول عبيدالله بن عبدالله بن طاهر :

أخا الفرس إن الفرس تعلم أنه لأطيب من نيروزها مهرجانها

وانظر حاشية صفحة ١٦٥ من هذا الكتاب .

(٢) يريد بالكأس الخسرواني ، الكأس الذي رسمت صور كسرى ملك الفرس عليه ، والذي كثيراً ما أشار اليه ابو نواس في مثل قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدريها بالقسى الفوارس

ويقول ابن المعتز في صفة هذه الكأس :

بيج سلاف الخمر في عسجدية توهج في يمناه كالكوكب الفرد

محفرة فيها تصاوير فارس وكسرى غريق حوله حزق الجند

وجنبني الزيبيين طرا فشأن ذوى الزبيب خلاف شاني

فاشربها وازعمها حراما وارجو عفو رب ذى امتنان

ويشربها ويزعمها حلالا وتلك على الشقي خطيئتان

وقال : صدقت ، ترك الفرح في مثل هذا اليوم عجز . وأمر باحضار الجلساء وقعد في مجلس التاج على دجلة .

هذه حالة الخلفاء مع الاتراك ، وقد لخصها ابن المعتز في ارجوزته بقوله:

وكل يوم ملك مقتول أو خائفٌ مروّعٌ ذليل

أو خالع للعقد كيما يَغنى وذاك أدنى للردي وأدنى

وكل يوم شَغَبٌ وغصبٌ وأنفسٌ مقتولة وحرب

هذه حال الخلفاء مع الترك ، وهي مثلها أو أسوأ منها مع الفرس . لقد قلّد البويهيون الأتراك في فعلهم بالخلفاء ، ولم يقلدوا أسلافهم الفرس الأقدمين ؛ كالبرامكة وآل سهل في حالهم معهم . ففي سنة ٣٣٤ هـ ملك معز الدولة بغداد ومنحه المستكفي إمرة الامراء وأعطاه الطوق والسواد ، وآلة السلطنة ، وعقد له لواءً ولقبه معز الدولة (١) . ولكن معز الدولة هذا لم يلبث حتى هجم أتباعُه الديلم على دار الخلافة ونهبوها ، وساقوا الخليفة المستكفي ماشياً الى دار معز الدولة ، فخلع وسملت (٢) عينه ، وولوا

(١) انظر الفخري صفحة ٤٣٤

(٢) سمل العين : فقؤها بحديدة محماة وقلعها . وقد أخذوا هذه العادة البغيضة عن البيزنطيين .

المطيع خليفةً . ومات معز الدولة وجاء بختيار ، فصادر المطيع وشدّد عليه حتى باع قماشه . ثم جاء الطائع بن المطيع ، ودخل الديلم الى داره ـ وكان الشريف الرضي حاضراً هناك ـ فجذبوه وأزالوه عن سريره وهو يستغيث ولا من يلتفت اليه . ولئن وقف الفتح بن خاقان من قبل ، وقُتِل وهو يدافع عن الخليفة المتوكل ، وقال البحتري :

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
درى الفاتك العجلان كيف اساوره (١)

فان الطائع لم يدافع عنه مدافع ، وفرّ الشريف الرضي وهو يقول :

مرقت منها مروق النجم منكدراً وقد تلاقت مصاريعُ الردى دوني
وكنت اوّل طلاع ثنيتها ومن ورائي شر غير مأمون (٢)

هذه حال الخلفاء مع الترك ومع الفرس ؛ ان الواحد منهم لا يدري من أين يأتيه الموت . كان المعتز يقول : « إني لأخاف أن ينزل عليّ بغا من السماء او يخرج عليّ من الأرض (٣) » . ان حالهم هذه تشبه حالة الجند في حومة القتال ، يحيط بهم الموت وهم يتوقعونه في كل لحظة .

---

(١) ساوره : واثبه ، أو وثب عليه ، يقال : « ساورت الحية الراكب » . وساوره الشراب : أخذ برأسه .

(٢) أخذوا في ثنى الجبل والوادي أي في منعطفه ، ومن المجاز قولهم : هو طلاع الثنايا أي ركاب المشاق .

(٣) انظر المسعودي : الجزء الثاني صفحة ٣٦٦

وقد نشأ عندهم ما ينشأ عند الناس أيام الحرب والفوضى ، وصار الواحد منهم يعلم أن أيامه في هذه الدنيا قليلة قصيرة ، وهو من أجل ذلك يريد أن يستبق الى اللذات استباقاً ويأخذ لنفسه أكبر حظ منها بأيسر وقت وأقصره . لقد تفننوا في البذخ والترف والاقبال على الغناء والشراب إقبالاً لا عهد لنا به عند أسلافهم الاوائل ؛ ملكوا من الجوارى والغلمان ما شاءوا ، وبالغوا في اقتناء الجواهر والبلّور ، وبنوا القصور وأكثروا منها ، وتفننوا في إنشاء الحدائق ، وبالغوا في الترف والتأنق ، وكثرت الجواري التركيات والروميات في قصورهم ، وهن أغلى أنواع الجواري ، حتى أننا لا نعرف خليفة — في هذه الحقبة — إلا وامه رومية أو تركية . ويقولون إن الخليفة المعتصم أمر عند موته أن يعتق بعض مماليكه ، فكان عدد من أعتق ثمانية آلاف (١) . ويقول الصولى عن الراضي « ما رأيت البلّور عند ملكٍ أكثر منه عند الراضي ، ولا عمل منه ملكٌ ما عمل ، ولا بذل في أسبابه ما بذل ، حتى اجتمع له من آلته ما لم يجتمع لملك قط (٢) »

وقد أولع هذا الخليفة بهدم القصور بدار الخلافة وبناء غيرها ، أو تصييرها بساتين (٣) . وكان وزير المقتدر — علي بن عيسى — يطلق كل

---

(١) انظر ظهر الاسلام لاستاذنا الجليل أحمد أمين بك .

(٢) الأوراق للصولي ص : ٢٧

(٣) انظر تاريخ الخطيب البغدادي ج ١ ص ١٠٠ وما بعدها طبعة مصر ، وانظر ظهر الاسلام صفحة ١٠١ — ١٠٢

شهر في جملة نفقات المطبخ ـ لثمن المسك وحده ـ نحو ثلثمائة دينار . هذا والخليفة لا يأكل المسك في طعامه . وكان المقتدر هذا كثير الشراب ، كثير اللهو والبذخ ، وهو الذي حدثوا عنه أن ملك الروم بعث رسوله اليه ، فرأى عنده ما لم يره عند الرومان أهل الترف والبذخ . يقول الخطيب البغدادي في وصف قصر المقتدر بالله حين زاره هذا الرسول : إنه كان للمقتدر أحد عشر الف خادم خصي ، وكذا من صقلبي وروميّ وأسود ـ وهذا جنس واحد ممن تضمه الدار ، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم الوف كثيرة ، والحواشي من الفحول . وقد أمر المقتدر أن يُطاف بالرسول في الدار ... وفتحت الخزائن ، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العروس ، وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة في قلابات ، على درج غشيت بالديباج الأسود . ولما دخل الرسول الى دار الشجرة ... وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة الف درهم ، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجّب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده .

وكان بها ثمانية وثلاثون الف ستر مصور بالفيلة ، والخيل ، والجمال والسباع ... ثم أدخلوه دار الوحش . وهو يتحدّث عن هذه الدار وما فيها من فيلة وسباع و... ويقول ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث وهي دار بين بستانين في وسطها بركة رصاص قلعي (١) ، حولها نهر رصاص

(١) القلع : نوع من المعدن ينسب اليه الرصاص

قلعي ، أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعا في عشرين ذراعا ، فيها أربع طيارات (١) لطاف بمجالس مذهبة (٢) .

ونحن نكتفي بهذا للتدليل على حياة الترف عند الخلفاء . ولسنا نقول إنّ الترف في هذا العصر بدعة ، ابتدعها خلفاء هذه الحقبة ، فقد سار في الترف خلفاء بني امية وسار فيه الخلفاء السابقون من بني العباس ، ولكن الذي نلحظه ان هذا الترف صار يزداد في عهد كل خليفة عن سابقه ، وزاد فيه ما قلناه من اضطراب في حياة هؤلاء الخلفاء وخلو يدهم من جليل الاعمال .

وربما كان هذا الترف هو الذي يرغّب رجال بني العباس في الخلافة ويجعلهم يستهينون بالعذاب وقلع الأعين والموت في سبيلها . ورحم الله ابن المعتز حين جرى الى ذلك فأدركه حتفه ساعة أراد ان يروّي نفسه ويشبعها ، وغبر وهو يقول :

والمرء يعشق لذة الدنيـــا فيغتفر المصائب
فاذا تفوّق درهـا زبنته حين يلذشارب (٣)

---

(١) انظر صفحة ٢٣٣ من هذا الكتاب

(٢) انظر ظهر الاسلام صفحة ١٠٠ ـ ١٠٣

(٣) تفوق الفصيل امه : رضعها فواقاً فواقاً . ومن أقوالهم « ما اقام عنده الافواق ناقة او فيقة . وهي مابين الحلبتين . ويقولون : تفوق ماله : انفقه على مهل . زبنته ، والناقة تزبن ولدها عن ضرعها ، وتزبن حالبها ، فهي زبون . وأراد حاجة فزبنه عنها : دفعه

أثر حياة الخلفاء في الشعر الوصفي :

ونظر الشعراء الى حياة الخلفاء المترفة ـ والشعراء في الغالب من طبقة فقيرة أثقلتها الضرائب ، وأقلقتها الفتن وأعوزها القوت ـ فهافتوا على الخلفاء يمدحونهم .

ولكن بماذا يمدحونهم ؟ إن خلفاء هذه الحقبة بصورة عامة ، لم يكن لهم من جليل الاعمال ما كان لأسلافهم ؛ ليس لهم يوم كيوم عمورية مثلاً فيقول فيه الشعراء ما قال فيه أبو تمام :

فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
ابقيتَ جدَّ بني الاسلام في صُعُدٍ والمشركين ودار الشرك في صبب (١)

وليس للشعراء في مدح هؤلاء الخلفاء ، غير طريقين اثنين : يتحدثون في احدهما عن حياة الخليفة اللاهية ؛ فيصفون قصوره وحدائقه ، ويصفون احواضه ، وبركه ، ويصفون مجالس لهوه وغنائه وشربه ، ويصفون مائدته وطعامه وآنيته ، ويصفون سفنه وأيام طرده ، والى ما هنالك مما يتعلق بهذه الحياة المترفة . والخليفة يسمع هذا الشعر فيطرب ، ويهش له ، ويثيب قائله .

وطريق آخر يمدحون به الخلفاء ، وهو أن يعودوا فيذكروهم بصفات الكرم ويحببوها اليهم ، وقد كانوا قديماً يضربون المثل بحاتم

---

(١) الصعد : يقال ذهب السهم صعداً ، وهذا النبات ينمو صعداً أي يزداد طولاً . والصبب : تصبب نهر أو طريق في حدور

الطائي ، ولكن الشعراء مالوا عنه بعض الشيء منذ أن اعترض على أبي تمام حين قال في أحمد بن المعتصم :

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس (١)

فرد على المعترضين بقوله :

---

(١) اقدام عمرو : هو عمرو بن معدى كرب من زبيد من مذحج ، وهو فارس من فرسان اليمن بل هو فارس اليمن ، ويقدمونه على « زيد الخيل » في البأس . وقد أدرك الاسلام وجاهد في سبيله ، وأحسن البلاء في فتح العراق ، وتوفي في آخر خلافة عمر بن الخطاب . اقرأ أخباره في الأغاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة

حاتم الطائي : محله في الكرم اشهر من ان يحتاج الى تفسير

في المثل « أحلم من الأحنف » وهو الأحنف بن قيس من بني تميم ، كان برجله حنف أي ميل فسمي بذلك ، قالوا ومن حلمه انه أشرف عليه رجل ، وهو يعالج قدراً له يطبخها فقال الرجل :

وقدر كخف القرد لا مستعيرها يعار ولا من يأتها يتدسم

فقيل ذلك للأحنف فقال : يرحمه الله لو شاء لقال أحسن من هذا . انظر « مجمع الأمثال » للميداني

واياس : هو اياس بن معاوية المزني ، أحد رجال البصرة في القرن الأول الهجري ، كان ممتازاً بالزكانة ، وقوة العقل . وقد اورد الجاحظ ـ في كتاب البخلاء ـ طائفة من شواهد دقة عقله وبصره ، ومما قاله في صفته : « وجملة القول في إياس انه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمي القضاة ، كان فقيه البدن دقيق المسلك في الفطن ، وكان صادق الحس نقاباً ، وعجيب الفراسة ملهما ، وكان عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس (١)
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس (٢)

ومن أجل ذلك صاروا يقولون كما يقول ابن المعتز في المكتفي :

بالمكتفي كُفي الأنامُ همومَهم وغدا عليهم طالع مسعود
يدُ حاتم كبنانه لشمالِه ما حاتمٌ مع مثله معدود
في كل كف منه خمسة أبحرٍ يُسقي الحوائمَ ماؤها المورود

والذي أراه ان مجال القول في هذه الطريق ضيق لأن الجود، ومعه حاتم، قد تعاورته الشعراء من عهد الجاهلية حتى أصبح ذكره، إن لم يكن ممجوجاً فغير مستملح على الأقل. ولكن الطريق الأول - وهو طريق الوصف - هو الذي يجد فيه الشعراء ميدان القول فسيحاً واسعاً، وهو الذي يهش الخليفة به ويثيب من أجله. ومن أجل ذلك جروا في هذا الباب ما شاؤا وأكثروا فيه كثرة لا نعرفها في عهد من العهود الاسلامية السابقة. فالبحتري يمدح المتوكل بذكر قصوره ووصفها، وكذلك شأنه مع المعتز. وقد امتلأ ديوانه بهذا الشعر الوصفي مثال ذلك

---

(١) مثل شرود : مأخوذ من قولهم « بعير شارد وشرود : اي نافر، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لخواتٍ : « أما يشرد بك بعيرك؟ » فقال: « اما منذ قيده الاسلام فلا ».

(٢) المشكاة : ما يوضع فيه أو عليه المصباح، يشير الى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ». النبراس : المصباح

ما وصف به قصر الجعفري ؛ وقد تأنق في وصفه ما استطاع فأرض القصر حصاها لؤلؤ وترابها مسك يشاب بعنبر ، وحديقته خضراء ملتفة رغم انقطاع الغيث . والقصر مرتفع ارتفاع جبل رضوى ، وبناؤه ازرى ببناء القياصرة والاكاسرة . ويصف دجلة تجري من تحته . ويصف تلاعب الرياح باعطاف غصونه . والقصيدة طويلة تراها في وصف القصر ولكنه يتخذ هذا الوصف سلّماً للاشادة بالخليفة . وهو لا يفتأ يذكره بالعطايا الكثيرة التي تجعل الكبير صغيراً ، والكثير قليلاً ، وان نفسه تجود حين تبخل ايدي الملوك ، والى ما هنالك ...

وله مثل هذه القصيدة في قصري المتوكل : الصبيح والمليح ، وله غيرها كثير .

والبحتري يصف بركة المتوكل في قصيدته التي يستهلها باستهلاله البدوي :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها نعم ، ونسألها عن بعض أهليها
يادمنةً جاذبتها الريحُ بهجتها تبيتُ تنشرُها طوراً وتطويها

وهو يمعن في الخيال ؛ فالبركة قد بناها جن سليمان ، وأنهم أدقوا صنعها وإبداعها ، حتى لو أن بلقيس رأتها لظنتها الصرح .

ثم يصف المياه تنصب كالفضة فيها ، ويصف لعب الرياح بامواهها ، ويصف ما فيها من السمك العائم . ويصف البركة ليلاً وانعكاس السماء

والنجوم في مائها الصافي ، ثم يصف الحدائق حولها ..

وهو حين يصف البركة لا ينسى ان المديح هو غرضه من هذا الوصف ، وانه إنما قال ما قال ليستدر عطف الخليفة ، وقد رأيناه يقول : « أما رأت كالئ الاسلام يكلؤها » ، ولا ينسى أن يذكر الخليفة بالكرم والعطاء كلما واتته المناسبة ، كأن يقول :

كأنها حين لجت في تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها

والبحتري يصف حلبة (١) الخيل ، ويختمها بالاشادة في المتوكل الذي اعطى فضل السبق بها ، يقول :

يا حُسن مبدى الخيل في بُكُورها ... تلوحُ كالأنجُم في ديجورها (٢)

كأنما أبدع في تشهـــيرها ... مصوّرٌ حسّن من تصويرها

تحمل غِرباناً على ظهورهـــا ... في البيرق المنقوش من حريرها

إن حاذروا النبوة من نُفورها ... أهووا بأيديهم الى نُحورها

كأنها ـ والحبلُ في صُدورها ـ ... أجادلٌ تنهضُ في سيورها (٣)

مرت تُباري الريح في مرورها ... والشمسُ قد غاب ضياء نورها

---

(١) الحلبة : يقال تجاروا في الحلبة : وهي مجال الخيل للسباق ، ويقال للخيل التي تأتي من كل أوب : حلبة . ومن المجاز قولهم « فلان يركض في كل حلبة من حلبات المجد »

(٢) الديجور : الظلام . وليلة ديجور : مظلمة

(٣) الاجادل : جمع أجدل ، والأجدل هو الصقر

في الرَّهج الساطع من تنويرها حتى اذا أُصغتْ الى مُديرها (١)
وانقلبت تهبطُ في حدورها تصوُّبَ الطير الى وكورها
صار الرجال شُرُفاً لسورها أعطيَ فضل السبق من جُمهورها
من فضلَ الامةَ في امورها في فضلها وبذلها وخيرها
جعفرُ الذائدُ عن ثُغورها تبهى به وهو على سريرها
خلافةٌ وفّق في تدبيرها

ونحن نرى أن البحتري قد أجاد في وصف الحلبة . وجاء بحر قصيدته ملائماً للحركة السريعة التي تناسب الخيل في جريها ، ولكنه لم ينس — مع ذلك — أن يختم قصيدته بالمدح ، وأن يجعل هذا الوصف الطويل سبيلاً الى مديحه .

وابن المعتز يصف (٢) الثريا ، قصر الخليفة المعتضد ، بقوله :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولازلت فينا باقياً واسعَ العمر

ثم يمضي ، فيصف جنانه التي تعانقت غصونها ، ويصف الأطيار هواتفاً تنتقل عليها من وكر الى وكر ، ويصف جداول المياه تسيل فيها وترضع الرياحين والزهر ، ويصف ميدان الصيد تصاد فيه الوحش بين

---

(١) الرهج : يقال ثار الرهج . وأرهج الغبار : أثاره . ومنه أرهجت حوافر الخيل .

(٢) الثريا : كان هذا القصر في الجانب الشرقي من بغداد . انظر معجم ياقوت في مادة ثريا تجده يفيض في الحديث عنه .

هذه القصور ، وهو في كل هذا يذكر الخليفة تلميحاً وتنويهاً بالعطاء :

سيثني عليه من محاسن قصره مدائح ليست من كلام ولا شعر
يشير الى رأيٍ مصيبٍ وحكمةٍ وجودلدى الانفاق بالبيض والصفر

* * *

حياة الوزراء وأثرها في الشعر الوصفي :

وحياة الوزراء شبيهة كل الشبه بحياة الخلفاء . وربما كان هؤلاء أكثر ترفاً من الخلفاء ، ولكنهم كانوا أكثر تعرضاً للعقاب منهم أيضاً . ولئن كان الخليفة معرضاً لعقوبة الأمير أو الجيش ، فان الوزير معرض لمثل هذه العقوبة ، مضافاً إليها خوفه من عقاب الخليفة ونساء القصر ، وخوفه من الوزير الذي يليه في الوزارة . ذكر الطبري في أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ما حدث للوزير محمد بن عبدالملك الزيات في أيام المتوكل ، قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع : « لم يزل أياماً في حبسه مطلقاً ، ثم أمر بتقييده فقيّد ، وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئاً . وكان شديد الجزع في حبسه ، كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، فمكث أياماً ثم سوهر ومُنع من النوم ؛ يساهر وينخس بمسلّة ... ثم أتى بتنور من خشب فيه مسامير حديد ـ وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ، ثم ابتلى به فعذب به أياماً ... واختلف في الذي قتل به ، فقيل : بُطِحَ فضرب على بطنه خمسين مقرعة ، ثم قلب فضرب على

ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون[١] » . وذكر المبارك المغربي أنه قال : « ما أظنه أكل في طول حبسه إلا رغيفاً واحداً ، وكان يأكل العنبة والعنبتين » .

هذه نهاية ابن الزيات ، وهي نهاية قاسية على أن هناك ضروباً اخرى من التعذيب أشد منها وأقسى . لقد قبض ابن رائق ـ لما صار اليه تدبير المملكة ـ على ضياع ابن مقلة [٢] وعاقبه بأن قطع يده اليمنى . وقالوا عنه : « إنه كان لا يجد من يخدمه في آخر أيامه حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر ، فيجذب حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه . وقطع لسانه وبقي في الحبس حتى مات [٣] . وقبض عضد الدولة على أبي الفتح ابن العميد وزير أبيه وسمل عينه وجدع نصف أنفه [٤] . وبعد هذا الحادث بسنة ، طرح عضد الدولة ابن بقية تحت أرجل الفيلة بعد ان سمل عينه فقتلته.

هذه حالة الوزراء مع الخلفاء والامراء وقواد الجيوش وهم ـ فوق هذا ـ معرضون لسخط نساء القصر وغضبهن ، يقولون عن ام موسى

---

(١) انظر الطبري في أخبار سنة ٢٣٣

(٢) انظر أخبار هذا الوزير وترفه في صفحة ١٣٦ ـ ١٣٧ من هذا الكتاب ، وانظر الجزء الأول ص ١٦٦ من كتاب متز .

(٣) انظر الفصل الممتع الذي كتبه الاستاذ متز عن الوزارة والوزراء في كتابه : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » .

(٤) انظر متز : الجزء الأول ص ١٥٣ ، وانظر الكامل لابن الأثير : الجزء الثامن ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧

القهرمانة ـ وكان لها يد في تدبير دولة المقتدر ـ ان الخاقاني الوزير أطلق ابن الفرات وأخاه بعد حبسهما خوفاً منها . والقهرمانة هذه هي التي غضبت على عليّ بن عيسى فكانت سبباً في حبسه واعادة ابن الفرات الى الوزارة ثانية (١).

هذه حالة الوزراء . إن أيامهم في الحكم غير طويلة ، وإن عذابهم أليم حين يعزلون . إنهم لا يموتون مرةً واحدةً مخافة أن يفارقوا الدنيا ولهم ضيعة أو ملك لا يعرفه الخليفة أو الأمير فيصادره ، ولكنهم يعذبون ويموتون على دفعات . وقد لا نعجب حين نرى أن المطهر بن عبدالله ، وزير عضد الدولة البويهي ، قد انتحر فراراً من عقوبة عضد الدولة . لقد أرسل الى قتال عمران (٢) بن شاهين فالتاث عليه الأمر وخشي غضب عضد الدولة ، وما يجره عليه هذا الغضب من سوء المنقلب وسوء العذاب ، فأخذ سكيناً وقطع بها شرايين ذراعه جميعاً فسال دمه حتى مات .

ونقرأ أخبار الوزراء في هذين القرنين ويندر أن نجد وزيراً لم يُصادر ، إن لم تصادر أمواله ، وهو حيٌ صودرت وهو ميت لا محالة ، فهذا الوزير المهلبي وزير آل بويه أخلص لهم ، وخدمهم بلسانه وقلمه ، ومات وهو على ولائه وإخلاصه « فلما مات قبض معز الدولة على عياله وولده

---

(١) انظر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠٤ هـ .

(٢) انظر حاشية صفحة (٢٠٠) من هذا الكتاب عن خبر هذا الثائر .

ومن دخل اليه حتى الملاحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته وصادرهم جميعاً، وفعل بهم ما لا يفعل إلا بعدو مكاشف [١] ».

واذا علمت أن هذه حالة الوزراء، فاعلم أنهم قد رأوا نتيجتهم المحتومة هذه، فراحوا يركضون الى لذاتهم ركضاً وساروا يكسبون المال من أقرب طرقه؛ من الرشوة ومن المصادرة. يقولون عن الخصيبي إنه: « كان مشغولاً بالشراب واللعب، ولا يحسن غير المصادرات [٢] ». والخاقاني ولّي في يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة، وأخذ من كل واحد منهم رشوة. وفي اليتيمة [٣] في الحديث عن ابن الحجاج الشاعر « وقلده الوزير ناحيةً، فخرج اليها يوم الخميس وتبعه كتاب الصرف يوم الأحد فقال:

يا من اذا نظر الهلا ل الى محاسنه سجدْ
يوم الخميـــس بعثتني وصرفتني يوم الأحد؟
والناس قد غنّوا عليّ لما رجعت إلى البلد
« ما قام عمرو في الولا ية ساعة حتى قعد »

وقد كثرت الولاية والعزل وصارت موضوعاً تقول فيه الشعراء في هذه الحقبة، يقول ابن المعتز:

---

(١) مسكويه، ج ٦ ص ٢٥٨

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٧

(٣) انظر اليتيمة طبعة الصاوي، الجزء الثالث، صفحة ٧٢

كم تائهٍ بولايـــةٍ وبعزله يعدو البريد
سكرُ الولاية طيّبٌ وخُمارها صعبٌ شديد[1]

والوزير حين يأخذ الرشوة لا يجد فيها بأساً، لأنها أصبحت شيئاً لا يستحى من المجاهرة به في هذا العصر. والوزير نفسه لا يكون وزيراً، في كثير من الأحيان، إلا برشوة الأمير أو الخليفة. مات الصاحب ابن عباد فأرسل أحد الولاة يخطب الوزارة، ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم، فبذل الوزير الذي كان في الوزارة إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره في الوزارة، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة وسامح كلاً منهما بألفي ألف درهم من جملة ما بذل، وجمع بينهما في النظر[2]

والشريف الرضي يرى رجلاً يبذل مالاً كثيراً حتى يتقلّد الوزارة فيراه على صواب، ويقول له[3]:

اشتر العز بما يبيـــع فما العز بغـــال
بالقصار الصفر إن شئـــت وبالسمر الطوال
ليس بالمغبون حظاً مشترٍ عزاً بمـــال

هذه الحياة الفاسدة التي كثر فيها المال، وخيف من ورائها المصادرة والعذاب والموت، جعلت الوزراء يهرعون الى اللذات، ويتفننون في

---

(١) الخمار: ما يعقب السكر من صداع وألم ودوار في الرأس.

(٢) انظر كتاب الارشاد لياقوت، الجزء الأول صفحة ٧١، وما بعدها.

(٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبي، الجزء الثالث صفحة ١٣٣.

العبث ، ويلهون حتى عن تدبير امور الدولة . يقول مسكويه عن أبي العباس الخصيبي « وكان يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في وزارته كلها ، وكان ينتبه مخموراً ، لا فضل فيه للعمل فيترك فض الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتها ، والتوقيع عليها ، واخراجها الى الدواوين. وكانت تعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة ، فتعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأها وربما لم يقرأها ، فيقرأها أبو الفرج ؛ إسرائيل النصراني ويوقّع فيها بحسب ما يرى (١) » وعاش الوزراء عيشةً مترفة دونها عيشة الخلفاء . لقد أظهر حامد بن العباس من الابهة ما يظهره ذوو المجد الحديث ، لا المؤثل ، فكان له ألف وسبعمائة حاجب ، واربعمائة مملوك يحملون السلاح ؛ لكل واحد منهم مماليك ، وكان الملاحون في حراقته من الخصيان البيض وهم أغلى الخصيان ثمناً ... وربما نصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة (٢) . وكان الوزير ابن الفرات يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر الى خمسة دراهم . وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته ، عشرين الف درهم رسماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرقاً وعند مديحهم إياه ... وكانت الوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين ، وكان له في داره مطبخان : مطبخ الخاصة ولا يمكن أن يحصى ما كان

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ .

(٢) كتاب المنتظم لابن الجوزي صفحة ١٩

يدخله من الحيوان لكثرته ، ومطبخ العامة الذي يختص بما يقدم الى الحجاب المقيمين في الدار ... وكان يقدم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جدياً ، ومائتا قطعة دجاجاً سماناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجاً ، ومائتا قطعة فراخاً . وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلاً ونهاراً ، وقوم يعملون الحلوى عملاً متصلاً . ودار كبيرة للشراب فيها ماذيان يجعل فيها الماء المبرّد . وبرسم خزانة الشراب خدم نظاف ، عليهم الثياب الديبقية السرية ، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جلاّب ... وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخياطين (١) ...

ومما يذكر عن ترف ابن مقلة انه « كان له بستان كبير أنشأه بلا نخل وعمل له شبكة ابريسم ، وكانت تفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ الا في الشجر ، كالقمارى والدباسى والهزار والببغ والبلابل والطواويس . وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنعام ، والايل ، وحمر الوحش ، وكان يحاول أن يجرى التزاوج بين الحيوان ؛ وبشّر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بري فأزوجا وباضا وأفقسا فأعطى من بشره بذلك مائة دينار (٢) » .

* * *

هذه الحياة المترفة جذبت الشعراء الى قصور الوزراء ومجالسهم

---

(١) متز ـ ج ١ ص ١٥٧ ، كتاب الوزراء ص : ١٤٢ ، ٢٠١ ، ١٩٤ـ١٩٥

(٢) المصدر السابق ص ١٦٦ . المنتظم ص : ١٦٤ ـ ب

يطلبون منهم العطاء ويتوسلون ويتملقون ، ولنرى ذلك نسمع ما يقوله ابن المعتز ، وهو الأمير الذي له خطره ومكانته :

يا ثالث الوزراء كم من حلقة ... للكرب والأحزان قد فرّجتها
وخفية بالفكر قد ناجيتها ... وعواقب بالرأي قد أبصرتها

ويعطيه الوزير فيقول :

يارب عاف الوزير واصرف ... بي عنه مكروه كل صَرف
أصلحَ بيني وبين دهري ... وقام بيني وبين حتفي

والوزراء يعطون الشعراء ويجزلون لهم العطاء . وقد مر بنا ما كان ينفقه ابن الفرات للشعراء ، وابن الفرات ليس باكبر عشاق الأدب والشعر بين وزراء هذه الحقبة .

وربما كان سبباً لكثرة العطايا الى هؤلاء الشعراء أن الوزير اذا عزل أو مات صودرت ثروته ، ويندر ان نجد وزيراً معزولاً او ميتاً لم يصادر من الخليفة أو الأمير ؛ ولذلك انفق الوزراء واسرفوا في هذه الأموال لأنهم يعلمون أنها زائلة لا محالة . واقبل الشعراء على قصور الوزير وحدائقه ومجالسه وسفنه وموائد طعامه وشرابه ، يصفونها كما كان الأمر مع الخلفاء فكثر شعر الوصف واهتمت الشعراء به دون سواه من الفنون الشعرية الأخرى .

وناحية اخرى في الوزير ليست في الخليفة ، في الغالب ، هي ان الوزير

أو أكثر الوزراء ، في هذه الحقبة كانوا رجال أقلام كما كانوا رجال سيوف . نعم كان بينهم من كان مثل حامد بن العباس ، الذي كان يلتزم الغلال ثم وصل الى الوزارة بماله . وكان بينهم من كان مثل ابن بقيه الذي ترقى من خدمة المطبخ الى الوزارة ولكن كان فيهم محمد بن عبد الملك الزيات ، وابن الفرات وعلي بن عيسى ، والوزير المهلبي ، وابن عباد ، وابن العميد ، وهم من هم في دولة الادب والشعر. كان هؤلاء الوزراء أرباب اقلام . وقد وجد الشعراء في هذا بابا يقولون فيه ؛ فقال ابو تمام في ابن الزيات .

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكُلى والمفاصل (١)

والناس حين يتحدثون في الوصف لا يجدون خيراً من هذا البيت وما يتبعه ، يقولونها في وصف القلم .

وعلم الشعراء أهمية هذه الناحية الأدبية في الوزير فراحوا يمدحونه بها . واذا أرادوا هجاءه أو ذمه غمزوه بها أيضاً . يقول أبو حيان عن ابن عباد وهو يحاول شتمه والنيل منه « ويقول الشعر وليس بذاك » . وابن الحجاج يريد أن يهجو الوزير المهلبي فيقول :

قيل إن الوزير قد قال شعراً يجمع الجهل شمله ويعمّه
ثم أخفاه فهو كالهرّ يخرى في زوايا البيت ثم يطمّه

وشاعت الكتابة ، وما يتصل بها في شعر الشعراء ، وامتلأت دواوينهم

(١) الشباة : شباة كل شيء حد طرفه ، والجمع « الشبا » و « الشبوات »

بالتشبيه المنتزع منها . يقول ابن المعتز متغزلاً .

له مقلة ترمى القلوب ووجنة تفتح فيها الوردُ من كل جانب
وعـــذّر خداه بخطين قوّما كما أثر التسطير في خط كاتب (١)

وتهافت الشعراء على ما يتصل بالكتابة ، فوصفوا الأقلام ووصفوا الدواة ووصفوا الدفاتر ووصفوا الكتب ووصفوا الخطوط ، فتجمعت لنا من هذا الباب مادة كبيرة في شعر الوصف .

وكما وجد الشعراء في هذه الناحية الأدبية مادة للقول وجدوا في شجاعة الوزير وقيادته مادة للقول أيضاً . كان ابن خاقان يقول الشعر ، وكان رجلا شجاعا دافع عن المتوكل وقتل دونه . وقد مر بنا ان المطهر بن عبدالله وزير عضد الدولة انتحر حين قهره عمران بن شاهين ، الثائر في جنوب العراق . والوزير المهلبي حارب هذا الثائر ونجا سباحة حين اسر أكثر رجاله وقواده . وابن العميد وابن عباد — وكان اتصالهما بالعراق وشعرائه شديداً — كانا رجلى حرب وحصار وقيادة جيوش ، كما كانا من أرباب العلوم والأدب . يقول ابن نباته السعدي في الوزير المهلبي :

وتطرق أقفال الغيوب بصارمٍ من الرأي يخشى الغيب فيه ويُرهب
وتطعن في صدر الكتائب مُعلما كأنك في صدر الدواوين تكتب

---

(١) عذر ، من العذار وهو ما سال من اللجام على خد الفرس ، ويريد به هنا جانب اللحية ، أي الشعر الذي يحاذي الاذن

وقال البحتري قصيدته في مبارزة الفتح بن خاقان للاسد ، وهي طويلة أجاد وصف الأسد بها . وقصيدة البحتري هذه قد فتحت بابا لامثالها في الحديث عن الأسد . فالمتنبي قال قصيدته المشهورة في بدر ابن عمار :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا !؟

والقصيدة طويلة يصف فيها الأسد وصراعه . وقال ابن الحجاج في بعض الوزراء يمدحه بان يصفه في كثرة مقابلته الأسود وكثرة غشيانه لاجامها

* * *

وشجع الأدب بين الشعراء أن كان في الوزراء من يحب الشعر والأدب ويحتمل كل ثقيل بسببه . كان الوزير المهلبي يجالس ابا الفرج صاحب الاغاني . وأنت تشمئز من وساخته حين تقرأ ما كتبه عنه ياقوت ، وكذلك كان يجالس أبا رياش . وكان أبو رياش هذا « وسخ اللبسة ، قليل التنظف شرهاً على الطعام ، رجيم شيطان المعدة ؛ حوتى الالتقام ثعباني الالتهام [1] » ، دعاه يوما الوزير المهلبي الى طعامه ، فبينما هو يأكل معه اذ امتخط في منديل الغمر وبزق فيه ، وأخذ زيتونة من قطعة فغمزها بعنف حتى طفرت نواتها فاصابت وجه الوزير . ونعلم مقدار وقع هذا في نفس المهلبي ، اذا علمنا انه كان لا يأكل باللقمة الواحدة أكثر من

(١) انظر يتيمة الدهر : في الحديث عن أبي رياش ٢ / ٣٢٤ ـ ٣٢٥

لقمة واحدة ، وان خادما يقف عن يمينه حين يأكل فيناوله الملعقة ويقف آخر عن يساره يستلمها منه بعد أن يأكل بها لقمة واحدة . ولكنه ـ مع هذا ـ كان يحتمل أبا رياش ، ولم ؟ لان أبا رياش « كان باقعةً في حفظ العرب وانسابها ، غاية بل آية في حفظ اشعارها مع فصاحة وبيان ... » . وقد لج ابن لنكك البصري في هجاء ابي رياش هذا وتناول ناحية شرهه على الطعام بصورة خاصة .

وكما كان الوزير يحتمل ما يحتمل لمثل ابي الفرج وابي رياش كان يطرح الحشمة مع أهل الادب ويبسط معهم ، فكان يحضر مجلسه « ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي ـ والقاضي التنوخي شاعر البصرة له ديوان كبير في الشعر ، وابن معروف قاضي القضاة له شعر ينحو به منحى شعراء الحجاز يسيل رقة وعذوبة ، وكان يغني به مغنيات بغداد وغلمانها ـ وكان يضع في يد كل واحد منهم كأساً من ذهب مملوءاً بالشراب القطربلي أو العكبري ، فاذا أخذ منهم الشراب نقع كل منهم لحيته في كأسه ، وصار يرش بعضهم على بعض ، وهم ينشدون الأشعار ويرقصون ... هذه المجالس التي تطرح فيها الحشمة خلقت لنا شعراً وصفياً كثيراً يصف به الشعراء الخمر والكؤوس والسقاة . وهذه المجالس لا تخلو من الغناء فيصف الشعراء المغنين والمغنيات ، وآلات الطرب ، وما الى ذلك مما يتصل بالحياة العابثة .

وكان المهلبي كثيراً ما يعمل في مجالس الخمر على البديهة شعر، ويطلب من مغنيه أو مغنيته أن تغني به. وفي كتاب الروزنامجه « حضرت الاستاذ ابا محمد ايده الله تعالى في منظرة له على دجلة تتفتح منها أبواب الى بساتين، فعمل بيتين صنعا في الوقت وغنّى بهما (١) ». وطبيعي أن يكون الشعر الذي يعمل في مثل هذه المناسبات متصفاً بوصف المجلس والطبيعة الزاهرة التي تحيط به.

وقد يحضر المجلس أصحاب الوزير، وليس كل الحاضرين بقادر ان يقول على البديهة، فيطلب الوزير منهم بعد تفرقهم وصف المجلس شعراً. يقول الصاحب في كتاب الروزنامجه « ... وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الاستاذ أبي محمد أيده الله تعالى بها، فاستدعى دنا للوقت وخمراً من الدير وريحانا من الحانة، واقترح غناء من الماخور. وأخذنا في فن من الانخلاع عجيب بطريق من الاسترسال رحيب. ورسم ان يقول من حضر شيئاً في اليوم. وفي اليتيمة قصيدة الصاحب في هذا اليوم، منها:

تركت لسافي الريح بانة عرعرا وزرت لصافي الراح حانة عكبرا (٢)

---

(١) أخبار المهلبي في اليتيمة: ٢/٢٠٥ وما بعدها

(٢) عرعرا: اسم لأماكن عدة في بلاد العرب، يقول ياقوت في معجمه: « . . واما نصر فقال عرعر: واد بنعمان قرب عرفة، وأيضاً في عدة مواضع نجدية وغيرها ... »

عكبرا: بضم اوله وسكون ثانيه وفتح الباء الموحدة وقد يمد ويقصر، وهي بليدة من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وهي من مدن الخمر =

وقلت لعلجٍ يعبد الخمر زفها مشعشعة قد شاهدت عصر قيصرا (١)

فناولنيها لو تفرق نورها على الدهر نال الليل منها تحيرا

وأوسعني آساً ووروداً ونرجسا وأحضرني نايا وطبلا ومزهرا

هنالك أعطيتُ البطالةَ حقها والفيتُ هتكَ الستر مجداً ومفخرا

وكما كان الوزراء يحبون الشعر كانوا هم نقدة للشعر يوجهونه. يقول ابن الرومي في عبيدالله بن عبدالله بن طاهر

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء — عامتهم — شعراء

إن أجدنا في مدحهم حسدونا فخرمنا منهم ثوابَ الثناء

أو أسأنا في مدحهم أنّبونا وهجوا شعرنا أشدَّ الهجاء

قد أقاموا نفوسهم لذوي المدْ حِ مقام الأنداد والنُظراء

ويقول البحتري — وقد نقد عبيدالله بن عبدالله قصيدته في مدح ابي العباس بن بسطام وعابها — من قصيدة طويلة له :

كلفتمونا حدودَ منطقكم والشعرُ يغني عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهجُ بالمنـ ـطق ما نوعه وما سببه

= التي تدور في الشعر ، يقول البحتري :

ولما نزلنا عكبراء ولم يكن نبيذ ولا كانت حلالا لنا الخمر

دعونا لها بشراً وربّ عظيمة دعونا لها بشراً فأصرخنا بشر

(١) العلج : الرجل الضخم القوي من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً . مشعشعة : ممزوجة ، يقال شعشع الشراب اي مزجه بالماء

والشعر لمحٌ تكفي إشارته ... وليس بالهذر طُوّلتْ خُطبه

ثم يشتد البحتري فيقول :

أجلى لصوص البلاد يطلُبُهم ... وباتَ لصٌّ القريض ينتهبه

والسري الرفاء يقول للوزير المهلبي حين يريد أن يتودد اليه ويتقرب :

هـــل للوزير أدام الله دولته ... في صاحبٍ يتحرّى نصح من صحبا

وعارفٍ بفنونِ الشعر ينقدها ... نقدَ الصيارفةِ الأوراق والذهبا

والسلامي الشاعر العراقي يقصد الصاحب بن عباد، ثم يبعثه هذا الى عضد الدولة بعد أن يزوده بكتاب يقول فيه : « قد علم مولاي أطال الله بقاه أن باعة الشعر أكثر من عدد الشعر ... وممن حمدته بالامتحان فأحمدته، وقررته بالاختبار فاخترته، أبو الحسن محمد بن عبدالله المخزومي السلامي ... » ثم يمضي في حديثه عما وجد عنده من شاعرية حين اختبره .

واذا علمنا أن هؤلاء الوزراء هم الذين كانوا يمتحنون الشعراء ويوجهونهم ؛ فلنعلم أن فن الوصف كان عندهم أجمل فنون الشعر، فقد تفننوا في الأوصاف كما تفنن أهل الفقه والفرائض في اختراع المسائل الفقهية وطرحها وطلب حلها . وقد تعجب حين ترى أن الصاحب بن عباد يكتب فصلاً لا لغرض إلا لأن يصف قنفذاً . وعلام كل هذا ؟

إنه يريد إظهار براعته في الوصف . ويقول متز عن المهلبي : « وكان

الوزير المهلبي شاعراً ، وكان يحب شعر الصنوبري في الخمر ووصف الطبيعة وقد نشره ببغداد (١) » .

* * *

حياة الأمراء وأثرها في الشعر الوصفي :

أما الامراء فقد كانوا يسيطرون على الخلفاء والوزراء ، وهم متسلطون على أموال الدولة ؛ يعوزهم المال فيصادرون التاجر ، ويعوزهم المال فيصادرون الوزير ، وكثيراً ما صادروا الخليفة نفسه . وقد مر بنا ذلك . ولكن هؤلاء الامراء — وإن تسلطوا على غيرهم — لم يكونوا ليحيوا الحياة الهادئة المطمئنة . تسلط الاتراك فكانوا في نزاع مع بعضهم ، ثم جاء بنو بويه فكانوا في نزاع مع الاتراك وفي نزاع فيما بينهم أيضاً . ونظر بنو حمدان الى أمر الخليفة ببغداد يسيطر عليه الترك مرةً ، ويسيطر عليه الفرس اخرى فلم يرقهم الامر وأرادوا أن يتسلطوا هم وأن يكونوا هم الامراء . وكثرت وقائعهم مع الترك . من أمثلة ذلك أن الخليفة المتقي بالله احتمى مرةً بناصر الدولة الحمداني وخلع عليه وعلى أخيه سيف الدولة وقلده امرة الامراء . ودخل ناصر الدولة بغداد ، واحتفلت المدينة به احتفالاً عظيماً ، ثم ثار توزون عليه ، وحاربه وغلبه فقلد الخليفة امرة الامراء لتوزون .

واستولى معز الدولة على بغداد فجهز ناصر الدولة جيشاً يساعده

---

(١) متز ، ج ١ ص ٤٣٩

الترك وقاتلوا معز الدولة . وأما حروب الحمدانيين مع عضد الدولة فكثيرة .

هذه الحياة المضطربة جعلت الامراء يقبلون على الترف واللهو . ومن أمثلة ذلك أن بختيار الملقب بعز الدولة « كان يحب أن يقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد ، وتحريش الكلاب ، والديكة ، والفتاخ ... (١) »

ومع هذه الحياة كان من ملذاته دفاتر عزيزة يضن بها ، وجوار صوانع لا يسمح بهن .

واذا كان الامراء من الأتراك والفرس بعيدين عن العربية وآدابها في أول أمرهم ، حتى أن بجكم كان لا يحسن العربية ، وأن معز الدولة احتاج الى من يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى حين جاء الى بغداد ؛ فان البويهيين سرعان ما تعلموا العربية ، وأقبلوا على آدابها إقبالاً منقطع النظير . والثعالبي يكتب في يتيمته فصلاً عن « الملوك الشعراء من آل بويه » ويعدد فيهم بختيار هذا ، وعضد الدولة ، وابنه ، ويقول عن عضد الدولة « وكان على ما مكّن له في الأرض ، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض وخص به من رفعة الشأن ، وأوتي من سعة السلطان ، يتفرغ للأدب ويتشاغل في الكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الامراء ، ويقول شعراً كثيراً » .

---

(١) مسكويه ، ج ٦ ص ٣٨٦

ويقول الصاحب في تقدير شعر عضد الدولة « لو استحق شعر لعذوبة مناهله ، وجلالة قائله أن يعبد لكانت قصيدته هي[1] »

ويقول أيضاً : « وأما قصيدة مولانا فقد جاءت ومعها عزة الملك ، وعليها رواء الصدق ، وفيها سيماء العلم ، وعندها لسان المجد ، ولها صيال الحق »

والذي يذكره صاحب اليتيمة لعضد الدولة من شعر لا يدل على ما ذهب إليه الصاحب بن عباد ، ولكنه - على ما يبدو لي - أراد أن يرضي الأمير فتملقه من هذه الناحية . واذا نظرنا الى هذا الشعر الذي يعجب به عضد الدولة ، والى هذا الشعر الذي يقوله رأيناه كله - أو جله - في الوصف ؛ يقول في الثلج ويقول في الخيري . ويسأل في مجالسه عن شعر الوصف . ويحب أن يسمع وصف كل ما يحيط به حتى مائدته وطعامه . حدث أبو بكر الخوارزمي قال : « كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء والظرفاء ، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما وغيرها ، إلا وأنشد فيه لنفسه أو لغيره شعراً حسناً ، فبينا هو ذات يوم على المائدة ينشد كعادته إذ قدمت (بهطّة) فنظر عضد الدولة كالآمر إياه بأن يصفها فارتج عليه ، وغلبه سكوت معه خجل ، فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطّة تعجز عن وصفها يا مدّعي الأوصاف بالزور

---

(١) انظر اليتيمة ، في أخبار عضد الدولة ، الجزء الثاني صفحة ١٩٥

كأنها في الجام مجلوة لآلئ في ماء كافـــور

ترى من هذا أن الأمير يحضر مجلسه أدباء ينشدون في وصف كل شيء ، ويطلب الأمير منهم أن يقولوا على البديهة في وصف كل شيء يقدم في مجلسه أيضاً.

هذه حال الأمير في مجلسه وهو مقيم حتى اذا سافر طلب من شعرائه وصف ما ألموا به مما يستحق الوصف . سافر الى العراق ومعه السلامي الشاعر فنزلوا بشعب بوان ـ وهو الشعب الذي قال فيه أبو الطيب المتنبي نونيته المشهورة ـ فقال الأمير لشاعره : « قل في الشعب فقد سمعت ما قال المتنبي » فعاد السلامي الى خيمته وكتب قصيدته في الشعب.

ومن أغرب ما نسمعه عن تعلق هذا الأمير بشعر الوصف أنه سمع بقصيدة محمد بن عمر الانباري في رثاء ابن بقيه ، وهو الوزير الذي طرحه تحت أرجل الفيلة وقتلته ، سمع القصيدة المشهورة :

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

والقصيدة طويلة جمع فيها صاحبها بين المدح والرثاء ، واتخذ من صورة ابن بقية وهو مصلوب ، طريقاً الى حسن التعليل ، كما يقول أهل البلاغة . سمع عضد الدولة هذه القصيدة فطلب قائلها ، فالتجأ الشاعر الى ابن عباد ، وبعثه ابن عباد اليه فلما مثل بين يديه قال : « ما الذي حملك على رثاء عدوي ؟ » فقال : « حقوق سلفت وأياد مضت » فقال ـ والشموع

تزهر بين يديه — « هل يحضرك شيء في الشموع ؟ » فأنشأ يقول :

كأن الشموع وقد أظهرت ... من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين ... تضرع تطلب منك الأمانا

فلما سمعها خلع عليه وأعطاه فرساً وردّه (١) .

ونرى أن الذي يتبادر الى الذهن هو أن يطلب الأمير من هذا الشاعر أن يقول قصيدة في هجاء ابن بقية ، أو يقول قصيدة في مدح الأمير نفسه ، أو في طلب العفو عنه ، والى أمثال ذلك مما يقتضيه الحال ولكننا نرى الأمير يعدل عن هذا كله الى طلب أبيات في وصف الشمع

ولم يكن امراء العراق وحدهم قد تعلقوا في فن الوصف في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ، بل يبدو أن المملكة الاسلامية حين انقسمت الى دويلات حكم كلاً منها أمير ، أصبح هؤلاء الامراء يتنافسون فيما بينهم ، ويود كل واحد منهم أن يوصف مجلسه ، وأن يسمع بهذا الوصف غيره . ومن أجل هذا أولعوا بشعر الوصف فكثر الشعراء الوصافون ، وربما كان الشاعر الصنوبري أشعر شعراء الوصف في العالم الاسلامي . كان يحضر هذا الشاعر مجلس سيف الدولة ، وكان سيف الدولة مولعاً بشعر الوصف ، كما كان يحب أن يسمع الشعراء يصفون مجالسه . يقولون عنه أنه « جلس (٢) لرسول ملك الروم ، ولم يصل إليه المتنبي لزحام الناس ،

---

(١) شذرات الذهب ، لابن العماد : الجزء الثاني صفحة ٦٤

(٢) ديوان المتنبي .

فعاتبه سيف الدولة ، على تأخره ، فقال المتنبي ارتجالاً :

ظلم لذا اليوم وصفٌ قبل رؤيته ... لا يصدق الوصف حتى يصدق النظر

تزاحم الجيشُ حتى لم يجد سبباً ... إلى بساطك لي سمع ولا بصرُ

فكنت أشهد مختصٍ وأغيبه ... معايناً وعياني كلّه خبرُ

ونرى أن أبا الطيب المتنبي قد فهم أن سيف الدولة إنما عتب عليه لانه لم يحضر المجلس فيصفه ، وان أبا الطيب قد فهم أن هذا الامير يريد منه وصف المجلس ، وإن لم يكن المتنبي قد رآه ، ومن أجل ذلك اعتذر له بأنه يفسد وصف المجلس إن هو وصفه من غير رؤيته ، وأنه يسيء الى شعر الوصف إن هو وصف من غير أن يرى .

ومن لطيف ما نسمعه في هذه الحقبة أيضاً ، أن الصاحب بن عبّاد ينتصر في واقعة « جرجان » ويحصل على فيل ، فيأمر من معه من الشعراء — ويظهر أنهم كثير — أن يصفوه ، بقصائد على وزن قصيدة عمرو بن معدي كرب وقافيتها :

أعددت للحدثان سابغةً ... وعدّاءً علندى

ويقول الشعراء في هذا الفيل ، فيجمع الثعالبي في يتيمته من هذا الشعر فصلا يسميه « الفيليات » .

* * *

نرى من هذا كله ان الامراء وذوى النفوذ في هذه الحقبة قد اهتموا بالشعر ، وصرفوا اهتمامهم الى شعر الوصف خاصة ؛ لانه الفن الذي

يعلن عما في مجالسهم من أسباب الترف والبذخ ، وفي هذا دليل القوة والسطوة عندهم .

ولا نعجب بعد هذا إن رأينا الناس يؤلفون الكتب في الوصف وقد رأوا اعجاب الخلفاء والوزراء والامراء فيه . وقد ألف أبو هلال العسكري كتابه « ديوان المعاني » وجمع فيه كل ضرب من ضروب الوصف . وقال في سبب تأليفه «جمعت في هذا الكتاب أبلغ ماجاء في كل فن ، وأبدع ماروى في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها الى غوادي وشذاذها ... وهذا نوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه في المجالس الحافلة ، والمشاهد الجامعة اذا اريد الوقوف على مبلغ علمه ومقدار حفظه. كان بعض من ينتحل الأدب يريد الدخول في جملة ابي الفضل محمد بن الحسن بن العميد لمنادمته ، وشفع له في ذلك جماعة من بطانته ، فاحضره يوماً وفاوضه ليقف على مقداره في المعرفة فقال له فيما قال : ما أحسن ما قيل في صفة شعر ؟ فبقي ملياً يتفكر فقال أبو الفضل « فند عند خاطرك حداجة [1] » .

* * *

أثر العناصر والاجناس :

وكما كان العراق مضطرباً في سياسته وادارته ، كان مضطرباً بما فيه من عناصر واجناس ، فيه الترك والروم ، وفيه الزنج والفرس والعرب . وقد أثرت هذه العناصر

(١) أبو هلال العسكري . ديوان المعاني ج ١ ص ٧-٨ .

في حياة العراق الاجتماعية والسياسية ، وانعكس تأثيرها في الأدب فلونته وصبغته بصبغة خاصة .

الروم والأتراك : أما الروم قد كثروا بسبب الحروب التي وقعت بينهم وبين المسلمين ، وكان يستتبع هذه الحروب فتح وسبي واسر.

وأما الأتراك فقد مر بنا حديثهم . وقد قلنا ان هؤلاء كثروا في قصور الخلفاء حتى لا نجد خليفة في هذه الحقبة الا وامه تركية أو رومية . واذا دل هذا على شيء فانما يدل على ان نساءهم قد غزوا عقول الطبقة الراقية من المسيطرين ورجال الحكم .

واولع القوم بغلمانهم فعشقوهم . يقول ابن سكرة :

أيها التركيُّ ما عنـــــدك للصبّ النحيل
هل إلى ما يستر الـ ـقرطقَ عني من سبيل

وعشق البحتري غلامه « نسيما » . وله فيه شعر احر من شعره في عشيقته « علوة الحلبية » . باعه مرة لابن الحسن بن سهل وقال :

بجسمي سقامٌ كلما جزتُ ردّني إلى كمدٍ في الصدر غير سقيم
فان متُّ كان الموت من كرم الهوى وليس الهوى إن لم أمتْ بكريم
أبا الفضل راجعْ من حجاك فاني على خطرٍ مما يخـــاف عظيم

ولم يكن عشق الغلمان جديداً على هذا العهد ، وهو شذوذ جنسي ربما وجد في كل بيئة وكل زمان ، وقد أكثر القول فيه أبو نواس من

قبل ، ولكنه كان أمراً مستهجناً يستحي منه الشريف ، وكان مدعاة للمذمة . الا ننظر ماذا يقول أبو نواس لابي عبيدة حين يريد هجاءه :

صلى الالهُ على لوط وشيعته أبا عبيدة قلْ بالله آمينـــا

فأنت عندي بلا شك بقيتهم منذ احتلمت وقد جاوزت سبعينا

على أن الغريب فيه ان يكثر في هذا العصر الى حد يتغير فيه ذوق الناس في النظر الى هذه الخلة البغيضة حتى يصبح موضوع تحريمها موضوعا يتجادل فيه الفقهاء .

وقد كثر الغزل في المذكر في هذه الحقبة ، فوصفوا الغلمان المرد ، وأكثروا من وصف الغلام يطلع الشعر في وجهه . وأصبح ما قيل من الشعر في الغلمان وأوصافهم يعادل - أو يربي - على ماقيل في الغزل في الانثى . وهم يحدثوننا عن عشق الغلمان في هذه الحقبة بمثل ما حدث الاقدمون عن المجنون وليلاه .

ولعل ظهور هذا النوع من الحب عند الامراء والطبقة المسيطرة هو الذي جعل الناس يجاهرون به ولا يحتشمون منه . يحدثون عن بختيار انه اسر له في موقعة الاهواز غلام تركي فجن عليه جنوناً ، وتسلى عن كل شيء خرج من يده الا عنه ، وامتنع عن الطعام والشراب وانقطع الى النحيب والشهيق والعويل ، وتضجر بالجيش وتبرم بحضورهم ، واطرح التدبير ... ثم اذا وصل اليه وزيره أو قواده وكتابه وخواصه في المهم

قطعهم عن ذلك بالشكوى بما حل به والبوح بما في نفسه ، وتقضت أوقاته ومجالسه بهذا الخطب الجليل [١] عنده » .

وروى أبو اسحاق الصابي انه كان لمعز الدولة غلام تركي يدعى « تكين الجامدار » امرد رومي الوجه ، منهمك في الشراب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو . ولفرط ميل معز الدولة اليه وشدة اعجابه به جعله رئيس سرية جردها لحرب بني حمدان . وكان المهلبي يستظرفه ويستحسن صورته ، ويرى انه من عدد الهوى لا من عدد الوغى ، ونظر اليه بلباسه الرسمي فقال :

ظبي يرفّ الماء في وَجناته ويروقُ عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومنطقةً تؤده
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضاع الرعيل ومن يقوده

ويظهر ان معز الدولة لم يكن أول أمير أحب غلامه وأمرّه على سرية . لقد قال ابن المعتز قبل أن يقول المهلبي في غلام معز الدولة :

عجبت لتأمير الرجال مُقرطقاً ينوء بخصر في القباء هضيم
يذكر عزاب الجيوش اذا بدا بخد كعاب أو بمقلة ريم

* * *

(١) ظهر الاسلام ص ٤٠ .

الزنج وأثرهم :

أما الزنوج فقد كانوا يجلبون من جهات الصومال وزنجبار، وكانوا يشغّلون في المزارع جماعات، يتراوح عددها بين الالف والخمسة آلاف، ويقول الطبري انه بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر الفاً، وكانوا يكسحون السباخ. وكسوح الزنوج (١) معروفة بالبصرة كالجبال. ولم يقبل الناس على الزنجيات، يقول ابن بطلان « الزنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن. والغالب عليهن سوء الخلق وكثرة الهرب ». ويقول ابن سكرة » :

علامةُ النحس والخذلان والشوم ... إعراض وجهك عن صقرٍ إلى بوم

كراغبٍ في بنات الزنج من أفنٍ ... وزاهدٍ في بناتِ الترك والروم

ومع ذلك فقد قال الشعراء في الجواري السود. قال الشريف الرضي، وقال السلامي، وغيرهما. وتفننوا في وصفهن، وحاولوا أن يعللوا سوادهن، وأن يحسنوه، فشبهوه بالكحل، وشبهوه بسواد العين وشبهوه بالشباب، والى ما هنالك من الصور التي يستحب السواد فيها.

وكان لهذا العنصر أثره في مجالس الغناء والطرب. يقول ابن بطلان في خصائص السود « وليس في خلقهن الغم. والرقص والايقاع فطرة لهن، وطبع فيهن... ويقال لو وقع الزنجي من السماء الى الارض ما وقع إلا بالايقاع ».

(١) متز، ج ١ ص ٢٧٩

وأثر هذا الجنس الاسود في هذه الحقبة كان في هيجانه وثورته في جنوب العراق ، وهي الثورة المعروفة « بثورة الزنج » التي استمرت من ٢٥٥ هـ الى ٢٧٠ هـ ، أربعة عشر عاماً خربوا فيها المدن وقتلوا فيها الرجال وباعوا النساء البيض الحرائر وجعلوهن يخدمن الزنجيات . ويصف ابن المعتز فظائعهم بارجوزته فيقول في رئيسهم ، صاحب الزنج :

والبائعُ الاحرار في الاسواق وصاحبُ الفجار والمراق
وقاتل الشيوخ والأطفال وناهب الأرواح والأموال

ويقول عما خربه :

تخـــرب الأهواز والأبلّة وواسطاً قد حلّ فيها حلة
وترك البصرةَ من رماد سوداءَ لا توقن بالمعاد
وبعضهم مسمطٌ مربوطُ وبعضُهم في مرجلٍ مسموطُ
وبعضُهم يُحرق بالنيران وبعضُهم يُلقى من الحيطانِ

وقد أنتجت لنا هذه الثورة شعراً حربياً كثيراً ، ووجهت الشعراء نحو وصف السلاح ووصف الحروب . وقد رثى ابن الرومي مدينة البصرة بعد أن خربها الزنج بقصيدة طويلة مؤثرة . وصف فظائعهم ، ووصف حالة البصرة ، واستعدى عليهم المسلمين وحث على حربهم . ولابن الرومي في حصار الزنج قصـــائد ، وله في ذكر حروبهم وكرّهم ودفاعهم .

* * *

الفرس :

أما الفرس فكان طابعهم حب الفخفخة والظهور[1] « وقد ورثوا ما يرثه أبناء كل امة تحضرت وهرمت من ميل الى الترف والنعيم وانهماك في اللذائذ » . كانوا يكثرون الشراب ، والشراب شعيرة من شعائر ديانتهم الزرادشتية ، وكانوا يديرون الحانات مع اليهود والنصارى . وقد أكثر الشعراء في وصف حاناتهم وغلمانهم ، وأواني الخمر المصورة بالصور الفارسية ، والى ما هنالك مما يتعلق بالخمر والحانات . وكانوا يظهرون الحفاوة في أعيادهم بشرب الخمر ، وتابعهم المسلمون في ذلك ، يقول ابن المعتز :

كم توبةٍ قد فضضتُ ختمها ... عنّي وللتائبين رجعات
فاشربْ غداةَ النوروز صافيةً ... أيامُها في السرور ساعات

وكان الخلفاء يحتفلون[2] بهذه الأعياد ، ويظهرون للعامة ، وينثرون عليهم الدراهم ، والشعراء يتغنون فيها بجمال الطبيعة ، تتخذ مجلساً للخمر ، يقول المعلّى الطائي :

باكرْ صبوحك صبحةَ النيروز ... واشربْ بكاسٍ مترعٍ وبكوز
ضحك الربيعُ إليك عن نواره ... آس ونسرين ومرمى حوز

وفي هذه الاعياد كان الشعراء ينظمون القصائد وينشدونها بين يدي

---

(١) ظهر الاسلام ، ص ٦٣

(٢) الديارات للشابشتي ، النسخة الخطية بدار الكتب المصرية .

الخلفاء والوزراء والامراء وذوي المكانة . وديوان مهيار الديلمي يحوي نحو اربعمائة قصيدة ؛ فيها سبعون قصيدة في المهرجان ، واحدى وسبعون قصيدة في النيروز ؛ كان يبعثها يلتمس فيها العطية . وكان هؤلاء الذين يمدحهم يحسبون حسابه في كل عيد من هذه الأعياد ويبعثون اليه شيئاً ، لانهم يعلمون أنه باعث بقصيدته لا محالة . وفي ديوان مهيار (١) قال : وكتب بها الى أبي قوام ثابت بن علي بن مزيد الاسدي ، يعاتبه على تأخيره ماجرت العادة باهدائه اليه ، وتغافله عن مقابلة قصائد أنفذها الى حضرته . وفي ديوان الشريف الرضي كثير من القصائد بعث بها في هذين العيدين منها ما بعثها الى بهاء الدولة (٢) ومنها الى قوام الدين وغيرهما كثير . وندر أن نجد شاعراً عاش في هذه الحقبة ولا نرى له اشعاراً في هذين العيدين الفارسيين . يقول البحتري لابن حميد :

يا ابن حميدٍ عشْ لنا سالماً ... ما اختلف النوروزُ والمهرجانْ (٣)

واستأنف العمر جديداً فقد ... ولى زمانٌ وأتانا زمانْ

أما ترى الأرض واثوابها ... شقائق النعمان والاقحوانْ ؟

وهكذا نرى ان هذا العنصر الفارسي كان له أثره في توجيه الناس الى الطبيعة ووصفها ، ووصف الخمر ومجالسها وأوانيها وسقاتها .

---

(١) ديوان مهيار طبعة دار الكتب المصرية ، ج ٤ ص ١٣٢ .

(٢) ينظر ص ١٦٥ و ٧٨٣

(٣) انظر صفحة ـ ١٦٥ ـ من هذا الكتاب

أثر الديانات والنحل :

وكان العراق في هذه الحقبة مضطرباً بدياناته ونحله واضطرابه بسياسته وأجناسه . كان فيه اليهود والنصارى والمجوس ، وكان فيه من النحل الاسلامية السنة والشيعة .

وقد أحسن المسلمون معاملة أهل الذمة ، واعتبروا المجوس مثلهم ، حتى لقد اعتبر أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ـ ومذهباهما هما المذهبان اللذان سادا العراق في هذه الحقبة ـ حياة الذمي مكافئة لحياة المسلم . وقد خالفهما الشافعي ومالك في ذلك . وأكرم هؤلاء وقدموا في وظائف الدولة ، ولا سيما النصارى . يقولون إن الوزير ابن الفرات كان يدعو الى طعامه كل يوم ستة من الكتاب ، هم خاصة كتابه ، كان منهم أربعة نصارى . وذهبوا الى أبعد من ذلك . قال الصابي (١) « ان علي بن عيسى قال لابن الفرات ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانياً ، وجعلت انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره ؟ » . كان هذا في القرن الثالث ، وفي القرن الرابع نجد وزير عضد الدولة البويهي رجلاً نصرانياً اسمه هارون . يقول ابن الاثير (٢) « وقد اذن له عضد الدولة في عمارة البيع والديرة ، واطلاق الأموال لفقراء النصارى ... »

ونستطيع أن نقول إن هؤلاء خاصة النصارى ، أما عامتهم فقد اشتغلوا في التجارة . وكانت تجارة الخمر أكثر ما شهروا به ، وأكثر

---

(١) ظهر الاسلام ص ٨٣ ، الوزراء : ٩٥

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥٥ .

ما يهمنا من حديثنا عنهم . ووجههم الى هذه التجارة ان كان دينهم يحلها لهم ، وان رأوا انفسهم في مأمن من منافسة المسلمين في هذا الميدان ، وهكذا فتحوا الحانات وصار يديرها نساء ورجال منهم . ومرنوا على هذه الصناعة حتى حكى الجاحظ (١) عن أحد الثقاة الذين يعتمد عليهم أن من تمام آلة الخمار ان يكون ذمياً مختوم العنق .

وأقبل المسلمون على حاناتهم وقالوا الشعر يصفون به الحانة ، ويصفون به ساقيها وساقيتها وآنيتها . يقول ابن المعتز :

ومشمولة بالقُفص قد طال حبسُها ... حكمت نار ابراهيم في اللون والبرد (٢)

حططنا الى خمّارها بعد هجعة ... رحالَ مطايا لم تزل يومَها تخدي

فباتوا لدى الخمار في بيت حانةٍ ... وأخلوا قصوراً بالرُصافة والحدّ

ودامَ عليهم بالمدام ممنطـــقٌ ... بزُنّارِه حلوُ الشمائل والقدِ (٣)

وازدهرت ادبرة النصارى ، وكان أهل اللهو والعبث يذهبون اليها ، ولا سيما في ايام الاعياد . وقد عشقوا خمرتها ، يقول ابن المعتز :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٨١ .

(٢) قال ياقوت في معجمه : « والقفص ايضاً قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد ، وكانت من مواطن اللهو ، ومعاهد النزه ، ومجالس الفرح ... تنسب اليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . » وانظر مدن الخمر في العراق ، في كتاب « تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى ابي نواس » لجميل سعيد .

(٣) الزنار : ما يشد على الوسط ، والجمع الزنانير .

كم أردت التُقى فما تركتني خمدريسٌ يديرها طاووس
من شراب القُربان يوصي به الشمّاسُ خُزانَ بيتها والقسوسُ
يانديميَّ اسقياني فقد لا ح صباحٌ واذَّنَ الناقوسُ

وكان الشعراء يقولون الشعر ويصفون الطبيعة الضاحكة التي يقيم الدير في وسطها. وقد يكون الدير على مقربة من النهر فيقولون الشعر في صيد السمك والطيور وما الى ذلك، ويذكرون هذا حين يذكرون أيام الدير.

يقول الشابشتيّ عن ديراشموني - وديراشموني يقع بقطربّل غربيّ دجلة - « كان[1] عيده من الأعياد العظيمة ببغداد، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا خرج اليه، كل منهم على حسب قدرته، فمنهم من يأتي في الزبازب، ومنهم من يركب الطيارات أو السميريات. ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم، أو يباهون بما يعدونه لقصفهم، ويغمرون ديره وا كنافه وحاناته، ويضرب لذوى البسطة منهم الخيام والفساطيط، وتعزف عليهم القيان، فيظل كل انسان منهم مشغولاً بأمره مكباً على لهوه، فهو أعجب منظر وأنزهه وأطيب مشهد وأحسنه. »

وقد قال الشعراء في هذا الدير كثيراً. يقول أبو الشبل[2] البرجميّ:

---

(١) انظر كتاب الديارات للشابشتي: النسخة الخطية بدار الكتاب المصرية.

(٢) أبو الشبل هذا من شعراء الخمر، وله صحبة مع أبي نواس. انظر خبره في « تطور الخمريات في الشعر العربي » لمؤلف هذا الكتاب.

شهدتُ مواطن اللذات طراً وجبتُ بقاعها براً وبحرا
فلم أر مثل أشموني محلاً ألذَّ لحاضريه ولا أسرا
به جيشان من خيلٍ وسفنٍ أناخا في ذراه واستقـــرا
كأنهما زحوف وَغى ولكن إلى اللذات ما كرّا وفرّا

وقصائد أبي نواس في دير حنة ، وقصائد ابن المعتز في دير عبدون في المطيرة أشهر من أن تحتاج الى ذكر .

هذه الحياة العابثة التي اتخذت من الدير والحانة مسرحاً لها ، أنشأت لنا شعراً وصفياً كثيراً ، يدور حول الخمر وما يتعلق بها ، وحول الصيد ، وحول الطبيعة الضاحكة التي يقيم في وسطها الدير .

هذا أثر النصارى . أما المجوس فقد مرّ بنا أثر أعيادهم في شعر مهيار والشريف الرضي وغيرهما .

* * *

واذا كان المسلمون قد أحسنوا معاملة اليهود والنصارى فانهم لم يحسنوا معاملتهم فيما بينهم . إن العداوة اشتدت بين السنة والشيعة وكثر التقتيل والتحريق نتيجة لها . وزاد في هذا الأمر أن الحكومة كانت منقسمة على نفسها ينصر بعضها السنة ، وينصر بعضها الشيعة . كان الترك والخلفاء سنيين ، وكان بنو بويه شيعة . يحدثنا ابن الأثير عن حريق وقع في الكرخ ، فيقول وهو يتحدث عن أحد الأتراك في حوادث سنة ٣٦٢ هـ « وكان شديد العصبية للسنة فألقى النار في عدة أماكن

من الكرخ فاحترق حريقاً عظيماً . وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف انسان وثلثمائة دكان وكثير من الدور ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يحصى ... » . ويقول في سنة ٣٥٣ هـ « وفي هذه السنة عاشر المحرم أغلقت الأسواق ببغداد يوم عاشوراء ، فثارت فتنة عظيمة بين السنة والشيعة جرح فيها كثير ونهبت الأموال » وهو يتحدث عن مثل هذه الحوادث (١) في غير هاتين السنتين .

هذا العداء المذهبي الذي ينصره الخلفاء والترك من جهة ، وينصره آل بويه من الجهة الاخرى خلق لنا شعراً كثيراً . وفي ديوان ابن المعتز عشرات (٢) القصائد يخاطب بها الشيعة العلويين ، يلين لهم مرة ، ويشتد عليهم اخرى . وامتلأ ديوان الشريف الرضي ، وديوان مهيار الديلمي من الناحية الاخرى ، بالحديث عن آل البيت ورثائهم .

وشجع هذه الحركة بنو بويه ما استطاعوا ، ففي سنة ٣٥٢ هـ « امر معز الدولة الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء وان يظهروا الحزن ، فاغلقت الاسواق ، وعطل البيع والشراء ، وخرجت النساء منشرات الشعور ، مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يدرن في البلد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين ... (٣)

---

(١) انظر حوادث سنة ٣٠٦ و ٣٥١ و ٣٦١ و ٣٧٩ و ٣٩٠ و ٣٩١

(٢) ينظر باب المفاخرات في أول ديوان ابن المعتز

(٣) ابن الأثير ، متز ١ / ١١٣ - ١١٤

وشعراء الشيعة يعدون القصائد للجماهير لتنشد في هذا اليوم.

وفي ديوان الشريف الرضي من هذه القصائد قصيدة.

كربلا لازلت كرباً وبلا ما لقي عند آلُ المصطفى

كم على تربك لما صرعوا من دمٍ سال ومن دمعٍ جرى

والقصيدة طويلة باكية، ولكنها ليست في قوة الأسر كبقية شعر الشريف الرضي، ونراها وكأنها اعدت لما يناسب الجماهير المحتشدة؛ فبحرها، هذا البحر القصير، يمثل الحركة أكثر مما يمثل العاطفة تنساب بهدوء. ونراه ملائماً كل الملائمة لحركة الضرب على الصدور والوجوه، والقلق في المشي، وما يناسب الحالة الحزينة القاتمة التي تمشي بها الجماهير.

وفي الجملة ان هذه الحياة المذهبية المضطربة خلقت لنا ادبا وشعراً. واذا قلنا إن الشريف الرضي ومهيارا يمثلان شعراء الشيعة، فان هناك شعراء يعرفون بشعراء السنة ايضاً. يقول ابن الاثير في حوادث سنة ٤١٠ هـ «وفيها توفي ابو الحسن علي بن عيسى السكري شاعر السنة، ومولده ببغداد في صفر سنة ٣٥٧، وسمي شاعر السنة لانه أكثر مدح الصحابة ومناقضات شعراء الشيعة ...»

على ان هذه العداوات المذهبية لم تنتج لنا شعراً وصفياً يناسب شدتها، ذلك لان الشعراء من السنة والشيعة لم يتجهوا الى وصف ما كان يحدث من ثورة أو حريق، وانما اتجه شعراء الشيعة الى الاشادة بآل البيت

أو بسبة الصحابة ، كما كان يفعل مهيار ، واتجه شعراء السنة الى الرد عليهم .

* * *

حياة العامة :

وأتحدث عن الحياة العامة في العراق بأن انقل ما قاله استاذنا الجليل أحمد أمين بك ، وهو يتحدث عن سكان المملكة الاسلامية في هذه الحقبة (١) : « حيثما نظرنا الى كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ... رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلا ولا متقارباً ، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح فجنة ونار ، ونعيم مفرط وبؤس مفرط ، وامعان في الترف يقابله فقدان القوت ... » وعندي ان هذا الوصف أصدق ما يكون على سكان العراق .

كان العمال ـ أيام كان للدولة هيبتها وللخليفة هيبته ـ يولون المقاطعات فيأمرون الناس بزراعة الارض ، فتكثر الغلة ويكثر وارد الناس منها ، وتكثر جباية الدولة ، وهكذا يستفيد الناس وتستفيد الدولة . أما في هذه الحقبة التي نتحدث عنها فلم يعد العمال يشجعون الناس على الزراعة ، وعلام يشجع العامل على الزراعة وهو لا يضمن دوامه في وظيفته الى موسم الحصاد ؟ وقد مرّ بنا أن الكوفة قد عين لها أحد عشر عاملا في أحد عشر شهراً . وابن الحجاج عين يوم الخميس وصرف يوم الأحد .

وزاد في البلاء أن هؤلاء العمال يعينهم الوزير بالرشوة ، فهم يريدون استرجاع ما بذلوه في أقرب وقت وأقصره ، لانهم لا يضمنون بقاءهم

---

(١) ظهر الاسلام ص ٩٧

طويلا ، يريدون أن يستردوا ما أعطوه للوزير ، ولا تهمهم حالة الناس .

ضمن ابن الحجـــاج الصدقات بسقى الفرات واستخلف على نواحي « فم النيل » خليفة ، فانظر كيف يوصى خليفته بالرعية ، يقول :

يا أيها الذئبُ الذي اخترتُه ... خليفـــةً ينظر في أمري
اوصيك بالأغنام شراً وهل ... يوصى أبو جعـــدةَ بالشر
اوصيك في القوم بهذا الذي ... عقـدتُه في السر والجهر
وكيف لا اوصى بهذا وقد ... بُليتُ منهم بيني البظـــر

وليس شيئاً ما اوصى به ابن الحجاج خليفته اذا علمنا أن « بجكم » كان يضع على بطن الرجل من أهل « واسط » طشتاً فيه جمر بعد أن يلح عليهم في طلب المال ويشتد في تعذيبهم وهم لا يجدون . وكان الناس يعذبون من أجل استخراج المال بان يغرز القصب في اظافيرهم ، وبأن يضربوا على رؤوسهم بالدبابيس .

وبلغ من ظلم العمال للناس أن بعض أهل الورع صار لا يستحل مالهم ، وصار ينظره نظرته للمال المسروق أو المنهوب . يقولون إن بعض أهل الورع ابى أن ينقش فصاً للامير بمائة دينار ، على حين كان ينقش الفص لغيره بعشرة دراهم ، وما ذلك إلا لأنه لا يريد أن يأخذ المال الحرام .

وبلغ من بعض الناس أنه كان اذا سلم على عامل السلطان سلم عليه

بقوله « تب من عمل السلطان (١) » . ويحدثون أن عاملاً تاب مرة من عمل السلطان ثم أغراه أن عرض عليه عمل جليل فقبله وعاد ، فسماه الناس « المرتد » .

ولا نعجب ـ بعد هذا ـ أن نسمع قول ابن المعتز ، وقد نظر الى حال العامة ، وحال العمال :

أفما ترى بلداً أقمتُ به ... أعلى مساكن أهله خُمص

وولاتُه نَبَطٌ زنادقةٌ ... ملأى البطون وأهله خمص

ولم يقتصر الأمر على الضرائب ومصادرة الأموال ، بل أخذ التجار ـ وبعضهم من رجال الدولة ـ يلعب بالسعر ويحتكر مواد العيش فيحدث في الناس ما لا صبر عليه .

واذا أضفنا الى ما قلنا ، ما كان يحدثه الثوار كالقرامطة والزنج ، وأضفنا إليه ما يحدثه العيارون واللصوص ، وأضفنا الى هذا ما كان يحدث بين الأمراء من ترك وبويهيين من حروب ، وأضفنا إليه ما كانت تحدثه الخلافات المذهبية ، اذا نظرنا الى كل هذا علمنا كيف كان عامة أهل العراق ، وفي أي جو من البؤس كانوا يعيشون .

* * *

وأقول الآن إن عامة الشعراء من هذه الطبقة العامة التي كانت ترزح تحت هذه الأثقال . ومع أن بعضهم قد ارتفع عن هذه الطبقة

(١) ابن الأثير .

بسبب اقترابه من رجال الحكم ، فانه لم يسلم ولم يخلص له صفو الحياة . وقد مرّ بنا أن ابن الحجاج مثلاً ولى ولاية وأنه أوصى خليفته شراً بأهل « فم النيل » ، فننظر إليه كيف يبكي حين صادره عمال السلطان وأخذوا غلته (١) :

أغاروا على سمسمي غارةً تعدتْ فأفضتْ الى حنطتي

فلا زال في نقمةٍ كل من أزال بحيلته نعمتي

ولا نعجب بعد ذلك أن نرى أن هؤلاء الشعراء صاروا يطلبون في مديحهم اتفه الاشياء فيقولون الشعر يلتمسون جبة ، ويقولونه يلتمسون عمامة ، ويقولونه يطلبون دابة ، ثم يطلبون شعيراً للدابة ، والى ماهنالك من أمثال هذه الامور التافهة . ولا عجب بعد هذا أن ينشأ في القرن الرابع الهجري طبقة من أهل الكدية الطوافين ، تقول الشعر وهي تطوف وتتسول ، وان يكون أكبر شعرائهم الاحنف العكبري من مدينة عكبرا في العراق .

ونستمع الى شعر هؤلاء الشعراء في حياتهم العامة فنراه غير الشعر الذي كانوا يقولونه للخلفاء والوزراء والامراء ، إنهم يغنون بشعرٍ يتنفسون به عن عواطفهم ورغباتهم . وشعرهم في هذه الحياة صادق ينبعث عن إحساس ، لا كذلك الشعر الذي نسمعهم ينشدونه في مجالس الخاصة

---

(١) اليتيمة ، ج ٣ ص ٤٤ و ٤٨ .

يتملقونهم به ويطلبون رفدهم . واستطيع أن أقول ، إننا اذا استثنينا ابن المعتز ـ لا نجد شاعراً في هذين القرنين إلا له نفسين يغني باحدهما للممدوح ويغني بالآخر لنفسه . على اني أرى ان جحظة البرمكي وابن الرومي وابن لنكك البصري خير من يمثل هذه الطبقة .

كان جحظة يقول الشعر ويغنيه على طنبوره ، فهو شاعر حساس ومغن بارع ، وقد اولع الناس بغنائه كما اولعوا بشعره . وكان أبو الفرج من المعجبين به . روي عنه في أغانيه أصواتاً كثيرة ، وجمع أخباره وديوان شعره . وعاش جحظة هذا نحو مائة عام ، وشهد من الفاقة ما جعله يقول عن نفسه : « أصبحت أفلس من طنبور بلا وتر » . وكان يغني ويعيش على ما يكسبه من غنائه ، فلما شاخ صار لا يستفيد من غنائه إلا قول الناس له « أحسنت » يقول :

وقائل ـ ان شدوت ـ أحسنت زدني وبأحسنت لا يباع دقيق

ويقول :

تعجبت اذ رأتني فوق مكسور من الحمير عقير الظهر مضرور
فقلت لا تعجبي مني ومن زمن أنحى عليّ بتضييق وتقتير
بل فاعجبي من كلاب قد خدمتهم تسعين عاماً باشعاري وطنبوري
ولم يكن من تناهي حالتي بهم حر يعود على حالي بتغيير

أما ابن الرومي فان قصائده في جملتها لا تترك في ذهن قارئها الا

ان هذا الشاعر كان في ضنك وفاقة وحرمان ، وان الكثير من شعره أقرب الى البكاء منه الى الكلام .

وأما ابن لنكك فقد أكثر من شكوى الزمان ، وصبغ شعره بهذه الصبغة البائسة .

ويهمني من هؤلاء الشعراء — ولا سيما ابن الرومي — أنهم نظروا الى الاطعمة والأشربة نظرة الجائع العطش ، ووصفوها كما هي في نفوسهم وعيونهم ، لا كما هي في أنفس الناس وأعينهم . وإنك تسمع ابن الرومي يتحدث عن الطعام والفاكهة والشراب ، فتخاله — لشرهه وحسرته عليه — يتحدث عن غير هذا الطعام الذي نعرفه ، وعن غير هذا الشراب الذي يعرفه الناس . لقد كان شديد الحساسية في ذوق الاطعمة ، وقد رزق نفساً شرهة لا تملك حظاً من الزهد أو القناعة ؛ فهو متهالك محروم حين يتحدث وحين يصف ، وانا نحس نهمه وشرهه في ثنايا ألفاظه . يقول في السمك ، ويقول في الحلوى ، ويقول في الفاكهة ويقول ويقول ...

هذه الحياة البائسة أنتجت لنا شعراً وصفياً كثيراً ، وكان الطعام — الذي كان الجوع والشره يغريان به — مادته وموضوعه .

وكما اشتاقت انفس هؤلاء الشعراء الى المآكل والمشارب فتحدثوا عنها ووصفوها وأجادوا وصفها ، كذلك اشتاقت نفوسهم إلى مجالس الشراب والى سماع الغناء . وكان ببغداد كثير من الأماكن العامة تغنى

بها القيان ويغنّي بها الغلمان . يقول أبو حيّان التوحيدي عن المغنين والمغنيات [١] : « وقد أحصينا ونحن جماعة في الكرخ أربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ... »

وهؤلاء الشعراء يرتادون هذه المجالس ، ويسمعون الغناء . وقد رزق بعضهم اذناً حساسة في استماع الأصوات وتمييزها والتفريق بينها . وربما كان ابن الرومي أكثر الشعراء حساسية ـ عندي ـ في هذا الباب . إسمعه كيف يصف هزات صوت إحدى المغنيات :

ذات صوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنّى فينفض الطلّ عنه ... في تثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في المسامع يحكي ... ذلك الغصن في العيون الرواني

وقصيدته في وصف المغنية « وحيد » وغنائها أشهر من أن تحتاج الى ذكر .

وكما وصفوا المغنيات وصفوا الغلمان ومجالس الشراب ، فأحدثت لنا هذه المجالس شعراً وصفياً كثيراً يدور كله حول حياة العبث .

والشعراء في حديثهم عن هذه الحياة غيرهم في حديثهم عن حياة العبث عند الطبقة الحاكمة . يتحدثون هنا عما يشعرون به ، ويتخذون من حديثهم

---

(١) انظر كتاب الامتاع والمؤانسة ٢ / ١٨٣

ووصفهم هناك سلماً يرقون به الى المديح ونيل المال .

وكان للشعراء غير هذه المجالس العامة مجالس خاصة ، يتحدثون فيها عن الأدب والشعر . ويبدو لي أن شعر الوصف كان أكثر من غيره دوراناً في هذه المجالس . كانوا يذكرون المعاني الوصفية ، ويفاضلون بينها ويتجادلون . وقد يحاول بعضهم محاكاتها أو معارضتها ؛ ففي ديوان ابن نباته السعدي (١) « وقد حضره قوم قال بعضهم : من أحسن ما قالته العرب في صفة ذئب قول ابن عنقاء الفزاري :

طوى نفسه طيَّ الجرير كأنه حوى حيةً في ربوةٍ فهو قابع

وقال آخر : بل أبيات حميد بن ثور الهلالي التي فيها :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي العـــدوَّ بأخرى فهو يقظان نائم

فقال ابن نباته السعدي في معناهما :

وأطلسَ ما في سعيه غير أنه يضيق عليه الرزق والخرق واسع
يخاف أخوه حرصه وهو طاعمٌ وتهرب منه عرسُهُ وهو جائع
على شرف البيداء يسأل أنفه بياناً وقد أكدت عليه المسامع »

ويستمر في الحديث عن الذئب ... وفي ديوان ابن نباته السعدي أيضاً « وقال ـ وقد أنشد منشد أبيات حريب بن عتاب الطائي يصف الحية مستحسناً لها :

---

(١) انظر النسخة الخطية بدار الكتب المصرية

أترجو حياة يا ابن بشر بن مسهر ... وقد علقت رجلاك في ناب أسودا

أصمّ قطارى اذا عض عضة ... تزيّل أعلى جلده فتربدا

فقال ابن نباته يصف الحية :

اذا عرّس السارون في بطن زائر ... فسرّ وتعوّذ من سرار الطوارق

ففي الهضبة الحمراء إن كنت ساريا ... أُغيبر يأوى في صدور الطوارق

كأن بقايا ما سرى من قميصه ... على متنه افواف برد شُبارق

تقصر عن يافوخه حين ينطوي ... حقيبة مملوء من السم زاهق

* * *

وقد يجتمع الشعراء في مجلس فيتحاجون بالاشعار . وهذه الأحاجي تدور كلها ـ أو جلها ـ حول فن الوصف . وقد امتلأ ديوان مهيار الديلمي بهذا النوع من الأشعار ، وصار وصفه كله من نوع الاحاجي ، وإن لم يقصد إلى ذلك هو . وإننا يصعب علينا أن نعرف مايقصده مهيار بأبياته الوصفية ـ في الغالب ـ من غير أن نكون قد قرأنا العنوان في رأس المقطوعة الوصفية . يقول في النخلة مثلاً :

وحاملة لك محمولة ... على ظهر محتقر ثقلها

تضيق بنانُك عن بعضها ... حساباً وتحسبها كلها

اذا عونقت منعت وصلها ... وان صورمت وصلت حبلها

اذا لقحت بالظبا أكرمت ... نتاجاً وما طارقت فحلها

ولا يدرك الحظ منها امرؤ ... إذاً لم يكن رأسها رجلها

وله مثل هذا في السمك والسفن والزهر والدفاتر ... ولسنا في معرض القول الآن عن قيمة مثل هذا الشعر

* * *

وهكذا نرى مما فات ان شعر العراق قد ازدهر في هذين القرنين . يقوله الشعراء في وصف هذه الحروب الكثيرة ، ووصف سلاحها وعددها وما يتبعها من خراب في المدن . ويقولونه في وصف القصور والبرك وما اليها من حدائق . ويقولونه في وصف الكتابة وما اليها من شعر وكتب . ويقولونه في وصف الطعام واللباس ، والآنية ، وما الى ذلك . ويقولونه في وصف مجالس الشراب وما يتبعها من غناء وآلات وسقاة .

وسنتحدث عن كل موضوع من هذه الموضوعات على حدة . ثم نعقب على ذلك بخاتمة نرى فيها قيمة هذا الشعر العراقي الوصفي ، وفي أيه أجاد شعراء العراق ، وفي أيه قصروا .

وصف الحرب

الحرب والشعر : مر بنا أن العرب كثرت حروبهم ، وأنهم درجوا على الحرب ومرنوا عليها فأحبوها ، وتعلقت بها نفوسهم . وهم حين يشيبون ويتذكرون لذات الشباب تأخذ لذة الحرب مكانها من ذكرياتهم ، وهذا واضح في أشعار امرىء القيس (١) وعنترة وسلامة بن جندل وغيرهم من الشعراء الفرسان .

ومر بنا أن ابن سلاّم حين رأى شعر العرب قيل أكثره في الحرب أو ما يتصل بها من تحريض على ثأر ، أو وصف لانتصار ، أو بكاء على قتيل ـ أو ما الى ذلك ـ حسب ان الشعر لا ينشأ إلا عند قوم محاربين ، وظن أنه إنما يكون بالحروب التي تقوم بين الاحياء ؛ نحو حرب الاوس والخزرج ، أو بين قوم يغيرون ويغار عليهم . ورأى ان (الذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطايف) وقد ناقشنا رأيه هذا (٢)

---

(١) تنظر صفحة ٥٥ ـ ٦١ من هذا الكتاب .

(٢) انظر صفحة ٥٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

ومع أن حروب المسلمين وانتصاراتهم على الفرس والروم ، كانت أكبر وأبعث على الفرح من انتصاراتهم فيما بينهم ، فاننا نرى الشعر المقول فيها ليس شيئاً اذا قورن بما قيل في أيام العرب ؛ كحرب البسوس وداحس والغبراء ، بل نراه ليس شيئاً إذا قيس بالشعر الاسلامي الذي وصفت به حروب مكة والمدينة .

وربما كان السبب في كثرة شعر العرب حول أيامهم ، ان هذه الأيام كانت سجالاً بينهم فخشت كل طرف من المحاربين أن يقول في وصف انتصاراته وأن يقول في انكساراته وقتلاه ، هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى ، فقد كان كل المتحاربين عرباً يفهم بعضهم شعر بعض ؛ فالطرف المحارب يقول ليسمعه الطرف الآخر ؛ وهذا الذي حدث في حرب الاوس والخزرج ؛ يقول حسان فيرد عليه ابن الخطيم ويناقضه . وهذا الذي حدث بين أهل مكة والمدينة ؛ يقول حسان بن ثابت ، وابن رواحه ، وكعب بن مالك ، فيرد عليهم سفيان بن الحارث وعبدالله بن الزبعري والحارث بن هشام

* * *

وانقرضت دولة بني امية بعد أن حارب مروان وهزم ، وراح الشعراء يمدحون بني العباس ويتقربون إليهم بأن يصفوا حروبهم مع الامويين ، وأن يشيدوا بانتصاراتهم ليمدحوهم ويعلوهم ، ويذكروا هزيمة الامويين ليحطوا من قيمتهم .

وقد نشأ حول هذه الحروب شعر وصفي كثير ، وربما كان ابن المعتز أكثر الشعراء الذين دارت في أشعارهم أوصاف هذه الحروب ؛ يقولها يفتخر بأنهم غلبوا الأمويين ويقولها يدل على العلويين بأنهم خلصوهم منهم ، ويلومهم على ما يقومون به من شغب على بني العباس .

كثرة الحروب :

وربما كانت هذه الفترة التي نتحدث عنها أكثر الفترات الاسلامية حروباً ، وأكثرها شعراً في وصف عدد الحرب من خيل وسلاح . كانت للمسلمين فيها حروب خارجية مع الروم والهنود والخزّمية ، وكان حظ العراق في المساهمة بهذه الحروب كبيراً . وكانت في العراق حروب داخلية كثيرة ؛ بين الترك أنفسهم ، وبين الفرس أنفسهم ، وبينهم وبين الترك ، وبين هؤلاء جميعاً وبين بني حمدان ؛ يتقاتلون متنازعين على امرة الامراء والسيطرة على الخليفة ببغداد . وكانت ثورات الزنج والقرامطة وثورة عمران بن شاهين . ووراء هذا كله كان ما يثيره العداء المذهبي بين السنة والشيعة من فتن يكثر فيها القتل والنهب والحرق .

ونستطيع أن نقول إن العراق لم يهدأ طيلة هذه الفترة ؛ وحسبنا أن نعلم أن ثورة عمران بن شاهين وحدها دامت أربعين سنة ، عنّى فيها الخلفاء والامراء والوزراء . حاربه معز الدولة فلم يقدر عليه ، وذهب إليه الوزير المهلبي فنجا بنفسه سباحةً بعد أن اسر الكثير من قواده ،

وقتل الكثير من عساكره . وبعث عضد الدولة إليه وزيره المطهر بن عبدالله فعجز ، وكبر عليه ذلك فانتحر بأن قطع شرايين يده فنزف دمه ومات .

وثورة الزنج دامت أربعة وعشرين عاماً ، وقد امتلأت كتب التاريخ بأحداثها وفظائعها ، وأما العداء المذهبي وما يثيره فقد استغرق هذه الحقبة وجاوزها الى ما بعدها .

شعر الحرب الوصفي :

حول هذه الحروب نشأ شعر كثير : وصفت به الحرب ووصفت به عددها من خيل وسلاح ، ووصف به خراب المدن الذي تسبب عن هذه الحروب . ولكن ماقيمة هذا الشعر الوصفي ؟ وما هي مكانته اذا قورن بغيره من الشعر الذي وصفت به الحروب ؟ ...

كان الشاعر الجاهلي يشهد المعركة ، ويكتوي بنارها ، وقد يشرف على القتل أو الهلاك فيها . وتنتهي المعركة فيذوق لذة الانتصار أو يذوق مرارة الاندحار والهزيمة ، ويقول الشعر فيها ، فينبعث الشعر ممزوجاً بفرحه ونشوته ، أو بألمه وخيبته ، ويزيد في هذا أنه يصف ما شاهد وأحسّ عن عيان وصدق ، ونرى هذا واضحاً في معلقة عنترة في وصف حرب داحس والغبراء ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم .

والشاعر في الغالب يختصر في الوصف ، ولا يتعرض إلا للحوادث

الهامة التي علقت بنفسه ولم تزل بزوال المعركة .

وربما كان المتنبي وحده الشاعر الذي حضر الحروب في هذه الحقبة وحارب بجيش سيف الدولة ، وذاق لذة النصر ومرارة الهزيمة ، وقال احسن الشعر العربي الذي قيل في وصف الحرب من قبل ومن بعد ، ويكفيه انه استطاع أن ينشد بمجلس سيف الدولة على رؤوس حساده :

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والطعن والضرب والقرطاس والقلم

* * *

ويؤسفني أن أقول إن شعراء العراق في هذه الحقبة لم يكونوا من الفرسان ، بل لم يكونوا - في الغالب - من الرجال الذين يحضرون المعارك ؛ يريد الوزير أن يخرج الى البطيحة لقتال الثوار هناك ، ويلح على ابن الحجاج في الخروج معه ، فيعتذر ابن الحجاج ويتوسل الى الوزير أن يخلي سبيله ويقول :

يا سائلي عن بكاي حين رأى دموع عيني تسابق المطرا

ساعة قيل الوزير منحدر أسرع دمعي وفاض منحدرا

هيهات أن أحضر القتال وأن ترى بعينيك فيه لي أثرا

والشاعر ابن نباتة السعدي ، مع أنه ملأ ديوانه[1] بوصف الحروب

---

(١) توجد نسخة من ديوان هذا الشاعر مخطوطة في مكتبة تيمور ، واخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

وعددها وهدد بنفسه وفخر ، ونحا نحو المتنبي في المغالات بقدره وقيمته ، مع هذا كله يريده سيف الدولة على الخروج معه الى بلد الروم لمشاهدة الفداء فيخاف ويمتنع ، ويكرهه سيف الدولة على ذلك إكراهاً فيقول :

وهبنا لا نخاف الروم فيها فكيف بسدّها كلّ الجهات
بمعضلة لو استصحبتَ فيها فؤادك لم يكن لك بالمواتي
ولكن ياعليُّ رضاك شيء أعزُّ عليَّ فقداً من حياتي

ولكن أيشترط في وصف الحروب أن يكون الشاعر حاضراً فيها ؟ ... إن الالياذة وهي الملحمة العالمية المشهورة ، نظمها شاعر اليونان هو ميروس في وصف حروب كان بينه وبينها مئات الأعوام ، وكذلك فعل الفردوسي شاعر الفرس في (الشاهنامة) . على أن الأبيات القوية الرائعة في هذه الملاحم أقل بكثير من الأبيات الضعيفة فيها . وربما كانت أشعار المتنبي في وصف حروب سيف الدولة ـ على قلتها ـ إذا قورنت بابيات الحرب في الشاهنامة تفوقها [1] وتعلو عليها من حيث الجودة . ولا شك عندي أن الشاعر يجيد وصف الحروب تقع في زمنه أكثر من إجادته لوصف الحروب وقعت وبينه وبينها مئات الأعوام . ولا شك أن خيراً من هذا وذاك ، ذلك الشاعر الذي يصف المعارك خاضها بنفسه ، وذاق حلاوة النصر ومرارة الهزيمة وخيبتها فيها .

---

(١) محاضرات الدكتور عزام لطلاب السنة الرابعة سنة ١٩٤٧ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

وشعراء العراق ، وإن كان فيهم من كان مثل ابن الحجاج لا تثيره الحرب ، وسيان عنده أن يغلب الأمير الذي ينتمي إليه أو يغلب ويقول :

إن الملوك اذا هم اقتتلوا أصبحت فيهم كلب من غلبا

فان الكثير منهم تأثروا بهذه الحروب ، ولاسيما هذه الحروب الخارجية التي أخذت شكلاً من العداء الديني أو الجنسي ، فهي مع الروم ـ زيادة على أنها حرب بين جنسين ، حرب بين دينين أيضاً ، وكذلك هي مع الهنود ، ومع أصحاب بابك . وربما كان الشاعر أبو تمام أحسن شعراء هذه الحقبة وصفاً لهذه الحروب الخارجية أو الدينية .

بلغ هذا الشاعر عنفوانه الشعري في عصر المعتصم ، والمعتصم رجل بأس وحرب . وكان عنصر الأتراك الذي جاء به الى المملكة في عنفوان قوته ، وعنفوان طاعته للدولة أيضاً . وكان العراق هادئاً من الثورات الداخلية ، ولم تكن بعد قد ظهرت فيه فتن القرامطة والزنج ، وفتن العداء المذهبي ، ولذلك استطاع الخليفة أن يوجه جيشه القوي الى حرب الروم فكانت وقعة عمورية المشهورة .

حرب عمورية ووصفها :

وشدد في أمر هذه الواقعة أن الثغور هناك كان يتناوبها الروم والمسلمون في الاستيلاء ، وانهم قالوا إن المعتصم إنما خف اليها على خيله البلق لانه بلغه ان امرأة هناك صاحت حين لطمها أحد العلوج « وامعتصماه » فقال لها متهكماً : « سيأتيك

على البلق » وزاد في ظروف المعركة أن المنجمين أنذروا المعتصم وخوفوه[1] عاقبة الحرب . وسار الخليفة اليها فاكتسح الرومان اكتساحاً، وكان له النصر المبين عليهم . هذه الأحداث كلها أهاجت شاعرية الشاعر أبي تمام فكانت قصيدته فيها من خير القصائد العربية في وصف الحرب . ولا أدري أشهد أبو تمام ساحة الحرب مع جيش المعتصم أم بلغه النصر وهو بعيد عن المعركة ، على أن الذي يبدو لنا أن هذه الحرب قد ملكت عليه حواسه ، حتى صار يتحدث عنها حديث الحاضر المشاهد :

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربي من ربعها الخرب[2]

---

(١) وقد اشار الى هذا أبو تمام في أول قصيدته بعدة أبيات ، منها :

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
عجائباً زعموا الأيام مجفلةً عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذ ابدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بينت قط أمراً قبل موقعه لم تخف ما حلّ بالاوثان والصلب

(٢) الربع : المحلة ، أو الدار . ومية هي عشيقة الشاعر ذي الرمة . وغيلان هو الشاعر ذو الرمة : شاعر اموي ، عاصر جريراً والفرزدق ، وكان ينشد أشعاره في « مربد البصرة » ولعل ابا تمام يشير في بيته هذا الى أبيات ذي الرمة في مطلع قصيدته المشهورة :

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده واخاطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

ولا الخدود وان ادمين من خجلٍ أشهى الى ناظرى من خدها التربِ

سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب

وهو حين يصف الحرب يعني بوصف محنة الروم أكثر من عنايته بفرحة العرب ، فكأن عاطفة التشفي منهم تثور فيه وتطغي على شاعريته ، فينسى أمامها فرح العرب . ويبدو احساسه بهذه الحرب على أنها حرب دينية أكثر منها حرباً يقصد من ورائها الفتح أو الغنم بان يقرنها بحرب بدر ، ويرى ان بين الحربين أقرب النسب ، يقول منها :

كم بين حيطانها من فارس بطلٍ قاني الذوائب من آني دم سرب (١)

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يشله وسطها صبح من اللهب (٢)

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفلٍ لجب (٣)

* * *

(١) قاني: أحمر. الذوائب : جمع الذوآبة ، وهي شعر الرأس الطويل ، وإرخاؤها من المستملح عندهم . وآني من ان الماء أو الدم ، أي صبه . والآني : الحار ، وأصله في الماء المغلي وقد استعاره هنا للدم . سرب : سائل . وسرب الماء : جرى على وجه الأرض ، ويقال هذا مسرب الماء .

(٢) الليل البهيم : المظلم . يشله : يطرده . يقول كأن ضوء النار يطرد الليل وهو كالاصباح لتوقده ، وتلهبه

(٣) الجحفل : الجيش الكبير . ولجب البحر يلجب لجباً : هاج واضطرب ، ولجب الجيش : صاح واضطرب

لما رأى الحرب رأى العين توفلسٌ ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب (١)

غدا يصرف بالاموال جريتها ... فعزّه البحرُ ذو التيار والعَبَب (٢)

هيهات زعزعت الارضُ الوقور بهُ ... عن غزو محتسبٍ لا غزو مكتسب (٣)

أسقى قرابينه صرف الردى ومضى ... يحث انجى مطاياه من الهرب (٤)

ان يعد من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعت جاحمها من كثرة الحطب (٥)

ثم يختم القصيدة بقوله :

---

(١) توفلس : هو تيوفيل Theophilus امبراطور الدولة الرومانية من ٨٢٩ ـ ٨٤٢ = ٢١٤ هـ ـ ٢٢٨ الذي قضى معظم ايامه في محاربة خلفاء بغداد . الحرب : سلب الأموال

(٢) يصرف بالاموال جريتها : اجتهد ان يرشي بالمال ، ليرفع عنه هذا التيار الجارف من الرجال . والتيار : الموج ، وسمي تياراً لأنه يجيء تارة بعد تارة . عزه : غلبه . العبب : صوت البحر ، ويروى « والحدب » أي المرتفع بأمواجه

(٣) هيهات أن يستطيع توفلس هذا ، والمعتصم يحارب لاعلاء كلمة الدين وكسب الأجر ، لا يحارب للسلب ونهب الأموال

(٤) أحسى : سقى . والقرابين : جمع قربان ، والقربان : جليس الملك الخاص . والبيت يروى هكذا أيضاً :

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى ... بحيث أنجى مطاياه من الهرب

انظر صفحة ٦٣ من كتاب « بدر التمام في شرح ديوان ابي تمام » للدكتور ملحم ابراهيم الأسود .

(٥) يعدو : يركض . والظليم : ذكر النعام ، وهو موصوف بالجبن والخوف والسرعة . الجاحم : الشديد الاشتعال

ان كان بين صروف الدهر من رحمٍ ... موصولة أو ذمام غير منقضبِ (١)

فبين ايامك اللائي نُصرت بها ... وبين ايام بدرٍ اقرب النسب

ابقت بني الاصفرِ المصفر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب (٢)

والقصيدة وصف صادق للمعركة الصاخبة. تخير منها أبو تمام أشد المواقف هولاً وأكثرها إثارةً للنفس: صورة الأبطال قد طرحت جثثهم وغودرت، وقد لطخ الدم الرؤوس وصبغ الشعر، وسال منحدراً منه.

وصورة المعركة وقد استحال ظلامها، لا نهاراً ولكن ضحي - وهو أشد ما يكون عليه النهار من الضوء - بنيران الحرب. ووصف حالة العدو المغلوب ومحنته. وفرحة أبي تمام بادية بوصف هذه المحنة حتى ليحس القارئ روح التشفي فيها.

وكما صُبغ جو الوصف بالنار والسيوف والرعب وأشلاء القتلى والدماء، صبغ بالقسوة المناسبة لهذه المعركة. وقد بان هذا في ألفاظ القصيدة حتى كأن أبا تمام يقتطعها من الصخر، وبان بما تحدثه هذه الألفاظ، تلتقي ببعضها، من صخب يكاد يحكي صخب المعركة في النفس. وساعد على هذا كله هذا البحر «البسيط» الذي يسمح للنفس أن

---

(١) الرحم: القرابة. الذمام: الحق والحرمة. منقضب: منقطع

(٢) بني الأصفر يقال للروم بني الأصفر، وقد عرفوا بهذا الاسم بين العرب. وفي بعض النسخ لفظة «المراض» بدل المصفر. والمراض: الكثير المرض. جلت اوجه العرب: تعالت وعظمت بهذا النصر الذي احرزته في يوم عمورية هذا.

يمتد وأن ينبسط فيه ، من غير أن تفارقه القوة في امتداده وانبساطه . وفي الجملة فان القصيدة قد تضافر فيها عقل أبي تمام وعاطفته . على أن الصنعة قد أفسدت عليه بعض معانيه ، كالذي نراه واضحاً في البيت الأخير وفي بعض أبيات القصيدة .

حرب بابك ووصفها :

وفي أول القرن الثالث ثار بابك ، وهزم جيش المأمون وقواده ، وعنى المعتصم ، وهزم عساكره في أول الأمر ، ثم انتصر قواده عليه ، فجيء به الى سامراء حيث شهروه على فيل وقتلوه .

وأثارت هذه الحادثة في نفس أبي تمام ما أثارته عمورية من الشعور الديني . ومدح أبا دلف(١) العجلي ، وهو القائد العربي المشهور في جيوش المعتصم التركية ، فلم يفته أن يشير الى هذه الحرب وأن يصفها :

إن الخليفة والأفشين قد علما ... من اشتفى لهما من بابك وشفا (٢)

---

(١) أبو دلف : هو القاسم بن عيسى بن ادريس ، من بني عجل ، ومحله في الشجاعة والكرم ، وعظم الغناء في الحروب ليس لأحد من نظرائه . وله أشعار جيدة ، وصنعة كثيرة في الغناء حسنة ، كان صاحباً لأحمد بن ابي دواد زعيم المعتزلة في عصر المعتصم ، وهو الذي خلصه من الأفشين ، حين هم الأفشين بقتله . انظر اخباره وأشعاره في كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني .

(٢) الافشين قائد المعتصم الأكبر ، وهو تركي العنصر ، انتهت حياته بأن اتهم بالزندقة والفت له محكمة ، كان فيها أحمد بن ابي دواد ومحمد بن عبدالملك الزيات . وقد اسندوا له تهماً عديدة ، ثم صلبوه وأحرقوه . والمحاكمة ممتعة كتبها الاستاذ أحمد أمين بك في كتابه ضحى الاسلام

في يوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقاً وابلاً قصفا (١)
فكان شخصك في اغفالها علماً وكان رأيُك في ظلمائها سدفا (٢)
نضيته دلفيـــاً من كنانته فأصبحتْ فوزةُ العقبى له هدفا (٣)

* * *

ومر بابكُ مرَّ الريح مُنجذباً محلولياً دمه المعسولُ لو رُشفا
حيران يحسب سجف النقع من دهش طوداً يحاذِر أن ينقضَّ أو جُرفا (٤)
ظل القنا يستقي من صفحه مُهَجاً إما ثماداً وإما ثرَّةً خَسفا (٥)

ونرى ابا تمام يعرض في وصفه هذا لنفس ما عرض له في وصف

---

(١) القصف : من الرعد القاصف وهو الشديد الصوت . ارشق : اسم مكان وقعت فيه واقعة مشهورة مع بابك الخرمي . رشق السهام : رماها . والوابلُ : المطر الغزير . يريد ان رشق السهام كالوابل من المطر شدةً وكثرةً .

(٢) السدف : الظلمة ، ومنه قولهم ، سدف الليل أي اظلم . ولكنها هنا على لغة قيس ـ معناها الضوء . كان شخصك في اغفال هذه الواقعة ، كالعلم أي كالجبل ، كما كان رأيك في ظلماتها ثاقباً كالنور .

(٣) نضيته أي الرأي ، وقد شبهه بالسهم ينضى . الكنانة : جعبة السهام فوزة العقبى : أي الفوز الأخير ، يريد قد دبرت رأياً ثاقباً خص بك ، للقبض على بابك فكان الفوز مؤكداً فيه ، وقد خاب كل رأي غيره .

(٤) السجف : الستر . النقع : غبار الحرب . الطود : الجبل . الجرف : الطرف في حاشية النهر الذي أكله الماء فصار ينهار تباعاً .

(٥) المهج : جمع مهجة وهي دم القلب . الثماد : الماء القليل . الثرة : العين الغزيرة الماء . الخسف : الكثيرة الماء .

عمورية ؛ فوصف هنا حالة « بابك » منهزماً ، كما وصف هناك حالة توفلس ووصف هنا الرعب الذي يعترى نفسه المنهزمة حتى يخال سجف النقع من دهشته جرفاً ينهار أو طوداً ينقض . ووصف الغيظ عليه حين صوبه دمه معسولا يتمنى أن يرشفه رشفاً ، وماذا وراء تصوير هذا الغيظ ! ؟ وظلت هذه الحرب تذكر فتثور حولها العواطف ، فالبحتري مع انه جاء بعد ان انقضت ايام هذه الوقائع ، لم يفته ان يصفها حين أراد مدح ابي سعيد محمد بن يوسف في قصيدته :

زعم الغراب منبيء الأنباء أنّ الاحبةَ آذنوا بتنائي

وان يقول :

مازلت تقرع باب بابك بالقنا وتزوره في غارة شعواء (١)
حتى أخذت بنصل سيفك عنوة منه الذي أعيا على الخلفاء
اخليت منه البذّ وهي قراره ونصبته علماً بسامراء (٢)

ثم يصف صلب بابك ، ويصف حرب أبي سعيد هذا للروم :

---

(١) الغارة الشعواء : الغارة المتفرقة الممتدة ، ومنه قولهم : شجرة شعواء أي منتشرة الأغصان .

(٢) البذ : مدينة واقعة بين اذربيجان وآران ، وهي المدينة التي التجأ إليها بابك حين ضايقته جيوش الأفشين ، وقد بقي محاصراً فيها ، حتى اذا مل الحصار هرب في زي التجار قاصداً بلاد الروم ، ولكنه قبض عليه فاعيد الى الأفشين الذي جاء به الى « سامراء » حيث صلب وانتهى أمره .

ووصلت أرض الروم وصل كثيرٍ أطلال عزة في ذرى تيماء (١)

في كل يوم قد نتجت منية لحماتهـــا من حربك العشراء

بالخيل تحمل كلّ أشعثَ دارعٍ وتواصل الادلاجَ بالاسراء (٢)

وعصائب يتهافتون إذا ارتمي بهم الوغى في غمرة الهيجاء

مثل اليراع بدت له نار وقـــد لفته ظلمة ليلةٍ ليـــلاء (٣)

والبحتري بوصفه هـــذا يشير الى حب العرب للحرب ، فهم يقصدون أرض الروم غير متخوفين ولا هيابين ، وبقصدونها والشوق يحدوهم إليها كما يحدو «كثيراً» الى أطلال عزة . والبحتري هاديء في قصيده هذا لا يشعرنا باضطراب الناس في الحرب كما أشعرنا به أبو تمام

---

(١) تيماء : بالفتح والمد ، بليد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد ، حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرف عليها ، فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي .

وكثير : شاعر عاش في العصر الأموي وتوفي سنة ١٠٥ هـ ، وهو من شعراء بادية الحجاز المعروفين بغزلهم العذب الرقيق . وعزة : حبيبته التي يشبب بها ، ولعل البحتري أشار في بيته هذا الى مطلع تائية كثير :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّت

(٢) الأشعث : المغبر الرأس ، يريد أن الغبار قد غبر رأسه لكثرة غشيانه الحرب . ورجل دراع : عليه درع . الادلاج : المسير من أول الليل . والاسراء : السير بالليل .

(٣) اليراع : ذباب يطير في الليل كأنه نار . وليلة ليلاء : ليلة حالكة الظلام .

في بائيته في عمورية ثم يصف الدرع . وقد اختار أبو هلال العسكري أبياته هذه على أنها من خير ما وصفت به الدروع :

يمشون في زرد كأن متونها ... في كل معركة متون نهاء
بيض تسيل على الكماة فضولها ... سيل السراب بقفرة بيداء
واذا الأسنة خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكب في ماء

والبحتري قد اتجه في وصف الدروع الى وصف البدو الجاهليين لدروعهم فأخذ صورهم ومعانيهم ، وما أجمل هذا الايحاء الذي توحيه هذه الصور !. على أنها أفعل في نفوس البدويين أهل الصحراء منها في نفوس الحضر أهل الأنهار والمياه . فوصف الدروع بالغدران تضربها الريح ، يوحي للعربي ساكن الصحراء بصورة الغدير الذي أحبه فينضح حبه على الدرع .

أما الصورة الأخيرة فخيالها يعشقه الحضر كما يعشقه البدو ، وقد قال عنه ابو هلال « ومعنى البيت الأخير ، دقيق غريب ، حسن مصيب ما أظنه سبق إليه » :

أبناء موت يطرحون نفوسهم ... تحت المنايا كل يوم لقاء
أشلى على منويل أطراف القنا ... فنجا عنيق عتيقة جرداء
فلئن تبقاه القضاء لوقته ... فلقد عممت جنوده بفناء
أثكلته أشياعه وتركته ... للموت مرتقباً صباح مساء

ونرى البحتري في أبياته هذه يسلك مسلك ابي تمام في حديثه عن حالة الروم وخيبتهم في الهزيمة وهو قد أكثر من حديثه عن فرح أبي سعيد في الانتصار. على أنه لا يمعن في هذا الوصف امعان أبي تمام فيه. ونراه أيضاً لا يصف ظروف المعركة، ولا ما يكون فيها من كر وفر، ذلك لأنه لم يحضرها، بل ربما لم يحضر معركة في حياته.

وقريب من وصفه هذا وصفه في قصيدته البائية [1] لنفس الممدوح في حرب الروم.

ونلاحظ أن اسلوب البحتري في الوصف غير اسلوب ابي تمام، وربما كان شعر ابي تمام أليق لوصف الحرب من شعر البحتري. إن الحماسة والمعارك تناسبها الالفاظ الضخمة الجزلة؛ تشعر بالضجيج والقعقعة، وتحيط السامع بجو صاخب يشبه جوّ المعارك، وهذا ما نراه في شعر الحماسة الجاهلي، الذي وصفت به الحروب والمعارك. واسلوب البحتري أليق بوصف العشق، وفي وصف ساعات الغزل والعتاب بين العشاق منه بوصف المعارك والحروب.

ثورة الزنج :

وثمة حرب اخرى داخلية، ولكنها كالخارجية في نظر المسلمين إليها، تلك هي حرب الزنج [2]، كانت حرب طبقات

---

(١) انظر ديوان البحتري ص ٧٥

(٢) انظر الفصل الممتع الذي كتبه الصديق الدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه « دراسات في العصور العباسية المتأخرة » عن ثورة الزنج، وهو — على ما نعرف — أفضل ما كتب بالعربية عن هذه الثورة.

أول أمرها بين الفلاحين وأصحاب الأراضي ؛ بين الفلاحين الزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ عن ارض جنوب العراق ، وبين أصحاب الأراضي هناك ، ثم تحولت الى حرب عنصرية بين الجنس الأسود والجنس الأبيض . وقد جاء الزنوج في هذه الحرب من الفظائع ما ألب عليهم المسلمين ، وجعلهم ينظرون إليهم نظرة عدائية دونها نظرتهم الى الروم .

وكان لهذه الحرب مظهر آخر تختلف به عن حروب المسلمين عامة ، فالعرب امة برية تتقن حروب البر ، والشعر الذي قيل في حروبهم كله وصف للحروب البرية . أما هذه الحرب فحرب نهرية ، كان مسرحها انهر العراق الجنوبي ، وكان من أسباب انتصار الزنوج وإطالة أمدهم أنهم أعرف بحرب الأنهار من قواد الدولة وجنودها الذين اعتادوا على الحرب البرية .

والشعر الذي قيل في وصف هذه الحرب يكاد يكون جديداً في معانيه أيضاً ؛ نعم لقد كانت للعرب حروب بحرية مع الرومان وكانت واقعة « ذات الصواري » في زمن الخليفة عثمان بن عفان واقعة كبيرة حشد الرومان فيها نحو ستمائة سفينة ، وصدمهم المسلمون ، بعد أن قربوا سفنهم وربطوها ببعضها ، ثم اقتتلوا بالسيوف والخناجر ، وصبروا حتى هزم الروم وجرح قائدهم .

ولا نعرف شعراً قيل في وصف هذه المعركة . وقد مرّ بنا أن

المسلمين يقولون - في الكثير من المعارك - ساعة الحرب رجزاً ، وكذلك كانت الصيحة التي صاحها عبدالله بن قيس ، قائد المسلمين في هذه المعركة : (الغمرات ؛ ثم ينجلينا) وشطر الرجز هذا يحوي - فوق رنته الموسيقية - كل معاني التشجيع والاستبسال والصبر على الموت .

ونعود فنقول إن حرب الزنج أنتجت لنا شعراً وصفياً ، للحروب النهرية . على أنه قليل أيضاً ، لا يتناسب مع طول هذه الحروب . وأعلل هذا في أن أغلب المعارك التي وقعت بين الزنوج وبين غيرهم من أهل العراق ، كان النصر حليف الزنج فيها ، يقول ابن المعتز عن صاحب الزنج :

وهزم العساكر الجليلة بشدة البأس ولطف الحيلة
ورامه موسى فما أطاقه ومجّهُ من فيه حين ذاقه
وقد سقي مفلح كأس القتل وشكّهُ بمخصف ذا نَصلِ
وكم سوى ذاك وهذاك وذا أبادهم حتفاً وقتلاً هكذا

والشاعر يقول في وصف المعركة ينتصر فيها ، أو ينتصر فيها قومه . أما في المعركة التي يهزم فيها فيقول الرثاء أو يسكت . وهذا هو الذي نلحظه في وصف معارك العرب في جاهليتهم وأول اسلامهم . والذي كثّر شعرهم حول الحروب أنها كانت سجالاً بينهم ؛ يتناوبون فيها النصر كما يتناوبون فيها الهزيمة وليست حرب الزنج هكذا ؛ ظل النصر حليفهم في أول الأمر في أغلب حروبهم حتى ، اذا هزموا ولّوا وذهبت ريحهم .

واستبعد أن لا يكون بين الزنج ، أو من تابعهم شاعر يتغنى بانتصاراتهم ويحثهم برجزه أو قصيده على الحرب ، كما كان يفعل أعشى همدان [١] في ثورة ابن الأشعث على الحجاج وعلى بني امية ، ولكن الذي أظنه أن هذه الأخبار التي وصلتنا عنهم لم يكتبها كتاب يؤيدونهم ، بل لم يكتبها كتاب محايدون يؤرخون الحوادث والأحداث كما هي ، ولكنهم كتبوا والعصبية قد طغت عليهم ، وزاد فيها ما فعله الزنج من فظائع ، وما بثته الدولة حولهم من دعايتها . هذه كلها جعلت الناس لا يسمون زعيمهم إلا بالدعيّ أو الفاسق أو الخبيث . وطبيعي أن لا يصلنا شعر يصف به هؤلاء معاركهم وانتصاراتهم .

ووصف البحتري حرب ابن المدبر [٢] مع الزنج ، ولكن ابن المدبر جرحه الزنج في وجهه وأسروه ثم أفلت من الاسر ، فشغل البحتري في وصف حاله ساعة الاسر ، وراح يصف الظروف التي الجأته الى الاسر ويعتذر عنه ، وشغل بهذا عن وصف المعركة ، يقول من قصيدة طويلة :

---

(١) انظر أبياته :

إن ثقيفاً منهم الكذّابان ... كذابها الماضي وكذاب ثان

أمكن ربي من ثقيف همدان ... يوماً الى الليل يسلّي ما كان

(٢) كان من ذوي الجاه في كبار الأعمال ، وكان الخليفة المتوكل يقدمه ويؤثره بفضله ، حتى كان موضع الحسد على هذا من حاشية الخليفة ، وهو كاتب شاعر ، له صلة « بعريب » الجارية ، وله أشعار كثيرة فيها . والبحتري هنا يعني بناحيته الحربية .

من مخبري بابن المدبر في الوغى ... يزجي أواخر قسطلٍ منجاب
غضبان يجلى عن مضارب سيفه ... عكرات خمس في الحديد غضاب
لو أنه استام النجاة لنفسه ... وجد النجاة رخيصة الأسباب
أو اسعدته خيله لتتابعت ... آلاف قتلى بذّة الأسلاب

* * *

نصبت جبينك للسيوف حفيظة ... صرفت اليك نفائس الهرّاب
وابيت اعطاء الدنية دونهم ... ان الأبيّ لأن يعير آبى
كانت لوجهك دون عرضك اذرأوا ... ان الوجوه تصان بالأحساب
ولئن اسرت فما الاسار على امرئ ... لم يأل صدقاً في اللقاء بعاب
لو كان غيرك كان منحرك القوى ... لما مضى بك ضيق التلباب

والقصيدة طويلة يعتذر فيها البحتري على نحو ما رأينا في هذه الأبيات لابن المدبر ويمدحه ، ويشغله الاعتذار عن وصف الحرب أو السلاح .

وضج الناس من أمر الزنج وفظائعهم :

وشكت الأرض الى السماء ... مافوقها من كثرة الدماء (١)
وضاقت القلوب في الصدور ... وأيقنت بحادث كبير
وارتفعت أيدي العباد شرّعا ... بعد الصلاة جمعاً فجمعا

حتى اذا كانت حالة الناس هكذا بلغهم انتصار أبي طلحة الموفق وهو

(١) ارجوزة ابن المعتز

القائد البطل الذي ضرب على يد الأتراك وشلها وهزم صاحب الزنج بعد معارك ومحاصرات طويلة، ثم جاء به بعد قتله فاقامه مصلوبا يتفرج عليه الناس.

هذا الحدث أهاج شاعرية البحتري فكان كأبي تمام في يوم عمورية. وقد وصف الحرب هذه المرة وأجاد في وصف المعارك النهرية، التي لا نعرف للعرب - إلا نادراً - شعراً فيها، ومن جميل التفاته في الوصف أن الماء صار دماً وان الجريح من الزنج يشربه فيمجه لكثرة مافيه من الدم، هذا مع مابه من حرارة الجرح التي تدفعه الى الماء دفعاً. ويصف المعركة فتهيج عواطفه حتى ينسى نفسه، ولا يقول كتائب الموفق أو كتائب المسلمين هي التي هاجمت صاحب الزنج ولكنه يقول: «كتائبنا تطيح كتائبه» والقصيدة طويلة يمدح فيها البحتري الموفق بالله، منها:

وما كان يدرى صاحب الزنج أنه ... اذا أبطرته غفلة العيش صاحبه
تباعد من شكل الأنيس بقسوةٍ ... موهمـــة أن السباع تناسبه
ولم أر كالملعون أثرى ذخيرة ... وأبقى دماً والحادثات تجاذبه
اذا قلت بيض المشرفية أهمدت ... حشاشته كرت تثوب ثوائبه
يبث المنايا، والمنايا بحزنـــه ... ويكمن منه الحتف والحتف كاربه

* * *

يلوذ بهور البحر فالفوز عنده ... من الدهر يوم تستغل جنائبه
اذا انحاز ينوي البعد حثت وراءه ... عتاق الشذا بالمرهفات تصاقبه

فان لم تشف العين للعين اكثبت مسامع مدعوٍ لداع يجـــاوبه
إذا ما تلاقوا حضرة الموت لم ترم كتائبنا حتى تطيح كتائبه
ترى واشج الخرصان يهتك بينهم نحور الاسود أو تروي ثعالبه
يغالب طعم الماء في ملتقـــاهم حسى الدم حتى يلفظ الماء شاربه
اذا تبع الرمح المركّب رأســـه عليه بلعن قلت إن وراكبه

* * *

ولم تلف عضواً منه إلا ضريبة لأبيض مأثور تهاب مضاربه
وكان شفاء صلبه لو تألفت له جثة يُرضى بها العين صالبه
تعجل عنه رأســـه وتخلّفت لطيتها أوصـــاله ومناكبه
فأصبح منصوباً على الناس يقتدى بآباء من أمسى لينظر صالبه

ونرى البحتري بدأ وصفه بذكر قسوة صاحب الزنج وما لقي الناس من أهواله . ويبدو لنا أن الناس كانوا يرعبون منه ، وكانت الدولة كل يوم تذيع على سبيل الدعاية ـ كما يفعل في حروب عصرنا هذا ـ أنه قتل وأن جيوش الدولة قد خذلته وانتصرت عليه ، ثم يعود الناس فيسمعون أنه ما زال حياً يحارب .

بعد هذه المقدمة يصف البحتري كرّه وفرّه ويعجل في وصف المعركة فيوحي بها حامية الى نفس القارئ ؛ قد صبغ الدم الماء ، وقد ألهب حر الجرح والعطش نفوس المحاربين . ويشير الى أن جثته أصبحت

شتاتاً، وكان يتمنى لو بقيت سليمة ليتشفى بها ساعة تصلب . وقد أجاد البحتري في وصف هذه الحرب النهرية . يقول ابو هلال العسكري : « ولم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري » ويروي الصولي عن ابن المعتز أنه كان يقول : لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى ، فليس للعرب سينية مثلها وقصيدته في ... ووصف حرب المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه ... وكان كثيراً ما ينشد له ويعجب من جودته :

غدوت على المأمون صبحاً وإنما ... غدا المركب المأمون تحت المظفّر

اذا زمجر النوتي فوق علاته ... رأيت خطيباً في ذؤابة منبر

اذا ما علت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب في سماء مهجر

تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... اذا اصلتوا حد الحديد المذكّر

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... ضراب كما يقاد اللظى المتسعّر

يسوقون اسطولاً كأن سفينه ... سحائب صيفٍ من جهام وممطر

كأن ضجيج البحر بين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع عود مجوجر

تقارب من زحفيهم فكأنما ... تؤلف من أعناق وحش منفّر

على حين لا نعم تطوحه الصبا ... ولا أرض تلفى للصريع المقطر

والقصيدة طويلة يقولها البحتري في مدح أحمد بن دينار بن عبدالله يصف المركب الذي اتخذه لحرب الروم . والحقّ أننا لا نعرف شاعراً

عربياً يزاحم البحتري في هذا الشكل من الوصف . وقد نظرتُ في قصيدة ابن هاني التي منها « أما والجواري المنشآت » فوجدتها ليست شيئاً اذا قيست بقصائد البحتري في هـذا الباب ، وهي كما قيل عن عامة شعر ابن هاني « جعجعة ولا طحن » .

وصف ابن المعتز :

وابن المعتز وصافاً لعدد الحروب أحسن منه وصافاً للمعارك ، يصف المعارك على سبيل الفخر ؛ يفخر بأنه من بني العباس الذين أذلوا بني امية ، وأخذوا منهم الملك ، ويفخر على العلويين بأنهم ثأروا لهم من بني امية ، بعـــد أن اتخنهم الأمويون ولم يستطيعوا لأنفسهم دفعاً .

وهو يتجه في الوصف الى وصف الظواهر والاشكال ، كما هي عادته في عامة شعره ، يعمد الى ما تبصره العين في الغالب فيصفه بأن ينتزع له تشبيهاً معروفاً مشهوراً ، يقول :

وقد أشهد الغارات والموت شاهد ... يجور بأطراف الرماح ويعدل

بطعن يضيع الكف في لهواته ... وضرب كما شق الرداء المرعبل (١)

وخيل طواها القود حتى كأنها ... انابيب سمر من قنا الخط ذبّل (٢)

---

(١) اللهوة : ما يلقيه الطاحن من الحب في فم الرحى بيده . الرعبولة : الخرقة المتمزقة ، ورعبل الثوب : مزقه . والرداء المرعبل : البالي

(٢) القود : ان تقاد الخيل ولا تركب . والخط : مرفأ للسفن بالبحر بن حيث تباع الرماح الخطية . والذوابل والذبل : الرماح الدقيقة .

صبينا عليها ظالمين سياطنـــا فطارت بها ايد سراع وأرجل (١)

أو يقول على سبيل الفخر كما هي عادته في جزء كبير من شعره :

سليني اذا ما الحرب ثارت بأهلها ولم يك فيهـــا للجبال قرار

ودارت رحى الموت والصبر قطبها وأكثر ما فيها دم وغبـــار

وقام لها الابطال بالبيض والقنا وهبت رياح الآخرين فطاروا

وقد علم المقتول بالشـــام أنني أريد به من رامني وأغار

اذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت وراني هاشم وتزار

وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار

وبي كل خوار العنان كأنه اذا لاح في نقع الكتيبة نار

وقمص حديد صافيات ذيولها لها حدق خزر العيون صغار

وبيض كأنصاف البدور ابية اذا امتحنهن السيوف خيار

وابن المعتز في أبياته هذه يحاول وصف المعركة كما تبصرها العين ؛ فهو يحاول نقلها كما هي في ظاهرها ويدع للقارئ ان يتصور ما يجري فيها ؛ فالطعن يضيع الكف في لهواته ، والحرب شديدة لا تقر لها الجبال ، والدم والغبار قد ملأ الدنيا ، ورجال الحرب قد لبسوا عددهم وتهيأوا . وهكذا نراه في ابياته هذه قد وصف الحرب والخيل والدروع والبيض ، ولم يترك شيئاً من هذه من غير أن يشبهه بصورة حسية معروفة .

---

(١) انظر الى لفظة « ظالمين » والى جمال موقعها في بيته هذا الذي يكثر دورانه في كتب البلاغة .

وكما ملئ ديوان ابن المعتز بالفخر ووصف الحروب، ملئ ديوان الشريف الرضي بهذا الوصف ايضاً. والشريف الرضي شاعر عاش بماضيه ومستقبله؛ يرى ان الخلافة كانت لهم وانها اغتصبت من عهد امير المؤمنين علي بن ابي طالب جدّهم. وينظر حوله الى خلفاء بني العباس فيرى نفسه خيراً منهم أدباً ونسباً وعلماً، وينظر ثانية فاذا هم الخلفاء دونه، واذا هو مضطر الى مديحهم ومداراتهم. هذه الحال التي عاناها الشريف الرضي جعلته يتعلق بماضيه، ويذوب آسى لأجداده يثورون فيخذلون ويقتلون. ويتعلق بمستقبله؛ يوم يثور ويكر الكرّة على الاعداء فيثأر لاجداده ويحقق لهم بنفسه ما طمعوا فيه من امر الخلافة. هذا من جهة، ويحقق لنفسه صبوتها ومناها في الخلافة من الجهة الثانية.

وصف الشريف الرضي :

هذه الحياة لفتته الى الماضي وجعلته يصف حروب العلويين ولا سيما حرب الحسين. وهو وصاف بارع لا نعرف له مثيلاً في هذا. تملأ الأحداث نفسه فيندفع يصفها بنفَس حزين، يتجاوز فيه اشكال الحرب والسلاح وكيف دارت المعركة، ويوجز في هذا كلّ الايجاز، حتى اذا جاء الى نتيجة المعركة وفيها الحرب والخذلان لاسلافه، اندفع يصف ويفيض في الوصف، فيبعث شعره في النفس ما لا يبعثه اعنف اشعار الرثاء واحرها. واليك بعض ابياته من قصيدة الطف:

كم حَصانٍ الذيل يروى دمعها خدّهـــا عند قتيل بالظما
تمسح الترب على إعجالها عن طلى نحر رميلٍ بالدما (١)
جزروا جزر الأضاحي نسله ثم ســـاقوا اهله سوق الاما
غسلوه بدم الطعن وما كفنوه غير بوغاء الثرى (٢)
حملوا رأساً يُصلون على جدّه الأكرم طوعا وابا
لو رسولُ الله يحيـا بعـده قعـد اليـوم عليـه للعزا

ويتحرق الشريف غيظاً من هذا الماضي الحزين فيحفزه الى الثورة والانتقام، ولا يرضى أن يتخذ من ابن الاشعث (٣) مثلاً، ويرى أنه تقلد عارها يوم «دير الجماجم» حين هرب بعد أن خذل. ويحتذي بيزيد ابن المهلب الذي فضل الموت على الهزيمة، أو يتخذ من مصعب بن الزبير مثلاً حين أعطى الأمان فأباه، وأبى إلا أن يموت في الحرب. ويملأ نفسه بماضيه، وبما سيفعله في مستقبله فيقول:

وعندي يوم لو يزيد ومسلم بدا لهما لاستصغرا «يوم واقم»

ثم يصف الحرب التي سيوقدها وسيخوضها:

الا هل أُخيض الطِرف يوما بغمرة اذا الخيل بالغُرّ الوجوه تمطتِ (٤)

---

(١) رميل بالدما: أي ملطخ بالدم

(٢) البوغاء: ما ثار من الغبار ودقاق التراب، وبوغاء الطيب: رائحته

(٣) انظر ديوان الشريف الرضي

(٤) الطرف (بالكسر) الكريم من الخيل. الغمرة: الشدة، وغمرات =

ولم تلق فيها غير طعن مضبجٍ ... وضرب سريع بالمنايا مسكّت

ترنّ له هام الرجال وإن رمت ... بأعينها فيه النساء ارنّت (١)

فسوف تراني طايراً في غبارها ... على سابحٍ تهفو غدائر لمتي

بيوم كثير بالغبار عُطاسه ... اذا ثوّب الداعي قليلِ المشمت (٢)

معارك يخدجن المهار وبعدها ... مناعي رجالٍ ملقيات الأجنة (٣)

ورمحي الى الاعداء كيدي وصارمي ... جناني يوم الروع، والصبر جنّتي (٤)

وكلّ غلام ذي جلادٍ ونجدة ... وكل جوادٍ ذي هبات ومِيعة (٥)

=الموت : شدائده . والغرة : بياض في جبهة الفرس . والرجل الأغر : الرجل الكريم الشريف ، يقال « فلان غرة قومه » أي سيدهم . والتمطي : التبختر ، ومد اليدين في المشى

(١) الرنة : الصوت ، يقال رنت المرأة (ترن) بالكسر (رنيناً) و (أرنت) أي صاحت ، ومنه أرنت القوس : صوتت .

(٢) التثويب : الحض والحث . والتثويب ، في آذان الفجر ، ان يقول المؤذن : « الصلاة خير من النوم »

(٣) يقال خدجت الناقة واخدجت : اذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت ايامه تامة ، والمهار : جمع مهر وهو ولد الفرس . والأجنة : جمع جنين .

(٤) الروع : الفزع . وفي أساس البلاغة « ومن المجاز شهد الروع اي الحرب » . والجنة بالضم ما استترت به من سلاح

(٥) الهبوة : الغبرة . الميعة : جرى الفرس . ويقال : الفرس في ميعة حضره وهي اوله وأنشطه

اذا اعترض المأمولُ من دونه الردى شققتُ اليه الدارعين بمهجتي (١)

وغامست فيه لا ابالي لو أنني تلقيت منه مُنيتي أو منيَّتي

أو يقول في قصيدة :

ولله ليل يملأ القلبَ هولُهُ وقد قلقت بالنائمين المراقد

يقرُّ بعيني أن أرى أرض بابل تخوض مغانيها الجيادُ المذاودُ (٢)

وأسحب فيها بردَ جذلان شامتٍ إذا شاء غنَّته الرقاق البوارد (٣)

وصف الخيل :

ووصفوا الخيل (٤) وأمعنوا في وصفها ، واتجه ابن المعتز الى وصف أجسامها ، فهو يصف حوافر الخيل ، ووقعها في التراب ، ويصف غرتها وآذانها ، ويصف عيونها وأكفالها وأذنابها ، ولا يفوته وصف منخرها ولونها :

---

(١) الدارعين : جمع الدارع وهو لابس الدرع

(٢) انظر الكلام عن لفظة « بابل » في صفحة ٨٧ من هذا الكتاب .

(٣) البرد : ثوب مخطط ، ومن امثلتهم « وقع بينهم قدُ برود يمانية » اذا تخاصموا حتى تشاقوا ثيابهم الغالية ، وهو مثل في شدة الخصومة . والرقاق البوارد: السيوف الحادة القاطعة

(٤) في وصف الخيل ، انظر ديوان ابي تمام ص: ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢١٢ . وانظر من ديوان البحتري : صفحة ١٦٠ ، ١٦١ وانظر من ديوان الشريف الرضي صفحة ٥٥٩ ، ٧٧١ ، ٧٤٧ ، ٧٥٥ ، ٨٤٨ ، ٨٧١ وانظر منتخبات من شعر الوصف في آخر هذا الكتاب

وسابح مسامح ذو ميعة ... كأنه حريق نار تلتهب (١)

عاري النسا تنتهب الترب له ... حوافر باذلة ما ينتهب

تصالح الترب اذا ما ركضت ... لكنها مع الصخور تصطخب

تحسبه يزهي على فارسه ... وإنما يزهى به اذا ركب

أسرع من لحظته اذا رنا ... أطوع من عنانه اذا جذب

ذو غرة قد شدخت جبهته ... واذن مثل السنان المنتصب

وناظر كأنه ذو روعة ... وكفل ململم ضافي الذنب

ومنخر كالكير لم تشق به ... أنفاسه ولم يخنها في تعب

يبعثها شمائلاً وينثني ... جنائبا الى فؤاد يضطرب

قد خاض في يوم الوغى في حلة ... حمراء تزديها العوالي والقضب

في غمرة كانت رحى الموت لها ... تدور والصبر لها مني قطب

* * *

والبحتري ـ كما رآه أبو هلال ـ أوصف المحدثين للخيل وأكثرهم إجادة في نعتها . وهو حين يصفها لا يتجه الى وصف أعضائها الظاهرة كما يفعل ابن المعتز ، ولكنه يقول على هذا النحو :

فلم أر مثل الخيل أبقى على السُرى ... ولا مثلنا أحنى عليها وأشفقا

(١) يقال فرس سابح وسبوح وخيل سوابح . والسابح من الخيل الذي يمد يديه في عدوه ، وانظر السطر الثاني من صفحة (٢٢٦) من هذا الكتاب . وميعة الفرس : اول جريه

وما الحسن إلا أن تراها مغيرةً تجاذبنا حبلاً من الضبح أبرقا (١)

فكم من عظيمٍ أدركته صدورها فبات غنياً ثم أصبح مملقا

والشريف الرضي يكثر وصف الخيل إكثاره لوصف الحروب ، ولكنه حين يعمد الى وصفها يتخذ منها وسيلة لمدح ركابها ، وهو لا يجعل ركابها - في أغلب قصائده - إلا نفسه أو أتباعه :

خليليَّ قد خفَّ الهوى وتراجعت الى الحلم نفسٌ لا يعزُّ مُذيلُها (٢)

فلست ابن امّ الخيل إن لم أُمِلْ بها عوابسَ في دار العدو ابيلها (٣)

اذا انجفلت من غمرة ثاب كرّها وعاد الى مرِّ المنايا جفولها (٤)

يزعفر من عض الشكيم لعابها ويرعُدُ من قرع العوالي خصيلها (٥)

---

(١) الضبح : صوت انفاس الخيل عند العدو ، يقال جاءت الخيل ضوابح. وفي القرآن الكريم « والعاديات ضبحاً » . الابرق : الغليظ ، وهو في الأصل يطلق على الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين .

(٢) المذيل : من اذاله : أهانه ، و « اذال فرسه وغلامه » : لم يحسن القيام عليها فهزلا وفسدا

(٣) ابل : احسن سياسة الابل ، وهو هنا يعني الخيل

(٤) انجفلت : هربت مسرعة خائفة . وغمرة الشيء : شدته ، وهو يعني هنا غمرة الحرب . وثاب : رجع

(٥) يزعفر : يصبغ كصبغة الزعفران . الشكيم في اللجام : الحديدة المعترضة في فم الفرس . والخصيل : من قولهم « ارتعدت فرائصه واضطربت خصائله » جمع خصيلة ، وهي كل لحمة فيها عصب .

واعطف عن خوض الدماء رؤوسها فقد فقدت أوضاحها وحجولها (١)

توقر من عُنف السياط مراحُها وغاض على طول القياد صهيلها

ونحن القروم الصيد إن جاش بأسها تُنوذر مرعى ذودها ومقيلها (٢)

وإذا كان الشعراء قد اعتادوا وصف خيولهم بما يستحب من صفات الخيل كما فعل ابن المعتز، أو وصف جريها وسرعتها كما فعل البحتري، فان ابن الحجاج عبث في هذا الموضوع فوصف حصانه بالعجز والبطء، ووصفه بالجوع وبالحاجة الى الاكل، يقول لابن العميد في وداعه :

أيها السيد الذي طاب في المجد فروعاً كريمة واصولا

لو مشى بي الشيخ الفرق لسابقـ تك سيراً الى الوداع ذميلا

لكن الشيخ كان جذعا من الخيـ ـل طريّاً فصار جذعا طويلا

كلمـــا سار سال دمع مآقيـ ـه ومن حق دمعه أن يسيلا

ابصر القتّ وهو يجري فغنّى بعد ما كاد عقله أن يزولا (٣)

« أزجر العين أن تبكّي الطلولا إن في القلب من كليبٍ غليلا »

---

(١) يقال فرس ذو أوضاح وهي الغرة والتحجيل . والتحجيل : بياض في قوائم الفرس قل او كثر بعد ان يجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين .

(٢) القرم : السيد الكريم . والصيد : جمع اصيد ، وهو الذي لا يلتفت من زهوه يميناً وشمالاً . الذود : القطيع من الثلاثة الى العشرة . والمقيل : محل الاستراحة في القيلولة .

(٣) القت : نوع من النبات

وكثر وصف الخيل في هذه الحقبة وصار الشعراء يمدحون الامراء والوزراء يطلبون فرساً يصفونه بقصائدهم ، ويبعث الأمير الفرس فيصفه الشاعر ثانية ويشكر الأمير عليه (١) .

وننظر الى الأبيات التي قيلت في وصف الخيل فنراها تختلف كل الاختلاف بروحها عما قيل في وصفها في الشعر الجاهلي . إن الجاهليين نظروا الى الخيل نظرتهم الى أنفس ما يملكون ، لكثرة حروبهم ولمكانة الخيل في هذه الحروب . وفي حماسة أبي تمام لرجل من تميم في فرسه « سكاب » :

ابيت اللعنَ إن سكاب علق ... نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمةٌ علينا ... يجاع لها العيال ولا تجاع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها ... ومنعكها بشيء يستطاع

وربما كان أبو الطيب المتنبي أحسن وصاف الخيل ، وأقرب المحدثين شعوراً - حين يصفها - من الروح البدوية ، لأنه حارب عليها ورأى فيها صاحبا يسعده في كل غمرة ، ثم هو بعد ذلك لا يغدر ولا يخون . وما أجمل تعبيره عن شعوره لحصانه بقوله :

وأصرع أيَّ الوحش قفَّيته به ... وانزل عنه مثله حين أركب

---

(١) انظر ديوان ابي تمام ص ٢١٢ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، وديوان البحتري ، صفحة : ١٦١ . واليتيمة : الجزء الثاني صفحة ٨٥

وما الخيل الا كالصديق قليلة وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها واعضائها فالحسن عنك مغيب

ولو قدّر لشعراء العراق في هذه الحقبة أن يكونوا فرسان حرب ، كما كان الجاهليون لرأينا وصفهم للخيل يتغير ويختلف .

وصف السلاح :

وكما وصفوا الحرب والخيل وصفوا الدروع والسيوف ، وقد مر بنا وصف البحتري للدروع واستحسان أبي هلال العسكري لوصفه . ووصفها الشريف الرضي فقال :

وسابغة كان السرد فيها زلالُ الماء لمّعه الحباب (١)
من اللائي يماط العيب عنها اذا نثلت لدى الروع العياب (٢)
اذا أُدرِعتْ تجنبت المواضي معاجمها وقهقهت الكعاب

وتعبيره عن قوتها بان السيوف المواضي تتجنب عجمها ، وتعبيره عن عجز الرماح عن اختراقها بالقهقهة في غاية الجمال عندنا .

ووصف الشريف الرضي السيف بقوله :

---

(١) السابغة : الدرع التامة الطويلة . والسرد : نسج الدرع ، وهو تداخل الحلق بعضها في بعض ، وقيل : « السرد : الثقب » والمسرودة المثقوبة . وحباب الماء : نفاخاته التي تعلوه

(٢) نثلت : استخرجت . وفي الديوان « العياب : القلوب والصدور » .

في كفه عارى الذباب له لمع يدلُّك كيف ترمقه (١)

أطغاه رونق غربه فطغى والماء يطغيه ترقرقه (٢)

جذلان يرقص في الرؤوس اذا غنّته بالصهلات سبّقه (٣)

والظاهر لنا أن وصفهم لعدد الحرب لا يعدو أن يكون تبعاً لوصف الحرب ، بل ربما كان وصفهم للحرب ـ بصورة عامة ـ لا يأتي الا تبعاً لأشعار المديح . فالشاعر في أخص قصائد الحرب المثيرة كقصيدة أبي تمام في عمورية ، وقصيدة البحتري في حرب الزنج ، لا يفتأ يذكّر الخليفة أو الأمير بالعطاء كلما رأى فرصة لذلك . ولا نعرف في هذه الحقبة شعراً قيل خالصاً في وصف الحرب لالشيء إلا لأنها أثارت عاطفة الشاعر ، كما نجد ذلك في شعر الخمر أو الغناء أو الغزل مثلاً .

ونلاحظ أيضاً أن مجالس الأمراء في هذه الحقبة لم يكن ليعني فيها بانشاد شعر الحرب ؛ فالثعالبي حين اختار لشعراء القرن الرابع الهجري نراه لا يختار لشعراء العراق في الحرب أو السلاح الا القليل . وأبو هلال العسكري حين جمع كتابه « ديوان المعاني » ورتبه على أبواب

---

(١) عارى الذباب : أي سيف عارى الذباب . وذباب السيف : طرفه الذي يضرب به . الرمق : أن تتبع الشيء بصرك وتطيل النظر فيه .

(٢) الغرب : الحد . ترقرق السحاب : تلألأ . وترقرق الماء : جاء وذهب ، ويقولون : « ماء السيف يترقرق في صفحتيه » .

(٣) الصهيل : صوت الفرس . السابق من الخيل : الذي يجيء في أول الحلبة .

الوصف ، نراه يورد أشعار القدماء في وصف الحرب وعددها ، وقلّ أن يذكر للمحدثين من أهل عصره شيئاً ، وليست هذه عادته في بقية ماجمع من أبواب الكتاب .

واعلّل قلة اهتمام الامراء بشعر الحرب وانشاده في مجالسهم ، أنهم انصرفوا في مجالسهم هذه الى اللهو ، والغناء ، والطرب ، والشرب ، وليست أوصاف الحرب وعددها مما يلائم هذه المجالس .

* * *

وقبل أن نفرغ من وصف الحرب وما يتعلق بها نذكر نوعاً ـ ربما كان جديداً ـ من الشعر ، هو وصف المدن التي خربتها الحروب ، وربما كانت قصيدة ابن الرومي في وصف البصرة وما فعل الزنج بها (١) من خير القصائد الوصفية التي قيلت في هذا الباب . وهو يصف بها فظائع الزنج وما فعلوه بالنساء والأطفال والشيوخ . والقصيدة طويلة تقع في نحو ثمانين بيتاً يصف بها حال البصرة وأهلها ، ويستنفر المسلمين لاغاثتهم وللانتقام من الزنج ، ولا بأس في أن نختم هذا الفصل بأبيات منها ، يقول :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

اي نوم من بعدما حلّ بالبصـ ـرة ، ما حل من هنات عظام

اي نوم من بعدما انتهك الزّنـ ـجُ جهاراً محارم الاسلام

(١) انظر القصيدة في ص ٤١٩ من مختارات كامل كيلاني من شعر ابن الرومي

إن هذا من الامور لأمرٌ كاد أن لا يقوم في الأوهام
اقدم الخائن اللعين عليها وعلى الله أيّما إقدام

* * *

لهف نفسي عليك أيتها البصـــــرة ، لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يامعدن الـــــخيرات ، لهفاً يُعضّني إبهامي
لهف نفسي لجمعك المتفـاني لهف نفسي لعزّك المستضام

* * *

بينما أهلها بأحسن حالٍ إذ رماهم عبيدهم باصطـلام
أيّ هول رأوا بهم أيّ هولٍ حق منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين وشمـالٍ وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شاربٍ بشرابٍ كم أغصوا من طاعمٍ بطعام
كم ضنينٍ بنفسه رام منجا فتلقوا جبينه بالحســـام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدّى في أهله أسلموه حين لم يحمه هنـالك حامي
كم رضيع ـ هناك ـ قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة مصونة قد سبوهـا بارزاً وجهها بغير لثام

* * *

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أضرم القلب أيما إضرام

رب بيع هناك قد أرخصوه ... طالما قد غلا على السوّام
رب بيت هناك قد أخربوه ... كان مأوى الضعاف والأيتام
رب ذي نعمةٍ هناك ومال ... تركوه محالف الاعدام
رب قوم باتوا بأجمع شملٍ ... تركوا شملهم بغير نظام

* * *

عرجا صاحبيّ بالبصرة الزهـــراء تعريج مدنف ذي سقام
فاسألاها ، ولا جواب لديها ... لسؤال ، ومَن لها بالكلام ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام ؟
أين فلك فيها ، وفلك إليها ... منشآت في البحر كالأعلام
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الاحكام ؟
بدّلتْ تلكم القصور تلالاً ... من رمادٍ ومن تراب ركام
سلّط البثق والحريق عليها ... فتداعت أركانها بانهدام
فتراها تسفي الرياح عليها ... جاريات بهبوةٍ وقتام

* * *

انفروا أيها الكرام خفافاً ... وثقالاً الى العبيد الطغام
صدقوا ظن إخوةٍ أمّلوكم ... ورجوكم لنوبة الأيام
لم تقروا العيون منهم بنصرٍ ... فأقروا عيونهم بانتقام
لاتطيلوا المقام عن جنة الخلـــد ، فأنتم في غير دار مقام

وصف القصور والبرك

الشغف ببناء القصور : لم تكن حياة الترف جديدة على الخلفاء والامراء في هذه الحقبة ، فقد شغف به بعض الخلفاء من بني امية ، وبعض الخلفاء من بني العباس : كالرشيد والأمين ، على أننا نستطيع أن نقول : إن الترف في هذه الحقبة بلغ مبلغاً لم يبلغه من قبل . كان كل خليفة من خلفاء بني العباس ـ إلا قليلاً منهم ـ لا يقنع بما يجده عند أسلافه من أسباب البذخ والترف واللهو ، وكان الواحد منهم أبداً يحاول إضافة نعمة للطنبور لم يكن قد عرفها أسلافه . وقد اتجه خلفاء هذه الحقبة الى بناء القصور والحدائق والبرك ، وأمعنوا في ذلك ، حتى كان همّ بعضهم هدم القصور وتصييرها حدائق أو بناء غيرها ، لأنها لا تعجبه في شكلها أو طرازها .

ودفعهم الى هذه الحياة أن امور الملك قد تسلمها غيرهم ، من ترك أو فرس وأنهم قد ضرب على أيديهم ، فراحوا يقطعون أوقاتهم بالصيد ، واللهو ، والتأنق في بناء القصور والبرك والحدائق ، وما الى ذلك .

وشاعت أخبار الفرس في هذه الحقبة . وقويت حركة الشعوبية ،

وشجعها أن كانت دولة بني العباس قد شيدت على اكتاف الفرس ، وأن كان المقربون من الخليفة المتصرفون في امور الدولة رجالاً منهم . وكان هؤلاء الشعوبيون يحاولون أن يجعلوا الفرس أصلاً في كل شيء ؛ فان تحدثوا عن ترتيب الموائد ، كانت أخبار الأكاسرة في الطليعة ، وإن تحدثوا عن الصيد كان بهرام جور هو الذي يفعل ما لا يصدق فيه ، وإن تحدثوا عن الغناء والالحان ، نسبوا لفعل مغنيهم في النفوس ما لا يكاد يصدق .

ولم يكونوا في حاجة إلى أن يقولوا عن أثر الفرس في البناء ، فقد كان الايوان ـ وما زال بعضه الى الآن ـ قائماً شاهداً على ذلك .

وحاول خلفاء بني العباس أن يكون لهم أكثر مما روت الأساطير عن الفرس فتأنقوا ، وكان حظ البناء والقصور من هذا التأنق عظيماً .

وزاد في الأمر أن الرسل كانت تروح بين ملوك الروم وبين خلفاء بغداد ، فأراد الخليفة أن يبهر رسلهم بان يريهم أن المسلمين فوقهم في كل شيء حتى في أسباب الترف ، التي بلغ الرومان فيها الأوج . ويحدثون أن رسول ملك الروم تعجب من الشجرة التي عملت للمقتدر ، وكان عجبه بها أكثر من عجبه من كل شيء رآه . وجروا في هذا الشوط ، حتى قال ابن المعتز عن الخليفة .

ولا بني بانٍ من الخلائف ولا ملوك الروم والطوائف
كما بنى من عجب البناء لا زال فينا دائم البقاء

ويقول :

كذاك كان فاعلاً سليمانْ إذ أمكنته حكمةٌ وسلطانْ
والتبعيّون وبختنصّرْ وحكماء الروم والاسكندرْ

وكانوا يزيدون في هذه الأبنية لاعتقادهم أنها :

تخبر عن عزٍ وعن تمكينِ وحكمةٍ مقرونةٍ بالدينِ
ومظهرات قوة الاسلامِ على أعاديه من الأنامِ

وهذه الأبنية فوق ذلك :

كانتْ على ساكنها دليلا جليلة قد وصفتْ جليلا

وتأنقوا حتى قال ابن المعتز في قصر الرباب :

فمن رأى مثل الرباب قصرا كم حكمةٍ فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيره قد جمع الماء إليها طيره
وللبزاة معها وقائعْ فنائص في جوّها وواقع
وبعضها يذبح بالأكفْ مأسورة قد رميتْ بحتف

* * *

وما رأى الراءون مثل الشجره ذات غصون مونقات نضره

ولم تكفهم هذه القصور تشاد على الارض حتى اتجهوا الى بناء السفن يجعلونها كالقصور، ويطيفونها في الماء، والبحتري يصف «الزو» بأنه قصر أو هو جبل يتنقل على الماء. وكان الخليفة يصطاد عليه طيور

الماء والسمك ، ويطلق منه البزاة على الطيور تمر طائرة فوقه . والبحتري يصف يوماً من أيامه في « الزو » هذا مع الخليفة المتوكل :

أبى يومُنا في الزوّ إلا تحسناً ... لنا بسماعٍ طيبٍ ومُدام

غنينا على قصر يسير بفتية ... قعودٍ على أرجائه وقيام

تظل البزاةُ البيض تخطف حولنا ... جآجئَ طير في السماء سوام

تحدّر بالدراج من كل شاهقٍ ... مخضبةً أظفارهن دوام

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحرٍ بالسماحةِ طام

ولا جبلاً كالزو يوقف تارةً ... وينقاد إما قدته بزمام

وتوجه الشعراء الى هؤلاء الخلفاء ، يمدحونهم . وبم يمدح هؤلاء الخلفاء ؟ لقد كان الخلفاء الأوائل يمدحون بشجاعتهم وإذلالهم الأعداء ، ويمدحون باقامتهم أوامر الدين ونواهيه ، وحملهم الولاة والرعيّة على الطريق القويم السوي . وهؤلاء الخلفاء يندر بينهم ذو السيرة القويمة ، ونستطيع أن نقول إن الخليفة المعتصم كان آخر من قاد الجيوش وبرز في الحروب منهم ، وهم ـ في الغالب ـ قد أذلّهم الترك والفرس ، وتسلّطت عليهم الحاشية ونساء القصر ، وإذاً فليس أمام الشعراء في مديح هؤلاء ، وادخال السرور على أنفسهم إلا وصف مجالس لهوهم ، وأسباب ترفهم ، وكان حظ القصور والبرك من هذا الوصف عظيماً .

والبحتري أول وصّاف القصور في هذه الحقبة . وربما كان أول وصافيها في العربية . وقد ساعده على فنه هذا أنه كان يدخل على الخلفاء قصورهم ، ويحضر مجالسهم ، وينشد شعره بحضرتهم . وهم يقربونه ولا يحتشمون منه حتى في مجالس الشراب والمنادمة ، وقد قتل الخليفة المتوكل في مجلس شرابه في قصره ، وكان البحتري ممن شهد هذه الوقيعة وارتاع لها ، ورأى ما حل بالقصر ، فوصف اضطرابه وذعره :

وصف البحتري :

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذُعرتْ أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكتْ ... على عجلٍ أستاره وستائره

واعتذر عن فراره ونكوصه عن الوقوف في وجه الجناة ، والدفاع عن الخليفة المتوكل ، بأن قال :

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف اساوره

وارتحل الى منبج وابتعد عن بغداد ، والذي يقرأ قصيدته في رثاء المتوكل يظنه قد فارق بغداد الى غير رجعة .

والبحتري حين يبعد عن العراق تطوف صور قصور العراق بخاطره فيشتاق العراق ويشتاقها ، ويقول :

وصف القصور :

وكنت متى أبعُدْ عن الخل أكتئب ... له ومتى أظعن عن الدار اشتق

تلفت من عليا دمشق ودوننا ... للبنانَ هضبٌ كالغمام المُعلّق

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامي بين بُصرى وجلّق
الى معقِلي عزي ودار إقامتي وقصد التفاني بالهوى وتشوّقي
مقاصير ملك أقبلت بوجوهها على منظرٍ من عرض دجلة مونق
كأن الرياض الحوّ يكسين حولها أفانين من أفواف وشيٍ ملفّق
اذا الريح هزت نَوْرهن تضوّعت روائحه من فار مسك مفتق
كأن القباب البيض والشمس طلقةٌ تضاحكها انصافُ بيض مفلق
ومن شُرُفاتٍ في السماء كأنها قوادم بيضان الحمام المُحلّق
رباعٌ من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم أو فكاكاً لمرهق

والبحتري قد قدّم لوصفه بهذه النغمة الحزينة ، التي كثيراً مالازمت المرء يبعد عن وطنه ويغترب : ولا عجب فالحيرة والكرخ معقل عزه ودار إقامته . ولئن كنا قد قلنا في مقدمة هذه الرسالة إن البحتري عراقي الشعر ، ولذلك حسبناه من شعراء العراق فانه يخبرنا هنا أنه عراقي الهوى والشوق أيضاً .

وننظر الى وصفه ، فنراه يعني بوصف القصر كما يبصره الناظر من الخارج ، ولا يصفه وصف المقيم فيه . فهو قد أطل على دجلة ، وقد احاطت الرياض به . وصورة القصر هذه حين تثبت في ذاكرة البحتري ، تثبت وهي على أبهى ما تكون تثبت وبغداد في زمن الربيع ، ولا تسل عن الربيع ببغداد ! يصفه والرياض قد احاطت به ، وقد انسجمت ألوانها

وراحت الريح تعبث بنواراتها وتهزها فيضوع العطر منها. وصورة هذه الرياض متمثلة في وصف البحتري حتى يخيل الي وأنا اقرأها الآن، أن خيالها قد لعب به حتى جعله يشم عطرها على بعد ما بينه وبينها من الزمان والمكان. ويصفها وقد طلعت الشمس على قبابها وضاحكتها فامعت كأنصاف البيض، وأغلب ما يشتهي هذا المنظر في الربيع. ويشبّه تعالي شرفات القصر في السماء بالأبيض من الحمام حين يعلو ويحلّق.

ويختم وصفه بالوله على هذه الرباع التي لم تزل « غنى لعديم أو فكاكاً لمرهق » ولا شك في أنه يعني نفسه هو في هذا.

وعندي أنه أجاد من الناحية الفنية كل الاجادة، فهو لم يدخل في وصفه التفاصيل الجزئية التي لو جاء بها هنا لأغصت وصفه وخنقته، ولحجبت عن القارىء أو السامع هذه الصورة الكبيرة الشاملة التي تسحر العين وتأخذ النفس، فهو لم يتعرض لحيطانه ولا لغرفه ولا لأبوابه ونوافذه. ولا عجب أن يجيد البحتري وأن يوفق في وصفه، وهو أكبر شعراء الوصف الحضريين.

ووصف البحتري قصري الصبيح والمليح من قصور المتوكل:

قد صفا جانبُ الهواء ولذت رقّةُ الماء في مزاج المدام
واستتم الصبيحُ في خير وقتٍ فهو مغنى أُنسٍ ودارُ مقام
ناظرٌ وجهة المليح فلو يسـ ـطيعُ حيّاه معلناً بالسلام

أُلبسا بهجةً وقابل ذا ذاك فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبين لو اطاقا التقاءً أفرطا في العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قطر يه فتكبو من ونية وسآم
مستمد بجدولٍ من عباب المـــاء كالأبيض الصقيل الحسام
واذا ما توسط البركة الحسنـــاء القت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماءُ بحرٍ يخدع العين وهو ماء غمـــام
والدواليب إن يدُرن ولا نا ضح يمشي بهن غيرُ النعـــام
بدعٌ انشئت لأولى عباد اللـــه بالرُكن والصفا والمقام

* * *

إن خير القصور اصبح مزهو واً بكره العدى لخير الأنام
جاور الجعفريَّ وانحاز شبدا زُ إليه كالراغب المعتـــام
حللٌ من منازل الملك كالانـــجم يلمعن في سواد الظلام

والبحتري في هذه القصيدة غيره في القصيدة السابقة . إن روح الحزن التي طغت عليه هناك ، لا نراها تلازمه هنا ، ولا عجب فقد وصف هناك ، بعد أن تذكر العراق وذم مقامه بين بصري وجلّق ، وهو هنا يصف القصور وهو بجانبها . ووصف هناك بان عمد الى الصور الكبيرة التي تثبت في الذاكرة ، وتبين لكل من يمر بالقصر وينظر اليه . على انه هنا يشيع في الوصف حياة ، ويلبس القصرين ثوب الانسانية ،

فيصورهما قد الف بعضهما بعضاً ، فالصبيح ينظر الى المليح حتى يكاد يعلن تحيته بالسلام ، وقد فرح بعضهما بلقاء الآخر ، فهما بين ضاحك وبين بسّام . والالفة بينهما الفة العاشقين لو استطاعا لأفرطا في العناق والالتزام . ثم يصف ما في هذين القصرين وصف الداخل فيهما المشاهد لما بهما ؛ فيصف الجدول يصلهما ببعضهما ، والبركة وسطهما ، والدواليب تديرها النعام . ويصف تعلق القصور الاخرى بهذين القصرين فيذكر الجعفريّ وشبداز . وهو يشيع الحياة في كل ما يصف .

ويحاول البحتري أن يتحدث عن أثر هذه القصور في نفسه وأن يصفها فيحتار ويضطرب في وصفها ولا يدري بمَ يشبهها ، فيلتفت الى صور الجنة وقصورها التي وعد بها المتقون ، ويختم وصفه هذا بان يقول إن هذه الصور شوقته الى الجنان والى اجتناب الآثام ، ليحظى بها في الآخرة ما دام قد حُرمها في الدنيا .

حلل من منازل الملك كالأنـــجم يلمعن في سواد الظلام
مفحمات تعي الصفات فما تُدرَكُ الا بالظن والأوهام
فكأنا نُحِسّها في الأماني أو نراها في طارقِ الأحلام
غُرَفٌ من بناءِ دينٍ ودنيا يوجبُ اللهُ فيه أجرَ الامام
شوقتنا الى الجنان فزِدنا في احتناب الذنوبِ والآثام

ونلحظ أن البحتري يسبغ في وصفه هذا على خلفاء بني العباس

صبغة تقديسية أو الهية يرى أنهم استحقوا هذه النعمة بسببها . وهذه الصبغة الآلهية كان أكاسرة الفرس قد أسبغوها على أنفسهم ، حتى يقول الاستاذ برون إنه لا يعرف امة بلغ عندها حق الملوك الآلهي ما بلغه عند أكاسرة الفرس . وحاول خلفاء بني العباس أن يفعلوا هذا لأنفسهم ، وربما كان من أكبر الأسباب لذلك انهم رأوا العلويين يحاولون أن يأتوا عليهم من هذه الناحية . والبحتري يدير هذه الفكرة في مدائحه ، ويديرها في وصفه لقصورهم ويراها تعليلا لملكهم هذه النعمة ؛ يقول في مدح المتوكل ووصف الصبيح والجعفري :

أصبحت بهجة النعيم وأمست ... بين قصر الصبيح والجعفري
في المنزل العجيب والمنزل الآ ... نس والمنظر الجميل البهي
ورياض تصبو النفوس اليها ... وتحيا بنورهن الجنى
دار ملك مختارة لامامٍ ... أحرزت كفه تراث النبي

وابن المعتز كان ينظر نظرة البحتري للخلفاء ؛ فهو بعد أن يصف قصور الثريا ويفيض في وصفها يختم قوله ، بقوله :

عطايا اله منعم كان عالما ... بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

وحيرة البحتري بادية في وصف القصور ، يريد أن ينتزع لها الصور المماثلة يشبهها بها ويُعلها في نفس السامع فلا يجد الى ذلك سبيلا ، لأنه لا يعرف الصور الأنيقة التي تعلو على صور هذه القصور في

حياته الخاصة ، ونراه حين يحاول هذا يتجه الى قصور الجنة والى ما جاء في القرآن الكريم عما بناه الجن لسليمان ، يقول في وصف قصر المعتز بالله :

خبر مبهج وبنيان يُمن في منيف عند السماك مشيد
قصر صرح ممرد من قوارير غريبُ التأليف والتمريد
لو بدا حسنه لجن سليما ن لخرّوا من ركّع وسجود
زرته غرّة الشهر بالطير الميامين والنجوم السعود

وصف ابن المعتز :

وابن المعتز الذي يعمد الى التشبيه في أغلب ما يصف وكان مولعاً به ، يقول (إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه فضّ الله فمي) نراه يصف قصور الثريا من غير أن يكثر من تشبيهاته المتأنقة ، بل نراه لا يشبه إلا نادراً . وعلة ذلك عندي ، أن ما وجده في جلال القصر وجماله كفاه وصفه على ما هو، عن ان يقول : هو مشبه لكذا ، قال :

ويم فما في الحسن شيء يريده لسان ولا قلب يقول ولا فكر

وإذا اراد ان يبالغ عمد الى صور الكتب السماوية ، كما كان يفعل البحتري فقال :

فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا ما بناه الجنّ في سالف الدهر

على أن وصفه ، وان اتبع فيه وصف القصر كما تراه العين ، لا كما

تحسه النفس يهيج القارىء ويبهجه ، لأن الصور في حد ذاتها غريبة مثيرة ، يقول :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ... ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ... ولا ما بناه الجن في سالف الدهر
وما زال يرعاه الامام برأيه ... وبالعز والتقديم والنهى والامر
فتم فما في الحسن شيء يريده ... لسان ولا قلب بقول ولا فكر
سيثنى عليه من محاسن قصره ... مدائح ليست من كلام ولا شعر
جنان واشجار تلاقت غصونها ... فأورقن بالاثمار والورق النظر
ترى الطير في اغصانهن هواتفاً ... تنقل من وكر لهن الى وكر
هجرت سواها كل دار عرفتها ... وحق لدار غير دارك بالهجر
وبنيان قصر قد علت شرفاته ... كصف نساء قد تربعن في الازر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت ... لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه ... فيؤخذ منها ما يشاء على قدر
اذا ما رأت ماء الثريا ونبته ... يسير وثوب الكلب فيهن والصقر
عطايا إله منعم كان عالماً ... بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر

* * *

وصف الايوان : واشتهر البحتري في سينيته التي يصف بها ايوان كسرى ، والقصيدة مشهورة كثيرة الدوران في كتب الادب ،

وأكثر ما يروعنا منها عجب البحتري ودقة وصفه لصورة معركة بين الروم والفرس ، نقشت على جدران الايوان . وقد أبدع البحتري ما شاء في نقل هذه الصورة بألفاظه ، حتى جعل القارئ يحس كأنه ينظر بعين البحتري الى صورة المعركة ساعة يقرأ :

فاذا ما رأيت صورة انطـــا كيّة ارتعت بين روم وفرس (١)
والمنـــايا موائل وأنو شروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس (٢)
في اخضرار من اللباس على أصفـــر يختال في صبيغة ورس (٣)
وعراك الرجال بين يديـــه في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بحامل رمح ومليح من السنان بترس (٤)
تصف العين أنهم جـــدّ أحيـــاء لهم بينهم إشـــارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابي حـــتى تتقراهم يداي بلمـــس (٥)

---

(١) انطاكية : بلد بالشام ، حيث وقعت معركة بين الفرس والروم ، وقد صورت في الايوان . وارتعت : فزعت

(٢) موائل ، قائمات تنتظر العمل . انو شروان : أحد أكاسرة الفرس . الدرفس : العلم الكبير . يزجى : يحث ويسوق .

(٣) الورس : نبت اصفر يكون باليمن ، تتخذ منه الغمرة للوجه . وورس الثوب : صبغه بالورس

(٤) المشيح : الحذر ، يقال ، « عامل مشيح » أي جاد بعمله ، ويقال : اشاح بوجهه أي اعرض متكرهاً ، وكلا المعنيين جائز هنا . والترس : المجن

(٥) يزيد شكي فيهم حتى المسهم في الصورة بيدي .

ولا نعجب حين نرى صور الايوان تبهر البحتري أكثر من كل شيء آخر فيه . إننا لا نعرف للعرب براعة في التصوير والنحت كبراعتهم في الشعر والأدب . ومع كثرة الشعراء والأدباء في العربية فاننا لا نعرف رساماً مشهوراً ولا نحاتاً مشهوراً عندهم . وقد تعجب مسكويه من أن ابن العميد كان يأخذ التفاحة في مجلسه فيرسم بظفره عليها صورة نديم أو جليس من جلسائه . وكان العرب يتزاحمون على الديرة يتفرجون على صورها ، وفي دير « ماسرجس » صورة جميلة رآها الخليفة المعتصم ففتن بها ، وأطال النظر إليها ، وفي هذه الصورة يقول أبو النصر :

فتنتنا صورةٌ في بيعةٍ ... فتن اللهُ الذي صوَّرها

زادها الناقش في تحسينها ... فضلَ حسنٍ إنه نضَّرها

وجهها لا شك عندي فتنة ... وكذا هي عند من أبصرها

ولعل وصف البحتري لصور الايوان أكثر من وصفه لأي شيء آخر فيه ، يدلنا على شغفه بهذه الصور ونظرته إليها نظرة العرب لصور الديرة ، والبيع وتعجبهم منها ، أما بقية وصفه لما في الايوان فلا نراه يختلف عما مر بنا من وصفه لغيره .

وقريب من وصف القصور والايوان وصف الشريف الرضي لدير هند بالحيرة ، على أن الشريف الرضي يصف هذا الدير بروح البدو يمرون على طلل الأحبة قد هجر وابتعد عنه أهله ، فتهيج بهم الذكريات الى

سكانه ويصفونه بنفس حزين ، مملوء بروح التذكر المصحوب بالحسرة والأسى :

ولقد رأيت بدير هندٍ منزلاً ... أَلِما من الضراء والحدثان
أغضى كمستمع الهوان تغيّبت ... أنصارُه وخلا من الأعوان
بالي المعالم أطرقت شرفاته ... إطراق مُنجذبِ القرينة عان (١)

* * *

أمقاصر الغزلان غيّرك البلى ... حتى غدوتِ مرابض الغزلان (٢)
وملاعب الانس الجميع طوى الردى ... منهم فصرتِ ملاعب الجنّان (٣)
من كل دارٍ تستظل رواقها ... ادماء غانيةٌ عن الجيران (٤)
ولقد تكون محلة وقرارة ... لأغرّ من ولدِ الملوك هجان (٥)
يطأ الفراتُ فِناءها بعُبابه ... ولها السُلافةُ منه والروقان (٦)

---

(١) القرينة : مؤنث القرين ، وهو البعير يقرن - بجبل - ببعير آخر

(٢) المقاصر : جمع المقصورة ، وهي الدار الواسعة المحصنة . ويقال مقصورة الدار يعنون حجرة من حجراتها .

(٣) الجنان : خلاف الانس .

(٤) الادماء : مؤنث الآدم . وهو الشديد البياض الأسود المقلتين

(٥) الأغر من الرجال : السيد الشريف . الهجان من كل شيء : خياره ، ورجل هجان : كريم حسيب

(٦) العباب : معظم السيل وارتفاعه وكثرته . وسلافة كل شيء : اول عصيره .

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها وتجيبني عـــبراً بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي لو لم يؤل جزعي الى السلوان

فالصور كلها صور بدوية ، نلمح في ثناياها وقفة النابغة على ديار نعم ، ووقفة زهير على ديار ام اوفى . وصور الغزلان تألف الرباع المهجورة لا توحي لنا بغير صور الطلل البدوي المهجور .

ووصف الصابي قصر روح بالبصرة فقارب وصف الشريف الرضي لدير هند بنفسه الحزين والتفاته الى صور البادية :

أحبب الى بقصر روح منزلاً شهدت بذيته بفضل الباني
سور علا وتمنعت شرفاته وكأن إحداهن هضب ابان
وكأنما يشكو الى زواره بين الخليط وفرقة الجيران
وكأنما يبدو لهم ثي نفسه إطراق محزون الحشى حران

وصف البرك :

أما وصف البرك فقد امتاز به البحتري على غيره من شعراء العربية كما امتاز بوصف القصور . وقد عدت قصيدته في وصف بركة المتوكل من عيون الشعر الوصفي في الأدب العربي ، وأعجب بها النقاد العرب القدماء أيما إعجاب . والقصيدة يستهلها باستهلاله البدوي :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها نعم ، ونسألها عن بعض أهليها

ثم يتغزل بغزل جاهلي يدعو فيه لدمنة الأحبة بالغيث ، وينتقل بعد

ذلك الى شاعر حضري ، فلا يدري قارؤه بأيهما هو أشدُّ عجباً ، أبالبحتري الحضري حين يصف البركة ، أم بالبحتري البدوي حين يتحدث عن الدمنة ؟

وهو في وصفه يسبغ الحياة على ما يصف ، وقد مر بنا وصفه لقصور المتوكل وكيف صورها أليفة يحب بعضها أن يعانق بعض . على انه هنا يصور غيرة دجلة من بركة المتوكل ومنافستها لها . وهو حين يصف جمالها لا يجد غير القرآن الكريم يفزع الى صوره ، وكذلك هو حين يبهره ويحيره الوصف . فالبركة قد أبدعها جن سليمان ولو رأتها بلقيس لقالت هي الصرح . ويصف صورة الماء تنصب منها فيعود في تشبيهاته الى البادية ؛ ويشبهها بالخيل تخرج من حبل مجريها . وهو وصف جميل لحالة خروج الماء ، فيه احساس النفس أكثر من إحساس العين . وأراد تشبيه شكل الماء فما عدا الفضة أو قضبانها . ثم وصف البركة تعلوها الصبا بالجواشن ، وهذه صورة بدوية أيضاً شاعت عند الجاهليين وقلدهم بها شعراء الحاضرة .

ويصف هذه البركة ليلا كما وصفها نهاراً ، فالسماء قد انعكست بنجومها فيها . ولا يفوته وصف ما فيها من السمك . وقد دقق في وصفه هذا وتعمق تعمق الجاهليين وتدقيقهم في وصف حمر الوحش يشبهون بها ابلهم .

ثم لم يفته بعد هذا أن يصف ما حولها من البساتين التي تعتمد على

الأنهار لا على الغيث لتكون الصورة كاملة. وهو إذ يصفها هادئة، لا ينتهي من وصفه حتى يشير اليها ساعة يعظم هبوب الريح عليها فتضطرب وتلج في تدفقها، ويتخلص من هذا كله الى مديحه تخلصاً جميلاً بأن يقول إن تدفقها هذا يحاكي تدفق يد الخليفة عند العطاء، يقول:

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها نعم، ونسألها عن بعض أهليها

ثم يتغزل بغزل جاهلي فيدعو لدمنة الأحبة بالغيث، الى أن يقول:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحت مغانيها
بحسبها أنها في فضل رتبتها تُعَدُّ واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
أما رأت كالئ الاسلام يكلؤها من أن تعاب وباني المجد بانيها؟

* * *

كأن جنَّ سليمان الذين ولوا ابداعها فأدقّوا في معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرضٍ قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريّق الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماءً ركّبتْ فيها

* * *

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها

يعمن فيها بأوساطٍ مجنحةٍ ... كالطير تنقضُّ في جوٍ خوافيها

لهن صحن رحيب في أسافلها ... اذا انحططنَ وبهو في أعاليها

صور الى صورة الدُّلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها

تغني بساتينها القصوى برؤيتها ... عن السحائب منحلاً عزاليها

كأنها حين لجت في تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها

وزادها رتبة من بعد رتبتها ... ان اسمه يومَ يُدعى من اساميها

محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

واجتمع ابن الرومي مع البحتري في مجلس سليم بن الحسين بن مخلد فوصف ابن الرومي بركة سليم هذا . وقد قصر تقصيراً فاحشاً عن وصف البحتري ، وربما كانت هذه البركة ليست شيئاً اذا قيست ببركة المتوكل ، بل ربما كانت لا تهيج الشاعرية ولا تحث النفس على الوصف ، يقول ابن الرومي بعد أن يصف حديقة القصر :

أمامها بركة مرخمة ... ترضى اذا ما رأيت ـ مرمرها

أعارها البحر من جداوله ... لجاً غزير المياه أخضرها

كأنما الناظر المطيف بها ... فوق سماء حنى لينظرها

* * *

رباع ملك يريك منظرهـــا أنبل ذى بهجةٍ وأكبرهـا

لو قابلتهـــا نبلاً خلائقه لم تك في حسنها لتعشرهـا

* * *

ونلاحظ أن قصيدة البحتري في البركة قد سحرت ابن الرومي وأسرته ، فقلدها ولكنه سقط دونها . ومعانيه في هذه البركة هي بعض ما قاله البحتري في بركة المتوكل التي مر بنا ذكرها .

وصف الكتابة وما اليها

اهمية الكتابة : لم يخل الشعر العربي القديم ، حتى الجاهلي منه ، من الاشارة الى الكتابة وصورها ، على أن الكتابة وصورها وما يتعلق بها قد شاعت في هذه الحقبة التي نتحدث عنها أكثر منها فيما سبق من العصور الاسلامية . وقد أصبح للكاتب المكانة المرموقة في الدولة ، حتى أصبحت يده يد السلطان وعينه عين السلطان كما يقول الصابي .

كان الخلفاء الراشدون والخلفاء الأمويون وولاتهم يتخذون الكتبة ، ولكنهم يملون على الكاتب ما يكتبه ، حتى ظهر عبد الحميد الكاتب وصار كاتب الخليفة الأموي مروان بن محمد ، فصار هذا الكاتب يكتب للعمال برغبات الخليفة ، ولكنه يكتب بالفاظه واسلوبه هو . وعظمت أهميته وأهمية الكتابة حين ذاع فيما بعد ، انه كتب لأبي مسلم الخراساني كتابا أرسله على جمل ، وانه منّى مروان بان ابا مسلم ربما عدل عن أمره اذا قرأ كتابه . وقالوا إن أبا مسلم خاف أن يثنيه الكتاب عن رأيه إذا هو قرأه « فلما ورد عليه دعا بنار فطرحه فيها ، إلا قدر ذراع كتب عليه :

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى ليوث الوغى يقدمن من كل جانب

فان يقدموا نعمل سيوفاً شحيذةً يهون عليها العتب من كلّ عاتب

وردّه ، فأيس الناس من معالجته .

واشتهر ابن المقفع ، صديق عبدالحميد ، بالكتابة . وقالوا إنه قتل بسببها ؛ حنق عليه المنصور لشدة احتياطه في الأمان الذي كتبه لعم المنصور عبدالله .

وعظمت اهمية الكتابة في الدولة العباسية وصار القلم والسيف لا يُدرى أيهما فوق الآخر ، وقد عدّ الشاعر أبو تمام نصر المعتصم في وقعة عمورية نصراً للسيف على القلم ، واستهل قصيدته بقوله :

السيف أصدق انباءً من الكتب في حدّهِ الحدُّ بين الجِدّ واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

والبحتري يفضل السيف على القلم إذ يقول :

ولما التقت أقلامكم وسيوفهم ابذت بغاث الطير زرق الجوارح (١)

فلا غرني من بعدكم عزُّ كاتبٍ إذا هو لم يأخذْ بحجزة رامح (٢)

---

(١) بغاث الطير : ضعافها وما لا يصيد منها . والجوارح من السباع والطير : ذوات الصيد .

(٢) الرامح : صاحب الرمح . وأخذ بحجزة الرامح : من قولهم أخذ بحجزة فلان أي استظهر به . وفي أساس البلاغة أن علياً رضي الله عنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا كان يوم القيامة اخذت بحجزة الله ، واخذت أنت بحجزتي ، واخذ ولدك بحجزتك ... » وهذا كلام آخذ بعضه بحجزة بعض .

وعظمت أهمية الكتابة لأن الوزير ؛ ولا يكون في الغالب إلا كاتباً ؛ كان هو الذي يدبر امور الدولة ، وكانت شخصيته تأتي بعد شخصية الخليفة ، أو بعد شخصية الأمير بعد أن سيطر الامراء على الخليفة ، بل كثيراً ما تسلط الوزير على الخليفة أو الأمير وساس المملكة برأيه وارادته . ومع أن الدولة الاسلامية في هذه الحقبة التي نتحدث عنها كانت مصبوغة بالصبغة الحربية وكان الأتراك ، أو الامراء من الفرس ـ وهم رجال حرب في الغالب ـ يسيطرون عليها فقد بقيت للوزير مكانته وهيبته . وظل قائد الجيش يشعر أن الوزير من فوقه . يقولون إن مؤنس المظفر حين عاد الى بغداد عام ٣١٢ هـ ركب الوزير طيّاره للسلام عليه ولتهنئته بمقدمه وهذا ما لم تجر به عادة الوزير وما لم يفعله وزير مثله من قبل ، وقد أكبر ذلك مؤنس « حتى ان الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس الى ان نزل في طياره ، وقبّل يده (١)... »

وكان الشعراء ينظرون الى حال الوزراء والى حال القواد ، ويوازنون بين الحالين ، ويرون أن الوزراء ـ وإن كان بعضهم قد جمع السيف الى القلم ـ إلا أنهم أرباب أقلام في الغالب ، ومن هنا قالوا إن القلم فوق السيف لأن الوزير هو الذي يوجه القائد . يقول ابن الرومي :

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت ... أن السيوف لها ـ مذ أرهفت ـ خدم

(١) كتاب الوزراء ص ٥٠

ويقول :

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكميّ بأخوف من قلم الكاتب
له شاهدٌ إنْ تأملتَـــه ظهرتَ على سره الغائب
أداة المنيـــة في جانبيـــه فمن مثله رهب الراهب

وظلت قيمة الكتابة تعظم ويزداد أثرها في تصريف امور الدولة وشئونها حتى صار ابو اسحق الصابئ يقول :

وقد علم السلطان أني لسانه وكاتبه الكافي السديد الموفق
فيمناي يمناه ولفظي لفظـــه وعيني له عين بها الدهر يرمق
ولي فقرٌ تضحي الملوكُ فقيرة إليها، لدى احداثها حين تطرق

وشاعت الكتابة في هذه الحقبة حتى صبغت تعابير الشعراء ، وطغت عليها طغياناً لا نعرفه في عهد من عهود الامة الاسلامية السالفة ، فالشاعر ابن المعتز يريد أن يتغزل فيقول :

أثرها في التعبير :

له مقلة ترمي القلوب ووجنة تفتّح فيها الورد من كلّ جانب
وعذرٌ خداه بخطين قوما كما أثّر التسطير في رقّ كاتب

والوزير المهلبي يقول :

أراني اللهُ وجهك كلّ يوم صباحاً للتيمن والسرور
وأمتع ناظري بصحيفتيه لأقرا الحسن في تلك السطور

والصابئ يقول في غلامه رشد :

لك وجه كأن يمناك خطته بلفظ تملّه آمالي
فيه معنى البدور ولكن نفضت صبغها عليه الليالي

ويريد ابن الحجاج أن يهجو فيقول :

يا دولة الحزن التي خسفت بأيام السرور
يا عثرة القلم المرشش بين أثناء السطور

ويقول في هجاء أبي الحسين :

يا سيدي يا أبا الحسين أنت رفيع بنقطتين

والصابيّ يبعث ابنه الى بعض الرؤساء ليستخدمه فيبعث إليه بقصيدة منها :

بعثت إليك ابني وبالله إنه لأحلى من النفس المقيمة في جنبي
وهل أنا إلا نسخة هي أصله وهل هو إلا كالمحرر في الكتب
وفي النسخة السوداء ما أنت عارفٌ من المحو والاصلاح والحكّ والضرب

وهكذا نرى الكتابة وما يتصل بها تؤثر في أشعار الشعراء حين يتغزلون وحين يهجون وحين يمدحون .

وأقبل الشعراء على الوزراء والكتاب يمدحونهم بأنهم أرباب أقلام، ويمدحونهم بأن يصفوا أقلامهم ، ويمدحونهم بأن يصفوا خطهم . وصار الشعراء يتبارون في هذا ويكثرون النظم فيه فنشأ لنا شعر وصفي كثير ؛ يصف الكتابة وأدواتها ، ويصف الكتب ، ويصف الدفاتر وما الى ذلك .

ومن المشهور الدائر في كتب الأدب وصف أبي تمام لقلم

وصف القلم :

ابن الزيات الوزير :

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... تنال من الأمر الكلي والمفاصل (١)

لُعاب الأفاعي القاتلات لُعابُه ... وأَريُ جني شارته ايدٍ عواسل (٢)

له ريقة طلٌّ ولكن وقعها ... بآثاره في الشرق والغرب وابل

فصيحٌ اذا استنطقته وهو راكبٌ ... وأعجمُ إن خاطبته وهو راجل

اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأُفرغتْ ... عليه شعابُ الفكر وهي حوافل (٣)

أطاعته أطرافُ الرماح وقوّضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل (٤)

اذا استغزر الذهن الذكي وأقبلتْ ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل

وقد رفدته الخنصران وسوّدتْ ... ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل

رأيتَ جليلاً شأنهُ وهو مرهفٌ ... ضني وسميناً خطبُهُ وهو ناحلُ

وأبيات أبي تمام هذه ، قد طغى عليها العنصر العقلي وصبغها ، كما هو

---

(١) الشباة : الحد من كل شيء ، وشباة القلم : حدّه . ويروى « تصاب » بدل تنال .

(٢) الأرى : العسل . واشتار العسل : جناه ، والعواسل : جمع العاسل : وهو الذي يشتار ويتخذ العسل من موضعه ، ويروي البيت أيضاً « وأرى الجنى اشتارته »

(٣) شعاب الفكر : نواحيه . الحوافل : جمع الحافل ، من قولهم ضرع حافل : ممتلىء لبناً ، وواد حافل : كثير سيله . وقس عليه « شعاب الفكر الحوافل »

(٤) ويروى شطر هذا البيت هكذا : « أطاعته أطراف القنا وتقوضت »

الأمر في أكثر شعر أبي تمام ، وقد اتجه فيها الى وصف سلطان الوزير وقوته ، واتخذ القلم واسطة لذلك ؛ فقلم الوزير واسطة النعمة كما هو واسطة النقمة : فيه لعاب الأفاعي القاتل ، وفيه جني العسل الحلو ؛ تطيعه الرماح ، وتتقوض له الجحافل . وقد أهمل أبو تمام وصف القلم وهيئته وشكله ، إلا ما ساقته إليه الصنعة الفنية في آخر أبياته حين قال «جليلا» فقابلها بلفظة «مرهف» وقال «سمينا» فقابلها بلفظة «ناحل» .

ووصفُ أبي تمام هذا قد قيّد الشعراء ، فظلوا يدورون حول معانيه ويلوكونها . يقول ابن المعتز في وصف قلم القاسم بن عبيد الله :

قلم ما أراه أم فلكٌ يجـــري بما شاءَ قاسمٌ ويسيرُ
خاشع بين يديه يلثم قرطاساً كما قبّلَ البساط الشكور
ولطيف المعنى جليلٌ نحيفٌ وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتـ ف تضم تلك السـطور

ونرى أن ابن المعتز يدور حول معاني أبي تمام ، على أنه أكثر مساساً لوصف القلم منه . وقد أشاع الحياة في وصفه حين جعل القلم يخشع بين يدي الوزير ، وجعله يلثم القرطاس ويقبله تقبيل الشكور للبساط .

ووصف السري الرفاء القلم (١) فادار معاني أبي تمام مرة ، وذهب الى الاحاجي والألغاز اخرى .

(١) انظر من ديوان السرى الرفاء طبعة القدسي صفحة ١٤١ ، وصفحة ١٥١

وعنوا بالخط حتى رووا أن رجلاً رفع الى محمد بن عبدالله ابن طاهر قصته يعتذر فيها، فرأى خطه رديئاً فوقع «قد أردنا قبول عذرك فاقتطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك (١) ... أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجة، ويمكن له درك البغية». ورووا عن علي بن أبي طالب (٢) رضي الله عنه «الخط الحسن يزيد الحق وضوحا» وأقبل الشعراء على الخطوط يصفونها. يقول ابن المعتز:

وصف الخط :

فدونكه موشى نمنمتـــه ... وحاكته الأنامل أيّ حوك

بشكل يؤمن الاعجامُ فيه ... كأن سطوره أغصانُ شوك

ونراه وإن أجاد الوصف بان قرن الشكل الى نظيره، إلا أنه أخطأ بايحاء التشبيه كل الخطأ. إن الخط الجميل تهش له النفس ويوحي لها بالراحة، أما أغصان الشوك فهي - وإن وافقت الخط المشكول - في الهيئة والشكل إلا أنها تخالفه في الايحاء، وإن أغصان الشوك - مهما حسنت - لا توحي الى النفس بغير الوخز.

ومن جميل الوصف عندنا - وصف الصابي لخط الوزير المهلبي:

واذا استنطق الأنامل جادتْ ... ببنانٍ كالجوهر المنضود

في سطورٍ كأنما نشرتْ يمنا ... ه منها عصائباً من برود

---

(١) ديوان المعاني - أبو هلال العسكري ٢/٨٦

(٢) نهاية الارب - للنويري ٧/١٤

وعندنا أن الصابي وإن قصّر عن وصف ابن المعتز من حيث التشبيه شكلا ، قد فاته من حيث الايحاء ، واين ما توحيه أغصان الشوك ، مما توحيه عصائب البرود ؟...

ووصف الوزير المهلبي خط ابن العميد في كتاب ورده منه فقال :

ورد الكتاب مبشراً قلبي بأضعاف السرور
ففضضته فوجدته ليلاً على صفحات نور
مثل السوالف والخدو د البيض زينت بالشعور
بنظام لفظٍ كالثغو ر وكالعقود على النحور

وقد فات ابن المعتز وفات الصابي في وصفه هذا ، فالخدود البيض والشعور تبعث في النفس غير ما تبعثه برود اليمن . وقد صبغ الوصف بروح فرحة تنم على استبشاره وفرحه بالكتاب .

وأحسن مما مر كله ـ عندنا ـ قول الصولي (١) :

اذا ما تخلل قرطاسه وساوره القلم الارقش
تضمن خطه حلةً كمثل الدنانير أو انقش
حروف تكون لعين العليـــل نشاطاً ويقرؤها الأخفش

وبيته الاخير ، خير ما يوصف به الخط الجميل .

---

(١) نهاية الأرب للنويري : طبعة دار الكتب المصرية ٧ / ١٥

وصف الشعر :

وكثر وصف الشعر في هذه الحقبة ، حتى روى أبو هلال العسكري أن بعض من ينتحل (١) الادب أراد الدخول في جملة أبي الفضل بن العميد لمنادمته ، وشفع له في ذلك جماعة من بطانته ، فاحضره يوما وفاوضه ليقف على مقداره في المعرفة ، فقال له فيما قال : ما أحسن ما قيل في صفة شعر ؟ فبقي ملياً يتفكر فقال أبو الفضل : « فند عند خاطرك حداجة »

وقد كان الشعراء قديماً يتهاجون فيتعرض الشاعر لشخصية الشاعر أو عشيرته ، كالذي نراه بين جرير والفرزدق والأخطل ، ونرى هذا يستمر في العصر العباسي الأول ؛ كالذي نراه بين أبي نواس وبين ابان بن عبدالحميد اللاحقي . أما في هذه الحقبة فاننا نرى الشعراء حين يتهاجون يتجهون الى شعر الشاعر يسخفونه ويحطون من قيمته . فالشاعر ابن الرومي يهجو البحتري بقوله :

قبحاً لأشياء يأتي البحتريُّ بها ... من شعره الغثّ بعد الكدّ والتعب

كأنها حين يصغي السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هذر البناة إذا ... أضحوا على شعف الجدران في صخب

وقد يجيء بخلط فالنحاس له ... واللاوائل ما فيه من الذهب

سمين ما نحلوه من هنا وهنا ... والغثّ منه صريح غير مجتلب

---

(١) ديوان المعاني ١ / ٧

ويستمر على هذا النغم ، يتعرض به لشعر البحتري فيصفه بهذه الاوصاف التي تباعد بينه وبين السامع ، أما البحتري نفسه فلا يتعرض له . أو يهجوه هكذا :

ما تجزع الشاة اذا شطحت من ألم الذبح ولا السلخ
لكنها تجزع من خلّةٍ تقدح في الاحشاء بالمرخ (١)
تشفق أن يكتب في جلدها شعرك ياذا القرن والكسخ

وابن الرومي نفسه أكثر ما يفزع ، يفزع من هؤلاء الذين يعيبون شعره ويقدحون به فيهددهم (٢) بأقذع الهجاء إن هم لم يكفوا عن التعريض بشعره . وهو يتسامح فيما يخصه ويرى أن لا بأس على الممدوح يمدحه فيحرمه العطاء ، ولكنه لا يتسامح في النقمة على من عاب شعره :

مدحت أبا العباس أطلب رفده فخيّبني عن رفده وهجا شعري
فهبني قد أعفيته من مثوبتي أيغضي له شعري على مضض الوتر؟!
سيبريه شعري حسب ما كان راشه ولا خير في شعر يريش ولا يبري

وتعلق الشعراء الى هذا الحد باشعارهم جعلهم يتجهون صوب الشعر يصفونه ، وأكثر ما نرى الشاعر يصف شعره هو ، ويكون هذا في الغالب حين يريد أن يرغب الممدوح بالمديح ، أو يخوفه من الهجاء ، وقد

---

(١) المرخ : شجر رقيق سريع الوري ، يقتدح به .

(٢) ينظر ديوان ابن الرومي ص ٥٥ و ٦٩ من طبعة كامل كيلاني .

يتجه الشعراء الى أشعار غيرهم ، وأغلب ما يكون ذلك في الهجاء ، كالذي رأيناه في وصف ابن الرومي لشعر البحتري .

وقد وصف شعراء هذه الحقبة شعرهم ، وقصائدهم ولا أعرف شاعراً لم يصف شعره . وقد ذكر أبو هلال العسكري أبيات أبي تمام على أنها خير ما وصف به محدث شعره :

ووالله لا أنفكُّ أهدي شوارداً ... إليك يحمّلن الثناء المخلّدا
تخـــالُ به بُرداً عليك مُحبّراً ... وتحسبها عِقداً عليك مُفصّلا
ألذَّ من السلوى وأطيبَ نفحةً ... من المِسك مفتوقاً وأيسر محمَلا
أخف على روحٍ ، وأثقل قيمةً ... وأقصر في سمع الجليس وأطولا
ويُزهى بها قوم ولم يمدحوا بها ... اذا مثل الراوي بها أو تمثّلا

ونرى أبا تمام يتجه الى الممدوح ، وهو حين يصف شعره ، ويطري جودته ، يتخذ هذا الاطراء وسيلة لترغيب الممدوح . وقد أجاد في حشد هذه الصور التي وصف بها أشعاره ؛ فهي للجسم كالبرد وهي للعنق كالعقد وهي للنفس ألذ من السلوى وللانف أطيب من المسك الفتيق وهي في السمع قصيرة على طولها ـ وهي تبعث النشوة في السامع فيستعيد قراءتها مع أنها لم تقل في مدحه .

على أن هذا الوصف وان تعمق فيه أبو تمام وأشرك فيه الجسم والروح والشم والسمع ، قد بدا لنا جافا ثقيلا لاصطباغه بما يدل على

التعمل والتفكير ، وخلوه من العاطفة التي هي أساس الروح في كل شعر .

والقاضي التنوخي أبو القاسم يصف قصيدة فينحو نحو أبي تمام فيها ، يقول :

وقصيدة ألفاظها في النظم كالدر النثير
جاءت إليّ كأنها الـ ـتـ وفيق في كل الأمور
بأرق من شكوى وأحسـ ـن من حياةٍ في سرور
لو قابلت أعمى لأضحـ ـى وهو ذو طرف بصير
فكأنها أمل تحقـ ـق بعد يأسٍ في الصدور
أو كالفقيد اذا أتت بقدومه بشرى البشير
أو كالمنام لساهرٍ أو كالأمان لمستجير
أو كالشفاء لمدنفٍ أو كالغنى عند الفقير

وهذا الاتجاه العقلي في الوصف والتشبيه يدل على عمق تفكير التنوخي . على أننا نراه ، باكثاره من هذه الصور ، قد أغص الوصف وخنقه ، ونستطيع أن نقول إن هذه الصور الكثيرة قد زادته ابهاماً ولم ترده ايضاحاً . ثم يصف ألفاظ القصيدة بقوله :

لفظ كأسر معاندٍ أو مثل إطلاق الأسير

فيوحي لنا وصفه بحالة الشعراء يكدون أذهانهم كداً في سبيل

الحصول على لفظة تروقهم . ويذكرنا بقول الفرزدق انه يبيت ـ حين

يستعصي عليه الشعر ـ وقلعُ ضرسه أهون عليه من ذلك .

ثم يصف حبرها :

كُتبت بحبرٍ كالنوى أو كفر نعمى من كفور

وقد أجاد في وصف السواد .

إن هذه الصور العقلية لتوحي الى السامع مالا يوحيه أحلك الألوان وأشدها سواداً . على أنه في وصفه جملة لا يبعد كثيراً عن وصف أبي تمام في تعلقه بالصور العقلية وخلوه من العاطفة

وعندي أن السري الرفاء أحسن الشعراء وصفاً لشعر ، وأستطيع أن أقول إن ذلك الشعر الذي وصف به أشعاره هو خير ما له من الشعر؛ لقد ملئ بالروح والعاطفة ، وإن القارىء يقرؤه فتنضح عليه عواطف السري ويخيل اليه أن السري ، يتحدث عن الصق الناس بروحه وبقلبه . وقد صبغ وصفه بصبغة حزينة ، جاءته من أنه ادعى أن الخالديين قد أغارا على شعره وسرقاه ، فهو يبكيه لا كما يبكي المال السليب ، ولكنه يبكيه كما يبكي العزيز الفقيد .

وقد اعجب الثعالبي بوصف السري لشعره حتى قال في حديثه عنه[1] « وعلى ذكر الشعر فاني كاسر عليه فصلا لفرط استحساني جودة وصفه له ، وموافقته الموصوف »

---

(١) اليتيمة ٢/١٢٣

يقول السري في وصف الشعر :

وما زالت رياح الشعر شتى فمن ريّا الهبوب ومن سموم
تحيي الصاحب الطلق المحيّا وتُعلن شتم ذي الوجه الشتيم
منحتك من محاسنها ربيعاً مقيم الزهر سيّار النسيم

ونراه في وصفه هذا يصف وصف الشاعر، لا وصف العالم أو الحكيم كما فعل أبو تمام والتنوخي . وهو لا يكثر من هذه الصور الكثيرة التي أفسد بها التنوخي وصفه . ثم هو بهذه الأبيات الثلاثة يصف الشعر الجيد والشعر السخيف ، ويمثل لهما بهذا البون الشاسع بين الريح العليلة وبين السموم . ويصف البون بين الشعر يمدح وبين الشعر يشتم أو يهجو، ثم يمثل شعره بربيع يطول عمر زهره ، وبكثر هبوب نسيمه ، على أن مثل هذا الوصف قليل في أشعار السري ، على كثرة ما وصف به شعره ، وأكثر الذي يدور في ديوانه هذا الوصف الحزين الذي سبق أن اشرت اليه ، ومثاله ما كتبه الى أبي اسحق الصابي يتهم به الخالديين — وقد سمع أنهما يريدان الرجوع الى بغداد في أيام الوزير المهلبي — بسرقة شعره ، يقول من قصيدة طويلة :

نظرا الى شعرٍ يروق فتربا منه خدودٌ كواعبٍ أترابا
شرباه فاعترفا له بعذوبةٍ ولزب عذبٍ عاد سوط عذابا
لفظ صقلت متونه فكأنه في مشرقات النظم درّ سحابا

وكأنما أجريتُ في صفحاته حرَّ اللجين وخالص الزرياب

أغربت في تحبيره فرواتـــه في نزهةٍ منه وفي استغراب

وقطعتُ فيه شبيبة لم تشتغل عن حسنه بصباً ولا بتصابي

واذا ترقرق في الصحيفة ماؤه عبق النسيم فذاك ماء شبابي

يصغي اللبيب له فيقسم لبّه بين التعجُّب منه والاعجاب

جدٌّ يطير شراره وفكاهة تستعطف الأحباب للأحباب

أعزِزْ عليَّ بأن أرى اشلاءه تدمى بظفر للعدوّ وناب !

وهذا الوصف ساحر ، قد وصف السري فيه شعره وأجاد ، ووصف فيه شعوره نحو شعره . وإننا حين نفرغ من تلاوة الأبيات نرى أن وصف الشعر قد هُزم ، وأن الذي بقي عالقاً في النفس هو وصفُ السري لشعوره نحو شعره .

وقد أعار شعره ـ في هذا الوصف ـ روحاً حتى جعل القارئ يأسى له ويأسف عليه ، فهو بعد أن قال إنهما تربا منه خدود كواعب أتراب ، وإنه قطع فيه شبيبته ، وإنه ينظر الى مائه يترقرق فيسميه ماء شبابه ، يختم الصورة بما يمثل هجوم الوحش الكاسر على الحيوان الوديع ، فيتركه اشلاء دمتها الأظافر والأنياب . وهكذا يجعل القارئ يشاركه شعوره في وصفه هذا ، فيعطف على السري ويعطف على شعره ويحنق على الخالديين .

وكما وصف الشعر ، وصفت الرسائل والكتب ، ونجد هذا في القرن الرابع الهجري عند المهلبي ، يصف كتب ابن العميد ، وقد مر بنا مثل من ذلك . والقاضي التنوخي يصف الكتب بما وصف به الشعر ، ولا يختلف وصفه هنا عن وصفه هناك ، إلا بأن يشير في صدر القصيدة الى أن الموصوف كتاب أو قصيدة ، أما معانيه وصوره العقلية فهي هي . يقول من قصيدة :

وصف الرسائل والكتب :

وافي كتابك مثلما ... وافى لمفقود بشير
وكأنه شرخ الشبا ... ب وعيشه الغض النضير

ثم يروح ينحو نحو وصفه للقصيدة التي مرت من كثرة الصور المعنوية كثرة تزيد الموصوف طموسا ، ولا تزيده ايضاحاً .

وننظر في وصف الكتابة وما اليها من أقلام أو حبر أو شعر أو كتب فنرى أن أكثره نتاج العقل . وهذا الشعر ـ إلا ما كان منه على نحو وصف السري الرفاء لشعره ـ قليل الحظ من العاطفة . على أنه نتاج البيئة الحضرية ؛ نظمه شعراء المدن ولم يكن لهم نصوص جاهلية يحتذونها . وقد أفسده أن جاء تبعاً للمديح ، والقليل من شعر المديح ما يكون حسناً مصبوغاً بالروح والعاطفة .

وصف الطعام ووصف اللباس

الجوع والشاعرية : يرى بعض علماء النفس أن الغريزة التي تدفع الانسان وراء قوته ، أقوى الغرائز . ويمثلون على هذا بان لو أن انسانا طرح في الصحراء طويلا من غير امرأة ، وترك يوماً واحداً من غير طعام ، ثم قدّر له أن يراهما معاً وأن يخير بينهما ، فانه يختار الطعام ويفضله . ولو تركت امرأة في الصحراء مع طفلها وبلغ بهما الجوع غايته ، ثم عثرت على ما يسد الرمق فانها تقدم نفسها على طفلها ، بل ربما اكلت بعض الامهات أولادها ، وهذا ما يحدث لكثير من انثى الحيوان . وهكذا يرون أن الغريزة التي تدفع الانسان وراء قوته تغلب - في أكثر الأحيان - غريزة حفظ النوع والغريزة الجنسية ، وهما اقوى الغرائز .

واذا علمنا مدى تأثير هذه الغريزة في حياة الانسان ، ومدى سيطرتها عليه فاننا لا نعجب حين نرى الشاعرية تهيج من اجلها ، ونراها تنطق الشعراء بشعر أحر من شعر العشق وأحر من شعر الرثاء .

على اننا حين ننظر في الشعر العربي - ولا سيما الجاهلي منه ، نجد الشعراء قد كبتوا احساسهم بالجوع كبتا ، وفخروا به ، وجعلوا التصريح

بهذا الاحساس امراً يخزى منه الانسان ويلام عليه . ومن جميل ماروى في هذا قول الشنفرى في القصيدة المنسوبة اليه ، المسماة لاميّة العرب :

اديم مطال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحاً فاذهل
واطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماري تغـــار وتفتل
واغدو على القوت الزهيد كما غدا ازلُّ تهاداه التنائف أطحـــل

وتأبط شراً يفخر بانه :

قليل ادخار الزاد الا تعـــلة فقد نشز الشرسوفُ والتصق المعا
يبيت بمغنى الوحش حتى الفنه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا

والشعراء الاسلاميون تابعوا الشعراء الجاهليين في هذا ، وعدوا شكاة الجوع منقصة توجب اللوم . وقلّ ان نجد شاعراً اسلامياً في الصدر الأول يصف الجوع الذي يحسه هو ، ولا نرى شكواهم الا في حالات نادرة يستدرون بها عطف الممدوح . اما الحديث عن شهوة الطعام ووصف هذه الشهوة عندهم ، فامر نكاد لا نعثر عليه

وقد علل التوحيدي هذا ، بما نقله عن ابي سليمان ، بان قال : « إن الحرف الذي يدعى في العربية وينسب الى الأدب موروث من العرب ، وذلك ان ارضها ذات جدب ، والخصب فيها عارض ، وهم من اجل ذلك اصحاب فقر وضر ، وربما دفعوا الى وصال وطى . وكل من تشبه بهم في كلامهم وطريقتهم وعبارتهم ، ارتضخ الى ما هو غالب عليهم من الحرف

والاخفاق ، اللذين عليهما الفهم . ألا ترى ان الشبع غريب عندهم ، والرعب مذموم منهم !؟ »

فكأن ابا سليمان يرى ان أمر الحياة قد انقلب في بلاد العرب واصبح الطارئ اصلا والأصل طارئاً ؛ والواحد منهم لا يشكو الجوع لانه امر طبيعي يبيت عليه كل انسان منهم

ودرج الشعراء الاسلاميون على هذا ، وساعدهم عليه ان كانت الثروة في زمن الخلفاء الراشدين وزمن بني امية موزعة توزيعاً ، يكاد يضمن لكل فرد حقه في العيش . نعم ، كان هناك فقر وبذخ ولكنهما لم يبلغا بالناس ما بلغاه في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ؛ لان امر الحكم في العراق خاصة قد اختل وفسد ؛ فالبيت المالك ينشق على نفسه ، ويحارب بعضه بعضاً . ويسيطر الاتراك على الخليفة مرة ويسيطر الفرس عليه اخرى ، ويتحارب الترك فيما بينهم ، ثم يتحاربون مع الفرس ، ويتحاربون معاً مع بني حمدان . وتكثر المحاصرات في هذه الحروب ويشح الرزق حتى يأكل الناس القطط والكلاب ، بل ويأكل بعضهم بعضاً كما يقول ابن الأثير .

وليست هذه الحروب وحدها هي التي بلي بها اهل العراق بل ابتلوا بثورات الزنج والقرامطة ، وتبعها ما تبعها من قتل وحرق وتخريب ، وابتلوا بالخلافات المذهبية بين السنة والشيعة ، وقد تبعها القتل والحرق والتخريب ايضاً .

هذا الفساد السياسي جر الى فساد اجتماعي حتى قال ابن الاثير (١) إن هيبة السلطان قد ضعفت ، وطمع اللصوص والعيارون وكثرت الفتن ، وكبست دور التجار ، واخذت بنات الناس في الطريق المنقطعة ، وكثر المفسدون .

هذه الامور كلها كان يقع وبالها على الشعب ، وهو يقاسي ويتحمل ويفتقر حتى عز عليه القوت . وربما كان الناس على حق حين اشاعوا ان الكثير من الصوفية انما رغبوا عن الدنيا وهجروها ، لأن يدهم قصرت عن ان تنال ما يشتهونه من الطعام . وتناقلوا عنهم الاقوال الدالة على رغبتهم في الطعام وشغفهم به ؛ رووا عنهم انهم قالوا (٢) العيش فيما بين الخشبتين يعني الخلال والخوان . وقالوا إنهم لقبوا الطشت والابريق اذا قدما قبل المائدة بشر وبشير ، واذا قدما بعدها بمنكر ونكير . وقالوا إنهم لقبوا القطائف بقبور الشهداء وكنوز الزهاد .

هذه حال الصوفية وكم كان بينهم من شاعر . اما الشعراء

بؤس الشعراء :

ـ وحياتهم هي التي تهمنا ـ فليس لاحدهم إلا ان يلجأ الى أمير أو وزير يمدحه ويطلب رفده . ومع ان الذين ينالون هذه الحظوة هم قليل بينهم ، فان عيش هذه القلة منهم لا يصفو ولا يطول أمده . ولئن

---

(١) الكامل حوادث سنة ٣٠٦ هـ

(٢) الثعالبي ـ ثمار القلوب ص ١٣٧

قدر للشاعر ان يظل في صفاء مع الامير او الوزير فان الامير او الوزير نفسه قلّ ان تطول مدته . وهو اذا عزل نُكب ونكب ذووه ، ومن يلوذ به ، وربما كان الشاعر أول من يلحقه هذا الضرر . مات المهلبي فقبض معز الدولة على عياله وولده ومن دخل اليه يوماً حتى الملاحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته وصادرهم جميعاً . وكان ابن سكّرة من المتصلين بالمهلبي هذا فظلّ يقول :

لا عذب اللهُ ميتاً كان يُنعشني فقد لقيتُ بضرّي مثل ما لاقى
طواه موتٌ طوى عني مكارمه فذقت من بعده بالموت ما ذاقا

وتحارب عضد الدولة مع بختيار ، فغُلب بختيار وكان الصابي من جملة كتابه ، فامر عضد الدولة ان يلقى تحت أرجل الفيلة ، واكبّ نصر بن هارون ومطهر بن عبدالله وعبدالعزيز بن يوسف على الارض يقبلونها بين يديه ، ويستشفعونه اليه في أمره ، ويتلطفونه في استيهاب دمه الى أن أمر باستحيائه على القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله ، وكان المستخرج يستخرج أمواله وهو يقول :

رجلٌ يؤدّبنا ونحن مشايخٌ مثل المعلم يضرب الصبيانا
عدنا وقد شبنا إلى حال الصبا في مكتبٍ يستشهد الولدانا

ويصف حاله متضرعا الى عضد الدولة بقوله :

أتاني شتاءٌ ليس عندي دثاره سوى لوعةٍ في الصدر مشبوبة الوقد

فلو أن بردَ الجلد عاد الى الحشا وفار الحشا الحرّان مني على الجلد
ازيحت لنفس علتاها فاعرضت عن البث والشكوى الى الشكر والحمد

ومع أن ابن الحجاج كان يقول :

إن الملوك إذا هم اقتتلوا أصبحتُ فيهم كلبَ من غلبا
ولذاك اسكر غير مكترثٍ وألفُ مَعْ خيشومي الذنبا

فانه وصف حاله بانها (١) بلغت أن رأى كلاب بختيار تأكل اللحم فتمنى لو كان كلباً منها. وبلغت به الحال الى ان باع ثيابه بواسط، وان كتب الى بعض الرؤساء شعراً يلتمس فيه عمامة . ووصف حاله بانه اضطر أن يخرج هاربا من غرمائه وان يقول :

يقول قومٌ فرّ الخسيسُ ولو كان فتى كان غير فرّار
لاعيب لا عيب في الفرار فقد فرّ نبيُّ الهدى إلى الغار

ثم يشتد الضيق به فيصف صعوبة المقـــام عليه ، ولكنه يرى الارتحال أصعب منه :

افكّرُ في مقامي وهو صعبٌ وأصعب منه عن وطني ارتحالي
في مرضان مختلفان : حالي الـ ـعليلة منهما تمسي بحـــالي

هذه حال ابن الحجاج مع أن الثعالبي كان يقول عنه ـ « وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبي على أهله »،

(١) انظر ابن الحجاج في يتيمة الثعالبي ٣/٢٥ ـ ٨٨.

وليعيش في أكنافهم عيشة راضية ... وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال (١) ... »

ولج ابن لنكك البصري في هجاء الزمان ؛ يرى بؤسه هو ويرى النعيم حواليه فيتحرق ويقول :

يا زماناً ألبسَ الأحرا ر ذلاً ومهانه
لست عندي بزمان إنما أنت زمانه
كيف نرجو منك خيراً والعلا فيك مهانه

والمتنبي مع أنه كان أبعد شعراء هذه الحقبة صيتاً ، ومع أنه كان جوابة يتنقل ما بين مصر الى خراسان ، يمدح الملوك والامراء والوزراء وينال رفدهم فانه يقول كاللائم لنفسه :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

والأحنف العكبري ، شاعر المكدين ، يصف حاله في طلب الرزق بقوله :

قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكادُ يُدرك الا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفةٍ ولا بشعر ولكن بالمخاريق

ومن مظاهر ضيق العيش بالشعراء أن يهاجر هؤلاء من بلدهم ويطوفوا في البلدان يقصدون الامراء والوزراء بقصائدهم ؛ فالتنوخي وابن نباتة

---

(١) نفس المصدر

السعدي ، وأبو عبدالله الحسين بن علي النميري ، يتنقلون ما بين فارس والعراق والموصل وحلب ، ويتنقل أبو تمام بين العراق والشام ومصر ، والبحتري يتنقل بين الشام والعراق . هذا زيادة على ما يفعله الشعراء بأن يبعثوا قصائدهم وهم في بلد الى الأمير أو الوزير في البلد الآخر يطلبون منه العطاء .

وساءت حال الادباء في هذه الحقبة حتى توهّم الناس أن الأدب حليف الفقر ، وإن الأديب لا يمكن أن يكون غير فقير ، وتوهموا ان الأدب شؤم على صاحبه ، ومن أقوالهم : حرفة الأدب آفة الادباء . وولى ابن المعتز الخلافة يوما واحداً وقتل بعده فقال الناس إن حرفة الأدب جنت عليه ، وبسببها انحلّ أمره . ورثاه ابن بسام الشاعر بقوله :

لله درّك من ميت بمضيعة ... ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لوّ ولا ليت فتنقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب

وأبو اسحاق الصابي ـ وهو الشاعر الكاتب ـ ينظر الى حسن حاله ، وما اوتيه من سعة في الرزق ، فيعجب كيف يكون ذلك له ، وهو الأديب الشاعر ، وكيف تغفل عنه حرفة الأدب ، حتى اذا نكب ونظر الى نفسه قال :

قد كنت اعجب من مالي وكثرته ... وكيف تغفل عنه حرفة الأدب

حتى انثنت وهي كالغضبى تلاحظني ... شزراً فلم تبق لي شيئاً من النشب

فاستيقنت أنها كانت على غلطٍ فاستدركته وأفضت بي الى الحرب

وحسبنا دليلا على سوء حالة الشعراء في هذه الحقبة ، ان شعر الشحاذة لم يكن له وجود في الأدب العربي ، وانه نشأ في هذه الحقبة .

هذا البؤس الذي غرق في وسطه الادباء والشعراء ، وعز فيه عليهم القوت حتى طوّف بعضهم وترك وطنه ، كان يقابله نعيم وترف وبذخ هو حظ الامراء والطبقة العالية من الشعب . والطعام عند هؤلاء ، لم يعد يطلب لسد حاجة ، ولكنه صار وسيلة للذة . وكثر التأنق فيه حتى صار حظ العين والنظر منه أكثر من حظ الفم واللسان . وصارت قيمة الندماء ترتفع بمقدار تلطفهم في ادخال الطعام الى جوف منادميهم من الطبقة العالية . وكان من تمام ظرف النديم أن يحذق أمر الطعام ويحفظ ما قيل في وصفه . وقد اتخذ وصف الشعراء المحرومين للاطعمة وسيلة يثار بها خيال هذه الطبقة العالية فتتحرك شهوتها الى الطعام . وربما كان ابن الرومي أشهر وصاف الطعام ، وشعره أكثر الشعر تناشداً على الموائد . يقول محمد بن يحيى الصولي . « أكلنا يوما بين يدي المكتفي ... فجاءت لوزينجة ، فقال : هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟ فقلت نعم ، قال : أنشدنيه ، فأنشدته :

لا يخطئني منك لوزينجٌ إذا بدا أعجب أو عجّبا

لم تغلق الشهوة أبوابها الا ابت زلفاه أن يحجبا

لو شاء أن يذهب في صحنه ... لسهّل الطيب له مذهبا
مستكثف الحشو ولكنه ... ارقّ جلداً من نسيم الصبا
كأنما قُدّتْ جلاليبه ... من أعين القطر الذي طنّبا
يخال من رقة خرشائه ... شارك في الأجنحة الجندبا
لو أنه صيّر من خبزه ... ثغراً لكان الواضح الأشنبا
من كل بيضاء يود الفتى ... أن يجعل الكفّ لها مركبا
دين له اللوز فلا مرة ... مرتْ على الذائق إلا ابى

الى آخر الأبيات ، وهي كثيرة . يقول : « وحفظها المكتفي فكان ينشدها » وأخبر نفطويه عن أحمد بن حمدون قال : تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفي ، فقال : أفيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً ؟ فأنشدته قول ابن الرومي :

اذا أخذتَ حبّه ودلسه ... ثم اجدتَ ضربه ومرسه
ثم أطلت في الاناء حبسه ... شربت منه البابليّ نفسه

فقال المكتفي : « قبحه الله ما أشرهه ! لقد شوقني في هذا اليوم الى شرب الدوشاب ... »

ومر بنا أن عضد الدولة كان في مجلسه أديب لا يحضر شيء من الأطعمة إلا قال في وصفه له أو لغيره ، فقدّمت بطّة فنظر اليه عضد الدولة كالآمر أن يقول في وصفها شيئاً فاضطرب وتحير ، فقال عضد الدولة :

بهطّة تعجز عن وصفها يا مدّعي الأوصاف بالزور
كأنها في الجام مجلوّة لآلئ في ماء كافور

واهتمام الطبقة العالية وتأنقهم في الطعام جعل الناس يؤلفون فيه الكتب ؛ ألف ابراهيم بن المهدي وعلي بن هارون المنجم وابراهيم بن العباس الصولي كتباً في الطبيخ ، والف جحظة البرمكي : « كتاب الطبيخ وفضائل السكباج »

ويظهر أن هذه الكتب المؤلفة لم تؤلف للطباخين ؛ تعلمهم كيفية الطهي ، ولكنها كتبت باسلوب أدبي قصد من ورائه استثارة خيال الرؤساء وتحريك شهوتهم الى الطعام . وألفت الكتب في ترتيب الأكل على الموائد ، وأي الطعام يُبدأ به أولا ، فكتب الرازي « ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر » وكتب « ترتيب أكل الفواكه » والف قسطان لوقا « النبيذ وشربه في الولائم ... »

وشاعت كتب الطعام هذه ، ويظهر أن الناس أقبلوا عليها حتى صار الادباء يسمون الكتب ، تبحث في الأدب ، بقريب من هذه التسمية فالثعالبي يؤلف كتابا يسميه « حشو اللوزينج » يبحث فيه بعض حشو الكلام الذي يراه أفضل من الكلام نفسه ، ككلمة « بلغتها » في قول القائل :

إن الثمانين ـ وبلّغتها ـ قد أحوجت سمعي الى ترجمان

وكلمة « وحاشاك » في قول أبي الطيب المتنبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كلّ ما فيها ـ وحاشاك ـ فانيا

وربما كانت كتب الطبيخ من أجلّ ما يهدى من الكتب . مرض ابن العميد ثم بلّ من مرضه فلم يجد ابن خلاد شيئاً يبعثه اليه أحسن من كتاب في الأطعمة ، فرد ابن العميد عليه بقصيدته التي اولها :

فهمتُ كتابكَ في الأطعمة وما كان نولى أن أفهمه
فكم هاج من قَرَمٍ ساكنٍ وأوضح من شهوةٍ مبهمه
وارثَ في كبدي غلة من الجوع نيرانها مضرمه
فكيف عمدت به ناقهاً جوانحه للطوى مسلمه
خفوق الحشى إن تصخْ تستمعْ من الجوع في صدره همهمه
تتيح به شرها موجعا وتغرى به نهمة مؤلمه

ثم يتحدث ابن العميد عن وصف الطعام :

وأين شواريزك المرتضا ة اذا ما تفاضلت الأطعمه
وأين كواميخك المجتبا ة دون الأطايب بالتكرمه
فان كان يجزيك نعت الطعا م اذا الجوع ناب اذاه فمه
اذا جعت فاعمد لمسموطةٍ بحوذابة الموز مستفرمه
وبزّ السرابيل عن أفرخٍ تخال بها فلذ الأسنمه
تهب النفوس الى نيّها كأن النفوس بها مغرمه

والقصيدة طويلة يصف ابن العميد فيها « الوسط » و « الخبيص » وهي تبلغ الأربعين بيتاً . وقد أجاد وصف الطعام فيها ، اجادة قارب بها ابن الرومي . ومما يذكر أن الطبيب منعه من الأكل ، وربما كان لهذا الحرمان أكبر الأثر في ابداعه وإجادته في الوصف .

وقد رد عليه ابن خلاد بقصيدة كقصيدته ؛ بين فيها غرضه من هذا الكتاب ، فقال منها :

الا يا حبذا ثم يا حبـــذا كتابي المصنف في الأطعمه
كفانا به الله ما راعنا بعلة سيدنا المؤلمـــه
أطاب الحديث له في الطعام ففتق شهوتـه المبهمـــه

* * *

وصف الطعام :

هذا البون الشاسع بين اناس لا يجدون القوت ، وبين اناس يتأنقون في الطعام ويحتال ندماؤهم ، في ايصاله الى بطونهم ، اوجد لنا شعراً وصفياً يدور كله حول الطعام . وكان شاعر هذا الفن ابن الرومي ، وهو شاعر العربية ـ على ما يبدو لنا ـ في هذا ، لا يدانيه مدان . ومع أن شعراء القرن الرابع كالسري الرفاء ومهيار الديلمي وأبي اسحاق الصابي ، قد تعرضوا لمثل هذه الموضوعات التي تعرض لها فوصفوا الحمل المشوى ، والدجاج ، والسمك وما الى ذلك من الاطعمة التي وصفها ابن الرومي ، فانهم قصروا دونه في هذا الامر ولم يلحقوا به .

وقد ساعده على فنه هذا ان كان فقيراً يمدح ويسير شعره ولا يثاب :

أيسير مدحي في الامير وكله ... يا للرجال مؤرج بعتاب

ما قلت قافية تخبر أنه ... فيما يثيب أثابني بثواب

ظني لئن انا دام لي حرمانه ... لألقبنّ بشاعر خياب

ويبدو أن حرمانه من الامير جعله يحول وجهه شطر الشعراء ؛ هجا البحتري فاهدى اليه البحتري ـ على ما فيه من بخل وشح ـ تخت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه أن الهدية ليست تقية منه ولكنها رقة عليه .

وتوجه نحو الشاعر جحظة البرمكي يقول له :

أبا حسن وانت فتى أديب ... له في كل مكرمة نصيب

لقد ولدتك آباء كرام ... من الآباء ليس لهم ضريب

أترضى أن يقول لك المرجى ... لأنت المرء راجيه يخيب

وجحظة الشاعر هذا هو الذي يقول « امسيت أفلس من طنبور بلا وتر » وهو الذي عرقوته في الشعر فراح يتكسب بطنبوره وغنائه ، ومع ذلك فقد قال أيضاً :

وقائل إن شدوتُ أحسنتَ زدني ... وباحسنتَ لا يباع دقيق

واذا علمنا أن ابن الرومي وصلت به حاله لان يطلب العطاء من البحتري وجحظة ، علمنا بأي ضنك من العيش كان يحيا .

وعلم بعض ممدوحي ابن الرومي بفاقته وحبه للطعام ونهمه ، وتهالكه

عليه ، فاكتفوا من ثوابه على مديحهم بان يدعوه الى وليمة يأكل فيها ، وهم يمنّون عليه في هذه الدعوة ويرونها شيئاً كبيراً يقول :

اذا امتاحهم أكلة عبدوه تعبيد ربٍ لمربوبه
يخالون انهم بلغوه بالقوت أفضل مطلوبه

ويصف لنا شرهه في هذه الولائم ، التي يدعي اليها فلا يقتصد ولا يحتشم ؛ بل هو يحاول أن يزدرد الطعام ازدراداً : يرمي اللقمة في فمه ويدخل عليها الاخرى قبل أن يمضغها ، ويعاب على هذا ويذم ، فيرد على عائبه ، بأنه إنما جاء ما جاء به هفوة لا عمداً

أإن اصطبغت ولقمتي معضوضة انشأت تهجوني بذلك ظالما ؟!
عيب لعمرك غير أن لم آته عمداً فهبني هافياً لا جارما

ويكثر في الطعام فتلومه قسطنطين جارية ام حبيب ، وتحذره التخمة فيرد عليها بقوله :

ذريني قسطنطين آكل شهوتي وتبشمني اني بذلك راضي
فاكثر ما القي من الزاد كضّة مدى يومها واليوم أسرع ماضي

وكأنه حين ينصرف من مثل هذه الولائم يظل يتذكر الزاد الشهي الذي أكله فيها ، فتهيج شهوته للطعام . ويزيد شهوته ونهمه ما يراه في أسواق بغداد ، مدينة البذخ والترف ، ومدينة البؤس والشقاء أيضاً من الأطعمة . ويصف لنا حاله بأنّ صور الطعام تظل تدور في رأسه حتى

يراها في نومه ، فيباعد بينه وبينها في النوم أيضاً :

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام
من ذاك اني ما أراني طاعماً في النوم أو متعرضاً لطعام
الا رأيت من الشقاء كأنني اثنى وأكبح دونه بلجام

وتظل خيالات الطعام ترافق ابن الرومي مرافقة الظل ، فيكثر هجاؤه للناس ، بان يصفهم ويقول فيهم ماقاله في البصري :

وأما يد البصري في كل صفحة فأقلع من سيلٍ وأغرف من رفش
يبادر في قلع الطعام كأنه وكيل يتيم أو مريب على نبش

ويبدو نهماً في كل وصف يصف به الطعام حتى لا ندري بأي أنواعها يعجب واي أنواعها يفضل . إنه شره نهم حين يصف الرؤوس ، أو يصف السمك ، أو يصف الحلوى ، أو يصف الفواكه ، حتى ليخيل للقاريء كلما قرأ قصيدة له في وصف صنف من الطعام ، أن هذا النوع هو الذي يحبه ويكلف به دون سواه . يصف مجمع اللذات عنده بأن يقول :

يا سائلي عن مجمع اللذات سألت عنه أنعت النعات
خذ يامريد المأكل اللذيذ جرداقتي خبز من السميذ
لم ترعينيْ ناظرٍ مثليهما فقشر الحرفين عن وجيهما
من لحم فروج ولحم فرخ تدور حوذ اباهما بالنفخ
واجعل عليها أسطراً من لوز معارضات أسطراً من جوز

اعجامها الجبن مع الزيتون وشكلها النعنع بالطرخون
واعمد الى البيض السليق الأحمر فدرهم الوسط بـــه ودنّر
وترّب الأسطر بالملح ولا تكثر ولكن قدراً معتدلا
وردد العينين فيه لحظـــا فان للعينين فيه حظـــا
ومتع العين بـه مليّـــا واطبق الخبز وكلْ هنيـــا
واملأ ثناياك واكدم كدما تسرع فيما قد بنيت هدما
لهفي عليهـــا وأنا الزعيم بعدة شيطـــانها رجيم

وهو في ارجوزته هذه يكاد يأكل الطعام بعينيه قبل أن يأكله بفمه ، وإن حظ عينيه منه لا يقل متعة عن حظ فمه ولسانه . وهو يمعن في وصف ما زين به وجه الطعام ، وهو حظ العين منه ، حتى اذا فرغ من ذلك لم يفته أن يقول :

« وردد العينين فيه لحظا فان للعينين فيه حظا »

ثم هو يصف أدق التفاصيل التي لا يذكرها إلا آكل جائع نهم ، فهو يوصي أن يطبق الخبز وأن تملأ الثنايا وأن يكدم الطعام كدما . وهو بهذه الصور يشوق السامع ـ ولو كان غير جائع ـ الى الطعام .

ثم يختم وصفه هذا بحسرة فيخيل للقارئ منها أنه حين كان يصف الطعام ، كان قد وضع في خياله صورة مائدة لأمير أو ثري كان قد جلس عليها وأكل فلما فرغ من وصفه أعقبه بهذه الحسرة : « لهفي عليها » .

ويصف الرؤوس تخرج من النار بعد شيّها بقوله :

هام وأرغفة وضاء نخمة قد اخرجت من جاحمٍ فوّار
كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا مقرونة بوجوه أهل النار

وأيّ نهم يطلع علينا من بيته الأخير . إنه لا يكتفي بتشبيهها بوجوه أهل الجنة ، ولكن بالوجوه المبتسمة منها . وإذا قارنا أبياته هذه بابيات الصابيّ في الرؤوس وجدنا أي بون بعيد بينهما ، وأبيات الصابي هي :

طباخنا صانع رؤوساً يسقط في طيبها الخلاف
مبيضّة كاللجين لوناً شهية كلها نظاف
وأخذها في الرقاق يحكي صريع حمي له لحاف
من بين عجل الى خروف تزهي بتنضيدها الصحاف
مختلفات القدود لكن لها باسنانها ائتلاف
وكلها راضع صغير له على ضرعها اعتكاف
قد اسمنتهن امهات من طول ارضاعها عجاف
نسقي على ذاك روح دنّ أرقّ اسمائها السلاف

وعندنا أن النثر أولى بهذه المعاني من الشعر ، وهي أشبه ما تكون بأقوال باعة الرؤوس ، يصفونها ليرغبوا الناس في شرائها . ومع ان أبا اسحق حاول أن ينقل صورة الرؤوس كما هي ، وحاول أن يتأنق في عرضها حين وصفها ، لا أدري لم أحسستُ أن الرجل إنما يصف متكلفاً ،

ويصف عن غير شهية . وأي شهية تطلع على القارئ من بيته :

« وأخذها في الرقاق يحكي صريع حمي له لحاف »

أو من قوله :

« مختلفات القدود لكن لها باسنانها ائتلاف »

وإن هذا الوصف ، أولى أن ينفر السامع من أن يجذبه الى الرؤوس التي وصفها الصابئ .

وقريب من معاني الصابئ ، ومن طريقة وصفه في أبياته هذه قول السري الرفاء في حمل مشوى .

أنعته معصفر البردين أبيض صافي حمرة الجنبين
خلّف شهرين على خلفين ثم رعي بعدهما شهرين
جسمه شبران في شبرين يا حسنه وهو صريع الحين
بغرفة مرهفة الحدين بكف شاو عطر الكفين
كسارق حُدّ من اليدين ذو طرف يستوقف العينين
يريك مرآة من اللجين مذهبة المقبض والوجهين
شق حشاه عن شقيقتين اختين في القد شبيهتين
كما قرنت بين كمأتين أو كرتي مسك لطيفتين
ان شين ذو روقين ناجمين فانه زين بغير شين

والسري حاول أن يصف الحمل بأن يرسم صورته كما هي ، وقد حاول

أن يصفه على نحو ما قال ابن رشيق في عمدته : « خير الوصف ما قلب السمع بصراً » . ومع أن « صورة الوصف » الفنية في هذا الموضوع كان يجب أن تدور حول الحمل وهو مشوي ، أو حول الحمل تقتطعه الأيدي وتبهج لرؤيته الأعين ، كما فعل ابن الرومي في وصفه السابق ـ فان السري راح يصف الحمل يوم رعي ، ويذكر طوله وعرضه ، ويصف حالته حين شقت بطنه وظهرت كليتاه ، ولم يصفه مشوياً ولا مأكولاً . وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن السري قد أظل طريق الوصف لأنه قال ما قال تكلفاً واظهاراً للقدرة على النظم والوصف .

ووصف ابن الرومي السمك ورأى حظه أقل من أن يمكنه من الحصول عليه :

فهو من الصياد في أمان ما دمت أبغيه وفي ضمان

وقال للمرثدي ـ وقصر المرثدي هذا على دجلة ـ يطلب أن يذيقه بنات دجلة :

اعلم وقيت الجهل انك في قصر تليه مطارح الشبك
وبنات دجلة في فنائكم مأسورة في كل معترك
بيض كأمثال السبائك بل مشحونة بالشحم والعلك
تغني عن الزيات قالبها وتبخر الشاوين بالودك
فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك

وهو في أبياته هذه يتوسل الى المرثدى في أن يذيقه السمك ، ويصفه وكأنه ينظر إليه نظرة من يستعرض قصة صيده وقليه وأكله في نفس جائعة مدفوعة بالشره دفعاً . ولا نراه يأتي بوصفه هذا بشيء من أوصاف السري الرفاء للسمك ، وأنها كالخناجر تتعطف ، أو أنها كمدى الفضة ، وأن عيونها كالياقوت أو الجواهر ، أو ما الى هذه الأوصاف التي تبصرها العين من ظاهر السمكة .

ويصف الحلوى بمثل نهمه في وصف السمك والرؤوس ، فاللوزينج[1] عنده لا يعجب الناظر وإنما يعجّبه ، ويأكله الآكل ويظن أن النفس قد عافته حتى اذا عاود النظر إليه تحركت في النفس شهوتها ، وعاودها النهم والشره . ويرى أن منظره الجميل ومخبره اللذيذ ، قد تعاونا على إحداث أثرهما في نفس الناظر إليه ، فحسنه يغزو النظر وطعمه يغزو الفم والذوق . وتهفو نفس ابن الرومي إليه ، حتى ليرى لو أن ثغراً اتخذ منه لما كان إلا واضحاً أشنبا .

أما الزلابية فهي شبابيك الذهب وهي الكيمياء ؛ يقول فيها وفي قاليها:

ومستقر على كرسيه تعب ... روحي الفداء له من منصب تعب
رأيته سحراً يقلي زلابيـــة ... في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زينة المقليّ حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

(١) تنظر صفحة ٣٩٦ وصفحة ٣٩٧ من هذا الكتاب .

يلقي العجين لجينا من أنامله فيستحيل شبايكاً من الذهب

وسروره بالقطائف سرور ابن الأحنف بعشيقته فوز :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذى دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي
سرور عباس بقرب فوز

أما الفواكه فقد قال فيها :

لولا فواكه ايلول إذا اجتمعت من كل نوع ورق الجو والماء
اذاً لما حفلت نفسي متى اشتملت عليَّ هائلة الجالين غبراء

وعشق منها العنب والموز ، وأجاد في وصفهما اجادته في وصف الطعام والحلوى ، فالموز عنده :

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب

ويقول في وصف نفسه ساعة يأكله :

وتخال انسرابه في مجاريه اقتراع الأبكار والاغفاء
لو تكون القلوب مأوى طعام نازعته قلوبنا الاحشاء

ويصف العنب الرازقي فتنسيه متعة العين والنظر حلاوة الطعم ، ويقول :

لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور قرَّط آذان الحسان الحور

ولابن الرومي أوصاف في الهريسة والدجاج والخبيص وغير ذلك من أنواع الأطعمة . على أن في الذي ذكرناه كفاية على طريقته في وصف الطعام .

وتعرض مهيار الديلمي لوصف الطعام وأدواته ، ولكنه على عادته ، اتخذ من وصف القدور والسمك احجيات وألغازاً ، وليس هذا من الشعر في شيء .

* * *

وصف اللباس :

ومع أن اللباس صنو الطعام ، وكثيراً ما تتداعى إحدى الكلمتين الى الذهن حين تذكر الاخرى ، وان حاجة الفقراء إليه شديدة ، ولاسيما في قطر له ما للعراق من البرد القارس في الشتاء ؛ مع كل هذا فاننا لانجد شعراً وصفياً في اللباس كالذي وجدناه في الطعام . أترى أن اللباس كان متوفراً لعامة الناس حتى الفقراء منهم ؟ أتراه كان متوفراً للشعراء ؟ ... يغلب على ظني هذا لأننا لا نراهم ينعون على شاعر فقير زراية لباسه في مجلس الأمير أو الخليفة ، على أنهم اذا عابوا على البحتري مثل هذا فانما عابوه لوساخته ، لالأنه مهلهل أو ممزق ، وهذا أمر يتصل بالفقر وذاك أمر يتصل بالبخل والطبع ، وبعيد ما بين هذين الأمرين . أيجوز لنا أن نقول إن الناس في هذه الحقبة لم يعنهم أمر اللباس ؟ ... إن الذي نراه من تركاتهم أو مصادراتهم وما فيها من

الشاعر التنوخي، وابن معروف واخبارهم معروفة . وكان ابن الحجاج يشرب مع ابن بقية الوزير، وحجبه مرةً فقال :

بحق رأس الامير مثلي يظمأ في دولة الأمير
فما لكم تشربون دوني ولست في جملة الحضور
ان دام هجرانكم على ذا طويتُ من بيتكم حصيري

وكان الشعراء — فوق ما مر — ينطلقون الى الحانات والاديرة، ولاسيما في الأعياد، فيروون أنفسهم ويقولون في وصف الخمر وسقاتها وكؤوسها . وكانوا يستمعون الى المغنين في هذه المجالس — والغناء حليف الشراب — فيصفون مجالس الغناء ايضاً . ولا نعرف شاعراً في هذه الحقبة خلا شعره من الخمر وما يتعلق بها من وصف السقاة والغناء (١). على انهم ظلوا يحومون حول معاني أبي نواس، وقد قصروا دونه حتى في عرض هذه المعاني . وربما كان الحسين بن الضحاك صديق ابي نواس ونديمه،

وصف الخمر :

وابن المعتز أشهر الشعراء الذين وصفوا الخمر . وابن المعتز يتجه الى وصف الظواهر من الموصوفات في عامة شعره وكذلك أمره حين يصف الخمر، فحبابها كالدر، وهي كالذهب أو كالنور . وقد يصفها ببعض الصفات المعنوية التي قالها الجاهليون ولاكها أبو نواس كثيراً؛ فيصفها بالقدم، وبأنها ذخيرة كسرى وبأنها تزيح

(١) انظر من ديوان الشريف الرضي ص ١٥٧ . ٣٩٦ . ٦٩٨

الأحزان والكرب . يقول :

وقد يباكرني الساقي فأشربها ... راحا تريح من الأحزان والكرب

ما زال يقبض روح الدنّ منزله ... حتى تغلغل سلك الدرّ في الثقب

وأمطر الكأس ماءً من أبارقه ... فأنبت الدرّ في أرض من الذهب

وسبّح القوم لما ان رأوا عجبا ... نوراً من الماء في نور من العنب

لم يبق فيها البلى شيئاً سوى شبح ... يقيمه الظن بين الصدق والكذب

سلافة ورثتها عاد من ارم ... كانت ذخيرة كسرى عن أب لأب

في جوف أكلف قد طال الوقوف به ... لا يشتكي الساق من اينٍ ولا تعب

يتيمة بين أهل الدهر قد رزقت ... جدا مزاحا وجدّ الناس من لعب

وللحسين بن الضحاك أشعار كثيرة في صفة الخمر ، على انه لا يعدو هذه المعاني أيضاً . ووصف ابن الرومي الخمر ، وكان حظ عينه وانفه منها أكثر من حظ خاطره ونفسه . إنه يغرم بالوانها ورائحتها أكثر من غرامه بشربها ونشوتها ، يقول :

ومدامة كحشاشة النفس ... لطفت عن الادراك باللمس

لنسيمها في قلب شاربها ... روح الرجاء وراحة الياس

ويصف لونها فيغلب اللون الأحمر على نفسه حتى لا يعود يرى غيره ، ولا يعني بغير ذكره :

وشرابنا وردية ... لكؤوسها شرر يطير

حمراء في يد أحمر الـ وجنات ملثمه مهير

أو يقول :

نضا الدهر عن أسآرها جلّ لونها فغادرها من لونها في غلائل
ثوت تصطلي شمس الظهائر برهة الى ان أفادت لون شمس الاصائل

ويشرك انفه وعينه في وصفها فيقول :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

وصف الآنية والكؤوس :

ويصف ابن المعتز إبريق المدامة فيعيدنا الى وصف عبيد والى البادية ، وما ينتزع من صورها . ويجيد في وصف الصوت يبعثه فم الابريق ساعة تنسكب الخمرة في القدح منه . ثم لا يفوته وصف ميلان الابريق للسكب ، فيعبر عن هذا الميلان تعبيراً جميلاً ؛ وهو يحاول أن يجعل وقع الألفاظ في الاذن محاكياً للصوت ينبعث من فم الابريق ساعة تنسكب الخمرة في القدح منه :

وكأن إبريق المدامة بيننا ظبي على شرف أناف مولّها
واذا استحثته السقاة حنى لها فبكى على قدح النديم وقهقها

ووصف ابن المعتز كؤوس الخمر وما نقش عليها من صور فارسية . وكانت صورة كسرى أكثر ما يرسم على هذه الكؤوس ، ذلك لأن الفرس عظّموه وقرنوا اسمه بالخمر ، وكانوا يصورونه في مواقف تدل

علي إجلاله وتعظيمه ؛ كان يصورونه وفرق الجند تحيط به . وابن المعتز يصف كأس الخمر وقد امتلأت بها حتى غرقت صورة كسرى — وقد وصف هذه الصورة نفسها أبو نواس من قبل — وربما كان القدح الذي وصفه ابن المعتز من جنس القدح الذي شرب به أبو نواس ووصفه ، يقول :

يمجّ سلاف الخمر في عسجدية ... توهّج في يمناه كالكوكب الفرد
محفرة فيها تصاوير فارس ... وكسرى غريق حوله حزق الجند

ويصف كأسا صوّرت عليها الأسود :

بكأس من زجاج فيه اسد ... فرائسهن الباب الرجال
اذا ما صرّعت منا نديما ... توسد باليمين وبالشمال

ويصف مهيار كأساً فارسية طليت بماء الذهب ونقشت بصور الفرس ، وصار الحباب يلاعب هذه الصور فيغطيها حيناً ثم ينقشع عنها فتعود الى الظهور :

وقوراء ماء الكرم أحمر ذائب ... عليها وماء التبر أصفر جامد
تمثل « بهرام الكواكب » قائما ... بها حيث « بهرام الأكاسر » قاعد
اميران يخفي قائم السيف قابض ... عليه ويبدي درة التاج عاقد
تبين وجبات المزاج نوازل ... وتخفي وجبات الحباب صواعد

ومن المشهور جداً وصف ابن الرومي لقدح زجاجي ، ومع انه وصفه فارغاً لا شراب فيه فقد خلع عليه اوصافا هي أولى بوصف الحبيب

كثرة اللباس عدداً ونوعاً يجعلنا نستبعد هذا .

والشعراء قد ذهبوا في وصف اللباس غير طريقهم في وصف الطعام وقد جعلوا هذا الوصف مادة يتندّرون بها ، واتخذوا من الطيلسان عنواناً للوصف الهزلي . وقد أدار ابن الرومي معاني الحمدوني الشاعر حين جعل طيلسان ابن حرب موضوعاً يهزل به ويلعب ، يقول :

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً ... يتجنّى على الرياح الذنوبا
طيلسان اذا تنفست فيه ... صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
وتهب الرياح من غير أرضي ... فتهب الفزوز فيه هبوبا
تتغنّى إحدى نواحيه صوتا ... فتشق الأخرى عليه الجيوبا
فاذا ما عذلته قال مهلاً ... لن يكون الكريم إلا طروبا
طال رفوي له فأودى بكسبي ... يا ابن حرب تركتني محروبا

ونرى أن هذه الأبيات قد صبغت بروح الدعابة وروح المرح ، لان ابن الرومي كان هازلاً فيها غير جاد ، وغير صادق أيضاً . ولو عبّرت هذه الأبيات عن كساء ابن الرومي لصبغها الحزن ولصبغتها الحسرة .

والوصف جميل تهش النفس لقراءته ، قد اعير الحياة والخفة ؛ فطيلسان ابن الرومي يشكو الصبا ويشكو الجنوب وقد خاصم بعضه بعضاً ؛ بعضه يتغنى وبعضه يشق الجيوب . وابن الرومي قد خلق في

وصفه من هذا الطيلسان روحاً يحاوره ؛ فهو يعذله والطيلسان يرد عليه .

وهو يدير هذه المعاني في أبياته :

لي طيلسان ليس يترك لي رفوي له مالاً ولا نشبا

طرب تفنّي منه ناحية وتشق اخرى جيبها طربا

كيف السبيل الى عمارته واذا عمرت خرابه خربا

ونراه في أبياته الثلاثة هذه لا يعدو الأبيات الاولى في معانيها بل وفي الكثير من ألفاظها .

وصف مجالس الشراب والغناء

بيئة العراق والشراب : شهر العراق منذ القديم بخمرته ، وكان الأعراب قبل الاسلام يبتاعون خمرتهم من أسواق الحيرة وحاناتها . وربما كانت الخمرة البابلية أشهر ما عرفه العرب من الخمور . وقد نشأ بالعراق أشهر شعراء الخمر عند العرب : عديّ بن زيد في الجاهلية وأبو نواس في الاسلام . وكان العراق بيد الفرس قبل أن يأخذه العرب ، والفرس امّة عكفت على الشراب وجعلت شرب النبيذ شعيرة دينية من شعائرها ، وكانوا يكرّمون أعيادهم بشرب الخمر ، كما كان المسلمون يكرمون ليالي القدر بالاحسان والصدقات . وقد لجوا بالشراب حتى قال عنهم هيرودوت : « انهم يصرفون امور الدولة وهم سكارى » . واثر هذا في حياة العرب الذين جاءوا الى العراق ، فكان للولاة الامويين مجالس شراب يقلدون بها الفرس . وساد الفرس حين ساد العباسيون وبُعثت عاداتهم من جديد والشراب احداها . ولا نعرف خليفة من الخلفاء العباسيين نزّه نفسه عن مجالس الشراب . وربما كانت هذه الحقبة التي نتحدث عنها أكثر الحقب عملاً على نشر العادات الفارسية ، لأن

الفرس ملكوا زمام الحكم في أيديهم . وطفت عدوى الشراب فصار يشرب بعيد الاضحى والفطر (١) بعد ان كان يكتفي بشربه في النوروز والمهرجان . وساعد على نشر الشراب ما لقيه أهل الذمة من تسامح في مذهب أبي حنيفة الذي ساد العراق ، وأن كان العراق مضطربا سياسياً واجتماعياً ، وأن كانت الثروة غير موزعة فيه توزيعاً عادلا ولا متقاربا .

وكان الشعراء يحضرون مجالس الشراب التي يقيمها رجال الدولة ؛ فالحسين بن الضحاك مثلا يشرب في مجلس المتوكل ويقول الشعر في سقاته . وقُتل الخليفة المتوكل في مجلس شرابه والبحتري معه . وشرب أبو تمام عند الحسن بن وهب (٢) فغلبه السكر وكسر الآنية ، ثم صحا فاعتذر . وشرب الحسين بن الضحاك مع ابرهيم بن المهدي فعربد عليه ابرهيم هذا وهمّ بقتله ، وللحسين في هذه الحادثة شعر اولع به الحلاج الصوفي وكان يكثر ترداده (٣) . وعربد ابرهيم بن الحسن بن سهل على البحتريّ فقال له البحتري :

وتبدهني اذا ما الكأس دارت بنزقات تجيء على البريد
عرابد يطرق الجلساء منها عليّ كأنها حطب الوقود

وكان ابن سكرة يشرب في مجلس المهلبي الوزير ، وكذلك كان أمر

---

(١) انظر في اليتيمة ـ شعر ابن الحجاج ، وشعر بختيار ، وشعر ابي الفرج ، وأشعار المهلبي .
(٢) ديوان أبي تمام ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠
(٣) انظره في الأغاني ـ طبعة دار الكتب ج ٧ ص ١٦٢

منها بوصف القدح :

وبديع من المحاسن يسبي كل عقل ويطبي كل طرف
وفي الحسن والملاحة حتى ما يوفيه واصف حق وصف
كفم الحب في الملاحة بل أحلى وان كان لا يناغي بحرف
تنفذ العين فيه حين تراها اخطأته من رقة المستشف
كهواء بل هباء مشوب بضياء ارقق بذاك واصف
وسط القدر لم يكبر لجرع متوال ولم يصغر لرشف

وصف السقاة :

ووصفوا مجلس الخمر والسقاة ؛ وكانوا غلماناً يزينونهم في الغالب ـ بالزهر ، يقول ابن المعتز :

فجاء بالراح يحكي ورد وجنته مقرطق من بني كسرى وشيرين
عليه اكليل آس فوق مفرقه قد رصعوه بانواع الرياحين

وقد فشا الشذوذ الجنسي في هذا العهد ؛ واننا نرى الشعر الذي قيل في المذكر أكثر من الشعر الذي قيل في الغزل . ويرى الجاحظ ان هذه العادة عادة فارسية ، عوّدهم عليها كثرة خروجهم في البعوث من غير أن يصطحبوا النساء معهم ، يقول : « فتعودوا ذلك في اسفارهم ، ورجعوا الى منازلهم وقد تمكنت تلك الشهوة فيهم » ، ثم هو ينفي ذلك عن العرب بقوله : « ولو كانت هذه الشهوة شائعة عند الاعراب لتعشقوا الغلمان ، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ولجاء فيهم باب من النسيب ، ولتهاجوا وتفاخروا

ولتنافسوا في الغلمان ... ولحدثت فيه أشعار وأخبار . والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني (١) . »

وكانت هذه العادة مستهجنة في العصر العباسي الأول ، أما في هذه الحقبة التي نتحدث عنها فان الشعراء صاروا يرون حضور الغلمان من الأمور التي لا يستغني عنها مجلس الشراب ، يقول الصابي :

نسق على ذاك روح دن ارقّ اسمائهـــا السلاف
ومسمع مطرب مليح يحرم عن مثله العفاف

وأكثر ما دار من وصف الغلمان ، وصف الشَعَر ينبت في وجوههم. وكانت العادة في العصر العباسي الأول الى القرن الثالث أن يرغب عن الغلام اذا التحى ، والبحتري يقول في غلام طلعت لحيته :

ياقتيلاً للحيـــة السوداء آفة المرد في خروج اللحاء
آجر الله عاشقيك فقد مـ ـت وعريت من ثياب البهاء

ويقولون إن أول شعر قاله البحتري قاله في غلام اسمه شقران كان يحبه ، وكان البحتري قد سافر ثم عاد فراه قد التحى :

نبتت لحية شقـــرا ن شقيق النفس بعدي
حلقت كيف أتته قبل ان ينجز وعدي

والحسين بن الضحاك يقول لغلام طلعت لحيته فراح ينتفها :

---

(١) انظر ثمار القلوب للثعالبي . ص ٤٤ .

جاءت طرائق شعر أنت ناتفها فكيف تصنع لو قد جاء أجمعه ؟
الله أكبر لا أنفك من عجب أأنت تحصد ماذو العرش يزرعه ؟!

والذي نجده في شعر الشعراء من بعد، أنهم يتجهون الى وصف الغلمان اذا التحوا ، ويكون طريقهم في وصفهم ما يسميه أهل البلاغة حسن التعليل . كان ابن المعتز يحب ساقيه يوسف الذي يقول فيه :

أتعذلني في يوسف وهو من ترى ويوسف بلاني ويوسف يوسف ؟!

ثم التحى يوسف هذا فقال فيه ابن المعتز :

لعمرك ما ازرت بيوسف لحية ولكنه قد زاد حسناً فاضعفا
فلا تعتذر عن حبه في التحائه فما يحسن الدينار الا مشنّفا

ويقول ابن سكرة :

قالوا التحى وستسلو عنه قلت لهم هل يحسن الروض مالم يطلع الزهر
هل التحى طرفه الساجي فأهجره ام هل ترحزح عن الحاظه الحور ؟

ويقول المهلبي :

يا شادنا جدّد حبي له من بعد حب سالف ساجي
بلحية قد اوصلت جمة مثل اتصال الطوق بالتاج

ومن الغريب ان يعشق الصابي غلاما أسود اللون اسمه « رشد » وطبيعي ان لا يجد الصابي في وصفه غير أن يعمد الى حسن التعليل الذي لجأ اليه الشعراء في الغلام الملتحي ، يقول :

أبصرت في «رشد» وقد أحببته رشدي ولم أحفل بمن قد ينكر
يا لائمي أعلى السواد تلومني من لونه وبه عليك المفخر؟
مشوى البصيرة في الفؤاد سواده والعين بالمسود منها تبصر

وهو يكرر هذه المعاني في أوصافه (١) له

وكثر وصف الشعراء للصدغ يلويه الغلمان فيجعلونه كالعقرب كما كثر وصفهم لطرة الشعر يصفّفونها ويلوونها أيضاً، يقول ابن المعتز:

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته

ويقول ابو عاصم البصري:

يابنفسي من اذا جمشته نثر الورد عليه ورقه
واذا مدّت يدي طرته أفلتت مني وعادت حلقه

أما بقية أوصاف الغلمان فلا يعدون بها ما وصفت به النساء من أنّ طولهم كالغصن وتثنيهم كتثنيه، وان عيونهم عيون الظباء، وأن أردافهم دعص الرمل أو الموج الرجراج، والى أمثال هذا مما هو مشهور معروف متداول.

علاقة الغناء بالشراب:

ومجلس الخمر قل أن يخلو من الغناء. والشارب اذا أخذته نشوة الكأس غنّى وأحب سماع الغناء.

(١) يتيمة الثعالبي ٢/٢١٨ وما بعدها

ومن المشهور قول بعضهم :

سقوني وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنّت

وأهل الخمر يعتقدون أن الغناء يجعل الشارب أسرع مبادرة الى كأسه . يقول ابن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام

وغناء يستعجل الراح غض وكما ناح في الغصون الحمام

وقد كثرت مجالس الغناء في العراق ولا أشك أن كثرة الحانات والديرة لها صلتها الوثيقة بهذا . والفرس ربما كان أثرهم في الغناء لا يقل عن أثرهم في الشراب ، روى حمزة الاصفهاني ان بهرام جور أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفه ، ثم يستريحوا ويتوفروا على الأكل والشراب واللهو ، وان يشربوا على سماع الغناء فعزّ المغنون ... ومر بقوم يشربون على غير ملهين ـ مغنين ـ فقال : اليس قد نهيتكم عن الغفلة ؟ فقالوا طلبناه بزيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه . وكان للفرس عادات في سماع الغناء أخذها عنهم العرب ، وحسبنا أن البعض يزعم أن الغناء العربي نقلت ألحانه من فارس .

وربما كان للزنج الذين كثروا في العراق حتى قاموا بثورة الزنج المشهورة أثر في نشر الغناء ودفع الناس اليه ، يقول عنهم الثعالبي (١)

(١) ثمار القلوب ص ٤٣٥ .

« وهم مخصوصون من بين الامم بشدة الطرب وحب الملاهي والاغاني وايثار الخلاعة والتصابي ، والمثل سائر باطرائهم لاسيما اذا دب الشراب فيهم »

وتولع الناس ؛ عامتهم ورؤساؤهم بالغناء حتى روي ابن الأثير ان الخليفة قتل ابن حمدان لأنه دافعه في شراء مغنيتين . وكان للخاصة مجالس للغناء تصاحب مجالس الشراب في الغالب ، وقل أن ينفرد أحدهما عن الآخر . وكانت هذه المجالس يغنى فيها بشعر الأمير غالباً ؛ يقول الصاحب عن مجلس المهلبي الوزير ان غلامه سلافا غناه بشعر ابي نواس .

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم

فطلب الوزير المهلبي ان يغني بشعره هو . وكان ابن سكرة يشرب عند الأمير أحمد بن ورقاء ، وهو الذي يقول بعد ان وصف خمرته

وشربنا بحمده ... وانتقلنا بشكره

وسمعنا غرائباً من أفانين شعره

وكان للعامة ـ كما كان للخاصة ـ مجالس غناء وشراب يحضرها الناس ويغني فيها الغلمان والقيان ؛ يقول ابو حيان التوحيدي [1] « في بغداد وحدها خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس » . ويقول أبو حيان وهو يتحدث عن بغداد : « وكان بها صبي موصلي مغن ، ملأ الدنيا

(١) الامتاع والمؤانسة ٢ / ١٧٤

عيارة وخسارة وافتضح أصحاب النسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسن، وثغره المبتسم وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو » .

وكان للشعراء مجالس غناء يدعو بعضهم بعضاً اليها ، والشاعر البحتري يهجو شاعراً يدعى أبا الحسين ويتهمه بان أصحابه الذين دعاهم للغناء إنما جاؤه للريبة ، يقول :

يا علي ، بل يا أبا الحسين الما ... لك رق الظريفة الحسنـــاء
اتق الله أنت شاعر قيس ... لا تكن وصمةً على الشعراء
أن اخوانك المقيمين بالأمس ... أتوا للزناء لا للغنـــاء

وصف الغناء :

هذه المجالس ـ العامة والخاصة ـ كان يحضرها الشعراء ، فيصفون المغنين ويصفون الغناء ويصفون أثر الصوت في نفوس السامعين . وعندي أن ابن الرومي ارهف شعراء هذه الحقبة اذنا ، وأوصفهم للصوت وللمغنى . كان يرتاد مجالس الخاصة ويسمع غناءهم فيقول الشعر في وصفه ووصف المغنيات . وكثر ترداده على بيوت القيان حتى لحاه الناس وحتى قال :

ولاحٍ في القيان فقلت مهلاً ... رُميت بنبل أوتار القيان

وهن لا يبخلن عليه بالحضور والسماع ، إما طمعاً بمديحه أو خوفاً من

هجائه، ولا نعجب من هذا إذا علمنا ان مطيع (١) بن إياس هجا قينة بالكرخ ببيتين من الشعر سببا ارتحالها وهجرتها من بغداد.

وقد ترك لنا ابن الرومي شعراً وصفياً كثيراً في وصف آلات الغناء: وصف به الصوت ووصف به المغنية حالة غنائها، ثم وصف أثر ذلك كله في أنفس السامعين أو في نفسه هو. يقول في وصف مجلس غنائي اقامه عبيدالله بن عبدالله في المهرجان:

وقيان كأنها امهـــات عاطفات على بنيها حوان
كل طفل يدعى باسماء شتى بين عود ومزهر وكران
امه دهرهـــا تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

ثم يصف فعل آلات الغناء هذه في أنفس سامعيها:

عجب منه كيف يسلي ويلهي مع تهييجه على الأشجان
فترى في الذي يصيخ اليه امرات المحزون والجذلان

ثم يصف الصوت:

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطـــلّ عنه في تثنيه مثل حبّ الجمان
جهوري بلا خفاء على السمـ ـع مشوب بغنّة الغزلان
فيه بم وفيه زير من النغـــم وفيه مثـــالث ومثاني

(١) انظر في الأغاني اخبار مطيع بن اياس.

فتراه يجل في السمع حيناً وتراه يدق في الأحيان
يلج السمع مستمراً الى القلـ ـب بلا اذن لا ولا استئذان

ثم يصف القينة وهي تغنيه :

ليس تخفي انفاسها أنها اذ نفاس مهضومة الحشا خمصان
فهي كالسابق المضمر يجري لاحق الأيطلين عوج اللبان

فهو في أبياته الاولى يشيع الحياة في الوصف بان يظهر شعور المغنيات نحو آلاتهن ، وقد انحنين عليها انحناء الامهات على الأطفال . وهو يشيع الحياة أيضاً حين يجعل هذا التجاوب بين المغنيات وآلاتهن ؛ فالنغم ليس إلا ترجمة لشعور الآلة تنقله عنها المغنية . ثم يعجب من الآلة تبعث الحزن وتبعث الفرح ، وتفعل كل هذا من غير أن يبدو عليها الانفعال.

وهو يصف الصوت وصف ذي حس مرهف له اذن واعية لا يفوتها التميز الدقيق بين الأصوات ، ثم هي فوق ذلك اذن عالم بفنون الغناء وأسمائه وأصواته . وهو فوق هذا قد رزق قدرة نادرة على تقريب هذه الأصوات الى ذهن السامع ؛ يصف الصوت بان يشبهه بالغصن تهزه الصبا وتنفض عنه الطل مثل حب الجمان ؛ فيجعل الصورة واضحة في نفس كل سامع .

وننظر اليه يصف المغنية « وحيد » حال غنائها فنرى عجباً ؛ إنه لا يحاول الا وصف صوتها ووصف مايتعلق بالغناء من حركاتها واعضائها:

تتغنى كأنهـــا لا تغنّي من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عيناً لك منهـا ولا يدرُّ وريد
من هدوء وليس فيه انقطاع وسجو وما بـــه تبليد
مدٌّ في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وارقٌّ الدلال والغنج منه وبراه الشجـــا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيـا مستلذ بسيطه والنشيـــد
فيه وشي وفيه حليٌّ من الفم مصوغ يختال فيه القصيد

وكما نراه يألف الصوت الجميل ويكلف به وبصاحبه ، ويفيض في وصفه وفي أثره في نفسه ، نراه ينفر من الصوت القبيح ويضيق به حتى يقول :

من رأى منتحباً غير ي على سوء الغناء

وقد لج في وصف الأصوات ينفر عنها سمعه فقبّحها بوصفه ، يقول في قينة :

قينة ملعونة من أجلهـا رفض اللهو معاً من رفضه
تضغط الصوت الذي تشدو به غصة في حلقهـا معترضة
فاذا غنّت بدا في جيدهـــا كل عرق مثل بيت الأرضه

ويصف مغنياً قبيح الصوت بقوله :

ابحٌّ فيه شذوذ حشرجة منظومة في مقاطع النغم

نبرته غصّة وهزّتـــه مثل نبيب التيوس في النغم

ولا يغيب عنا أن وصف الصوت من أصعب موضوعات الوصف. ولا نعرف شاعراً قارب ابن الرومي في هذا، وقدمر بنا أن الاستاذ متز حين تكلم عن أدب القرن الرابع الهجري خيل اليه أن الشعراء لا يتذوّقون الأصوات أو هم لا يستطيعون وصفها، وقد عجب من السلامي كيف وصف السكر بشيراز من غير أن يشير الى اصوات المياه فيه. ويبدو لنا أنه لو نظر الى وصف ابن الرومي للاصوات يسمعها من المغنين والمغنيات لغيّر رأيه.

وقد مر بنا أن الحجاز، والمدينة بصورة خاصة، كانت كثيرة المجالس الغنائية التي يغشاها الشعراء، وكان الشعراء يهشون لسماع الغناء، حتى أن أبا الفرج يروي أن عمر بن أبي ربيعة كان يشق ثيابه لسماعه غناء جميلة المغنية وشدة طربه، ومع كل هذا فلا نرى لابن أبي ربيعة في وصف الغناء شيئاً يستحق أن يشار إليه. وقد مر بنا أن القس عشق سلاّمة المغنية، وأنه وصف غناءها فكان لا يزيد على البيتين أو الثلاثة.

ووصف البحتري أبا العلاء المغني فلم يستطع أن يقول شطراً واحداً أو معنى واحداً في وصف صوته، وإنما اتجه الى أعضائه وحركاته وعابه بأنه كثير التلفت والاعتراض، وكان عليه أن يصف صوته بالقبح إذ لا شيء يقدح في المغني أكثر من قبح صوته، أما اذا جمل صوته

واستطيب فكل ما وراء ذلك قليل الأهمية .

يقول في هجاء أبي العلاء هذا :

مغنيك للبُغض فيه سِمَهْ تلوحُ على خلقةٍ مُبهمه
تزيدُ الاهانةُ في حاله صلاحاً وتُفسده التكرمه
يُرعّش لحييه عند الغنا ء كأنّ به النافض المؤلمه
ومُنتشرُ الحلق واهي اللُّها ة اذا ماشدافاحشُ العلصمه
وانفٌ اذا احمرّ في وجهه وقام توهمتَهُ محجمه
اذا صاح سالتْ له مخطةٌ على الصوت وانقلعتْ بلغمه
كثيرُ التفلُّت والاعترا ض شديدُ التلفُّت والهمهمه

وبعد الذي مر من وصف الغناء أستطيع أن أقول إن هذه الحقبة التي تحدثت عنها قد انفردت في الاجادة في وصف الغناء ، واني لا أعرف للعرب شعراء من قبل ولا من بعد تعمقوا في وصف الغناء هذا التعمق الذي نجده عند ابن الرومي ، وربما كان لانتشار المغنين والمغنيات وانتشار الثقافة العميقة أثر في هذا .

منتخبات من شعر الوصف

قال أبو تمام في وصف الربيع :

رقمت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حليه يتكسّرُ

بذلت مقدمة المصيف حميدة ... ويد الشتاء جديدة لا تكفر

لولا الذي غرس الشتاء بكفه ... قاسى المصيف هشائماً لا تثمر

كم ليلة آسى البلاد بنفسه ... فيها ويوم وبلُه مشعنجر

مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يقطر

غيثان : فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه ، والصحو غيث مضمر

وندى اذا ادّهنت به لمم الثرى ... خلت السحاب أتاه وهو معذّر

أربيعنا في تسع عشرة حجة ... حقاً لهنّك للربيعُ الأزهر

ما كانت الأيام تسلب بهجةً ... لو أن حسن الروض كان يعمر

أولا ترى الأشياء إن هي غيّرت ... سمجت وحسن الأرض حين تغيّر

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهر الربى فكأنما هو مقمر

دنيا معاش للورى حتى اذا ... حلّ الربيع فانما هي منظر

أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنوّر
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفّر
حتى غدت وهداتها ونجادها فئتين في حلل الربيع تبختر
مصفرّة محمرّة فكأنها عصبٌ تيمن في الوغى وتمضّر
من فاقع غض النبات كأنه درر تشقق قبل ثم تُزعفر
أو ساطع في حمرة فكأنما يدنو إليه من الهواء معصفر
صبغ الذي لولا بدائع لطفه ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر
خلق أطلّ من الربيع كأنه خلق الامام وهديه المتنشر
في الأرض من عدل الامام وجوده ومن النبات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروّض فعله أبداً على مرّ الليالي يذكر
إن الخليفة حين يظلم حادث عين الهدى وله الخلافة محجر

وقال ابن المعتز من ارجوزة في وصف بستان :

أما ترى البستان كيف نوّرا ونشر المنشور برداً أصفرا
وضحك الورد على الشقائق واعتنق القطر اعتناق الوامق
في روضة كحلة العروس وخدم كهامة الطاووس
وياسمين في ذرى الأغصان منتظماً كقطع العقيان
والسرو مثل قطع الزبرجد قد استمد الماء من ترب ندى

وفرش الخشخاش جيباً وفتق ... كأنه مصاحف بيض الورق
حتى اذا ما انتشرت أوراقه ... وكاد أن يرى إلينا ساقه
صار كأقداح من البلّور ... كأنما تجسمت من نور
وبعضه عريان من أثوابه ... قد خجل الأعين من أصحابه
تبصره بعد انتشار الورد ... مثل الدبابيس بأيدي الجند
والسوسن الآذرمنشور الحلل ... كقطن قد مسه بعض البلل
نوّر في حاشيتي بستانه ... ودخل البستان في ضمانه
وحلّق البهار فوق الآس ... جمجمة كهامة الشماس
وجلّنار مثل جمر الخدّ ... أو مثل أعراف ديوك الهند
والأقحوان كالثنايا الغرّ ... قد صقلت نوّارها بقطر

وقال السرى الرفاء في وصف الروض :

أعاد الحيا سكر الشباب وقد صحا ... وجدّد من عهد الربيع الذي انمحى
وبات زناد البرق يقدح ناره ... على الآس حتى اهتز فيه وقدّحا
كأن حمام الروض نشوان كلما ... ترنم في أغصانه وترجّحا
ولاذ نسيم الروض من طول سيره ... حسيراً بأطراف الغصون مطلّحا
فبائر ورد الأقحوان مشرّفاً ... وصافح ورد الباقلاء مجنحا
وحلّل من أزراره النور فاغتدى ... كلفظ جليبٍ همّ أن يتفصّحا
وشق على لون الخدود شقائقاً ... رأته عيون الشرب أبهى وأصلحا

قال جحظة البرمكي في الورد :

يا راقداً ونسيم الفجر منتبه ... في ربقة القفص والأطيار تنتحب
الورد ضيف فلا تجهل كرامته ... وهاتها قهوة في الكاس تلتهب
سقياً له زائراً تحيا النفوس به ... يجود بالوصل حيناً ثم يجتنب
تباً لحرّ رآه وهو ذو جدة ... لم يقض من حقه بالشرب ما يجب

وقال ابن المعتز في الورد :

أتاك الورد محبوباً مصوناً ... كمعشوق تكنفه الصدود
كأن بوجهه لما توافى ... نجوم في مطالعها سعود
بياض في جوانبه احمرار ... كما احمرّت من الخجل الخدود

وقال ابن سكّرة فيه :

للورد عندي محل ... لانه لا يملّ
كل الرياحين جند ... وهو الامير الاجلّ
إن غاب عزوا وتاهوا ... حتى اذا عاد ذلوا

وقال السري الرفاء :

لو رحبت كاس بذى أوبة ... لرحبت بالورد إذ زارها
جاء فخلناه خدوداً بدت ... مضرمة من خجل نارها
كأنما خيّر في روضة ... طرائف الكسوة فاختارها
وعطّر الدنيا فطابت به ... لاعدمتْ دنياك عطّارها

قد خلع القطر جلابيبه الا شظاياها وأزرارها

قال ابن الرومي في وصف النرجس :

يا حبذا النرجس ريحانة لأنف مغبوق ومصبوح
كأنه من طيب أرواحه ركب من روحٍ ومن روح
ابدى وجوهاً غير مقبوحةٍ في زمن ليس بمقبوح
ياحسنه في العين ياحسنه من لامح للشرب مملوح
كأنما الطلُّ على نوْرِه ماء عيون غير مسفوح
لو شاهد الورد احايينه لم ترَ ورداً غير مطروح
اما ترى الحمرة في وجهه تنطق عن خجلة مفضوح
ميلا عن الورد الى سيدٍ من سادة الريحان ممدوح
كأنما تنشر أيامه من بين مطلول ومنفوح
ما ينشر المداح عن قاسمٍ من مجمل فيه ومشروح

قال ابن المعتز في النرجس :

أما ترى النرجس الميّاس يلحظنا ألحاظ ذي فرحٍ بالعتب مسرور
كأن أحداقها في حسن صورتها مداهن التبر في أوراق كافور
كأن طلَّ الندى فيه لمبصره دمع ترقرق من أجفان مهجور

وقال ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد :

للنرجس الفضل المبين لأنه زهرٌ ونورٌ وهو نبت واحد

ينهي النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلاً تورّدها عليه شاهد

هذي النجوم هي التي ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد

فتأمل الاثنين مَن أدناهما ... شبهاً بوالده فذاك الماجد

أين العيون من الخدود نفاسةً ... ورئاسةً لولا القياس الفاسد !؟

في الطير

قال الشريف الرضي :

يا طائر البان غريداً على فنن ... ما هاج نوحك لي يا طائر البان !؟

هل أنت مبلغ من هام الفؤاد به ... ان الطليق يؤدي حاجة العاني

ضمانة ما جناها غير مقلته ... يوم الوداع فيا شوقي الى الجاني

مغفل عن همومي في بلهنية ... ارعى النجوم وطرفاه قريران

ينأى ويدنو على خضراء مورقة ... لعب النعامي بأوراق وأغصان

كالقرط علّق في ذفري مبتلة ... بين العقائل قرطاها قليقان

هيهات ما أنت من وجدي ولا طربي ... ولا تقلبك أشجاني وأحزاني

ولا نظرت الى ماءٍ على ظمأٍ ... تبغي الورود ، وليس الورد بالداني

ولا جمعت وقد سارت ركائبهم ... يوم الغميم بغزلان كغزلاني

لو لا تذكر ايامي بذي سلمٍ ... وعند رامة أوطاري وأوطاني

لما قدحت بنار الوجد في كبدي ... ولا بللت بماء الدمع أجفاني

وقال السري الرفاء يصف الخطاف :

وقد كتبت أيدي الربيع صحائفاً ... كأن سطور البرق حسناً سطورها
فمن روضةٍ سار إلينا نسيمها ... ومن مزنةٍ مُرخى علينا ستورها
وغرفتنا الحسناء قد زاد حسنها ... بزائرةٍ في كل عام تزورها
بمبيضة الأحناء سود شطورها ... مزنَّرة الأذناب حمر نحورها
مرفرفة حول البيوت وفودها ... محلقة حول السقوف وكورها
لهن لغات معجبات كأنها ... صرير نعال السّبت عال صريرها
تجاورنا حتى تشب صغارها ... فيلحق فينا بالكبير صغيرها
فزرنا ترى اللذات بيضاً وجوهها ... محببة رَوْحاتها وبُكورها

وقال يصف الخطاف ويدعو صديقاً لزيارته :

ألستَ ترى ركب الغمام يُساق ... وأدمعه بين الرياض تُراق
وقد رق جلباب النسيم على الندى ... ولكن جلابيب الغيوم صِفاق
وعندي من الريحان نوع تحية ... وكأس كرقراق الخلوق دهاق
وذو ادب جلّت صنائع كفه ... ولكن معاني الشعر فيه دِقاق
لنا أبداً من نثره ونظامه ... بدائع حلى ما لهنّ حِقاق
وأغيد مهتز على صحن خده ... غلائل من صبغ الحياء رقاق
احاطت عيون العاشقين بخصره ... فهن له دون النطاق نطاق

* * *

وغرفتنا بين السحائب تلتقي لهن عليها كلّة ورواق
تقسّم زوّار من الهند سقفها خفاف على قلب النديم رشاق
أعاجم تلتذّ الخصام كأنها كواعب زنج راعهن طلاق
انسن بها انس الاماء تحبّبت وشيمتها غدر بنا وإباق
مواصلة والورد في شجراته مفارقة إن حان منه فراق
فزر فتيةً برد الشراب اليهم حميم إذا فارقتهم وغساق

في السماء

وقال ابن الرومي في قوس قزح :

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقضّ علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجوّ كنّاً والحواشي على الأرض
يطرّزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر اثر مبيضّ
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائلٍ مصبّغةٍ والبعض أقصر من بعض

وقال ابن المعتز في البرق :

ظللت بحزن ان بدا البرق غدوةً كما رفع النار البصيرة قابس
اذا استعجلته الريح حلّت نطاقه وهاجت له في المعصرات وساوس
وشقّق أعراف السحاب التماعه كما انصدعت بالمشرفيّ القوانس

وقال الشريف الرضي فيه :

يا من رأى البرق على الأنعم يطوي رياط الغسق المظلم

محمرّة منه كفاف الدجى نضح جراح الفرس الأدهم
قام نساء الحي يقبسنه ناراً من الايماض لم تضرم
تطاول المنجد ظناً به وقد عطا للبلد المتهم
حتى رمى الاصباح في ليلة لفّت إزار الرجل المحرم

وقال السري الرفاء في سحابة :

سارية في غسق الظلام دانية من قلل الآكام
جاءت مجيء الجحفل اللهام وافترقت كالابل السوام
كأنها والبرق في ابتسام كتيبة مذهبة الأعلام
دنت من الأرض بلا احتشام ثم بكت بكاء مستهام
فبشّرت بسابغ الأنعام وثروة تحكم في الاعدام
كأنها في خلع الغمام محلّة ملّت من الاحرام

وقال البحتري في الغيث :

من ذا رأى مزناً تأزر برقه في عارض عريان لم يتأزر
غيث أذاب البرق شحمة اذنه والريح تنظم منه حب الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبا من بعد ما انغمست به في العنبر
ويضيء تحسب أن ماء غمامه عقد تناثر في إناءٍ أخضر

وقال السريّ الرفاء فيه :

وحيىً أرقت لبرقه فكأنه قدح الزناد يطير في أرجائه

سارٍ على كفل الجنوب مقابل حزن البلاد وسهلها بعطائه
حنّت رواعده فأسبل دمعه كالصبّ أتبع شدوه ببكائه
وسقت غمائمه الرياض كأنما جود الأمير سقى رياض ثنائه

وقال مهيار في الثريا :

بيضاء في لجةٍ خضراء سابحةٌ عدوها النور بل أضدادها الظلم
لها من النور وجه كله نقط وغرّة كلّها للناظرين فم
من حولها مفردات عن تجمعها كأنهن بنات وهي امّهم
اذا أحطن بها من كل ناحيةٍ حنت لهن بثدى كلّه حلم

فى الفواكه والخضر

قال ابن المعتز في الجزر :

انظر الى الجزر الذي يحكى لنا لهب الحريق
كمذبّةٍ من سندسٍ وبها نصابٌ من عقيق

وقال في الليمون :

كأنما الليمون لما بدا للعين في أوراقه الخضر
مداهن من ذهب اطبقت على زكيّ المسك والخمر

وقال السري الرفاء فيه :

واصطبحناها على نهـــرٍ بصفو الماء يجري
ظلّلتـــه شـــجرات عطرهـــا أطيب عطر
فلك أنجـــمه الليمو ن من بيض وخضر

أكرم من فضة قد شابها تلويح تبر

وقال في نارنجة :

وبديعة أضحى الجمال شعارها صبغ الحياء رداءها وإزارها
فالعين تحسر إن رأت إشراقها والنفس تنعم إن بلت أخبارها
فكأنها في الكف وجنة عاشق عبث الحياء بها فأضرم نارها
محمولة حملت عجاجة عنبر فاذا سرى ركب النسيم أثارها
أمنت على أسرارها ريح الصبا وهناً فضيعت الصبا أسرارها
وكأنما صافحت منها جمرةً أمنت يمينك حرها وشرارها
ما احسب النارنج إلا فتنة هتك الزمان لناظرٍ أستارها
عشقت محاسنه العيون فلو رنت أبداً إليه لما قضت أوطارها

فى النار

قال السري في كانون نار :

وأزهر وضاح يروق عيوننا اذا ما رميناه بلحظ النواظر
له أربع تأبى السرى غير أنها تصافح وجه الأرض مثل الحوافر
تقل جسوماً بعضها من مورد وسائرها في مثل صبغ الدياجر
نواصله أيام للقرّ سطوة ونهجره أيام لفح الهواجر

وقال في النار :

والتهبت نارنا فمنظرها يغنيك عن كل منظر عجب

إذا ارتمت بالشرار واطردت ... على ذراها مطارد اللهب
رأيت ياقوتة مشبكة ... تطير عنها قراضة الذهب
فصر إلى المجلس الذي ابتسمت ... فيه رياض الجمال والأدب

وقال السلامي في ليلة السذق :

ما زلت أشتاق ناراً اوقدت لهما ... حتى ظننت عذاب النار قد عذبا
يعلو الدخان بسود من ذوائبها ... قد عطّ فيها قناع التبر واستلبا
قد كلّلت عنبراً بالمسك ممتزجاً ... وطوّقت جلّناراً واكتست ذهبا
فالنور يلعب في أطرافها مرحاً ... والخمر ترعد في أكنافها رهبا
وطار عنها شرار لو جرى معه ... برق دنا أو تلقّى كوكباً نكبا
لو كان وقت نثار خلته دراً ... أو كان وقت انتصار خلته شهبا
والليل عريان فيه من ملابسه ... نشوان قد شق أثواب الدجى طربا

وقال الصابي في مدخنة :

ومحرورة الأحشاء تحسب أنها ... متيمة تشكو من الحب تبريحا
تناجيك نجوى يسمع الأنف وحيها ... وتجهله الاذن السميعة إذ يوحى
اذا استودعت سراً من الطيب مجملاً ... أشاعته تفصيلاً وأفشته مشروحا
وإن حاولت اخفاءه في ضميرها ... أبى عرفها إلا اعترافاً وتصريحا
يحرّق فيها العود عوداً وبداءةً ... فتأخذه جسماً وتبعثه روحا

وقال في الشمعة :

وليلة من محاق الشهر مدجنة ... لا النجم يهدى السرى فيها ولا القمر
كلفت نفسي بها الادلاج ممتطياً ... عزماً هو الصارم الصمصامة الذكر
الى حبيب له في القلب منزلة ... ما حلّها قبله سمعٌ ولا بصر
ولا دليل سوى هيفاء مخطفة ... تهدي الركاب وجنح الليل معتكر
غصن من الذهب الابريز أثمر في ... أعلاه ياقوتة صفراء تستعر
تأتيك ليلاً كما يأتي المريب فان ... لاح الصباح طواها دونك الحذر

وقال السري الرفاء في الشمع :

فلما دجى الليل فرّجته ... بروح تحيف جثمانها
بشمع اعير قدود الرما ... ح وسرج ذراها وألوانها
غصون من التبر قد أزهرت ... لهيباً يزيّن أفنانها
فياحسن أرواحها في الدجى ... وقد أكلت فيه أبدانها

فى الخيل

قال البحتري يصف فرساً :

وأغر في الزمن البهيم محجل ... قد رحتُ منه على أغر محجّل
كالهيكل المبنيّ إلا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل
وافى الضلوع يشد عقد حزامه ... يوم اللقاء على معمٍ مخول
أخواله للرستمين بفارسٍ ... وجدوده للتبعين بموكل

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيداً وينتصب انتصاب الأجدل

تتوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل

متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصّل

ذنب كما سحب الرداء يذبّ عن عرف وعرفٌ كالقناع المسبل

ذهب الأعالي حيث تذهب مقلة فيه بناظرها حديد الأسفل

صافي الاديم كأنما عنيت به لصفاء نقبته مداوس صيقل

وكأنما نفضت عليه صبغها صهباء للبردان أو قطربُل

وتراه يسطع في الغبار لهيبه لوناً وشداً كالحريق المشعل

هزج الصهيل كأن في نغماته نبرات معبد في الثقيل الأول

ملك العيون فان بدا أعطينه نظر المحب الى الحبيب المقبل

وقال السلامي في صفة مهر :

اليك بعثناها شوارد ضمّنت معاني لو لاها لما شرف الشعر

اذا قال جسمي تستحل بحلّةٍ تقول له رجلاي بل مهرها مهر

فمن لي به لا الدهم فازت بلونه ولا البرش حازت بردتيه ولا الصفر

كميت تذال الشهب والبلق إن بدا وتسمو بما نالته من شبهه الشقر

يخوض إذا لاقى دماً مثل لونه ولا ماء الاماء رونقه الغمر

فغرّته مبيضّة وحجوله ولكن اريقت فوق سائره الخمر

وأسبق من عاف اليك وشاعر قوافيه أفرادٌ محجّلة غرّ

فلو شامه في أرض فارس فارسٌ لما أمسيا إلا ومصر له مصر
نتاج فتى في الحرب تنتج خيله وبالدم تسقى والنزال لها ضمر

وقال البحتري يصف فرساً وبغلاً :

وهو المسير الى ابن يوسف إنه لو لا ابن يوسف لم نشط فنخلج
فأعنْ على غزو العدو بمنطوٍ احشاؤه طي الكتاب المدرج
اما بأشقر ساطع اغشى الوغى منه بمثل الكوكب المتأجج
متسربل شيةً طلت أعطافه بدمٍ فما تلقاه غير مضرَّج
أو أدهم صافي السواد كأنه تحت الكميّ مظهرٌ بيرندج
ضرم يهيج السوط من شؤبوبه هيج الجنائب من حريق العرفج
خفت مواقع وطئه فلو أنه يجري برملة عالج لم يرهج
أو أشهب يقق يضيء وراءه متن كمتن اللجة المتوجرج
تخفى الحجول ولو بلغن لبانه في أبيض متألق كالدملج
أوفى بعرف أسود متغربٍ فيما يليه وحافر فيروزجي
أو أبلق يلقى العيون اذا بدا من كل لون معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد اذا مشى عنناً بأحسن حلة لم تنسج
واقب نهد للصواهل شطرُه يوم الفخار وشطره للمشحَّج
خرق يتيه على أبيه ويدعي عصبية لبني الضبيب وأعوج
مثل المذرع جاء بين عمومة في غافق وخؤولةٍ في الخزرج

وعريض أعلى المتن لو علّيته بالزئبق المنهـــال لم يترجرج
ولأنت أبعد في المكارم همة من أن تضن بموكف أو مسرج

* * *

قال السريّ الرفّاء في الجسر :

كأنما الجسر فويق الماء وسفنه جانحـــة الأفياء
شبه الطراز لاح في الرداء كأنه في خلع الظلماء
دهم من الخيل على رواء

وقال السلامي يصف نهراً عليه النارنج :

أتنشـــط للصبوح أبا عليٍ على حكم المنى ورضى الصديق
بنهرٍ للرياح عليـــه درْع تذهّب بالغروب وبالشروق
إذا اصفرت عليه الشمس صبت على أمواجـــه ماء الخلوق
وقفت به فكم حد رقيق يغازلني على قـــدٍ رشيق
وجمر شُبّ في الأغصان حتى أضاع الماء في وهج الحريق
فدهم الخيل في ميدان تبرٍ يصاغ لها كرات من عقيق
فهل لك في ختام المسك فضت نوافجـــه ومختوم الرحيق

وقال السري يصف بستاناً وقصراً ودولاباً :

أنشأته منزلاً في قلب دجلة لا تمتاح جنته الغدران والقلبا
صفا الهـــواء به والماء فاشتبها كأن بينهما من رقـــة نسبا
وأصبح الغيث مخلوع العذار به فليس يخلع أبراد الحيا القُشُبا

فمن جنانٍ تريك الدُّور مبتسماً ... في غير إبّانه والماء منسكبا
ومن سواقٍ على خضراء تحسبها ... مخضرّةً البسط سلّ وافوقها القضبا

* * *

كأن دولابها إذ حنّ مغتربٌ ... نأى فحنّ الى أوطانه طَرَبا
باكٍ إذا عقّ زهر الروض والده ... من الغمام غدا فيه أباً حدبا
مشمرٌ في مسير ليس يبعده ... عن المحل ولا يهدى له تعبا
ما زال يطلب رفد البحر مجتهداً ... للبر حتى ارتدى النوّار والعشبا
فالنخل من باسقٍ فيه وباسقةٍ ... يضاحك الطلع في قنوانه الرطبا
أضحت شماريخه في النحر مطلعةً ... إما ثريا وإما معصماً خضبا
تريك في الظل عقياناً فان نظرت ... شمس النهار إليها خلتها لهبا
والكرم مشتبك الأفنان توسعنا ... أجناسه في تساوي شربها عجبا
فكرمة قطرت أغصانها سبجاً ... وكرمة قطرت أغصانها ذهبا
كأنما الورق المخضرّ دونهما ... غير ان يكسوهما من سندس حجبا
والماء مطردٌ فيه ومنعرج ... كأنما ملئت حيّاته رعبا

* * *

وبركة ليس يخفى موج لجتها ... من القذى ما طفا فيها وما رسبا
تسدى عليها الصبا برداً فان ركدت ... رأيته دارس الأفواف مستلبا
قد كللت بنجوم للحباب ضحىً ... فان دجا الليل صارت أنجماً شهبا
ترى الاوزّ سروباً في ملاعبها ... كما تأملت في ديباجةٍ لعبا

يرفُّ منها على أمواجها زهرٌ ... أربى على الزهر حتى عاد مكتئبا
مسلّمٌ وسباع الطير حائمة ... يخطفن ما طار في الآفاق أو سربا
وسهم فوارة ما ارتد رائده ... حتى أصاب من العيّوق ما طلبا
أوفى ولم يثنه حرب الشمال وقد ... لاقته فاعتركا في الجو واحتربا
كأن بركته درع مضاعفة ... تقل رمح لجين منه منتصبا

* * *

والقصر يبسم في وجه الضحى فترى ... وجه الضحى عندما يبدو لنا شحبا
يبيت أعلاه بالجوزاء منتطقاً ... ويغتدي برداء الغيم محتجبا
اذا القصور الى أربابها انتسبت ... أضحى الى القمة العلياء منتسبا
بر وبحر وكثبان مُدبّجةٌ ... ترى النفوس الأماني بينها كثبا
ومنزل لا تزال الدهر عقوته ... جديدة الروض جدّ الغيث أو لعبا
وكل ناحية منه زبرجدة ... أجرى اللجين عليها جدولاً سربا
فصله لا وصلتك الحادثات ولا ... زالت سعودك فيه تنفذ الحقبا

وقال البحتري في الكامل ؛ وهو قصر المعتز بالله :

لما كملت رويّةً وعزيمةً ... أعملت رأيك في ابتناء الكامل
ذعر الحمام وقد ترنّم فوقه ... من منظر خطر المزلّة هائل
رفعت لمحترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوّه ... لجج يمجن على جنوب سواحل

وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حُبك الغمام رصفن بين مُنمّرٍ ومسيّرٍ ومقابلٍ ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق متلهّب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه سيراء وشي اليمنة المتواصل
أغنته دجلة اذ تلاحق فيضها عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت أشجاره من حُيّلٍ وحوامل
مشي العذارى الغيد رحن عشيّةً من بين حالية اليدين وعاطل
وافيته والورد في وقتٍ معاً ونزلت فيه مع الربيع النازل
ملّيته وعمرت في بحبوحةٍ من دار ملكك الف حول كامل

وكتب السلامي الى صديق يصف النهر والجلّنار :

أحنّ الى لقاء أبي عليٍ ويأبى أن يحن الى جواري
وقد جليت علينا الراح حتى مللنا جلوة البيض العذاري
وصفّر أوجه العذّال يوم وجوه شموسه تحكي اصفراري
ونهر تمرح الأمواج فيه مراح الخيل في رهج الغبار
اذا اصفرت عليه الشمس خلنا نمير الماء يمزج بالعقار
كأن الماء أرض من لجينٍ مغشاة صفائح من نضار
وأشجار محملة كؤوساً تضاحك في احمرار واخضرار

إذا أبصرن في نهر سماءً ... وهبن له نجوم الجلّنـــار
فزرنا إن نار الراح تكفي الـ ... ـندامى خيفتي عارٍ ونار

قال البحتري يصف خاتماً :

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي ... بياقوتة تبهى عليّ وتشرق
يغار احمرار الورد من حسن صبغها ... ويحكيه جاديّ الرحيق المعتّق
اذا برزت والشمس قلت تجارتا ... الى أمدٍ أو كادت الشمس تسبق
اذا التهبت في اللحظ ضاهى ضياؤها ... جبينك عند الجود إذ يتألق
أسربل منها ثوب فخر معجّل ... ويبقى بها ذكر على الدهر مخلق
علامة جود منك عندي مبينة ... وشاهد عدل لي بنعماك يصدق

وقال السلاميّ في وصف زنبور :

ولابسِ لونٍ واحدٍ وهو طائر ... ملونة أبداده وهو واقع
أغرّ محشّى الطيلسان مدبجٌ ... وسود المنايا في حشاه ودائع
إذا حكّ أعلى رأسه فكأنما ... بسالفتيه من يديه جوامع
يُخاف اذا ولى، ويؤمن مقبلاً ... ويخفي على الأقران ما هو صانع
بدا فارسيّ الزيّ يعقد خصره ... عليه قباء زينته الوشائع
فمعجزه الورديّ أحمر ناصع ... ومئزره التبريّ أصفر فاقع
يرجع ألحان الغريض ومعبدٍ ... ويسقى كؤوساً ملؤها السم ناقع

قال مهيار الديلمي يصف سفينة :

مَن الغادي تحطّ به وتعلو ... نجائب من أزمتها الرياح
نجائب تحسب الظلمان منها ... أضاء لوجه قانصها الصباح
فمرت كل شائلة زفوف ... لها من غيرها اليد والجناح
ملمامة لها ظهر مصون ... وبطن تحت راكبها مُتاح
ترى سوط الشمال يشلّ منها ... طرائد لا يكف لها جماح
تراوح رجل سائقها يديه ... ولا التعريس منه ولا البراح
تعبّ الماء بين قذ وصاف ... اذا ما عافت الابل القماح
لعلّك ترتمي بك أو سيقضى ... الى المجد الغدوّ أو الرواح
فصلْ وخلوت من ولهي ووجدي ... وقل ولك السلامة والفلاح
لمقتدحين في كبدي وساروا ... لواعج ما لقاطنها براح :
أظنّاً انكم بنتم وأبقى ؟ ... لبعض الظن إثم أو جناح

وقال الشريف الرضي في سكين اهديت اليه :

ومهتزه العرنين رقراقة السنا ... تناسب مستنّ البروق اللوامع
أفاض على أعطافها القين حُلّةً ... تفضفض في مثل النجوم الطوالع
فجاءت بجسم يملأ العين بهجةً ... اذا ما اجتلاها حاسر مثل دارع
يحيّا بها من لم تحيّ يمينه ... بغير العوالي والسيوف القواطع
أحد من العذل المطل على الهوى ... وأرهف من غرب النوى في المقاطع

قال السري الرفاء في شبكة :

قد اغتدى قبل وجوب الفرض ... والجفن قد ودّع طيب الغمض
وبارق الأفق كليل الوُمض ... كأنه عرق ضعيف النبض
بكل وافي الطرفين محض ... مبتذل الوفر مصون العرض
قد نصبوا للحائن المنقض ... قداً يعضّ الساق اي عض
لضعف عيون لم تشن بغض ... لها مآق رسبت في الأرض
طارقها في قلق ونفض ... تضرب بعض ريشه ببعض
بين علوٍّ موبق وخفض ... ونهض لا منتفع بنهض
يالك من آلة رزق غض ... تملأ كفي رائد وترضى

قال ابن الرومي يداعب ابا شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستترعنه :

نجّاك يا ابن الحاجب الحاجب ... وأين ينجو مني الهارب ! ؟
حقاً لقد اوليتنا جفوةً ... يمحل منها البلد العاشب
لهفي وقد جاءتك جفالة ... كلٌّ مغذ ساغبٌ لاغب
من كل شذان الحشا لهسمٍ ... يأكل ما لا يأكل الحاسب
فكاه كالمصرين من دهره ... كلاهما في شأنه دائب
ذي معدة تعلبها لاحسٌ ... وتارة ارنبها ضاغب
تعلوه حمّى شرهٍ نافض ... لكن حمى هضمه صالب
كأنما الفروج في كفه ... فريسة ضرغامها دارب

وإن غدا الشبوط قرناً لهم فحدّ شبوطهم التارب

* * *

قلت لصحبي حين راوغتهم : « لاتحزنوا » قد يشهد الغائب
كرّوا على الشيخ بتطفيلة عن عزمة كوكبها ثاقب
لا تنجون منكم فواريجه لا وهب المنجى لها الواهب
لا تفلتن منكم شبابيطه لا أفلت الطافي ولا الراسب
جدّوا فقد جد بكم لاعباً وقد يجد الرجل اللاعب
فاعتزم القوم على غارة ساند فيها الراجل الراكب
والقوم لاقوك فاعدد لهم ما يرتضى الآكل والشارب
يسّر فواريجك مقرونة بها شبابيطك يا كاتب
تلك التي مخبرها ناعم تلك التي منظرها شاحب
وتب من الذنب الذي جئته فقد يقال المذنب التائب

وقال في الشبوط :

فلا يبعد الشبوط من متلبّس ظهارته الحسنى ومن متجرد
اذا نشّ في سفّوده عند نضجه وأخرج من سرباله المتورد
فتيٌ رعى مرعى بدجلة مخصباً أبى أن يراه رائد غير محمد
الى أن اصابته من الدهر نوبة وقد صار أقصى منية المتجوّد
فأصدره الصياد عن خير مورد وأورده الشواء أخبث مورد

وجاء به الحمّال أطيب مطعم ... الى الطيب المنفاق غير المصرد
ويا حبذا إمعاننا فيه ناضجاً ... كما جاء من تنوّره المتوقد
واني لمشتاق الى عود مثله ... وإن كنتُ أبدى صفحة المتجلد

قال السري الرفاء في وصف دجاجة :

جاء مفاجاة وليس عندى ... الاّ طعام غير مستعد
دجاجة في شبه السمند ... تليدة وفخرها بالهند
عظيمة الزور بصدر نهد ... أجريت منها في مجال المقد
مرهفة ذات شبا وحدّ ... لغير ما ذحل وغير حقد
وفصلت أعضاؤها من بعد ... مع لب اترجٍ كلون الشهد
حتى اذا أسعرها بالوقد ... صبّ عليها اللوز مثل الزبد
وثليت بعد بماء الورد ... ثم أتى يسعى بها كالمهدى
كأنها قد بخّرت بالندّ

قال أبو تمام في حلة كساه إياها محمد بن الهيثم :

قد كسانا من كسوة الصيف خرقٌ ... مكتسٍ من مكارمٍ ومساع (١)
جبةً سابريةً ورداءً ... كسحا القيض أورداء الشجاع (٢)

---

(١) الخرق : الكريم

(٢) السابري : الثوب الجديد الرقيق ، وهو منسوب الى سابور ، كورة في بلاد فارس . القيض : قشرة البيضة الكلسية . والسحا : القشرة الرقيقة تحتها . والشجاع : الحية

كالسراب الرقراق في النعت إلا أنه ليس مثله في الخداع (١)
قصبياً تسترجف الريح متنيه بأمر من المهبوب مُطاع (٢)
رجفاناً كأنه الدهرَ منه كبد الضب اوحشى المرتاع (٣)
يطرد اليومَ ذا المجير ولو شبّه في حرهِ يوم الوداع
لازماً ما يليه تحسبه جُزءً من المتنين والأضلاع
خلعة من أغرَّ أروعَ رحب الصدر رحب الفؤاد رحب الذراع (٤)

قال ابن المعتز في معصرة الخمر :

ومعصرة أنخت بها وقرن الشمس لم يغب
وقد أرقت لفقد الكر م فيها أعين العنب
وجاش عباب واديها بمنهلٍّ ومنسكب
ويأقوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحبب

وقال في الخمر :

صبوتُ الى الندامى والعُقار وشربٍ بالصغار وبالكبار
وساقي حانة يغدو علينا بزنّارٍ وأقبيةٍ صغار

(١) السراب : ما تراه يلمع نصف النهار عند اشتداد حره ، كأنه ماء
(٢) القصبي : ثوب الكتان الناعم
(٣) الضب : حيوان من الزحافات معروف . والمرتاع : الخائف
(٤) الأغر : الجواد الكريم . الأروع : الذي يعجب الناس بجهارة منظره وبخصاله الحميدة

أما وفتور مقلة بابليّ ... بديع القدّ ذي صدغٍ مُدار
لقد فضحت دموع العين سرّي ... وأحرقني هواه بغير نار
وبيضاء الخمار اذا اجتلتها ... عيون الشرب صفراء الازار
جموح في عنان الماء تنزو ... اذا ما راضها نزو المهار
فضضت ختامها عن روح راحٍ ... لها جسدان من خزف وقار
تلقاها لكسرى ربّ كرم ... يُعد من الفلاسفة الكبار
أقرّ عروشها بثرى وطيء ... وأنهار كحيّات سوار
اذا القين في الأطباق ذابت ... فما ينقلن إلا بالجرار
فأودعها الدنان مصنفات ... وأسلمها الى شمس النهار
وألبسها قلانس معلمات ... وصاحبها بصبر وانتظار
فلما جاوزت عشرين عاماً ... مخدّرة وقرّت في قرار
أتيح لها من الفتيان سمح ... جواد لا يشح على العقار
فأبرزها تحدّث عن زمان ... كلمع الآل في البيد القفار

قال ابن الرومي في مغنيات راقصات بمجلس القاسم :

أظلّ إذا شاهدتُ يوم نعيمه ... كأني في الفردوس فوق الأرايك
بمرأى من الدنيا جميل ومسمع ... لدى ملك بالحق لا متمالك
تحث الحسان المحسنات كؤوسه ... بمدح له قد سار جم المسالك
من الوضّح اللعس الشفاه كأنما ... يفهن بأفواه الظباء الأوارك

يرفعن أصواتاً لداناً وتارة ... يتمتمن وشياً غير وشي الحوائك

فما برحت تهدى إلينا عجائبٌ ... عجائبَ تصبى كل صب وناسك

فتاة من الأتراك ترمي بأسهم ... يصبن الحشا في السلم لا في المعارك

كأن زمير القاصبات أعارها ... شجاه وسجع الباكيات الضواحك

ظللنا لها نصباً تشك قلوبنا ... بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك

وما « جُلّنار » بالمقصر شأوها ... ولا المتعدى قصد أهدى المسالك

لطيفة قد الثدى تسند عودها ... الى ناجم في ساحة الصدر فالك

تطامَنَ عن قدّ الطوال قوامُها ... وأربى على قدّ القصار الحواتك

ورقّاصة بالطبل والصنج كاعب ... لها غنج مخناث ، وتكريه فاتك

أتيح لها في جسمها رفد رافد ... وإن نالها في خصرها نهك ناهك

اذا هي قامت في الشفوف أضاءها ... سناها فشفّت عن سبيكة سابك

قال مهيار في العود :

وأخرس مما سنت الفرس ناطق ... يهبّ رياحاً روحه وهو راكد

على صدره بالطول سبع ضعائف ... تدبرها بالعرض سبعٌ شدائد

وخمس سكون تحت خمس حوارك ... تمد ثلاثاً يمتطين واحد

يشرد من حلم الفتى وهو حازم ... فيرجع عنه فاسقاً وهو عابد

وقال السري الرفاء في دفتر :

وأدهم يسفر عن ضده ... كما سفر الليل إذ ودّعا

بعثت إليك به أخرساً ... يناجي العيون بما استودعا
تلاقي النفوس سروراً به ... وتلقي الهموم به مصرعا

وقال في وصف قلم :

له قلم تجري النجوم بجريه ... يطيع له حتم القضاء ويسمع
يدير سعوداً أو نحوساً وإنه ... من الفلك الدوّار في الجو أسرع
اذا ما امتطى منه ثلاث أنامل ... بدا ساجداً من تحتها وهي ركّع

قال السري يصف شعره ويتظلم من الحاليين :

أشكو اليك حليفي غارةٍ شهرا ... سيف الشقاق على ديباج أفكاري
ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرم ... لمزّقاه بأنياب وأظفار
سلاّ عليه سيوف البغي مصلتةً ... في جحفل من صنيع الظلم جرار
وأرخصاه فقل في العطر ممتهناً ... لديهما يشتري من غير عطار
لطائم المسك والكافور فائحة ... منه ومنتخب الهنديّ والغار
وكل مسفرة الألفاظ تحسبها ... صفيحة بين إشراق وإسفار
ارقت ماء شبابي في محاسنها ... حتى ترقرق فيها ماؤه الجاري
كأنها نفَس الريحان يمزجه ... صبا الأصائل من أنفاس نوار
إن قلداك بدُرٍ فهو من لججي ... او ختّماك بياقوت فأحجاري
باعا عرائس شعري بالعراق فلا ... تبعد سباياه من عون وأبكار

ما كان ضرهما والدرّ ذو خطر ... لو حلّياه ملوكا ذات أخطار

وما رأى الناس سبياً مثل سبيهما ... بيعت نفيسته ظلماً بدينار

هذا وعندي من لفظ اشعشعه ... سلافة ذات أضواء وأنوار

تنشا خلال شغاف القلب إن نشأت ... ذات الحباب خلال الطين والقار

لم يبق لي من قريض كان لي وزراً ... على الشدائد إلا ثقل أوزاري

خاتمة

ونستطيع أن نقول - بعد الذي مر - إن فن الوصف أكثر الفنون الشعرية استعصاءً وامتناعاً على الحصر والتحديد الدقيق ؛ وسّع الغربيون دائرته فما استطاعوا له تحديداً ، وضيق دائرته العرب فعز عليهم حصره وتحديده .

وهذا الفن الشعري أكثر الفنون الشعرية مشاركة لغيره ؛ يدخل في المديح والهجاء والغزل والفخر والحماسة و ... ثم هو مع شيوعه في هذه الأغراض ، يندر أن يوجد منفرداً بنفسه مستقلاً عنها. والقصائد الوصفية نادرة لا في الشعر العربي وحده ، ولكن في أشعار الامم الاخرى أيضاً (١). وهو ينبث في كتب العلم كما ينبث في كتب الأدب ، وينبث في النثر كما ينبث في الشعر ، على أن الشعر أطوع للوصف الأدبي من النثر : ذلك لأن الوصف الأدبي يمتاز بما حشر فيه من الخيال ، والشعر بلغته وبحوره وموسيقاه أمعن في الخيال وأثارته من النثر .

وفن الوصف أصدق فنون الشعر تمثيلاً للبيئة الطبيعيه ، والبيئة

(١) انظر Genung في باب الوصف صفحة ٥٠٩

الاجتماعيه التي يصدر عنها . فالناس - على اختلاف بيئاتهم - يكادون يتفقون في الفضائل التي يمدح بها المرء ، ويكادون يتفقون على الرذائل التي تقدح في المرء ويهجى بسببها ، ومن أجل هذا كثيراً ما شابه المديح في امة المديح في امة اخرى - على بعد ما بين البيئتين من خلافات وفروق ؛ وكذلك شأن الهجاء . على أن هذا الأمر لا يكون في الوصف ؛ فوصف الامة لا يقارب وصف الامة الاخرى إلا اذا اتفقت أو تقاربت بيئاتهما ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن دراسة فن الوصف ببيئتين مختلفتين أو متقاربتين خير ما يمكن دراسته من الفنون القولية لمعرفة ما بين البيئتين من اختلاف أو تقارب ؛ فالوصف الجاهلي يدور حول الابل والخيل وحمر الوحش والنعام ، ويدور حول الغيث والبرق والدمنة والطلل ، والى ما هنالك مما يضطرب في الصحراء . والوصف في بيئة العراق يدور حول الأنهار والسفن والقصور والبرك ، والكتابة وما اليها والى ما هنالك مما يتصل بالبيئة النهرية الحضرية .

وإذ كان فن الوصف صورة للبيئة فان موضوعاته تضيق وتتسع تبعاً لضيق محيط البيئة واتساعه ، وتبعاً لكثرة ما في هذا المحيط من تنوع واختلاف ؛ ومن هنا كانت موضوعات الوصف في شعر العراق أكثر تنوعاً من موضوعات الوصف في الشعر الجاهلي البدوي ، ذلك لأن بيئة العراق النهرية الحضرية أكثر تنوعاً من بيئة الصحراء .

واذا كان الوصف صورة للبيئة ، فهل أجاد شعراء العراق في تمثيل بيئتهم ؟

إن الجاهليين مثلوا بيئتهم أصدق تمثيل ، وإن شعرهم لصورة صادقة لبيئتهم الطبيعية ولحياتهم الاجتماعية . أما الشعراء الاسلاميون الذين تلوا الجاهليين ـ والشعراء الحضر منهم بصورة خاصة ـ فانهم لم يمثلوا بيئتهم الحضرية ، كما مثل الجاهليون بيئتهم البدوية . لقد أسرهم الشعر الجاهلي وظلوا ينسجون على منواله ؛ يصفون الطلل وهم لا يعرفونه إلا بالسماع ويتنكبون عن وصف ما في حياة المدينة مع أنه تحت أعينهم ، وظلوا هكذا حتى صاح بهم أبو نواس في أواخر القرن الثاني في قصيدته : « صفة الطلول بلاغة الفدم » :

تصف الطلول على السماع بها ... أفذو العيان كأنت في العلم ! ؟
واذا نعت الشيء متبعـــاً ... لم تخل عن غلط وعن وهم

فاتجه شعراء العراق الى الحاضرة يصفونها ، ولكن هل وصف الشعراء العراقيون البيئة الحضرية كما وصف الجاهليون البيئة الصحراوية البدوية ، وهل كان وصفهم مثلا لصور الحاضرة كما كان وصف الجاهليين مثلا لصور البادية ؟

الحق أن العراقيين وإن أخذوا موضوعاتهم من بيئتهم النهرية الحضرية ؛ فوصفوا الأنهار ووصفوا السفن ووصفوا القصور والبرك

ووصفوا الكتابة والأقلام ، إلا أنهم وصفوا ما وصفوا من بيئتهم الحضرية من غير أن يستطيعوا تخلصاً من الشعر الجاهلي البدوي . وقد أسرهم هذا الشعر الجاهلي في أخص ما يخص الحاضرة ؛ أسرهم في وصف السفن مثلا . وظل شعراء العراق يصفون السفينة وهم ينظرون الى أوصاف الناقة ، على بعد ما بين السفينة والناقة من أوجه الشبه ، وان كل ما يتشابهان به هو كون كلتيهما أداة للسفر ، أما في غير هذه الحال فلا وجه للمقارنة بينهما .

ولكن أيلام العراقيون في تقليدهم للجاهليين ؟

لو قدّر للعرب ايام ترجموا كتب اليونان أن يترجموا أدبهم وشعرهم ، أو لو قدر للفرس والبابليين أن يكون لهم شعر قديم يترجمه العرب ، ويتناقلونه عنهم إذاً لأثر هذا في الشعر العربي عامة ، وفي شعر العراق خاصة ولجعلهم يفلتون أو يكادون ، من قيود الشعر الجاهلي الذي كبلهم وتسلط عليهم ، حتى في أخص موضوعات البيئة الحضرية . ولكن هل التقليد مقصور على بيئة العراق ؟

إن الأدب إذا غبرت عليه الأيام ولوّن أذواق الناس بلونه ، جعل الناس يعشقونه ويتعصبون له تعصبهم لعقائدهم وأديانهم ؛ فأدب الصين[1] الحديث مثلا لا يعدو أن يكون تعليقاً على أدبهم القديم . ويعدّونها

(١) قصة الأدب في العالم ١ / ٣٧

زندقة أن ينافس كاتب حديث كاتباً قديماً . والاوربيون ظلوا الى عهد النهضة ينظرون الى الآداب القديمة الكلاسيكية فيقلدونها وينسجون على منوالها ، حتى كان الشاعر الانكليزي پوب Pope يقول : إن الشعراء المحبين الى النفوس هم اولئك الذين قلدوا القدماء الى أبعد حد ممكن من التقليد . وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا التقليد نراه في الشعر الجاهلي نفسه ؛ إن القصائد الجاهلية في وصف الطلل ، ووصف حمار الوحش تكاد تكون واحدة من حيث نسجها ومعانيها .

وكما تؤثر البيئة في موضوعات الوصف وتمليها على الشعراء إملاءً تؤثر في طريقة معالجة تلك الموضوعات ؛ فالوصف عند الجاهليين بسيط كبساطة محيطهم ، يستعملون الألفاظ فيه على حقيقتها ، ولا يحاولون بهرجته بالصور الأنيقة ، وخيالهم فيه بسيط قريب . وهو عند أهل الحاضرة معقد تعقيد بيئتهم ومحيطهم ؛ يكثرون فيه من استعمال الألفاظ على المجاز ، ويتأنقون في الصور التي يشبهون بها ما يصفون ، كالذي وجدناه عند ابن المعتز ، ويتعمقون في الصور التي يشبهون بها ، ويكدّون عقولهم في ذلك كالذي رأيناه في وصف التنوخي للقصيدة والكتابة .

واذا قلنا إن بيئة العراق النهرية الحضرية تبعد عن بيئة الجاهليين بموضوعاتها الوصفية وبطريقة معالجة هذه الموضوعات ، فهل هي قريبة من البيئات النهرية الاخرى بموضوعاتها الوصفية ، وبطريقة معالجة هذه الموضوعات ؟

أما الموضوعات الوصفية فتكاد تكون واحدة في البيئات المتشابهة، ففي الشعر الانكليزي نرى الشاعر برج R. Bridges [1] ينظم في سقوط الثلج على لندن، كما نظم الشريف الرضي في سقوط الثلج على بغداد، وللشاعر فليكر J. E. Flecker ومايكل W. J. Mickle وكوپر W. Cowper وغيرهم قصائد في السفن كما للعراقيين قصائد في السفن. وللشاعر سر ولتر سكوت Sir W. Scott أغان في الصيد ووصفه كما للعراقيين فيه. وللشاعر وردسورث W. Wordsworth واللورد تنيسون Lord Tennyson وشيللي P. B. Shlley قصائد في الطبيعة يصفون فيها جداولها وطيورها، كما للعراقيين قصائد يصفون بها الطبيعة وجداولها وطيورها.

وحين ننظر الى طريقة معالجة الغربيين لهـذه الموضوعات نراها أعمق من معالجة العراقيين لها. إن الغربيين نظروا الى السفن على أنها عدة من عدد الحرب وعدة من عدد الصيد، ورأوا فيها واسطة للسفر وتنقل التجارة، ووصفوها ملمين بهذه النواحي كلها فاتسعت دائرتهم في وصفها، أما العراقيون فلم يروا في السفن ـ حين وصفوها ـ إلا أنها

---

(١) ينظر Golden Treasury طبعة عام ١٩٣٥ ص: ٤١٤ ـ ٤١٥، ٤١٨ ـ ٤١٩، ١٨١ ـ ١٨٢، ١٤٨ ـ ١٤٩، ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ٢٧٨ ـ ٢٧٩، ٤٦٢ ـ ٤٦٣، ٢٧٣ ـ ٢٧٦

واسطة توصلهم الى الممدوح ولذلك عقدوا المقارنة بينهما وبين الناقـــة واكتفوا بذلك .

أما الطبيعة فقد سحر الغربيون بأصواتها أكثر من ألوانها وكانوا أكثر وصفاً للأصوات منهم للألوان ، على حين كان شعراء العراق على العكس من ذلك . يصف وردسورث[1] W. Wordsworth الكوكو Cuckoo فلا يعني بغير صوته ، يقول : إنني أسمع ألحانك تنتقل من رابية الى رابية ، وهي بعيدة قريبة معاً ؛ أنت لست طائراً ، أنت صوت ، أنت سر . أنت هذا اللحن الذي كنت أسمعه وأصغي إليه أيام كنت طفلاً في المدرسة ، وكان يدفعني ـ لأبحث عنه ـ في ألف طريق : في الأحراش وفي الأشجار وفي السماء .

والشاعر برج[2] R. Bridges يدير وصف البلبل على صوت البلبل . والعراقيون ، بل والعرب عامة كانوا يصغون هذه الطيور ويلتفتون الى صوتها ، ولكنهم حين يذكرون هذا الصوت ، يذكرونه على أنه أهاج فيهم الشوق والهوى ، وذكرهم بالأحبة ، ولا نجد عندهم وصفاً للصوت على نحو ما يفعله الغربيون إلا نادراً ، كالذي نجـــده في شعر ابن الرومي .

---

(١) تنظر الصفحة السابقة .

(٢) » » »

وتغنّى الغربيون بالطبيعة ووصفوها لذاتها ، وقد فعل شعراء العراق هذا ، على أن الغالب عليهم هو أن يصفوا الطبيعة على أنها تذكرهم بالخمر ومجالسها .

وبعد ، هل أجاد شعراء العراق فيما وصفوا ؟

اننا اذا استثنينا شعر وصف السفن ، الذي قلد به العراقيون وصف الابل ـ نستطيع أن نقول إن الجيد في شعرهم الوصفي أكثر بكثير جداً من غير الجيد . ومع أن الوصف جاء تابعاً للمديح ـ في الغالب ـ وشعر المديح أقل أشعار العرب حظاً من العاطفة والجودة ، مع ذلك فقد كان لهم ـ حتى في ما كان تابعاً للمديح ـ قصائد وصفية رائعة ؛ فقصائد أبي تمام وقصائد البحتري في وصف الحروب جاءت كلها تابعة للمديح ، ومع ذلك فقد جاءت رائعة في وصفها . ذلك لأن هذه المعارك الحربية التي وصفها هذان الشاعران قد أحاطت بها ظروف تهيج الشاعرية ، وتجعل الشاعر ينسى نفسه حين يصفها فيحسب أنه انما وصفها ليعلن عما لها من أثر في نفسه ، لا ليتخذ وصفها وسيلة لمدح الخليفة أو الأمير فيرغبه أو يغريه بالعطاء . فحرب عمورية قد صبغت بصبغة دينية جعلت شاعرية أبي تمام تهيج فيجيء بآيته الرائعة فيها ، وكذلك الأمر في حرب الزنج التي وصفها البحتري .

وقصيدة البحتري في وصف البركة جاءت آية من آيات الوصف

العربي ، ولا نعرف قصيدة ضارعتها في قديم الشعر العربي ولا حديثه . وعلة هذا أن منظر البركة قد سحر البحتري وجعله ينسى أنه انما يصف البركة لا ليعلن عما في نفسه ، ولكن ليمدح الخليفة المتوكل . وشأن البحتري في وصف قصور الخلفاء شأنه في وصف البركة ، إن القصور قد سحرته فوصفها وأبدع في وصفها .

أما هذا الشعر الوصفي الذي قاله الشاعر لا لغرض إلا ليعلن عن أثر الموصوف في نفسه ، كالذي نراه في شعر جحظة والصابي للورد ، وفي شعر ابن الرومي في وصف الرياض وغروب الشمس ووداعها للزهر ، وكالذي نراه في شعر أبي تمام والبحتري في وصفهما للربيع ، وكالذي نراه في وصف ابن الرومي للطعام ووصفه للغناء ، فانه من جيد الشعر الذي لا يضارع . ولو أن العرب أرادوا أن يفتخروا بما في أدبهم على الآداب العالمية لكان هذا الشعر الوصفي عنوان فخرهم ، ولكان خير ما يباهون به وخير ما به يفخرون .

وبعد ، أرجو أن أكون قد جلوت في هذا البحث بيئة العراق الطبيعية والاجتماعية وجلوت أثرهما في شعر العراق الوصفي في هذين القرنين الخصبين ، وأرجو أن يلفت بحثي هذا انظار الباحثين فيتجه كل الى بيئته يبحث أثرها في أدبه ، كما أرجو أن الفت انظار الباحثين الى وضع بحوث في البيئة الطبيعية بصورة عامة وأثرها في الأدب خاصة ، فان العربية مفتقرة

أشد الفقر الى مثل هذه البحوث

ويسرني أن يجيء بحثي في هـذه الآونة التي تـكاتفت فيهـا الامة العربية ، وراحت تعنى بشئون كل قطر وهي تعلم ما يجديه عملهـا من خير لبقية الأقطار الشقيقة . واني أرجو أن يلتفت الباحثون في الأدب ؛ فيعني كل بأدب بيئته وإقليمه ، ففي هذا ما فيه من خير للأدب العربي عامة . والله تعالى نسأل أن يهدينا الى هذا وأن يعيننا عليه ؟

فهارس الكتاب

١ - فهرست الموضوعات

صفحة

الى العلامة المرحوم طه الراوى - أ -

حول موضوع الرسالة - جـ -

المقدمة ٣

الوصف

كيف نظر اليه العرب ، وكيف نظر اليه الغربيون ٦

صلة الوصف بالفنون الشعرية الاخرى ١٤

صلته بالمديح ١٤ صلته بالهجاء ١٦ صلته بالرثاء ١٧ صلته بالحماسه ١٧

الوصف والرسم ١٩

أثر البيئات والثقافات فى الوصف ٢٢

أثر البيئة الجاهلية في الوصف الجاهلي ٢٢ بيئة المدينة وأثرها في شعرها ٢٣

بيئة العراق وأثرها في وصف العراق ٢٣ أثر البيئة في الشعراء ٢٥

الوصف بين الشعر والنثر ٢٨

الامة بالوصف من الجاهلية الى القرن الثالث الهجرى

الوصف الجاهلى ٣٢

وصف الطبيعة ٣٣ وصف الابل ٣٤ وصف الخيل ٤٠

صفحة

وصف حمار الوحش ٤٤ وصف طيور الصحراء ٤٦
وصف الطلل ٤٩ وصف الصيد ٥١

البيئة الاجتماعية

الجاهليون والحرب ٥٤ وصف المعارك ٥٥ وصف السلاح ٥٨
الجاهليون والخمر ٦١ وصف الخمر ٦٢ وصف الآنية والسقاة ٦٣

مميزات الوصف الجاهلي

الألفاظ ٦٥ الايجاز ٦٥ الاطناب ٦٦ الخيال ٦٧
نظرة في الوصف الجاهلي ٦٧

الوصف في شعر الحاضرة

شعر المناذرة والغساسنة ٧٠ شعر المدينة ٧٠ وصف الحرب
والسلاح ٧١ شعر اليهود ٧٢ وصف النخل ٧٢

الوصف في صدر الاسلام

شعر المكيين ٧٤ جرير والفرزدق والأخطل ٧٥
الوصف في شعر الخوارج ٧٩ الوصف في بادية الحجاز ٨٠

الوصف في العصر العباسي الاول

الوصف في شعر بشار ٨٣ الوصف في شعر ابي نواس ٨٣

* * *

صفحة

ماذا نعنى بالعراق ، وماذا نعنى بشعر العراق ٨٦

بيئة العراق الطبيعية

وأثرها فى شعر العراق عامة وفى شعر الوصف خاصة

مقدمة فى البيئة ٩١

أثرها في الخلقة ٩١ أثرها في اللون ٩٣ أثرها في اللغة ٩٤

أثرها في التعبير ٩٦ أثرها في الخيال ٩٨ أثرها في الذوق والأدب ٩٩

بيئة العراق الطبيعية

أنهر العراق ١٠٣ مناخ العراق ١٠٥ أثره في الحياة ١١٠

أثره في الأدب ١١٣ أثر البيئة في الشاعرية والشعراء ١٢١

أثرها في الشعر ١٢٣ أثر الماء في التعبير ١٢٤ أثر الجو في التعبير ١٢٦

أثر الورد في التعبير ١٢٩ أثر البيئة الزراعية في التعبير ١٣٢

وصف الطبيعة

شغف الطبقة الحاكمة بالطبيعة وشعرها ١٣٦ شغف الشعراء والأدباء

بها ١٤٠ علام يدار فن التمتع بالطبيعة ؟ ١٤٤ شغف شعراء

العراق بالشكل واللون ١٤٩ نقد النظرة الشكلية ١٥٥

الوصف الذاتي ١٦٠ وصف الربيع ١٦٤ وصف الروض ١٦٧

وصف الورد ١٦٨ وصف الطير ١٧١ وصف السماء ١٧٨

وصف المطر ١٨١ وصف البرق ١٨١ وصف الغروب ١٨٢

صفحة

وصف الجو ١٨٣ وصف الأنهار ١٨٥ وصف الأصوات ١٨٧
نظرة في وصف الطبيعة ١٩١ نظرة المعتزلة الى الطبيعة ١٩٢

وصف الصيد

شغف العراقيين بالصيد ١٩٥ بيئة العراق والصيد ٢٠٢
وصف الصيد عند أبي نواس ٢٠٥ وصف الصيد بالكلاب ٢٠٦
وصف الصيد بالفهد ٢٠٩ وصف الصيد بالطيور ٢١١
وصف صيد السمك ٢١٥ وصف الأسد وصيدها ٢١٩
وصف الخيل ٢٢٤ بين وصف الصيد في البيئة الصحراوية
الجاهلية ووصفه في بيئة العراق ٢٢٥ نظرة في شعر الصيد ٢٣٠

وصف السفن

البيئة النهرية والسفن ٢٣٢ شعر السفن الوصفي ٢٣٩
وصف مهيار ٢٤٠ وصف السريّ الرفّاء ٢٤٤
بين وصف السفينة ووصف الناقة ٢٤٧

الحياة الاجتماعية

وأثرها في شعر العراق عامة وفي شعر الوصف خاصة

الحياة السياسية وأثرها ٢٥٠ حياة الوزراء وأثرها في الشعر الوصفي ٢٦٧
حياة الامراء وأثرها في الشعر الوصفي ٢٨٢ أثر العناصر والأجناس ٢٨٨
أثر الروم والأتراك ٢٨٩ الزنج وأثرهم ٢٩٢ أثر الديانات والنحل ٢٩٦

صفحة

حياة العامة وأثرها ٣٠٢ حياة الشعراء الفقيرة وأثرها ٣٠٤

وصف الحرب

الحرب والشعر ٣١٢ كثرة الحروب ٣١٤ شعر الحرب الوصفي ٣١٥
حرب عمورية ووصفها ٣١٨ حرب بابك ووصفها ٣٢٣
ثورة الزنج ووصفها ٣٢٨ وصف ابن المعتز ٣٣٦
وصف الشريف الرضي ٣٣٨ وصف الخيل ٣٤١ وصف السلاح ٣٤٦
وصف المدن ٣٤٧

وصف القصور والبرك

الشغف ببناء القصور ٣٥١ وصف البحتري ٣٥٥
وصف القصور ٣٥٥ وصف الايوان ٣٦٢ وصف البرك ٣٦٦

وصف الكتابة وما اليها

أهمية الكتابة ٣٧١ أثرها في التعبير ٣٧٤ وصف القلم ٣٧٦
وصف الخط ٣٧٨ وصف الشعر ٣٨٠ وصف الرسائل والكتب ٣٨٧

وصف الطعام ووصف اللباس

الجوع والشاعرية ٣٨٨ بؤس الشعراء ٣٩١ وصف الطعام ٤٠٠
وصف اللباس ٤١٠

وصف مجالس الشراب والغناء

بيئة العراق والشراب ٤١٣ وصف الخمر ٤١٥

صفحة

وصف الآنية والكؤوس ٤١٧ وصف السقاة ٤١٩
علاقة الغناء بالشراب ٤٢٢ وصف الغناء ٤٢٥

منتخبات من شعر الوصف

وصف الطبيعة

أبو تمام يصف الربيع ٤٣١ من أرجوزة لأبن المعتز في وصف بستان ٤٣٢
شعر السري في الروض ٤٣٣ شعر جحظة في الورد ٤٣٤
شعر ابن المعتز ٤٣٤ شعر ابن سكرة ٤٣٤ شعر السري الرفاء ٤٣٤
شعر ابن الرومي في النرجس ٤٣٥ شعر ابن المعتز فيه ٤٣٥
شعر ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد ٤٣٥
شعر الشريف الرضي في الطير ٤٣٦ شعر السري الرفاء في الخطّاف ٤٣٧

فى السماء

شعر ابن الرومي في قوس قزح ٤٣٨ شعر ابن المعتز في البرق ٤٣٨
وقال الشريف الرضي فيه ٤٣٨ قال السري الرفاء في سحابة ٤٣٩
قال البحتري في الغيث ٤٣٩ وقال السري الرفاء فيه ٤٣٩
شعر مهيار في الثريا ٤٤٠

فى الفواكه والخضر

شعر ابن المعتز في الجزر ٤٤٠ شعره في الليمون ٤٤٠
شعر السري الرفاء فيه ٤٤٠ شعره في نارنجة ٤٤١

صفحة

فى النار

شعر السري في كانون نار ٤٤١ وقال في النار ٤٤١
شعر السلامي في ليلة السذق ٤٤٢ شعر الصابي في مدخنة ٤٤٢
شعره في الشمعة ٤٤٣ شعر السري الرفاء في الشمع ٤٤٣

فى الخيل

البحتري يصف فرساً ٤٤٣ السلامي يصف مهراً ٤٤٤
البحتري يصف فرساً وبغلاً ٤٤٥

فى موضوعات متفرقة

شعر السري الرفاء في الجسر ٤٤٦ السلامي يصف النهر والنارنج ٤٤٦
السري يصف بستاناً وقصراً ودولاباً ٤٤٦
شعر البحتري في قصر الكامل ٤٤٨
السلامي يصف النهر والجلنار ٤٤٩ البحتري يصف خاتماً ٤٥٠
شعر السلامي في وصف زنبور ٤٥٠ مهيار يصف سفينة ٤٥١
شعر الشريف الرضي في سكين ٤٥١ شعر السري الرفاء في شبكة ٤٥٢

فى الطعام واللباس

شعر ابن الرومي في دعوة ٤٥٢ شعره في الشبوط ٤٥٣
شعر السري الرفاء في وصف دجاجة ٤٥٤ شعر أبي تمام في حلة ٤٥٤

صفحة

فى الخمر والغناء

قال ابن المعتز في معصرة الخمر ٤٥٥ قوله في الخمر ٤٥٥
شعر ابن الرومي في مغنيات راقصات ٤٥٦ شعر مهيار في العود ٤٥٧

فى الكناية والشعر

قال السري في دفتر ٤٥٧ وقال في وصف قلم ٤٥٨
وقال في وصف شعره ٤٥٨
خاتمة البحث ٤٦٠
فهارس الكتاب ٤٧٠
فهرس الموضوعات ٤٧١
فهرس الأعلام ٤٨٠
فهرس المقطوعات الشعرية ٤٩٤

فهرست الأعلام

حرف الألف

أبان بن عبدالحميد ٣٨٠

ابراهيم بن المهدي ١٢٨ ، ٣٩٨ ، ١٤٤

ابراهيم بن الحسن بن سهل ٢٣٨

ابن الأثير ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٩١ ، ٤٢٤

ابن أبي الحديد ١٠٦

ابن أبي حفصة ١١٩

ابن الأحنف ٤٠٩

ابن أسباط المصري ٢٦٧

ابن الأشعث ٣٣١ ، ٣٣٩

ابن الأعرابي ٨٦

ابن الانباري ٢٨٥

ابن بسام ٣٩٥

ابن بسطام (انظر ابا العباس) ٢٨٠

ابن بطلان ٢٩٢

ابن بقية ١١٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤١٥

ابن تغري بردي ١٩٩

ابن الجوزي ١٣٦ ، ١٩٧ ، ٢٧٢

ابن الحجاج ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥٣ ، ٢٠٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٤ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥

ابن حرب ٤١١

ابن خرداذبة ٨٧

ابن الخطيم (انظر قيس ابن الخطيم) ٣١٣

ابن خفاجة ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

ابن خلاد ٣٩٩ ، ٤٠٠

ابن خلدون ٩٣ ، ٩٤

ابن خير (المغني) ١٩٠
ابن رائق ١٧٩ ، ٢٦٨
ابن رسته ١١٣
ابن رشيق ٧ ، ٩ ، ١٨ ، ٢٧ ، ١١٨
١١٩ ، ١٥٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢
ابن رواحة ٢٣١ ، ٣١٣
ابن الرومي ١٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٨١ ، ٨٩
١١٨ ، ١٢٥ ، ١٣٢
١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٦
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٩
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥
١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٤
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٠
٢٩٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
٣٤٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
٣٨٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣
٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠
٤١١ ، ٤١٦ ، ٤١٨
٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢
٤٥٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨
ابن الزبعرى ٣١٣
ابن الزيات ٢٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥
٣٧٦
ابن سلاّم ٥٤ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٢٣٠
٣١٢
ابن سكرة ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٢
١٥١ ، ١٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٩٢
٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٤
ابن سيده ٩٥ ، ٩٦ ، ١٣٠
ابن عباد ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٨٦ ، ٢٧١
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧
ابن العماد ٢٨٦
ابن العميد ٩٠ ، ١١٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥
٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
٣٨٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠
ابن عنقاء الفزاري ٣٠٩
ابن الفرات ١٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٩
٢٧٢ ، ٢٩٦ ، ٤٧٤
٤٧٥
ابن الفقيه ١٠٢
ابن قتيبة ٧ ، ٤١ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٢٦٢
ابن قريعة ٢٧٨

ابن الـكلبي ١٧١
ابن لنكك البصري ١٢٦ ، ١٢٧
٢٧٨ ، ٣٠٦
٣٠٧ ، ٣٩٤
ابن مخلد ٣٦٩
ابن المدبر ٣٣١
ابن المعتز ٢٤ ، ٢٨ ، ٨٩ ، ١١٨
١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠
١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٣
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧
١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٨٤
١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦
٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٥
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦
٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩١
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩
٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٤
٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦١
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
٣٩٥ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢
٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠
٤٥٥ ، ٤٦٤
ابن المعذل ٢٤ ، ١١٩
ابن معروف ٢٧٨ ، ٤١٥
ابن المقفع ٣٧٢
ابن مقلة ١٣٦ ، ١٧٩ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨
٢٧٣
ابن المهلب ٣٣٩
ابن نباته السعدي ٩٠ ، ١٤٢ ، ٢٠٠
٢٧٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
٣١٦ ، ٣٩٤
ابن هاني (انظر ابا نواس) ١٢٧
ابن هاني الأندلسي ٣٣٦
ابن هشام ٧٤
ابو الحسن (انظر السري الرفاء) ١٤٠
ابو الحسين التلعفري ١٤٢
ابو اسحق (انظر الصابي) ١٧٠ ، ١٨٤
ابو السمط ١١٨ ، ١١٩
ابو الشبل ٢٩٨
ابو الشيص ١١٨ ، ١١٩
ابو الطيب (انظر المتنبي) ١١٩
ابو العتاهية ١١٣ ، ١١٥
ابو العلاء (المغني) ٤٢٩ ، ٤٣٠

ابو الفرج (اسرائيل النصراني) ٢٧٢
ابو الفرج الاصفهاني ١١٨ ، ١٤٢
١٤٧ ، ١٦٨
٢٧٧ ، ٢٧٨
٣٠٦ ، ٤١٤
٤٢٩
ابو الفرج البيغا ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٧٨
ابو القاسم البغدادي ٢٣٣
ابو الهيثم (انظر خالد الكاتب) ١٢٨
ابو الورد ١٢٩ ، ١٣٦
ابو اليقظان ١٧١
ابو بكر الخوارزمي ٢٨٤
ابو بكر الصديق ١٧٢
ابو تمّام ١١ ، ٨٩ ، ١١٩ ، ١٢٧
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧
١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٥
٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣
٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣
٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥
٣٩٥ ، ٤١٤ ، ٤٣١ ، ٤٥٤
٤٦٧ ، ٤٦٨
ابو حنيفة ٢٩٦
ابو حيّان (التوحيدي) ١١٢ ، ١١٣
٢٧٥ ، ٣٠٨
٣٨٩ ، ٤٢٤
ابو خالد العامري ١١٨
ابو دلف ٣٢٣
ابو رياش ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
ابو سليمان المنطقي ٣٨٩ ، ٣٩٠
ابو عاصم البصري ١٥٢ ، ١٥٥
ابو عبدالله (انظر ابن الحجاج) ١١٤
ابو عبيدة ١٣١
ابو عبيدة النحوي ١٧ ، ٢٩٠
ابو عثمان الخالدي ١٤٢
ابو عمرو ٨٧ ، ١٣١
ابو مسلم الخراساني ٣٧١
ابو نصر المرزبان ١٤٦
ابو نواس ٢٨ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٤
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٣
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨
١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٦٥
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٦
٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥
٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
٢٩٩ ، ٣٨٠ ، ٤١٣
٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢

ابو هلال العسكري ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
٢٦ ، ٧٣ ، ١٠٦
١٤٣ ، ١٥٦
٢٨١ ، ٣٢٧
٣٣٥ ، ٣٤٢
٣٤٦ ، ٣٤٧
٣٧٨ ، ٣٨٠
ابو وهب ١٠٦
احمد بن ابي دؤاد ٣٢٣
احمد الشايب ٨ و ١١ و ١٨
احمد أمين — ج — و ٣ و ٧٠ و ٩٦
١٠٥ و ١٠٦ و ١١٥ و ١٣٢
و ١٥٤ و ١٧٦ و ٢٥٨
٣٠٢ و ٣٢٣
احمد بن دينار ٣٣٥
أحمد بن حمدون ٣٩٧
أحمد بن حنبل ٢٩٦
أحمد بن طولون ٩٠
أحمد بن المعتصم ٢٦١
أحمد بن ورقاء ٤٢٣
الأحنف العكبري ٣٠٥ ، ٣٩٤
الأحنف بن قيس ٢٦٢
الأخطل ٢٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٢٠٨
٣٨٠
آدم (عليه السلام) ١٩١
الربيع بن أبي الحقيق ٢٣ ، ٧٣
ارطميس ١٩٥
آرنولد (Matthew Arnold) ١٥٩
الاصطخري ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤
الأصمعي ٨٧
الاعشى ٤٨ ، ٦٢ ، ١٠٦
اعشى همدان ٣٣١
افريدون ٨٧ ، ٢٥٥
الافشين ٣٢٣ ، ٣٢٥
اوس بن حجر ٥٨ و ٦١ و ٦٢
ام اوفى ٤٩
ام حكيم ٧٩
امرؤ القيس ٢٠ و ٣٥ و ٣٩ و ٤٨
٥٢ و ٥٦ و ٦٦ و ٦٧
١١٨ و ١١٩ و ٢٠٤
٢٢٥ و ٢٢٧ و ٢٢٨
ام موسى ٢٦٨
امين الخولي — ج —
الأمين ١٩٧ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٣٥١
انوشروان ٢٥٥
إياس ٢٦٢
إيتاخ ٢٥٢

حرف الباء

بابك الخرّمي ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥

البارودي ١١

باغر التركي ٢٥٢

بجكم ٢٥٥ و ٢٨٣ و ٣٠٣

البحتري ٢٤ و ٨٩ و ٩٠ و ١١٩ و ١٢٩
١٤٢ و ١٥١ و ١٦٥ و ١٦٦
١٧٢ و ١٨٩ و ١٩٨ و ٢٢٠
٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٤ و ٢٣٨
٢٥٧ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥
٢٦٦ و ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٨٠
٢٨١ و ٢٨٩ و ٢٩٥ و ٣٢٥
٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٣١
٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦
٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٤ و ٣٤٥
٣٤٧ و ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥
٣٥٦ و ٣٥٧ و ٣٥٨ و ٣٥٩
٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣
٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧
٣٦٩ و ٣٧٠ و ٣٧٢ و ٣٨٠
٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٩٥ و ٤٠١
٤١٠ و ٤١٤ و ٤٢٠ و ٤٢٥
٤٢٩ و ٤٣٩ و ٤٤٣ و ٤٤٥
٤٤٨ و ٤٥٠ و ٤٦٧ و ٤٦٨

بختيار ١١٤ و ١٩٩ و ٢٠٤ و ٢٨٣
و ٢٩٠ و ٢٩٢ و ٢٩٣

بدر بن عمار ٢٢١

بريج Bridges ٤٦٥ و ٤٦٦

بروكلمان Brockelmann ٢٠٥

البريدي ٢٣٩

البستاني ١٩٥

بشار بن برد ٨٣ و ١٢٥ و ١٢٧
و ١٣٠ و ١٤٢

بشر بن المعتمر ١٩٣ و ١٩٤

بغا الصغير ٢٥٣

بغا الكبير ٢٥٣ و ٢٥٧

بلقيس ٢٦٤

بلاكستون Blackstone ٩٧

بلال بن ابي بردة ١٠٤

بهرام جور ١٩٦ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢١١
و ٣٥٢ و ٤٢٣

پوپ Pope ٤٦٤

حرف التاء

تكبز الجامدار ٢٩١

التنوخي ١٣٧ و ١٣٨ و ١٧٠ و ١٨٥
و ١٨٦ و ٢٧٨ و ٣٨٣ و ٣٨٥
و ٣٨٧ و ٣٩٤ و ٤١٥ و ٤٦٤

تنيسون Lord Tennyson ٤٦٥

تيمور ١١٤ و ١٢٩ و ١٤٢ و ٣١٧
تين Taine ٩٣
التوحيدي (انظر أبا حيان) ٣٨٩
توفلس Theophilus ٣٢١

ـ حرف الثاء ـ

الثعالبي ١١٣ و ١١٦ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ و ١٥٢ و ١٨٤ و ٢٣٠ و ٢٧١ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٣٤٧ و ٣٨٤ و ٣٩١ و ٣٩٣ و ٤٢٠ و ٤٢٢ و ٤٢٣

ـ حرف الجيم ـ

الجاحظ ١١٦ و ١٢٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٧ و ١٩٣ و ١٩٦ و ١٩٨ و ٢٠١ و ٢٠٥ و ٢٠٩ و ٢٤٤ و ٢٦٢ و ٢٩٧ و ٤١٩
الجحاف ٧٦
جحدر ٢١٩
جحظة البرمكي ٨٩ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و ٢٣٤ و ٣٠٦ و ٣٩٨ و ٤٠١ و ٤٢٤ و ٤٦٨
جرير ٧٥ و ٧٦ و ٨٢ و ٨٩ و ١٠٠ و ١٢٠ و ١٣١ و ٣١٩ و ٣٨٠
جميل بثينة ٨١
جميل سعيد (ه) و ٦٤ و ١٦٥ و ٢٣٨ و ٢٩٧
جميلة (المغنية) ٨١
الجهم بن بدر ١٢٨
الجوهري ١٩٨
جينونك Genung ١٢ و ١٨ و ٤٦٠

حرف الحاء

حاتم الطائي ٢٦١ و ٢٦٢
الحارث بن معاوية ٢١١
الحارث بن هشام ٣١٣
حبيب بن المهلب ١٧٦
حبيب (انظر ابا تمام) ١١٩
الحجاج بن يوسف ١٠٦ و ١١١ و ٢١٩ و ٢٤٤ و ٣٣١
حداجة ٢٨٨ و ٣٨٠
حذيفة بن بدر ٧٢
حريب بن عتاب الطائي ٣٠٩
حسان بن ثابت ٢٣ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ و ١١١ و ١١٩ و ٣١٣

الحسن البصري ١١٢
الحسن بن سهل ٢٨٩ و ٤١٤
الحسن بن هاني (انظر ابا نواس) ١١٨
الحسين بن الضحاك ٢٣٨ و ٤١٤
٤١٥ و ٤١٦
٤٢٠
الحسين بن علي ٢١ و ٣٠٠ و ٣٣٨
الحسين بن علي النميري (الشاعر) ٣٩٥
الحطيئة ١٢٠
الحلاج ١٢٢ و ٤١٤
الحمدوني الشاعر ٤١١
حمزة الاصفهاني ١١ و ٨٧ و ٤٢٣

حرف الخاء

الخاقاني ٢٧٠
خالد الكاتب (انظر ابا الهيثم) ١٢٨
١٢٩
الخالديين ١٤١ و ١٤٢ و ٣٨٤ و ٣٨٥
٣٨٦
الخصيبي ٢٧٠ و ٢٧٢
الخطيب البغدادي ٢٥٨ و ٢٥٩
الخليل بن أحمد ٨٧
الخيام (عمر الخيام) ١٩٦

حرف الدال

داود (النبي داود) ١٩٦ و ٢٣٧
دعبل الخزاعي ١١٨ و ١١٩

حرف الذال

ذو الرمة ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ و ٨١ و ٨٢
٣١٩

حرف الراء

الرازي ٣٩٨
الراضي ١٣٦ و ١٧٩ و ٢٥٤ و ٢٥٨
اردشير ٢٥٥
ردينة ٥٩
رشد (غلام ابي اسحق الصابي) ٤٢١
٤٢٢
الرشيد ١٠٦ و ١٩٣ و ١٩٧ و ٢٣٨
٣٥١
رؤبة بن العجاج ١١٩

حرف الزاء

زكي حسن (الدكتور) ٢١٩
زهير بن ابي سلمى ٣٨ و ٤٧ و ٤٩
٥١ و ٥٢ و ١١٩
٢٢٨
زياد الأعجم ١٧٦
زيد الخيل ٢٦٢

— حرف السين —

سابور بن اردشير ١١٤

ساطع الحصري (ه)

ستانهوب سمث Stanhope Smith ٩٢

السري الرفاء ١٦ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٥٩ و ١٨٥ و ١٨٦ و ٢٠١ و ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٧ و ٢١٨ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٣٧٧ و ٣٨٤ و ٣٨٥ و ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٤٠٠ و ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٣٣ و ٤٣٤ و ٤٣٧ و ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٤٤١ و ٤٤٣ و ٤٤٦ و ٤٥٢ و ٤٥٧ و ٤٥٨

سعيد الديوه جي ١٩٩

السفاح ١٩٧

اسكوت Scott ٤٦٥

السلامي ٣١ و ١٢١ و ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٥٣ و ١٨٧ و ٢٨١ و ٢٨٥ و ٢٩٢ و ٤٢٩ و ٤٤٢ و ٤٤٤ و ٤٤٦ و ٤٤٩ و ٤٥٠

سلامة (المغنية) ٢٣ و ٨١ و ٤٢٩

سلامة بن جندل ٤٣ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٣ و ٣١٢

سليمان (النبي سليمان) ٢٦٤ و ٣٥٣ ٣٦٧

سليمان بن وهب ٢٣٤

سمبل Semple ١١٦ و ١١٧

السموأل ٣٢٦

سيد نوفل ٢١٥

سيف الدولة ٩٠ و ١١٤ و ١٣٧ و ١٣٩ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٨ و ١٤٩ و ٢٨٢ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٣١٧

حرف الشين

الشابشتي ١٤٢ و ١٤٧ و ١٩٧ و ٢٠٣ و ٢٣٣ و ٢٩٤ و ٢٩٨

الشافعي : ٢٩٦

الشريف الرضي ٢١ و ٢٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٨ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٥ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٣٥ و ٢٥٧ و ٢٧١ و ٢٩٢ و ٢٩٥ و ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٣٨ و ٣٣٩

٣٤١ و ٣٤٣ و ٣٤٦
٣٦٤ و ٤١٥ و ٤٣٦
٤٣٨ و ٤٥١ و ٤٦٥

شقران : ٤٢٠
الشماخ بن ضرار ٣٦ و ٥٨ و ٦٦
الشنفرى ٣٨٩
شوقي ٨٩
شيللي P. B. Shelley ٤٦٥

حرف الصاد

الصابي ٢٤ و ١٢١ و ١٢٩ و ١٤٢
١٤٣ و ١٦٩ و ١٧٨ و ١٨٠
٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٩١ و ٢٩٦
٣٦٥ و ٣٧١ و ٣٧٤ و ٣٧٩
٣٩٢ و ٣٩٥ و ٤٠٠ و ٤٠٥
٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٤٢ و ٤٦٨
الصاحب (انظر ابن عباد) ١٢٦
الصاوي ١٥٢
الصنوبري ١٣٩ و ١٤١ و ١٨٥ و ٢٨٢
الصولى ١٣٩ و ٢٥٨ و ٣٧٩ و ٣٩٦
٣٩٨

حرف الطاء

الطائع ٢٥٧
طه الراوي ـ أ ـ
الطبري ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٢٦٧
طرفة ٣٧ و ٤٠ و ٢٤٧
الطرماح ١٢٠ و ١٢١
طفيل الغنوي ٣٤ و ٣٩ و ٤١

حرف العين

عاتكة بنت زيد ١٣٠
عادل زعيتر ١٠١
العباس بن المأمون ٢٥١
العباس بن مرداس ٦١
عبدالحميد الكاتب ٣٧١ و ٣٧٢
عبدالعزيز الدوري (الدكتور) ٣٢٨
عبدالعزيز بن يوسف ١٢١ و ٣٩٢
عبدالاله (سمو الوصي المعظم وولي
العهد على عرش العراق) ـ هـ ـ
عبدالله بن الزبير ١٠٠
عبدالله بن قيس ٣٣٠
عبدالملك بن مروان ٤١ و ٧٦
عبدة (عشيقة بشار) ١٢٧
عبيد بن الابرص ٦٤ و ٤١٧
عبيدالله بن عبدالله ١٧٩ و ٢٥٥
٢٨٠ و ٤٢٥
عثمان بن عفان ٧٥ و ٣٢٩
عدي بن زيد ٤١٣
العرجى ٨
عريب ٣٣١

عز الدولة ١٨٧ و١٩٩ و ٢٠٠ و٢٨٣
عزام (الدكتور عبدالوهاب بك) ٣١٧
عزة ١٧٥ (وانظر كثير)
عضد الدولة ٩٠ و ١١٤ و ١٢١
١٣٦ و ١٣٨ و ١٦٩
١٨٥ و ٢٠٠ و ٢٣٣
٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٦
٢٨١ و ٢٨٣ و ٢٨٤
٢٨٥ و ٢٩٦ و ٣١٤
٣٩٢ و ٣٩٧
عقبة بن جعفر ١١٨

حرف الغين

غالب (أبو الفرزدق) ١٢٠
غوستاف لوبون ١٠١

حرف الفاء

الفتح بن خاقان ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٤
٢٥٧ و ٢٧٦ و ٢٧٧
الفخري ٢٥٦
الفردوسي ٣١٧ و ٣٨٠ و ٣٨٣
الفرزدق ٧٥ و ٨٩ و ١١٩ و ١٢٠
١٢١ و ١٣١ و ٣١٩
فرعون ١٩٨
الفضل بن يحيى ١٩٣ و ١٩٧ و ٢٠٢
فليكر Flecker ٤٦٥
فند ٢٨٨ و ٣٨٠
فون ترايتشكا Heinrich Von
Treitischke ١١٦
فيروز بن قباذ ١٩٦

حرف القاف

القاسم بن عبيدالله ٣٧٧
قدامة بن جعفر ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١
١٧ و ٢٣ و ٢٥
القدسي ٢٣ و ٢٥ و ١٤٤ و ١٥٦
٢٠٩ و ٢١٦ و ٢٢٤ و ٣٧٧
القس (عبدالرحمن بن عمار) ٢٣ و ٨١
٤٢٩
قسطنطين ٤٠٢
قسطا بن لوقا ٣٩٨
قطري بن الفجاءة ٧٩
قفيرة ١٢٠
قيس بن الخطيم ٢٣ و ٧١ و ٧٤ و ١١٩

حرف الكاف

كارل رتر Carl Ritter ٩٢
كافور ٩٠
كامل كيلاني ١٦ و ٣٨١
كثير عزة ٨١ و ١٧٥ و ٣٢٦
كسرى ١٦٥ و ٢٥٥ و ٤١٥ و ٤١٧
٤١٨ و ٤١٩

كشاجم ١٤١ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٨
٢٠٤ و ٢٠٨
كعب بن الأشرف ٢٣ و ٧٣
كليب وائل ٥٥ و ٢٠٩ و ٢٤٢
الكميت ١٢٠
كوبر Cowper ٤٦٥

حرف اللام

لبيد ٣٨ و ٢٠٥ و ٢٤٤
لويس شيخو ٤٣
لن هوجنك Lin Hoching ١٤٨
لينوتنك Lin Yutang ١٤٦ و ١٤٨
١٥٩ و ١٩٠

حرف الميم

المأمون ٢٥١ و ٢٥٢ و ٣٢٣
مايكل Mickle ٤٦٥
متز Adam Mez ٣١ و ١٣٦ و ١٣٩
١٥٠ و ١٨٧ و ٢٣٣
٢٦٨ و ٢٧٣ و ٢٨١
٢٨٢ و ٢٩٢ و ٤٢٩
المتقي ١٩٧ و ٢١٩ و ٢٧٣ و ٢٨٢
المتنبي ٩٠ و ١١٤ و ١١٩ و ١٢٦
١٣٨ و ١٤٨ و ٢٢١ و ٢٧٧ و ٢٨٥
٢٨٦ و ٢٨٧ و ٣١٦، ٣١٧ و ٣٤٥
٣٨٥ و ٣٩٤ و ٣٩٩
المتوكل ٢١ و ١٩٨ و ٢١٩ و ٢٢٠
٢٣٨ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٧
٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٧٦ و ٣٣١
٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٥٧ و ٣٦٩
٣٧٠ و ٤١٤ و ٤٦٨
المثنى بن زهير ١٧١
مجاهد ١٠٢
المجنون ٨١
محمد امين الخانجي ٨٦
محمد بن الحسن الهمانى ٢٤٠
محمد بن مكرم ٢٤٢
محمد بن هشام ٨
محمد بن يوسف ١١٢
مخارق ١٩٠
المدائني ٨٦
المرتدي ٤٠٨
مروان بن محمد ٣٧١
المستعين ٢٥٣ و ٢٥٤
المستكفي ٢٥٦
المسعودي ٢٥٧
مسكويه ١٣٦ و ٢٧٠ و ٢٧٢ و ٢٨٣
٣٦٤
مسلم بن الوليد ١١٩ و ١٤٢
مصعب بن الزبير ٣٣٩

مضرس الفقعسي ١١٩
المطهر بن عبدالله ١٨٠ و ٢٠٠ و ٢٦٩
٢٧٦ و ٣١٥ و ٣٩٢
المطيع ٢٥٧
مطيع بن اياس ٤٢٦
معاوية ١١١
المعتز ١٩٧ و ٢٠٢ و ٢٣٨ و ٢٥٢
٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٧
المعتصم ١٧٩ و ١٩٧ و ٢٥١ و ٢٥٢
و ٢٥٤ و ٢٥٧ و ٣١٨ و ٣١٩
و ٣٢٣ و ٣٥٤ و ٣٧٢
المعتضد ١٣٨ و ٢٩٧ و ٢١٩ و ٢٥٤
و ٢٦٦
معز الدولة ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٩ و ٢٨٣
و ٢٩١
المعلى الطائي ٢٩٤
المقتدر ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٩ و ٣٥٢
المقدسي ٨٨ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨
و ١١٠ و ١١١ و ١٢٥ و ١٢٧
المكتفى ٢٠٩ و ٣٦٣ و ٣٩٦ و ٣٩٧
ملحم ابراهيم الأسود (الدكتور) ٣٢١
المنتصر ٢٥٢
المهتدي ٢٥٣
المهدي ١٥٧
المهلبي ١١٤ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٣٦
و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٠
و ١٤١ و ١٥٥ و ١٨٥ و ٢٠٠
و ٢٠١ و ٢٦٩ و ٢٧٥ و ٢٧٦
و ٢٧٧ و ٢٧٩ و ٢٨١ و ٢٨٢
و ٢٩١ و ٣١٤ و ٣٧٤ و ٣٧٨
و ٣٧٩ و ٣٨٥ و ٣٨٧ و ٣٩٢
و ٤١٤ و ٤٢١ و ٤٢٤
المهلهل ٢٤٢
مهيار الديلمي ١٦ و ١٧٥ و ١٧٦
و ١٧٧ و ١٧٨ و ٢١٩
و ٢٢٣ و ٢٤٠ و ٢٤١
و ٢٤٢ و ٢٤٨ و ٢٩٥
و ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢
و ٣١٠ و ٤٠٠ و ٤١٠
و ٤١٨ و ٤٤٠ و ٤٥١
و ٤٥٧
الموفق (ابو طلحة) ٣٣٢ و ٣٣٣
مؤنس المظفر ٢٣٥ و ٢٧٣
الميداني ٢٦٢
مية ٣١٩

صرف النون

النابغة ١٠٠ و ٣٦٦
ناصر الدولة الحمداني ٢٨٢

نافع بن الأزرق ٨٠
نسيم (غلام البحتري) ٢٨٩
نصر بن هرون ٣٩٢
نعم ٣٦٦
نفطوية ٣٩٧
نمرود ١٩٦
نوح (عليه السلام) ٩٣ و ١٠٢
١٩٦
النويري ١٩٧ و ٢٠٩ و ٢١١ و ٣٧٨
٣٧٩

حرف الهاء

الهذلي الشاعر ٦٢
الهذيل المازني ١٧١
همام بن مرة ٢٠٩
هومير (هوميروس) ١٥٩ و ٢٠٤
٣١٧
هيرودت ٤١٣

حرف الواو

الواثق ٢٣٨ و ٢٥١
وحيد (المغنية) ٣٠٨ و ٤٢٧
ورد سورث Wordsworth ٤٦٥
ولفنسن ١٩٨
وندلوايت Wendell White ١٤٤

حرف الياء

ياقوت ٨٦ و ١١٠ و ١٣٨ و ١٧٤
١٦٨ و ٢٧١ و ٢٧٧ و ٢٧٩
٢٩٧
اليعقوبي ١٠٤
يوسف بن وجيه ٢٣٩
يوسف (غلام ابن المعتز) ٤٢١
يونس بن بغا ١٩٧ و ٢٠٢
يونس النحوي ٨٢

فهرست المقطوعات الشعرية

مرتب حسب أواخر الابيات الاولى منها

- حرف الالف -

صفحة

بأعين لم تؤت من إغفاء كثيرة تربى على الاحصاء ٢١٧

كأنما الجسر فويق الماء وسفنه جانحة الأفياء ٤٤٦

وتخال السرابه في مجاريـــــه افتراع الأبكار والاغفاء ٤٠٩

يا أيها الذئب الذي اخترته خليفة ينظر في أمرى ٣٠٣

زعم الغراب منبئ الأنباء إن الأحبة آذنوا بتنائى ٣٢٥

ذا ولا تنس إذ نشر البستا ن أصناف وشيه وتراءى ٢٤٩

أيا لله أي هوى أضاء بريق بالطويلع إذ تراءى ١٨٢

يا عليّ بل يا أبا الحسين الما لك رق الظريفة الحسناء ٤٢٥

يا ويح أهلي يرونى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ماداءى ١٢٥

وشكت الأرض الى السماء ما فوقها من كثرة الدماء ٣٣٢

كم حصان الذيل يروي دمعها خدها عند قتيل بالظما ٣٣٩

من رأى منتحباً غيـــــرى على سوء الغناء ٤٢٨

والصبح حمل بين أحشاء الدجى والريح كالراح نأى عنها القذى ٢١٦

صفحة

يا قتيلاً للحية السوداء	آفة المرد في خروج اللحاء		٤٢٠
لولا فواكه ايلول اذا اجتمعت	من كل نوع ورق الجو والماء		٤٠٩
كربلا لا زلت كرباً وبلا	ما لقي عندك آل المصطفى		٣٠١
تعجبت إذ رأتني فوق مكسور	من الحمير عقير الظهر مضرور		٣٠٦
يمشون في زرد كأن متونها	في كل معركة متون نهاء		٣٢٧

ـ حرف الباء ـ

نظرا الى شعر يروق فتربا	منه خدود كواعب أتراب		٣٨٥
قد كنت أعجب من مالي وكثرته	وكيف تغفل عنه حرفة الأدب		٣٩٥
وأصرع أي الوحش قفيته به	وأنزل عنه مثله حين أركب		٣٤٤
له طرب في إثرهن وريه	الى مايرى من غارة الخيل أطرب		٤١
انعت طارونية الثياب	لابسة خزاً على الاهاب		١٧٨
قد اغتدى والليل كالغراب	راخي القناع حالك الاهاب		٢٠٦
إياك يا ابن بويب أن يستشار	بويب		١١٨
يومان يوم مقامات وأندية	ويوم سير الى الأعداء تأويب		٤٣
وقربة الأصوات حمر ثيابها	تهبن ثياب الوشي جراً وتسحابا		١٣٠
قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها	من شعره الغث بعد الجد والتعب		٣٨٠
ومستقر على كرسيه تعب	نفسي الفداء له من منصب تعب		٤٠٨
وسابح مسامح ذو ميعة	كأنه حريق نار تلتهب		٣٤٢
يا راقداً ونسيم الفجر منتبه	في ربقة القفص والأطيار تنتحب	١٦٨	٤٤٤
اذا هبطت سهلاً كأن غباره	بجانبه الأقصى دواخن تنضب		٤١

صفحة

له مقلة ترمي القلوب ووجنة تفتح فيها الورد من كل جانب ٢٧٦ ٣٧٤

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى ليوث الوغى يقدمن من كل جانب ٣٧١

بعثت إليك إبني وبالله إنه لأحلى من النفس المقيمة في جنبي ٣٧٥

هوى صاحبي ريح الشمال وإنه لأشفي لقلبي أن تهب جنوب ١٢٧

الشمس في مشرقها قد بدت منيرة ليس لها حاجب ١٤٠

وسابغة كأن السرد فيها زلال الماء لمعه الحباب ٣٤٦

لله درك من ميت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب ٣٩٥

وموقدات بتن يضرم من اللهب يشبعنه من فحم ومن حطب ١٤٠

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب ٣١٩

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب ٢٦١

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً يتجنى على الرياح الذنوبا ٤١١

فأصبحت في بغداد لا الظل واسع والعيش ظل في غضارته رطب ٩٠

لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب ١٢٤

وتطرق أقفال الغيوب بصارم من الرأي يخشى الغيب فيه ويرهب ٢٧٦

رأينا بوجهك نور اليقين حتى خلعنا ظلام الريب ٢٣٥

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن هجوت فقل قيء الزنابير ١٥٧

رأيتكم تستعدون السلاح ولا تحمون في الروع من اعدائكم سلبا ١٣٢

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب ٣١٩

هل للوزير أدام الله دولته في صاحب يتحرى صدق من صحبا ٢٨١

وهم أحلى اذا ما لم تثرهم على الأحناك من عذق ابن طاب ١٧٥

صفحة

ياحبذا	ليمونة	تحدث للنفس الطرب ١٥١
أهاج البرق	ليلة اذرعات	هوى ما تستطيع له طلابا ٧٦
وزائرة لنا	في كل حول	لها حظان من حسن وطيب ١٦٩
أيسير مدحى	في الأمير وكله	يا للرجال مؤرج بعتاب ٤٠١
والتهبت	نارنا	فمنظرها يغنيك عن كل منظر عجب ٤٤١
لايخطئني	منك	لوزينج اذا بدا أعجب أو عجبا ٣٩٦
حزيران	وتموز وآب	ثلاثة اشهر فيها العذاب ١٢٦
يذكرني الشباب	جنان عدن	على جنبات أنهار عذاب ١٦٠
ولا صيد	إلا بوثابة	تطير على أربع كالعذب ٢٠٩
مازلت اشتاق	ناراً أوقدت لها	حتى ظننت عذاب النار قد عذبا ٤٤٢
وانا الأخضر	من	يعرفني اخضر الجلدة في بيت العرب ٩٧
وركب كأن الريح	تطلب عندهم	لهاترة من جذبهم بالعصائب ١٢٠
كأن ابريقهم	ظبي على شرف	مفدم بسبا الكتان معصوب ٦٤
ودعتنا	الى العراق	هنات لامور تنقض مثل العقاب ٢٤٤
وقور على ظهر	الفلاة كأنه	طوال الليالي ناظر في العواقب ٢٧
ان	الملوك اذا هم	اقتتلوا أصبحت فيهم كلب من غلبا ٣١٨، ٣٩٣
ومعصرة	انحت	بها وقرن الشمس لم يغب ٤٥٥
وأجدل	لم يخل من	تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب ٢١١
أنشأته	منزلاً	في قلب دجلة لا تمتاح جنته الغدران والقلبا ٤٤٦
يكاد من	موقعه	المحبوب يدفعه البلع الى القلوب ٤٠٩

صفحة

لعمرك ما السيف سيف الكمـــى بأخوف من قلم الكاتب ٣٧٤

دونك ياذا المفخر اللبـاب ارجوزة من صنعة الكتاب ١٤٣

وقد يباكرني الساقي فأشربها راحاً تريح من الأحزان والكرب ٤١٦

السيف أصدق انباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب ٣٧٢

جيادك في الرياض معطلات جفاها السير بعدك واللغوب ٢٠١

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب ٨٩

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب ٢٣٧

كأن يبيس الماء فوق متونها اشاريز ملح في مباءة مجرب ٣٩

وقد جرّبوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجرّبا ٢٢٠

فدع عنك الكثير فكم كثير يعاف ولم قليل مستطاب ١٢٥

والمرء يعشق لذة الـــدنيا فيغتفر المصائب ٢٦٠

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب ١٨١

من مخبري بابن المدبر في الوغى يزجى أواخر قسطل منجاب ٣٣٢

كأنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل غدوٍ أو رواح مؤوب ٣٥

ابا حسن وانت فتى ادبب له في كل مكرمة نصيب ٤٠١

لي طيلسان ليس يترك لي رفوى له مالاً ولا نشبا ٤١٢

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب واين ينجو مني الهارب ٤٥٣

قد اغتدي بقارح مسوم يعبوب ٢٢٥

— حرف الباء —

يا كف ما حييت اذ غدوت بباشق يعطيك ما ابتغيت ٢١٢

صفحة

اترجة قد انتك براً لا تقبلنها اذا بررتا ١٦٠
الاهل اخيض الطرف يوماً بغارة اذا الخيل بالغر الوجوه تمطت ٣٣٩
وهبنا لا نخاف الروم فيها فكيف بسدها كل الجهات ٣١٦
خليليّ هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت ٣٢٦
اغاروا على سمسمى غارة تعدت فأفضت الى حنطتي ٣٠٥
كم توبة قد فضضت خاتمها عنى وللتائبين رجعات ٢٩٤
سقوني وقالوا لاتغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنت ٤٢١
علو في الحياة وفي الممات لحق تلك احدى المعجزات ٢٨٥
وامكم قفيرة ربيتكم بدار اللؤم في دمن النبات ١٢٠
يا سائلي عن مجمع اللذات سألت عنه أنعمت النعات ٤٠٣

ـ صرف الجيم ـ

إن الغراب بما كرهت لمولع بنوى الأحبة دائم التشحاج ١٠٠
قد قلت لما مر بي معرضاً كالبدر تحت الغسق الداجي ١٢٤
يا شادناً جدد حبي له من بعد حب سالف ساجي ٤٢١
وهو المسير الى ابن يوسف إنه لولا ابن يوسف لم نشط فنخلج ٤٤٥
الورد بين مضمخ ومضرج والزهر بين مكلل ومتوج ١٤٠
لا أحسب الشر جاراً لا يفارقني ولا أحز على ما فاتني الودجا ١٠٠
وداوية قفر تمشي نعاجها كمشي النصارى في خفاف اليرندج ٣٧

ـ صرف الحاء ـ

يا نسيم الصبح من كاظمة شد ما هاجت الجوى والبرحا ٢٣٧

صفحة

ومحرورة الأحشاء تحسب أنها متيمة تشكو من الحب تبريحا ٤٤٢
سما لكم الجحاف بالخيل عنوة وأنت بشط الزابيين تنوح ٧٦
ولما التقت أقلامكم وسيوفهم ابذت بغاث الطير زرق الجوارح ٣٧٢
الروض ما بين مغبوق ومصطبح من ريق مكتفلات بالثرى دلح ١٦٧
من الغادي تحط به وتعلو نجائب من أزمتها الرياح ٤٥١
فسمونا والفجر يضحك في الشر ق إلينا مبشراً بالصباح ١٥٣
أطاع عاذله في الحب إذ نصحا وكان نشوان من سكر الهوى فصحا ١٧٢
وما إن فضلة من أذرعات كعين الديك أحصنها الصروح ٦٣
يا حبذا النرجس ريحانة لأنف مغبوق ومصبوح ٤٣٥
معقلي دير معقل فان ارتحـــت الى منزل فدير نجاح ١٨٧
اعاد الحيا سكر الشباب وقد صحا وجدد من عهد الربيع الذي انمحى ٤٣٣

ـ حرف الحاء ـ

ما تجزع الشاة اذا شطحت من الم الذبح ولا السلخ ٣٨١

ـ حرف الراء ـ

زعم البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك تنعاب الغراب الأسود ١٠٠
اترجو حياة يا ابن بشر بن مسهر وقد علقت رجلاك في ناب اسود ٣١٠
على مثلها امضي اذا قال صاحبي الا ليتني افديك منها وافتدي ٣٧
ومشمولة بالقفص قد طال حبسها حكت نار ابراهيم في اللون والبرد ٢٩٧
كم تائه بولاية وبعزله يعدو البريد ٢٧٠
وتبدهني اذا ما الكاس دارت بنزقات تجيء على البريد ٤١٤

صفحة

نبتت لحية شقران شقيق النفس بعدي ٤٢٠

تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تجيد ٤٢٨

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي ٣٩٤

فلا يبعد الشبوط من متلبس ظهارته الحسنى ومن متجرد ٤٥٣

وقوراء ماء الكرم أحمر ذائب عليها وماء التبر أصفر جامد ٤١٨

أرى بغداد قد أخنى عليها وصبحها بغارته الجليد ١٥٢

وبرك هجود قد أثارت مخافتي نوادبها امشي بعضب مجرد ٢٤٧

واسأل قفيرة بالمروت هل شهدت شوط الحطيئة بين الكسر والخضد ١٢٠

واخرس مما سنت الفرس ناطق يهب رياحا روحه وهو راكد ٤٥٧

نبهته فقام مشبوح العضد أغلب لوسيم هواناً ما رقد ٢٢٣

نل المنى في يومك الأجود مستنجحاً بالطالع الاسعد ١٨٠

يا من اذا نظر الهلا ل الى محاسنه سجد ٢٧٠

اكرمت عرضي ان ينال بنجوة إن البريء من الهنات سعيد ٢٤٤

اتاك الورد محبوباً مصوناً كمعشوقٍ تكنفه الصدود ٤٣٤

اعددت للحدثان سابغة وعداءً علندى ٢٨٧

وعاذلة هبت بليل تلومني وماعندها من لذة القصف ماعندي ١٢٩ ١٧٠

ولها عينان في طرفيهما حور منها وفي الجيد غيد ١٠٠

يمج سلاف الخمر في عسجدية توهج في يمناه كالكوكب الفرد ٢٥٥

ولله يوم يملأ القلب هوله وقد قنقت بالناعمين المراقد ٣٤١

أسالك دجلة تجري به محايدة موجها مزبدا ٢٤٨

صفحة

بالمكتفى كفى الأنام همومهم وغدا عليهم طالع مسعود ٢٦٣
جاء مفاجاة وليس عندي إلا طعام غير مستعد ٤٥٤
خبر مبهج وبنيان يمن في منيف عند السماك مشيد ٣٦١
يا طائر البان ما غربت عن سكن يوماً ولا كنت عن مأوى بمطرود ١٧٤
واذا استنطق الأنامل جادت ببنان كالجوهر المنضود ٣٧٨
للنرجس الفضل المبين لأنه زهر ونور وهو نبت واحد ٤٣٥
ايا من كنت بالبصرة اصفي لهم الودا ١٢٥
ومن عجب الأيام أن صروفها تسوء امرءاً مثلي بمثل ابي الورد ١٢٩
أتاني شتاء ليس عندي دثاره سوى لوعة في الصدر مشبوبة الوقد ٣٩٢
لعمري لقد اجدى علي ابن برمك وما كل من كان الغنى عنده يجدى ١٢٥
أما ترى الروض قد وافاك مبتسما ومد نحو الندامى للسلام يدا ١٧٠

ـ حرف الراء ـ

جان عليها حمرة في بياضها تروق بها العينين والحسن أحمر ١٣٠
سمت لي نظرة فرأيت برقاً يمانياً فراجعني ادكاري ٧٦
وبديعة اضحى الجمال شعارها صبغ الحياء رداءها وإزارها ٤٤١
وقام فوق الجدار مشترف كمثل طرف علاه أسوار ١٥٤
اما ترى البستان كيف نورا ونشر المنثور برداً اصفرا ١٢١
فلله عيناً من رأى مثله فتى اكر واحمى في الهياج وأصبرا ١٣١
اشكو اليك حليفي غارة شهراً سيف الشقاق على ديباج أفكاري ٤٥٨
تالله لولا فتية صغار كأنما وجوههم أقمار ١٧٤

		صفحة
الم خيال ليلى ام عمرو	ولم يلمم بنا الا لأمر	٧١
بحق رأس الأمير مثلى	يظلماً في دولة الأمير	٤١٥
شهدت مواطن اللذات طرا	وجبت بقاعها براً وبحرا	٢٩٩
وافى كتابك مثلما	وافى لمفقود بشير	٣٨٧
أهلاً بفطر قد أنار هلاله	فالآن فاغد الى المدام وبكر	١٥٣
فقلت لصحبتي هل يبلغني	الى ليلى التهجر والبكور	٣٦
تغني أنت في ذمي وعهدى	وذمة والدي ان لم تطارى	١٧٦
وذى نضد لا يقطع الطرف عرضه	اذا قيل نجدى المباح تغورا	٢٦
إحن الى لقاء أبى على	ويأبى ان يحن الى جوارى	٤٤٩
تخاله ابداً من قبح منظره	مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا	١٤٧
يا نومة في شمس آ	ب على التراب بلا حصير	١٢٦
قوم اذا اخضرت نعالهم	يتناهقون تناهق الحمر	٩٧
اذا ضم قرناً بين كفيه خلته	يعانى عروساً في غلائلها الحمر	١٣٠
قل للوزير ادام الله دولته	اذكر منادمتي والخبز خشكار	٢٣٤
لله در الخالدي الأو	حد الندب الخطير	١٤٣
سقى الله اياماً ولا هجر بيننا	وعود الصبا يهتز في ورق خضر	١٦٥
كأنما الليمون لما بدا	للعين في اوراقة الخضر	٤٤٠
انسى زمناً كنا	به كالماء والخمر	١٤١
ولما نزلنا عكبراء ولم يكن	نبيذ، ولا كانت حلالاً لنا الخمر	٢٨٠
يا طيب رائحة من نفحة الخيري	اذا تمرق جلباب الدياجير	١٣٩

صفحة

والماء ما بين الغصون مصفق	مثل القيان رقصن حول الزامر	١٨٧
بهطة تعجز عن وصفها	يا مدعي الأوصاف بالزور	٣٩٨
قالوا التحى وستسلو عنه قلت لهم	هل يحسن الروض مالم يطلع الزهر	٤٢١
فالأرض في روض كأفواف الحبر	نيرة النوار زهراء الزهر	١٦٧
فمن رأى مثل الرباب قصراً	كم حكمة فيه تخال سحرا	٣٥٣
اراني الله وجهك كل يوم	صباحاً للتيمن والسرور	٣٧٤
يا دولة الحزن التي	خسفت بأيام السرور	٣٧٥
ورد الكتاب مبشراً	قلبي بأضعاف السرور	٣٧٩
اليك بعثناها شوارد ضمنت	معاني لولاها لما شرف الشعر	٤٤٤
مدحت ابا العباس اطلب رفده	فخيبني معروفه وهجا شعري	٣٨١
لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر	وهذا علي بعده ينظم الشعرا	١٢١
قد بلينا في دهرنا بملوك	ادباء - علمتهم - شعراء	٢٨٠
عطايا إله منعم كان عالماً	بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر	٣٦٠
ولتبلغني المجد سابحة	في الظهر ليست من بني الظهر	٢٤٢
تبارك الله وسبحانه	من بيديه النفع والضر	١٩٣
سحالك شوق بعد ما كان أقصرا	وحلت سليمى بطن قوٍ فعرعرا	٣٧
ويوم بالمطيرة امطرتنا	سحاء صوب وابلها عقار	١٩٠
تركت لسافي الريح بانة عرعرا	وزرت لصافي الراح حانة عكبرا	٢٧٩
سلمت امير المؤمنين على الدهر	ولازلت فينا باقياً واسع العمر	٢٦٦
يقول قوم فر الخسيس ولو	كان فتى كان غير فرار	٣٩٣

		صفحة
وتم فما في الحسن شيء يريده	لسان ولا قلب بقول ولا فكر	٣٦١
هام وارغفة وضاء فخمة	قد أخرجت من جاحم فوار	٤٠٥
سليني اذ ما الحرب ثارت بأهلها	ولم يك فيها للجبال قرار	٣٣٧
وليلة من محاق الشهر مدجنة	لا النجم يهدى السري فيها ولا القمر	٤٤٣
صبوت الى الندامى والعقار	وشرب بالصغار وبالكبار	٤٥٥
رب ليل قطعت فيه خماري	بغزال كأنه مخمور	٢٠١
اما ترى النرجس المياس يلحظنا	الحاظ ذي فرح بالعتب مسرور	٤٣٥
ياسائلي عن بكاي حين رأى	دموع عيني تسابق المطرا	٣١٦
سقى المطيرة ذات الظل والشجر	ودير عبدون هطال من المطر	١٩٠
غدوت على المأمون صبحاً وانما	غدا المركب المأمون تحت المظفر	٣٣٥
أما ترى الورد قد حياك زائره	بنفحة فرجت عن كل مصدور	١٦٩
ترنمت ترنم الأسير	ورقاء فوق ورق نضير	١٧٦
طرقنا بزوغا حين أينع زهرها	وفيها لعمر الله للعين منظر	١٤٧
وقصيدة ألفاظها	في النظم كالدر النثير	٣٨٣
ظلم لذا اليوم وصف قبل رؤيته	لا يصدق الوصف حتى يصدق النظر	٢٨٧
وأزهر وضاح يروق عيوننا	اذا ما رميناه بلحظ النواظر	٤٤١
لم يبق منه وهج الحرور	إلا ضياء في ظروف نور	٤٠٩
من ذا رأى مزناً تأزر برقه	في عارض عريان لم يتأزر	٤٣٩
رقت حواشي الدهر فهي تمرمر	وغدا الثرى في حليه يتكسر	٤٣١
واصطبحناها على نهـــر بصفو الماء يجري		٤٤٠

صفحة

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه إله لأن النيل من تحته يجري ١٩٨
وشرابنا وردية لكؤوسها شرر يطير ٤١٦
يصلي بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذل إلا أنه لا يكبر ٢٦
ابصرت في رشد وقد أحببته رشدي ولم أحفل بمن قد ينكر ٤٢٢

— حرف الزاء —

باكر صبوحك صبحة النيروز واشرب بكاس مترع وبكوز ٢٩٤
قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز ١٤٩

— حرف السين —

يا صاحبي استيقظا من رقدة تزرى على عقل اللبيب الأكيس ٤٥٣
اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس ٢٦٢
انظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا ١٥٣
كم أردت التقى فما تركتني خندريس يديرها طاووس ٢٩٨
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس ٢٥٥
فاذا ما رأيت صورة انطاكيـــة ارتعت بين روم وفرس ٣٦٣
ظللت بحزن أن بدا البرق غدوة كما رفع النار البعيدة قابس ٤٣٨
قد اغتدى قبل غدوٍ بغلس وللرياض في دجا الليل نفس ٢٠٩

— حرف الشين —

يوم كأن سماءه شبه الحصان الأبرش ١٤٠
اذا ما تخلل قرطاسه وساوره القلم الأرقش ٣٧٩

صفحة

وأما يد البصري في كل صفحة فأقلع من سيل وأغرف من رفش ٤٠٣

ـ حرف الصاد ـ

أفما ترى بلداً أقمت به أعلى مساكن أهله خصٌ ؟ ٣٠٤

ـ حرف الضاد ـ

عشية حياني بورد كأنه خدود اضيفت بعضهن الى بعض ١٢٨
ذريني قسطنطين آكل شهوتي وتبشمني إني بذلك راضي ٤٠٢
لما رأت كفي بها وصبابتي وتأملت شمطاً يلوح بعارضي ١٣٢
وساقٍ صبيح للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض ٤٣٨
قد اغتدي قبل وجوب الفرض والجفن قد ودع طيب الغمض ٤٥٢

ـ حرف الطاء ـ

بلينا وقد طاب الصبوح واشعلت حمياه في الفتيان نار نشاط ١٢٨
وكأنما النارنج في أغصانه من خالص الذهب الذي لم يخلط ١٥٠

ـ حرف العين ـ

روضة من قرقف أنهارها وغناء الورق فيها في ارتفاع ١٨٨
يقول ابن هاني أفسد الشعر ضلة وشعر ابي تمامكم هو أضيع ١٢٧
ابيت اللعن إن سكاب علق نفيس لاتعار ولا تباع ٣٤٥
الم ترها لا يبعد الله دارها اذا رجعت في صوتها كيف تصنع ٨١
أذلك ام غرس من النخل مزرع بوادي القرى فيه العيون الرواجع ٧٣

صفحة

بكيت فلم تترك لعينيك مدمعا ... زماناً طوى شرخ الشباب فودعا ٢١٣
طوى نفسه طي الجرير كأنه ... حوى حية في ربوة فهو قابع ٣٠٨
ومهتزة العرنين رقراقة السنا ... تناسب مستن البروق اللوامع ٤٥١
اذا رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الافق الغربي ورساً مذعذعا ١٨٢
قد كسانا من كسوة الصيف خرق ... مكتس من مكارم ومساع ٤٥٤
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا ١٨٨
طمعت بليلي ان تريع وإنما ... تقطع أعناق الرجال المطامع ١٧٤
قليل ادخار الزاد الا تعلة ... فقد نشز الشر سوف والتصق المعا ١٨٩
ولابس لون واحد وهو طائر ... ملونة أبراده وهو واقع ٤٥٠
وأدهم يسفر عن ضده ... كما سفر الليل إذ ودعا ٤٥٧
وأطلس ما في سعيه غير أنه ... يضيق عليه الرزق والخرق واسع ٣٠٨
له قلم تجري النجوم بجريه ... يطيع له حتم القضاء ويسمع ٤٥٨

ـ حرف الفاء ـ

ونخيل في تلاع جمة ... تخرج الطلع كأمثال الأكف ٧٣
لعمرك ما ازرت بيوسف لحية ... ولكنه قد زاد حسناً فأضعفا ٤٢١
اذا اغبر آفاق السماء وكشفت ... كسور بيوت الحي حمراء حرجف ١٣١
طباخنا صانع رؤوساً ... يسقط في طيبها الخلاف ٤٠٥
صب بغراة الصبا مكلف ... هاج هواه الدير والمستشرف ٢٠٣
نسقى على ذاك روح دن ... ارق اسمائها السلاف ٤٢٠
اشرب على الشعب واحلل روضه انفاً ... قد زاد في حسنه فازدد به شغفا ١٣٩

صفحة

ان الخليفة والأفشين قد علما من اشتفى لهما من بابك وشفا ٣٢٣
يارب عاف الوزير واصرف بي عنه مكروه كل صرف ٢٧٤
طاف الخيال وعن ذكراك ماطافا فكان أكرم طيف طارق ضافا ١٦٣
وبديع من المحاسن يسبي كل عقل ويطبي كل طرف ٤١٩
ولا بنى بان من الخلائف ولا ملوك الروم والطوائف ٣٥٢
نحن بالبصرة في لو ن من العيش ظريف ١٢٧
صب بغرات الصبا مكلف منسحب مئزره والمطرف ٢١٧
أتعذلني في يوسف وهو من ترى ويوسف أبلاني ويوسف يوسف ٤٢١

ـ حرف القاف ـ

وكنت متى ابعد عن الخل اكتئب له ومتى اظعن عن الدار اشتق ٣٥٥
فلم ار مثل الخيل ابقى على السرى ولا مثلنا احنى عليها واشفقا ٣٤٢
ضممنا عليهم حافتيهم بصادق من الطعن حتى ازمعوا بتفرق ٥٧
كأنني ساورتني يوم بينهم رقشاء مجدولة في لونها بلق ١٥٦
ألست ترى ركب الغمام يساق وأدمعه بين الرياض تراق ٤٣٧
فهل أنت يابن الراشدين مختمي بياقوته تبهى عليّ وتشرق ٤٥٠
قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكاد يدرك الا بالتفاريق ٣٩٤
انظر الى الجمر الذي يحكي لنا لهب الحريق ٤٤٠
يا راكباً تنقله سابحة ورهاء لامن جنة ولا خرق ٢٤٨
كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق ١٣٣
وقائل إن شدوت احسنت زدني وبأحسنت لايباع دقيق ٣٠٦

صفحة

تذكرت ما بين العذيب فبارق ... مجرّ عوالينا ومجرى السوابق ١٤٩

أتنشط للصبوح أبا علي ... على حكم المنى ورضى الصديق ٤٤٦

رأيت كلاب مولانا وقوفاً ... ورابضة على ظهر الطريق ٢٠٠

اذا عرس السارون في بطن زائر ... فسر وتعوذ من سرار الطوارق ٣١٠

صرف ترى قعر الاناء وراءها ... تودي بعقل المرء قبل فواق ٦٣

لا عذب الله ميتاً كان ينعشني ... فقد لفيت بضري مثل ما لاقى ٣٩٢

كأنها بعد ضم السير جبلتها ... من وحش غزة موشي الشوى لهق ٧٧

اما ترى البرد قد ولت عساكره ... وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا ١٨٥

وقد علم السلطان انى لسانه ... وكاتبه الكافي السديد الموفق ٣٧٤

حتى اذا كاد ضوء الصبح يفضحه ... وكاد عنه سواد الليل ينطلق ٢٠٨

ـ صرف الطاء ـ

أظل اذا شاهدت يوم نعيمه ... كأني في الفردوس فوق الأرائك ٤٥٦

يا لك من ذي اربع ما اكبرك ... يا لك في يوم الوغى ما انفرك ! ٢٣٠

فدونكه موشي نمنمته ... وحاكته الأناملاي حوك ٣٧٨

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا ... وزودوك اشتياقاً اية سلكوا ٤٧

اعلم ـ وقيت الجهل ـ انك في ... قصر تليه مطارح الشبك ٤٠٧

سقى الله بالغاطول مسرح طرفكا ... وخص بسقياه مناكب قصركا ٢٣٨

شعر الظريف ابن لنكك ... مهذب و محكك ١٢٦

يا ايها المائح دلوي دونك ... إني رأيت الناس يحمدونك ٢٣٠

صفحة

- حرف اللام -

سلس القياد الى القتال فعينه قبلاء شاخصة كعين الأحول ٢١١

وأملس حولياً كنهي قراره أحس بقاع نفح ريح فأجفلا ٥٩

اديم مطال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل ٣٨٩

افكر في مقامي وهو صعب واصعب منه عن وطني ارتحالي ٣٩٣

نحن - بني ضبة - اصحاب الجمل ننعى ابن عفان بأطراف الأسل ٢٣١

ايها السيد الذي طاب في المجـــد فروعاً كريمة واصولا ٣٤٤

وانى امرؤ اعددت للحرب بعدما رأيت لها نابا من الشر اعصلا ٥٨

لك وجه كأن يمناك خطتـــه بلفظ تمله آمالي ٣٧٥

وارقني دعاء الورق فيها على جرح قريب الاندمال ١٧٣

اشتر العز بما بيـ ـع فما العز بغالي ٢٧١

فقلنا لها لما رأينا الذي بها من الشر : لا تستوهلي وتأملي ٢١٢

وليلة لم اذق من حرها وسناً كأن في جوها النيران تشتعل ١٨٤

عاتبت نفسي في هوا ك فلم أجدها تقبل ١٢٨

وابيض هندياً كأن غراره تلألؤ برق في حبي تهللا ٦٠

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال ٢٤٢

كأني لم اركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال ٢٠٤

وكل يوم ملك مقتول او خائف مروع ذليل ٢٥٦

بكأس من زجاج فيه اسد فرائسهن ألباب الرجال ٤١٨

بل هل ترى عارضاً قد بت ارمقه كأنما البرق في حافاته شعل ٤٨

صفحة

نضا الدهر عن اسآرها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل ٤١٧

لو لا طراد الصيد لم تك لذة فيه فطارد بالوصال قليلا ٢٠٨

لما كملت روية وعزيمة اعملت رأيك في ابتناء الكامل ٤٤٨

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل ٣٩

أيها المحتج للور د بزور و محال ١٥٨

واغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل ٤٤٣

امعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا ٢٧٧

احبب إلي بنهر معقل الذي فيه لقلبي من همومي معقل ١٨٦

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل ٣٧٦

رأيتكم تبدون للحرب عدة ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل ١٣٢

يستشعر الطرف زهواً حين أركبه كأنه بنجوم الليل منتعل ٢٢٤

ووالله ما انفك اهدي شوارداً اليك يحملن الثناء المنخلا ٣٨٢

ايها التركي ما عنـــدك للصب النحيل ٢٨٩

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل ٢٢٦

عش فخبيك سريعاً قاتلي والضنى إن لم تصلني واصلي ١٢٩

وقد اشهد الغارات والموت شاهد يجول بأطراف الرماح ويعدل ٣٣٦

للورد عندي محل لأنه لا يمل ٤٣٤

ـ حرف الميم ـ

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام ٤٠٣

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم ٤٤

صفحة

سارية في غسق الظلام	دانية من قلل	الآكام	٤٣٩
يا شقيق النفس من حكم	نمت عن ليلي ولم	أنم	٤٢٤
او روضة أنفاً تضمن نبتها	غيث قليل الدمن ليس	بمعلم	١٨٩
علامة النحس والخذلان والشوم	إعراض وجهك عن صقر الى	يوم	٢٩٢
نشدتك قرب لي معودة الطوى	عليها سوى الماء العايق	حرام	٢٤٠
لعمرك اني في الحياة لزاهد	وفي الأرض مالم القوام	حكيم	٧٩
وورق تداعى بالبكاء بعثن لي	كمين أسى بين الحشا والحيازم		١٧٢
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت	ان السيوف لها مذ أرهفت خدم		٣٧٣
ذاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام		٣٤٨
بجسمي سقام كلما جزت ردني	الى كمد في الصدر غير سقيم		٢٨٩
وما زالت رياح الشعر شتى	فمن ريا النسيم ومن سموم		٣٨٥
أإن اصطبغت ولقمتي معضوضة	أنشأت تهجوني ـ لعمرك ـ ظالما؟		٤٠٢
بيضاء في لجة خضراء سابحة	عدوها النور بل أضدادها الظلم		٤٤٠
حلل من منازل الملك كالأنجـــــم يلمعن في سواد الظلام			٣٥٩
تصف الطلول على السماع بها	أفذو العيان كأنت في العلم		٤٦٢
بين أقداحهم حديث قصير	هو سحر وما سواه كلام		٤٢٣
أمن ام أوفى دمنة لم تكلم	بحومانة الدراج فالمتثلم ؟		٤٩
أبى يومنا بالزو إلا تحسناً	لنا بسماع طيب ومدام		٣٥٤
قد صفا جانب الهواء ولذت	رقة الماء في مزاج المدام		٣٥٧
نحن ميامين على أننا	على أعاديك مشائيم		١٧٩

صفحة

اذا هم لم تقعد به عزماته	وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم	المعلم	٢٢٣
يا من رأى البرق على الأنعم	يطوي رياط الغسق المظلم		٤٣٨
إنما العز فاعلم	للأمير المعظم		٢٥٥
ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم		٦٣
أميلوا الزجاج الصفو عني فانني	أقمت وما شخصي لكم بمقيم		١٣٠
بلاد أنفس الأحرار فيها	كضب القاع تروى بالنسيم		٩٠
أبحّ فيه شذوذ حشرجة	منظومة في مقاطع النغم		٤٢٨
عجبت لتأمير الرجال مقرطقاً	ينوء بخصر في القباء هضيم		٢٩١
وعندي يوم لو يزيد ومسلم	بدا لهما لاستصغرا يوم واقم		٣٣٩
أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً	من الحسن حتى كاد أن يتكلما		١٦٥
ومرهف سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت وموج الموت يلتطم		٣١٦

— حرف النون —

وكنا الأيمنين اذا التقينا	وكان الأيسرين بنو أبينا		٥٥
يا طائر البان غريداً على فنن	ما هاج نوحك لي ياطائر البان ؟		٤٣٦
احبب الي بقصر روح منزلاً	شهدت بنيته بفضل الباني		٣٦٦
صلى الآله على لوط وشيعته	ابا عبيدة قل بالله : آمينا		٢٩٠
أإن تحدث عصفور على فنن	أنكرت يوم اللوى حلمي وأنكرني		١٧٧
ذات صوت تهزه كيف شاءت	مثلما هزت الصبا غصن بان		٣٠٨
يا سيدي يا ابا الحسين	انت رفيع بنقطتين		٣٧٥
إن الثمانين — وبلغتها —	قد أحوجت سمعي الى ترجمان		٣٩٨

صفحة

ان ثقيفاً منهم الكذابان كذابها الماضي وكذاب ثان ٣٣١

ان الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان ١٦٤

انعته معصفر البردين ابيض صافي حمرة الجنبين ٤٠٦

ولقد رأيت بدير هند منزلاً الماً من الضراء والحدثان ٣٦٥

وقيان كأنها امهات عاطفات على بنيها حوان ٤٢٦

صل الندمان يوم المهرجان بصاف من معتقة الدنان ٢٣٧

مرقت منها مروق النجم منكدراً وقد تلاقت مصاريع الردى دوني ٢٥٧

اجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان ١٣٣

حيتك عني شمال طاف طائفها بجنة فجرت روحاً وريحانا ١٦٧

نبئت جحظة يستعير جحوظه من فيل شطرنج ومن سرطان ١٤٧

كأن الشموع وقد أظهرت من النار في كل رأس سنانا ٢٨٦

فجاء بالراح يحكي ورد وجنته مقرطق من بني كسرى وشيرين ٤١٩

رجل يؤدبنا ونحن مشايخ مثل المعلم يضرب الصبيانا ٣٩٢

فهو من الصياد في أمان ما دمت ابغيه وفي ضمان ٤٠٧

فقل في مكرع عذب وقد واقاه عطشان ١٢٤

الا ترى ما اعطي الأمين اعطي ما لم تره العيون ٢٣٧

ولاحٍ في القيان فقلت : مهلاً رميت بنبل اوتار القيان ٤٢٥

كمدية مصقولة الحدين كأنما صيغت من اللجين ٢١٧

يابن حميد عش لنا سالماً ما بقي النوروز والمهرجان ٢٩٥

صفحة

- حرف الهاء -

جاءت طرائق شعر أنت ناتفها ... فكيف تصنع لو قد جاء أجمعه ٤٢١

وقفت على ربع لمية ناقتي ... فما زلت أبكي عنده وأخاطبه ٣١٩

صفراء تنتحل الزجاجة لونها ... فتخال ذوب التبر حشو أديمها ٤١٧

وحياً أرقت لبرقه فكأنه ... قدح الزناد يطير في أرجائه ٤٣٩

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف اساوره ٢٥٧

ألا حبذا ثم يا حبذا ... كتابي المصنف في الأطعمه ٤٠٠

قد رابني من دلوي اضطرابها ... والنأي في بهراء واغترابها ٢٣٠

فهمت كتابك في الأطعمه ... وما كان نولي أن أفهمه ٣٩٩

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ... أجل ونسألها عن بعض أهلها ٣٦٦

كأن متنيه لدن أسرى به ... متنا شجاع لجّ في انسيابه ٢٠٧

في كفه عاري الذباب له ... لمع يدلك كيف ترمقه ٣٤٧

رأيت الهلال وقد أحدقته ... نجوم الثريا لكي تسبقه ١٥٢

تصدع عن همهامه الخيل والقنا ... صياحك في أعقاب طرد تشله ٢٢٣

وحاملة لك محمولة ... على ظهر محتقر ثقلها ٣١٠

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره ٣٥٥

فلما دجا الليل فرجته ... بروح نحيف جثمانها ٤٤٣

فخرب الأهواز والأبله ... وواسطاً قد حل فيها حله ٢٩٣

وهزم العساكر الجليله ... بشدة البأس ولطف الحيله ٣٣٠

يا حسن مبدى الخيل في بكورها ... تلوح كالأنجم في ديجورها ٢٦٥

			صفحة
قينة ملعونة من أجلها	رفض اللهو معاً من	رفضه	٤٢٨
لو رحبت كأس بذي زورة	لرحبت بالورد إذ	زارها	٤٣٤
أنت لا تعرف الصلاة فقل لي	لم تأنقت في شرا	سجاده	١٥١
وقد كتبت ايدي الربيع صحائفاً	كأن سطور البرق حسناً سطورها		٤٣٧
وشربنا بحمده	وانتقلنا	بشكره	٤٢٤
وما كان يدري صاحب الزنج أنه	اذا أبطرته غفلة العيش	صاحبه	٣٣٣
فتنتنا صورة في بيعة	فتن الله الذي	صورها	٣٦٤
قد اغتدى والليل في ادهمامه	لم يحسر الصبح دجا	ظلامه	٢٠٧
ظبي يرف الماء في	وجناته ويروق	عوده	٢٩١
وقد جعل الحرباء يصفر لونه	ويخضر من حر الهجير غباغبه		٢٥
يا هاجي الورد لاحييت من رجل	غلطت والمرء قد يؤتى على غلطه		١٦٨
يا ثالث الوزراء كم من حلقة	للكرب والأحزان قد فرجتها		٢٧٤
متى يأت هذا اليوم لاتلف حاجة	بنفسي الا قد قضيت	قضاءها	٧١
كلفتمونا حدود منطقكم	والشعر يغني عن صدقه كذبه		٢٨٠
احذركم امواج دجلة اذ غدت	مصندلة بالمد أمواج	مائها	١٨٦
رأيت الكبش قد أبدى خشوعاً	وتأبى ذاك فيشته	اللعينه	١٣٣
مغنيك للبغض فيه سمه	تلوح على خلقة	مبهمه	٤٣٠
خليلي قد خف الهوى وتراجعت	الى الحلم نفس لا يعز	مذيلها	٣٤٣
اذا أخذت حبه ودبسه	ثم اجدت ضربه	ومرسه	٣٩٧
أمامها بركة مرخمة	ترضى اذا ما رأيت	مرمرها	٣٦٩

صفحة

اذا امتاحهم أكلة عبدوه تعبيد رب لمربوبه ٤٠٢

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ مقلته ٤٢٢

يا مادح الورد لاينفك عن غلطه ألست تبصره في كف ملتقطه ؟ ١٥٨

يا زماناً البس الأحـــرار ذلاً ومهانه ٣٩٤

اخا الفرس ان الفرس تعلم أنه لاطيب من نيروزها مهرجانها ٢٥٥

احب الخاتم الأحمـــر من حب مواليه ١٣٠

وكأن ابريق المدامة بيننا ظبي على شرف اناف مولها ٤٢١

ولما أعدت خيلنا للطرا د جعلنا الى الدير ميعادها ٢٠٣

يغدو الامام اذا غدا للصيد مأمون النقيبه ١٩٧

قارن الزهرة الهلال وكانا في افتراق ما بين صد وهجره ١٥٣

اهدت على نأي المحل وقد انأى التصبر طول هجرتها ١٥٩

يا بنفسي من اذا جمشته نثر الورد عليه ورقه ٤٢٢

قيل : ان الوزير قد قال شعراً يجمع الجهل شمله ويعمه ٢٧٥

فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله ٢٢٩

— حرف الياء —

اصبحت بهجة النعيم وأمست بين قصر الصبيح والجعفري ٣٦٠

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا ٣٩٩

يا رب جاري نهر فضي مضطرب على حصى نقي ٢١٥

DATE DUE

U. B. LIBRARY

892.7109:S132wA:c.1
سعيد ،جميل
الوصف في شعر العراق في القرنين ال
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01036723

892.7109:S132wA
سعيد .
الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

892.7109
S132wA